ألف ليلة وليلة

(الجزء الخامس)




هنا سور الأزبكية على
mohamed khatab

ألف ليلة وليلة (الجزء الخامس)



ألف ليلة وليلة (الجزء الخامس)

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٥١٢ ٨

صدر هذا الكتاب في تاريخ غير معروف.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

المحتويات

فلما كانت الليلة ٧٢٣

قالت: بلغني إيها الملك السعيد، أن العجوز قد أخذت ما كتبته حياة النفوس وسارت إلى أن أعطت الغلام إياه وهو في دكانه، وقالت له: اقرأ جوابك واعلم أنها لما قرأت الكتاب اغتاظت غيظًا عظيمًا، وما زلت ألاطفها بالحديث حتى ردت لك الجواب. فأخذ الكتاب بفرحة وقرأه وفهم معناه، فلما فرغ من قراءته بكى بكاءً شديدًا، فتألم قلب العجوز وقالت: يا ولدي، لا أبكى الله لك عينا، ولا أحزن لك قلبًا، فأي شيء ألطف من هذا في جواب كتابك حين فعلتَ هذه الفعال؟ فقال: يا أمي، وماذا أفعل من الحيل ألطف من هذا، وهي ترسل تهدِّدني بالقتل وبالصلب، وتنهاني عن مكاتبتها؟ وإني والله أرى موتي خيرًا من حياتي، ولكن أريد من فضلك أن تأخذي هذه الورقة وتوصليها إليها. فقالت له: اكتب وعلي رد الجواب، والله لأخاطرن معك بروحي في حصول مرادك، ولو هلكت في رضاك. فشكرها وقبَّلَ يديها وكتب إليها هذه الأبيات:

تُهَدِّدُونِي بِقَتْلِي فِي مَحَبَّتِكُمْ ... وَالْقَتْلُ لِي رَاحَةٌ وَالْمَوْتُ مَقْدُورُ
وَالْمَوْتُ أَهْنَى لِصَبٍّ أَنْ تَطُولَ بِهِ ... حَيَاتُهُ وَهْوَ مَطْرُودٌ وَمَنْهُورُ
فَإِنْ تَزُورُوا مُحِبًّا قَلَّ نَاصِرُهُ ... فَإِنَّ سَعْيَ الْوَرَى فِي الْخَيْرِ مَشْكُورُ
وَإِنْ عَزَمْتُمْ عَلَى أَمْرٍ فَدُونَكُمُ ... قَدْ صِرْتُ عَبْدًا لَكُمْ وَالْعَبْدُ مَأْسُورُ
كَيْفَ السَّبِيلُ وَلَا لِي عَنْكَ مُصْطَبَرٌ ... فَكَيْفَ هَذَا وَقَلْبُ الصَّبِّ مَجْبُورُ
يَا سَادَتِي فَارْحَمُوا فِي حُبِّكُمْ دَنِفًا ... فَكُلُّ مَنْ يَعْشَقِ الْأَحْرَارَ مَعْذُورُ

ثم طوى الكتاب وأعطى العجوز إياه وأعطاها صرتين فيهما مائتا دينار، فامتنعت من أخذهما، فحلف عليها، فأخذتهما وقالت: لا بد أنني أبلغك مناك على رغم أنف عداك. وسارت حتى دخلت على حياة النفوس وأعطتها الكتاب، فقالت لها: ما هذا يا دايتي؟ قد

صرنا في مراسلة وأنت رائحة جائية، إني أخاف أن ينكشف خبرنا فنُفضَح. قالت العجوز: وكيف ذلك يا سيدتي؟ ومَن يقدر أن يتكلم بهذا الكلام؟ فأخذت الكتاب منها وقرأته وفهمت معناه ودقت يدًا على يدٍ، وقالت: قد بُلِينا بهذا، ما عرفنا من أين جاءنا هذا الغلام! قالت العجوز: يا سيدتي، بالله عليك أن تكتبي له كتابًا، ولكن أغلِظِي عليه القول وقولي له: إنْ أرسلتَ كتابًا بعد ذلك ضربتُ عنقك. فقالت لها: يا دايتي، أنا أعرف أن هذا ما ينتهي على هذه الصورة والأليق عدم المكاتبة، وإن لم يرجع هذا الكلب بالتهديد السابق ضربتُ عنقه. قالت لها العجوز: اكتبي له كتابًا وعرِّفيه بهذا الحال. فدعت بنت الملك بدواة وقرطاس وكتبت له تهدِّده بهذه الأبيات:

أَيَا غَافِلًا عَنْ حَادِثَاتِ الطَّوَارِقِ ... وَيَا مَنْ إِلَى وَصْلٍ لَهُ قَلْبُ عَاشِقِ
تَأَمَّلْ أَيَا مَغْرُورُ هَلْ تُدْرِكُ السَّمَا ... وَهَلْ أَنْتَ لِلْبَدْرِ الْمُنِيرِ بِلَاحِقِ
سَأُصْلِيكَ نَارًا لَيْسَ يَخْبُو لَهِيبُهَا ... وَتُضْحِي قَتِيلًا بِالسُّيُوفِ الْمَوَاحِقِ
فَمَنْ دُونَهُ يَا صَاحِ أَبْعَدَ شِقَّةً ... وَأَمْرٌ خَفِيٌّ فِيهِ شَيْبُ الْمَفَارِقِ
خُذِ النُّصْحَ مِنِّي ثُمَّ كُفَّ عَنِ الْهَوَى ... وَعَنْ أَمْرِكَ ارْجِعْ إِنَّهُ غَيْرُ لَائِقِ

ثم طوت الكتاب وأعطت العجوز إياه وهي في حال عجيب من أجل هذا الكلام، فأخذته العجوز وسارت حتى وصلت به إلى الغلام فناولته إياه، فأخذه منها وقرأه وأطرق برأسه إلى الأرض يخط بإصبعه ولم يتكلم، فقالت له العجوز: يا ولدي، ما لي أراك لا تبدي خطابًا ولا ترد جوابا؟ قال لها: يا أمي، أي شيء أقول وهي تهدِّدني وما تزداد إلا قسوةً ونفورًا؟ قالت: اكتب لها كتابًا بما تريد وأنا أدافع عنك ولا يكون قلبك إلا طيبًا، فلا بد أن أجمع بينكما. فشكر فضلها وقبَّلَ يديها وكتب إليها هذه الأبيات:

فَلِلَّهِ قَلْبٌ لَا يَلِينُ لِعَاشِقٍ ... وَصَبٌّ إِلَى وَصْلِ الْأَحِبَّةِ شَائِقُ
وَأَجْفَانُ عَيْنٍ لَا تَزَالُ قَرِيحَةً ... إِذَا جَنَّهَا مِنْ حَالِكِ اللَّيْلِ غَاسِقُ
فَمِنُّوا وَجِدُّوا وَارْحَمُوا وَتَصَدَّقُوا ... عَلَى مَنْ ضَنَاهُ الْعِشْقُ وَهْوَ مُفَارِقُ
يُقَاسِي طَوَالَ اللَّيْلِ وَهْوَ مُسَهَّدٌ ... حَرِيقًا وَفِي بَحْرِ الْمَدَامِعِ غَارِقُ
فَلَا تَقْطَعِي أَطْمَاعَ قَلْبِي لِأَنَّهُ ... كَئِيبٌ مُعَنًّى وَهْوَ فِي الْحُبِّ خَافِقُ

ثم طوى الكتاب وأعطى العجوز إياه وأعطاها ثلاثمائة وقال لها: هذه غسيل يدك. فشكرته وقبَّلت يديه وسارت حتى دخلت على بنت الملك وأعطتها الكتاب، فأخذته وقرأته إلى آخِره ورمته من يدها ونهضت قائمة على رجليها، وتمشَّتْ على قبقاب من الذهب

مرصَّع بالدر والجوهر حتى وصلت إلى قصر أبيها وعرق الغضب قائم بين عينيها، وما جسر أحد أن يسأل عن حالها، فلما وصلت إلى القصر سألت عن الملك والدها، فقال لها الجواري والمحاظي: يا سيدتي، إنه قد خرج إلى الصيد والقنص. فرجعت وهي مثل الأسد الضاري ولم تكلم أحدًا إلا بعد ثلاث ساعات، وقد راق وجهها وسكن غيظها، فلما رأت العجوز أنها زال عنها ما عندها من الكدر والغيظ، تقدمت إليها وقبَّلَتِ الأرض بين يديها وقالت لها: يا سيدتي، أين كانت هذه الخطوات الشريفة؟ قالت لها الملكة: إلى قصر أبي. قالت: يا سيدتي، أَمَا كان أحد يقضي حاجتك؟ قالت: أنا ما رحت إلا لأجل أن أعلمه بما جرى لي من كلب التجار، وأسلط عليه أبي فيمسكه ويمسك جميع مَن كان في سوقه ويصلبهم على دكاكينهم، ولا يدع أحدًا من التجار الغرباء يقيم في مدينتنا. فقالت لها العجوز: وهل ما ذهبت إلى أبيك يا سيدتي إلا لهذا السبب؟ قالت لها: نعم، إلا أني ما وجدته حاضرًا، بل رأيته غائبًا في الصيد والقنص، وأنا منتظرة رجوعه. قالت العجوز: أعوذ بالله السميع العليم يا سيدتي، الحمد لله أنت أعقل الناس، وكيف تعلمين الملك بهذا الكلام الهذيان الذي لا ينبغي لأحد إفشاؤه؟ قالت: ولِمَ ذلك؟ قالت العجوز: افرضي أنك لقيت الملك في قصره وعرَّفتِه بهذا الحديث، وأرسل خلف التجار وأمر بشنقهم على دكاكينهم ورآهم الناس، أَلَا يسألون عن ذلك ويقولون: ما سبب شنقهم؟ فيقال لهم في الجواب: إنهم أرسلوا ليفسدوا بنت الملك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز قالت لبنت الملك: افرضي أنك أعلمت الملك بذلك وأمر بشنق التجار، أليس يراهم الناس ويسألون: ما سبب شنقهم؟ فيقال لهم في الجواب: إنهم أرادوا أن يفسدوا بنت الملك، فيختلفون في نقل الحكايات عنك! فبعضهم يقول: قعدت عندهم عشرة أيام وهي غائبة عن قصرها حتى شبعوا منها. وبعضهم يقول غير ذلك، والعرض يا سيدتي مثل اللبن، أدنى غبار يدنسه، وكالزجاج إذا انصدع لا يلتئم، فإياك أن تخبري أباك أو غيره بهذا الأمر؛ لئلا ينهتك عرضك يا سيدتي، ولا يفيدك إخبار الناس شيئًا أبدًا، وميِّزِي هذا الكلام بعقلك الراجح، فإن لم تجديه صحيحًا فافعلي ما تريدين. فلما سمعت بنت الملك من العجوز هذا الكلام تأَمَّلَتْه، فوجدته في غاية الصواب، فقالت لها: ما قلته يا دايتي صحيح، ولكن كان الغيظ طمس على قلبي. قالت العجوز: إن نيتك طيبة عند الله تعالى، حيث لم تخبري أحدًا، ولكن بقي شيء آخر، وهو أننا لا نسكت عن قلة حياء هذا الكلب أخس التجار، فاكتبي له كتابًا وقولي له: يا أخس التجار، لولا أني وجدت الملك غائبًا لَكنت في هذه الساعة أمرت بصلبك أنت وجميع جيرانك، ولكن ما يفوتك من هذا الأمر شيء، وأنا أقسم بالله تعالى متى رجعت إلى مثل هذا الكلام قطعت أثرك من على وجه الأرض. وأغلِظِي عليه بالكلام حتى ترديه عن هذا الأمر، ونبِّهيه من غفلته. قالت لها بنت الملك: وهل يرجع عمَّا هو فيه بهذا الكلام؟ قالت: وكيف لا يرجع وأنا أكلمه وأعرفه بما وقع. فدعت بدواة وقرطاس وكتبت إليه هذه الأبيات:

تَعَلَّقَتِ الْآمَالُ مِنْكَ بِوَصْلِنَا ... وَتَقْصِدُ مِنَّا أَنْ تَنَالَ الْمَآرِبَا
وَمَا يَقْتُلُ الْإِنْسَانَ إِلَّا غُرُورُهُ ... وَيُولِيهِ مَا يَبْغِيهِ مِنَّا الْمَصَائِبَا
فَمَا أَنْتَ ذُو بَأْسٍ وَلَا لَكَ عُصْبَةٌ ... وَلَا كُنْتَ سُلْطَانًا وَلَا كُنْتَ نَائِبَا

وَلَوْ كَانَ هَذَا فِعْلَ مَنْ هُوَ مِثْلُنَا ... لَعَادَ مِنَ الْأَهْوَالِ وَالْحَرْبِ شَائِبَا
وَلَكِنْ سَأَعْفُو الآنَ عَمَّا جَنَيْتَهُ ... لَعَلَّكَ مِنْ ذَا الْحِينِ تَرْجِعُ تَائِبَا

ثم قدَّمت الكتاب للعجوز وقالت لها: يا دايتي، انهي هذا الكلب لئلا أقطع رأسه وندخل في خطيئته. قالت لها العجوز: والله يا سيدتي ما أخلي له جنبًا ينقلب عليه. وأخذت الكتاب وسارت به حتى وصلت إلى الغلام وسلمت عليه، فردَّ عليها السلام وناولته الكتاب، فأخذه وقرأه وهز رأسه وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. وقال: يا أمي، ما يكون عملي وقد قل صبري وضعف جَلَدي؟ فقالت له العجوز: يا ولدي، صبر نفسك لعل الله يُحدِث بعد ذلك أمرًا، واكتب ما في نفسك وأنا أجيء إليك بالجواب، وطب نفسًا وقر عينًا، فلا بد أن أجمع بينك وبينها إن شاء الله تعالى. فدعا لها وكتب كتابًا وضمَّنَه هذه الأبيات:

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِيَ فِي الْهَوَى مَنْ يُجِيرُنِي ... وَجَوْرُ غَرَامِي قَاتِلِي وَمُمِيتُ
أُقَاسِي لَهِيبَ النَّارِ مِنْ دَاخِلِ الْحَشَى ... نَهَارًا وَلَيْلِي لَيْسَ فِيهِ مَبِيتُ
فَمَا لِي لَا أَرْجُوكَ يَا غَايَةَ الْمُنَى ... وَأَرْضَى عَلَى مَا بِالْغَرَامِ لَقِيتُ
سَأَلْتُ إِلَهَ الْعَرْشِ يَرْزُقُنِي الرِّضَا ... لِأَنِّي بِحُبِّ الْغَانِيَاتِ فَنِيتُ
وَيَقْضِي بِوَصْلٍ عَاجِلٍ لِي فَأَرْتَضِي ... لِكَوْنِي بِأَهْوَالِ الْغَرَامِ رُمِيتُ

ثم طوى الكتاب وأعطى العجوز إياه، وأخرج لها صرة فيها أربعمائة دينار، فأخذت الجميع وانصرفت إلى أن وصلت لبنت الملك وأعطتها الكتاب، فلم تأخذه منها وقالت لها: ما هذه الورقة؟ فقالت لها: يا سيدتي، هذه جواب الكتاب الذي أرسلته إلى هذا الكلب التاجر. قالت لها: هل نهيته كما عرفتك؟ قالت: نعم، وهذا جوابه. فأخذت الكتاب منها وقرأته إلى آخِره ثم التفتت نحو العجوز وقالت: أين نتيجة كلامك؟ قالت: يا سيدتي، ما ذكره في جوابه من أنه رجع وتاب واعتذر عمَّا مضى. قالت: لا والله بل زاد. قالت: يا سيدتي، اكتبي له كتابًا وسوف يَبلغك ما أفعل به. فقالت: ما لي حاجة بكتاب ولا جواب. قالت العجوز: لا بد من جواب حتى أزجره وأقطع أمله. قالت لها بنت الملك: اقطعي أمله من غير استصحاب كتاب. فقالت العجوز: لا بد في زجره وقطع أمله من استصحاب كتاب. فدعت بدواة وقرطاس وكتبت إليه هذه الأبيات:

طَالَ الْعِتَابُ وَلَمْ تَمْنَعْكَ مَعْتَبَةٌ ... وَكَمْ بِخَطِّ يَدِي بِالشِّعْرِ أَنْهَاكَا
اكْتُمْ هَوَاكَ وَلَا تَجْهَرْ بِهِ أَبَدًا ... وَإِنْ تُخَالِفْ فَإِنِّي لَسْتُ أَرْعَاكَا

وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَى مَا أَنْتَ قَائِلُهُ فَإِنَّمَا جَاءَ نَاعِي الْمَوْتِ يَنْعَاكَا
فَعَنْ قَلِيلٍ تَرَى الْأَرْيَاحَ عَاصِفَةً عَلَيْكَ وَالطَّيْرُ فِي الْبَيْدَاءِ تَغْشَاكَا
ارْجَعْ إِلَى خَيْرِ أَعْمَالٍ تَفُزْ زَمَنًا فَإِنْ قَصَدْتَ خَنًى أَوْ فُحْشَ أَرْدَاكَ

فلما فرغت من كتابتها رمت الورقة من يدها بغيظ، فأخذتها العجوز وسارت حتى وصلت إلى الغلام فأخذها منها، فلما قرأها إلى آخرها علم أنها لم تَرُقْ له ولم تزدد إلا غيظًا عليه، وأنه ما يصل إليها، فخطر بقلبه أنه يكتب جوابها ويدعو عليها، فكتب إليها هذه الأبيات:

يَا رَبِّ بِالْخَمْسَةِ الْأَشْيَاخِ تُنْقِذُنِي مِنَ الَّتِي فِي هَوَاهَا صِرْتُ فِي مِحَنِ
وَأَنْتَ تَعْلَمُ مَا بِي مِنْ لَهِيبِ جَوًى وَفَرْطِ شَوْقٍ إِلَى مَنْ لَيْسَ يَرْحَمُنِي
فَلَمْ تَرِقَّ إِلَى مَا قَدْ بُلِيتُ بِهِ كَمْ قَدْ تَجُورُ عَلَى ضَعْفِي وَتَظْلِمُنِي
أَهِيمُ فِي غَمَرَاتِ الانْقِطَاعِ لَهَا وَلَمْ أَجِدْ مُسْعِفًا يَا قَوْمُ يُسْعِفُنِي
وَكَمْ أَبِيتُ وَجُنْحُ اللَّيْلِ مُنْسَبِلٌ أُرَدِّدُ النَّوْحَ فِي سِرِّي وَفِي عَلَنِي
وَلَمْ أَجِدْ لِي سُلُوًّا عَنْ مَحَبَّتِكُمْ وَكَيْفَ أَسْلُو وَصَبْرِي فِي الْغَرَامِ فُنِي
يَا طَائِرَ الْبَيْنِ أَخْبِرْنِي فَهَلْ أَمِنَتْ مِنْ نَائِبَاتِ صُرُوفِ الدَّهْرِ وَالْمِحَنِ؟

ثم طوى الكتاب وأعطى العجوز إياه وأعطاها صرة فيها خمسمائة دينار، فأخذت الورقة وسارت حتى دخلت على بنت الملك وأعطتها الورقة، فلما قرأتها وفهمتها رمتها من يدها وقالت لها: عرفيني يا عجوز السوء، سبب جميع ما جرى لي منك ومن مكرك واستحسانك منه حتى كتبت لك ورقة بعد ورقة، ولم تزالي في حمل الرسائل بيننا حتى جعلتِ له مَعَنا مكاتبات وحكايات، وفي كل وقت تقولين: أنا أكفيك شره وأقطع عنك كلامه. وما تقولين هذا الكلام إلا لأجل أن أكتب له كتابًا وتصيرين بيننا رائحة غادية حتى هتكت عرضي، ويلكم يا خدام امسكوها. وأمرت الخدام بضربها، فضربوها إلى أن جرت دماؤها من جميع بدنها وغُشِي عليها، وأمرت الجواري أن يجروها فَجَرُّوها من رجليها إلى آخر القصر، وأمرت أن تقف جارية عند رأسها، فإذا أفاقت من غشيتها تقول لها: إن الملكة حلفت يمينًا أنك لا تعودين إلى هذا القصر ولا تدخلينه، فإن عدت إليه أمرت بقتلك جزمًا. فلما أفاقت من غشيتها بلَّغَتْها الجارية ما قالته الملكة فقالت: سمعًا وطاعة.

ثم إن الجواري أحضرْنَ لها قفصًا وأمرْنَ حمَّالًا أن يحملها إلى بيتها، فحملها الحمَّال وأوصلها إلى بيتها، وأرسلْنَ وراءها طبيبًا وأمرْنَه أن يداويها بملاطفة حتى تبرأ،

فامتثل الطبيب الأمر. فلما أفاقت ركبت وتوجهت عند الغلام، وكان قد حزن حزنًا شديدًا لانقطاعها عنه وصار متشوقًا إلى أخبارها، فلما رآها قام إليها ناهضًا وتلقَّاها وسلَّمَ عليها فوجدها متضعفة، فسألها عن حالها، فأخبرته بجميع ما جرى لها من الملكة، فصعب عليه ذلك الأمر ودقَّ يدًا على يد وقال: والله عسر عليَّ ما جرى لك، لكن يا أمي ما سبب كون الملكة تبغض الرجال؟ فقالت: يا ولدي، اعلم أن لها بستانًا مليحًا، ما على وجه الأرض أحسن منه، فاتفق أنها كانت نائمة فيه ذات ليلة من الليالي، فبينما هي في لذيذ النوم إذ رأت في المنام أنها نزلت في البستان فرأت صيادًا قد نصب شَرَكًا، ونثر حوله قمحًا وقعد على بُعْدٍ منه ينظر ما يقع فيه من الصيد، فلم يكن إلا مقدار ساعة وقد اجتمعت الطيور لتلتقط القمح، فوقع طير ذكر في الشَّرَك وصار يتخبَّط فيه، فنفرت الطيور عنه وأنثاه من جملتها، فلم تغب عنه غير ساعة لطيفة ثم عادت إليه وتقدَّمت إلى الشَّرَك، وحاولت العين التي في رِجْل طيرها، ولم تزل تعالج فيها بمنقارها حتى قرضتها وخلَّصت طيرها، كل هذا والصياد قاعد ينعس، فلما أفاق نظر إلى الشَّرَك فرآه قد انفسد، فأصلحه وجدَّدَ نثر القمح وقعد على بُعْد من الشَّرَك، فبعد ساعة وإذا بالطيور قد اجتمعت عليه ومن جملتها الأنثى والذكر، فتقدَّمَتِ الطيور لتلتقط الحب وإذا بالأنثى قد وقعت في الشَّرَك وصارت تختبط فيه، فطار الحمام جمعيه عنها وطيرها الذي خلَّصَتْه من جملة الطيور ولم يَعُدْ إليها، وكان الصياد غلب عليه النوم ولم يفق إلا بعد مدة مديدة، فلما أفاق من نومه وجد الطيرة وهي في الشَّرَك، فقام وتقدَّمَ إليها وخلص رجلَيْها من الشَّرَك وذبحها؛ فانتبهت بنت الملك وهي مرعوبة وقالت: هكذا يفعل الرجال مع النساء، فالمرأة تشفق على الرجال وترمي روحها عليه وهو في المشقة، وبعد ذلك إذا قضى عليها المولى ووقعت في مشقةٍ، فإنه يفوتها ولا يخلصها، ويضيع ما فعلته معه من المعروف، فلعن الله من يثق بالرجال؛ فإنهم ينكرون المعروف الذي يفعله معهم النساء. ثم إنها بغضت الرجال من ذلك اليوم.

فقال ابن الملك للعجوز: يا أمي، هل هي ما تخرج إلى الطريق أبدًا؟ قالت: لا يا ولدي، إلا أن لها بستانًا وهو نزهة من أحسن منتزهات الزمان، وفي كل عام عند انتهاء الأثمار فيه تنزل إليه وتتفرج فيه يومًا واحدًا، ولا تبيت إلا في قصرها، وما تنزل إلى البستان إلا من باب السر، وهو واصل إلى البستان، وأنا أريد أن أعلمك شيئًا وإن شاء الله يكون فيه صلاح لك، فاعلم أنه بقي إلى أوان الثمر شهر واحد وتنزل تتفرج فيه، فمن يومنا هذا أوصيك أن تروح إلى خولي ذلك البستان وتعمل بينك وبينه صحبة مودة، فإنه ما يدع

أحدًا من خلق الله تعالى يدخل هذا البستان؛ لكونه متصلًا بقصر بنت الملك، فإذا نزلتْ بنت الملك، أكون قد أعلمتك قبل نزولها بيومين، فتروح أنت على جاري عادتك وتدخل البستان وتتحيَّل على بياتك فيه، فإذا نزلتْ بنت الملك تكون أنت مختفيًا في بعض الأماكن.
وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز أوصت ابن الملك وقالت له: إن بنت الملك تنزل في البستان، وقبل نزولها بيومين أُعْلِمك، فإذا نزلتْ تكون أنت فيه مختفيًا في بعض الأماكن، فإذا رأيتَها فاخرج لها، فإنها إذا رأَتْكَ تحبك، فإن المحبة تستر كل شيء. واعلم يا ولدي أنها لو نظرتك لافتتنتْ بحبك؛ لأنك جميل الصورة، فقرَّ عينًا وطِبْ نفسًا يا ولدي، فلا بد أن أجمع بينك وبينها. فقبَّلَ يدها وشكرها، ودفع إليها ثلاث شقات من الحرير الإسكندراني، وثلاث شقات من الأطلس ألوانهن مختلفة، ومع كل شقة تفصيلة من أجل القمصان، وخرقة من أجل السراويل، ومنديل من أجل العصابة، وثوب بعلبكي من أجل البطانة، حتى كمل لها ثلاث بدلات، كل بدلة أحسن من أختها، ودفع لها صرة فيها ستمائة دينار وقال لها: هذه من أجل الخياطة. فأخذت الجميع وقالت له: يا ولدي، أتحب أن تعرف طريق بيتي، وأنا أيضًا أعرف مكانك؟ قال: نعم. فأرسل معها مملوكًا ليعرف مكانها ويعرِّفها بيته، فلما توجَّهت العجوز، قام ابن الملك وأمر غلمانه أن يغلقوا الدكان وتوجَّه إلى الوزير وأعلمه بما جرى مع العجوز من أوله إلى آخره.

فلما سمع الوزير كلام ابن الملك قال له: يا ولدي، فإذا خرجت حياة النفوس، ولم يحصل لك منها إقبال، فما تفعل؟ قال: ما يصير في يدي حيلة غير أني أخرج من القول إلى الفعل، وأخاطر بنفسي معها وأخطفها من بين خدمها وأردفها الحصان، وأطلب بها عرض البر الأقفر، فإن سلمت حصل المراد، وإن عطبت فإني أستريح من هذه الحياة الذميمة. قال له الوزير: يا ولدي، أبهذا العقل تعيش؟ كيف يكون سفرنا وبيننا وبين بلدنا مسافة بعيدة؟ وكيف تفعل هذه الفعال مع ملك من ملوك الزمان تحت يده مائة ألف عنان؟ وربما لا نأمن من أن يأمر بعض عساكره فتقطع علينا الطرق، وهذا ما هو مصلحة ولا يفعله عاقل. قال ابن الملك: فكيف يكون العمل أيها الوزير الحسن التدبير،

فإني ميت لا محالة. قال له الوزير: اصبر إلى غد حتى نرى هذا البستان، ونعلم حاله وما يجري لنا مع الخولي الذي فيه.

فلما أصبح الصباح، نهض الوزير هو وابن الملك وأخذ في جيبه ألف دينار وتمشيا حتى وصلا إلى البستان، فرأياه عالي الحيطان، قوي الأركان، كثير الأشجار، غزير الأنهار، مليح الأثمار، قد فاحت أزهاره وترنمت أطياره كأنه روضة من رياض الجنان، ومن داخل الباب رجل شيخ كبير جالس على مصطبة. فلما رآهما وعاين هيبتهما، قام على قدميه بعد أن سلما عليه. فرد عليهما السلام وقال لهما: يا أسيادي، لعل لكما حاجة أتشرف بقضائها. قال له الوزير: اعلم يا شيخ، أننا قوم غرباء وقد حمي علينا الحر، ومنزلنا بعيد في آخِر المدينة، وقصدنا من إحسانك أن تأخذ منَّا هذين الدينارين وتشتري لنا شيئًا نأكله، وتفتح لنا باب هذا البستان وتقعدنا في مكانٍ مظل، فيه ماء بارد لنتبرَّد به حتى تحضر لنا بالأكل فنأكل نحن وأنت، ونكون قد استرحنا ونروح إلى حال سبيلنا، ثم إن الوزير حط يده في جيبه فأخرج دينارين وحطهما في يد الخولي، وكان هذا الخولي عمره سبعون سنة وما نظر في يده شيئًا من ذلك، فلما نظر الخولي الدينارين في يده، طار عقله وقام من وقته وفتح الباب وأدخلهما وأجلسهما تحت شجرة مثمرة كثيرة الظل وقال لهما: اجلسا في هذا المكان ولا تدخلا البستان أبدًا؛ لأن فيه باب السر الموصل إلى قصر الملكة حياة النفوس. قالا له: ما ننتقل عن مكاننا أبدًا.

ثم توجه الشيخ البستاني ليشتري لهما ما أمراه به، فغاب ساعة وأتى إليهما ومعه حمَّال على رأسه خروف مشوي وخبز، فأكلوا وشربوا جميعًا وتحدثوا ساعة، ثم تطلع الوزير والتفت يمينًا وشمالًا إلى جوانب البستان، فنظر في داخله قصرًا عالي البنيان إلا أنه عتيق، قد تقشرت حيطانه من البياض وتهدمت أركانه. فقال الوزير: يا شيخ، هل هذا البستان ملكك أم أنت مستأجره؟ قال: يا مولاي، هو ليس ملكي ولا أنا مستأجره، وإنما أنا حارس فيه. قال له الوزير: فكم أجرتك؟ قال: يا سيدي، في كل شهر دينار، قال الوزير: إنهم ظلموك وخصوصًا إن كنت صاحب عيال. قال الشيخ: والله يا سيدي، إن لي من العيال ثمانية أولاد وأنا. قال الوزير: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله لقد حملتني همك يا مسكين، لكن ما تقول فيمَن يفعل معك خيرًا لأجل هذه العيال التي معك؟ قال الشيخ: يا مولاي، مهما فعلته من الخير يكون لك ذخيرة عند الله تعالى. قال الوزير: اعلم يا شيخ أن هذا البستان مكان مليح وفيه هذا القصر، ولكنه عتيق خرب وأنا أريد أن أُصلِحه وأبيِّضه وأدهنه دهانًا مليحًا، حتى يصير هذا المكان أحسن ما يكون في

هذا البستان، فإذا حضر صاحب البستان ووجده قد تعمر وصار مليحًا، فإنه لا بد أن يسألك عن عمارته، فإن سألك فقل له: أنا يا مولاي عمَّرته لما رأيته خرابًا لا ينتفع به أحد، ولا يقدر أن يقعد فيه؛ لأنه خرب داثر، فعمرته وصرفت عليه، فإذا قال لك: من أين لك المال الذي صرفته عليه؟ فقل له: من مالي لأجل بياض وجهي عندك ورجاء إنعامك. فلا بد أنه ينعم عليك في نظير ما صرفته في المكان، وفي غدٍ أحضر البنَّائين والمبيضين والدهانين لأجل أن يصلحوا شأن هذا المكان وأعطيك ما وعدتك به. ثم أخرج من جيبه كيسًا فيه خمسمائة دينار وقال له: خذ هذه الدنانير وأنفقها على عيالك ودعهم يدعون إليَّ وإلى ولدي هذا. فقال له ابن الملك: ما سبب ذلك؟ قال له الوزير: ستظهر لك نتيجته. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما أعطى الشيخ البستاني الذي في البستان الخمسمائة دينار وقال له: خذ هذه الدنانير وأنفقها على عيالك ودعهم يدعون لي ولولدي هذا. فنظر الشيخ إلى ذلك الذهب، فخرج عقله وانطرح على قدمي الوزير يقبِّلهما، وصار يدعو له ولولده، ولما انصرفا من عنده قال لهما: إني لكما غدًا في الانتظار، والله تعالى لا يفرق بيني وبينكما لا ليلًا ولا نهارًا. فلما كان في اليوم الثاني جاء الوزير إلى ذلك المكان وطلب عريف البنائين، فلما حضر بين يديه أخذه الوزير وتوجه به إلى البستان، فلما رآه الخولي فرح به، ثم إن الوزير أعطاه ثمن المئونة وما يحتاج إليه العملة في عمارة ذلك القصر، فبنوه وبيضوه ودهنوه، فقال الوزير للدهانين: يا أيها المعلمون، أصغوا إلى كلامي وافهموا قصدي ومرامي، واعلموا أن لي بستانًا مثل هذا المكان كنت نائمًا فيه ليلةً من الليالي، فرأيت في المنام أن صيادًا نصب شَرَكًا ونثر حوله قمحًا، فاجتمعت عليه الطيور لتلتقط القمح، فوقع طيرٌ ذَكَر في الشَّرَك ونفرت عنه جميع الطيور ومن جملتها أنثى ذلك الذكر، ثم أن تلك الأنثى غابت ساعة وعادت إليه وحدها وقرضت العين التي في رِجْل ذَكَرها حتى خلَّصته، وكان الصياد في ذلك الوقت نائمًا، فلما أفاق من نومه وجد الشَّرَك مختلًّا فأصلحه وجدَّدَ نثْرَ القمح مرةً ثانية، وقعد بعيدًا عنه ينتظر وقوع صيد في ذلك الشَّرَك، فتقدمت الطيور لتلتقط القمح، فتقدم الطير والطيرة من جملة الطير، فانشبكت الطيرة في الشَّرَك ونفر الطير جميعه عنها وطيرها الذَّكَر من جملة الطير ولم يَعُدْ إليها، فقام الصياد وأخذ الطيرة وذبحها. وأما الذكر فإنه لما نفر مع الطيور قد اختطفه جارح من الجوارح وذبحه وشرب دمه وأكل لحمه، وأنا أشتهي منكم أن تصوِّروا لي هذا المنام جميعه على صفات ما ذكرتُ لكم بالدهان الجيد، وتجعلوا ذلك منالًا في تزاويق البستان وحيطانه وأشجاره وأطياره، وتصوروا مثال الصياد وشَرَكه وصفة ما جرى للطير الذكر

مع الجارح حين اختطفه، فإذا فعلتم ما شرحت لكم ونظرته وأعجبني، فإني أُنْعِم عليكم بما يسرُّ خاطركم زيادة عن أجرتكم.

فلما سمع كلامه الدهانون اجتهدوا في الدهان وأتقنوه غاية الإتقان، فلما انتهى وخلص أطلعوا الوزير عليه، فأعجبه ونظر إلى تصوير المنام الذي وصفه للدهانين كأنه هو، فشكرهم وأنعم عليهم بجزيل الإنعام. ثم أتى ابن الملك على العادة ودخل ذلك القصر ولم يعلم بما فعله الوزير، فلما نظر إليه رأى صفة البستان والصياد والشَّرَك والطيور والطير الذَّكَر وهو بين مخالب الجارح وقد ذبحه وشرب دمه وأكل لحمه، فتحيَّرَ عقله، ثم رجع إلى الوزير وقال: أيها الوزير الحَسَن التدبير، إني رأيت اليوم عجبًا لو كُتِب بالإبر على مآقي البصر، لَكان عِبْرةً لِمَن اعتبر. قال: وما هو يا سيدي؟ قال: أَمَا أخبرتك بالمنام الذي رأته بنت الملك، وأنه هو السبب في بغضها الرجال؟ قال: نعم. ثم قال: والله يا وزير لقد رأيته مصورًا في جملة النقش بالدهان حتى كأني عاينته عيانًا، ووجدتُ شيئًا آخَر خفي أمره على ابنة الملك فما رأته، وهو الذي عليه الاعتماد في نيل المراد. قال: وما هو يا ولدي؟ قال: وجدت الطير الذكر لما غاب عن طيرته حين وقعت في الشَّرَك ولم يرجع إليها، قد قبض عليه جارح وذبحه وشرب دمه وأكل لحمه، فيا ليت بنت الملك كانت رأت المنام كله وقصته لآخِره وعاينَتِ الطير الذكر لَمَّا اختطفه الجارح، وهذا سبب عدم عوده إليها وتخليصها من الشَّرَك. قال له الوزير: أيها الملك السعيد، والله إن هذا أمر عجيب وهو من الغرائب. وصار ابن الملك يتعجب من هذا الدهان، ويتأسف حيث لم تره ابنة الملك إلى آخره ويقول في نفسه: يا ليتها رأت هذا المنام إلى آخِره، أو تراه جميعه مرةً ثانية ولو في أضغاث الأحلام. قال الوزير: إنك كنت قلت لي: ما سبب عمارتك في هذا المكان؟ فقلت لك: سوف يظهر لك نتيجة ذلك، والآن قد ظهر لك نتيجته، وأنا الذي قد فعلت ذلك الأمر وأمرت الدهانين بتصوير المنام، وأن يجعلوا الطير الذكر في مخالب الجارح وقد ذبحه وشرب دمه وأكل لحمه، حتى إذا نزلت بنت الملك ونظرت إلى هذا الدهان ترى صورة هذا المنام وتنظر إلى الطير وقد ذبحه الجارح، فتعذره وترجع عن بغضها الرجال.

فلما سمع ابن الملك هذا الكلام، قبَّلَ أيادي الوزير وشكره على فعله وقال له: مثلك يكون وزير الملك الأعظم، والله لئن بلغت قصدي ورجعت مسرورًا إلى الملك، لَأعلمنه بذلك حتى يزيدك في الإكرام ويعظم شأنك ويسمع كلامك. فقبَّلَ الوزير يده، ثم إنهما ذهبا إلى الشيخ البستاني وقالا له: انظر إلى هذا المكان وما أحسنه. قال الشيخ: كل هذا بسعادتكم. ثم قالا له: يا شيخ، إذا سألك أصحاب هذا المكان عن عمارة هذا القصر، فقل لهم: أنا

عمَّرته من مالي. لأجل أن يحصل لك الخير والإنعام. فقال: سمعًا وطاعة. وصار ابن الملك لا ينقطع عن ذلك الشيخ.

هذا ما جرى من الوزير وابن الملك، وأما ما كان من أمر حياة النفوس، فإنها لما انقطعت عنها الكتب والمراسلة وغابت عنها العجوز، فرحت فرحًا شديدًا واعتقدت أن الغلام سافر إلى بلاده، فلما كان في بعض الأيام حضر إليها طبقٌ مغطًّى من عند أبيها، فكشفته فوجدتْ فيه فاكهة مليحة، فسألت وقالت: هل جاء أوان هذه الفاكهة؟ قالوا: نعم. قالت: يا ليتني تجهَّزْتُ للفرجة في البستان. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بنت الملك لما أرسل إليها أبوها الفاكهة سألت وقالت: هل جاء أوان هذه الفاكهة؟ فقالوا لها: نعم. قالت: يا ليتنا نتجهَّز للفرجة في البستان. فقال لها جواريها: نِعْمَ الرأي يا سيدتي، والله لقد اشتقنا إلى ذلك البستان. قالت: كيف العمل؟ وفي كل سنة ما يفرجنا في البستان ويبين لنا اختلاف هذه الأغصان إلا الداية، وأنا قد ضربتها ومنعتها عني، وقد ندمت على ما كان مني في حقها؛ لأنها على كل حال دايتي ولها عليَّ حق التربية، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فلما سمعت الجواري ذلك الكلام من بنت الملك، نهضن جميعًا وقبَّلن الأرض بين يديها وقلن لها: بالله عليك يا سيدتي أن تصفحي عنها وتأمري بإحضارها. قالت: والله إني عزمت على ذلك الأمر، فمَن فيكم يروح لها؟ فإني قد جهزت لها خلعة سنية. فتقدم إليها جاريتان، إحداهما تسمى بلبل والأخرى تسمى سواد العين، وهما أكبر جواري بنت الملك وخواصها عندها، وهما ذاتا حسن وجمال، فقالتا: نحن نروح إليها أيتها الملكة. قالت: افعلا ما بدا لكما. فذهبتا إلى بيت الداية وطرقا عليها الباب ودخلا عليها، فلما عرفتهما تلقتهما بأحضانها ورحبت بهما، فلما استقر بهما الجلوس قالتا لها: يا داية، إن الملكة قد حصل منها العفو والرضى عنك. قالت الداية: لا كان ذلك أبدًا ولو سقيت كئوس الردى، فهل نسيت تعزيري قدام مَن يحبني ومَن يبغضني حين صُبِغت أثوابي بالدم وكدت أن أموت من شدة الضرب، وبعد ذلك سحبوني من رجلي مثل الكلب الميت حتى رموني خارج الباب؟ فوالله لا أرجع إليها أبدًا ولا أملأ عيني من رؤيتها. فقال لها الجاريتان: لا تردي سعينا إليك خائبًا، فأين إكرامك إيانا؟ فابصري مَن حضر عندك ودخل عليك، فهل تريدين أحدًا أكبر منا منزلةً عند بنت الملك؟ قالت: أعوذ بالله، أنا أعرف أن مقداري أقل منكما، لولا أن ابنة الملك عظمت قدري عند جواريها وخدمها، فكنت إذا غضبت على أكبر مَن



واجتهدوا في الدهان من الخارج، والتصوير في الداخل، ولما خلص أَطلَعوا الوزيرَ عليه.

فيهن تموت في جلدها. فقالت الجاريتان: إن الحال باقٍ على عهده لم يتغير أبدًا بل هو أكثر مما تعهدين، فإن بنت الملك وضعت نفسها لك وطلبت الصلح من غير واسطة. فقالت: والله لولا حضوركما عندي ما كنت أرجع إليها ولو أمرَتْ بقتلي، فشكرتاها على ذلك.

ثم قامت من وقتها ولبست ثيابها وطلعت معهما وسرن جميعًا حتى دخلت على بنت الملك، فلما دخلت عليها قامت على قدميها، فقالت لها الداية: الله يا بنت الملك، هل

الخطأ مني أو منك؟ فقالت بنت الملك: الخطأ مني والعفو والرضى منك، والله يا دايتي إن قدرك عالٍ عندي ولكِ عليَّ حق التربية، ولكن أنت تعلمين أن الله سبحانه وتعالى قسم للخلق أربعة أشياء: الخلق والعمر والرزق والأجل، وليس في قدرة الإنسان أن يرد القضاء، وإني ما ملكت نفسي ولا قدرت على رجوعها، وأنا يا دايتي ندمت على ما فعلت. فعند ذلك زال ما عند العجوز من الغيظ فنهضت وقبلت الأرض بين يديها، فدعت الملكة بخلعة سنية وأفرغتها عليها، ففرحت بتلك الخلعة فرحًا شديدًا والخدم والجواري واقفات بين يديها، فلما انتهى ذلك المجلس قالت لها: يا دايتي، كيف حال الفواكه وثمر غيطاننا؟ قالت: وقد يا سيدتي، نظرت غالب الفواكه في البلد، ولكن في هذا اليوم أفتش على هذه القضية وأرد لك الجواب. ثم نزلت من عندها وهي مكرمة في غاية الإكرام وسارت حتى أتت ابن الملك، فتلقاها بفرح وعانقها واستبشر بقدومها وانشرح خاطره؛ لأنه كان كثير الانتظار لرؤيتها، ثم إن العجوز حكت له على ما وقع لها مع بنت الملك، وأن بنت الملك مرادها أن تنزل إلى البستان في اليوم الفلاني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما أتت عند ابن الملك وأخبرته بما جرى لها مع الملكة حياة النفوس، وأنها تنزل البستان اليوم الفلاني، قالت له: هل فعلت ما أمرتك به من قضية بواب البستان؟ وهل وصل إليه شيء من إحسانك؟ قال لها: نعم، إنه صار صديقي وطريقه طريقي وفي خاطره لو يكون لي إليه حاجة. ثم أخبرها بما جرى له من أمر الوزير وتصويره المنام الذي رأته بنت الملك، وخبر الصياد والشَّرَك والجارح، فلما سمعت العجوز هذا الكلام فرحت فرحًا شديدًا ثم قالت: بالله عليك أن تجعل وزيرك في وسط قلبك، فإن فعله يدل على رجاحة عقله؛ ولأنه أعانك على بلوغ مرادك، فانهض يا ولدي من ساعتك وادخل الحمام والبس أفخر الثياب، فما بقي لنا حيلة أكبر من هذه، واذهب إلى البواب واعمل عليه حيلة حتى يمكنك من بياتك في البستان، فلو أُعطِي ملْءَ الأرض ذهبًا ما يمكِّن أحدًا من الدخول في البستان، فإذا دخلت فاختفِ حتى لا تراك العيون، ولا تزل مختفيًا حتى تسمعني أقول: يا خفي الألطاف أَمِّنَّا ممَّا نخاف. فاخرج من خبائك وأظهِرْ حُسْنك وجمالك، وتوارَ في الأشجار فإن حسنك يخجل الأقمار حتى تنظرك الملكة حياة النفوس وتملأ قلبها وجوارحها بهواك، فتبلغ قصدك ومناك ويذهب همك. قال الغلام: سمعًا وطاعة. وأخرج صرة فيها ألف دينار فأخذتها منه ومضت، وخرج ابن الملك من وقته وساعته ودخل الحمام وتنعم ولبس أفخر الثياب من لباس الملوك الأكاسرة، وتوشح بوشاحٍ قد جمع فيه من أصناف الجواهر المثمنة، وتعمم بعمامة منسوجة بشرائط الذهب الأحمر مكللة بالدر والجوهر، وقد توردت وجنتاه واحمرت شفتاه، وغازلت أجفانه الغزلان وهو يتمايل كما النشوان، وعمه الحسن والجمال وفضح الأغصان قوامه الميال، ثم إنه حطَّ في جيبه كيسًا فيه ألف دينار وسار إلى أن أقبل على

البستان ودق بابه، فأجابه البواب وفتح له الباب، فلما نظره فرح فرحًا شديدًا وسلَّم عليه أفخر السلام، ثم إنه وجد ابن الملك عابس الوجه فسأله عن حاله، فقال له: اعلم أيها الشيخ، أني عند والدي مكرم ولا وضع يده عليَّ إلا في هذا اليوم، فوقع بيني وبينه كلام فشتمني ولطمني على وجهي وبالعِصِيِّ ضربني وطردني، فصرت لا أعرف صديقًا، فخفت من غدر الزمان وأنت تعرف أن غضب الوالدين ما هو قليل، وقد حضرت إليك يا عم، فإن والدي بك خبير وأريد من إحسانك أن أقيم في البستان إلى آخر النهار، وأبيت فيه إلى أن يصلح الله الشأن بيني وبين والدي.

فلما سمع كلامه توجع لما جرى له من والده، فقال له: يا سيدي، اتأذن لي أن أروح إلى والدك وأدخل عليه وأكون سببًا في الصلح بينك وبينه؟ قال له الغلام: يا عم، إن والدي له أخلاق لا تطاق ومتى عارضته في الصلح وهو في حرارة خلقه لا يرجع إليك. قال الشيخ: سمعًا وطاعة، ولكن يا سيدي امشِ معي إلى بيني فأبيتك بين أولادي وعيالي ولا ينكر أحد علينا. فقال له الغلام: يا عم، ما أقيم إلا وحدي في حالة الغيظ. فقال الشيخ: يعز عليَّ أن تنام وحدك في البستان وأنا لي بيت. قال: يا عم، لي في ذلك غرض حتى يزول العارض عني، وأنا أعلم أن في هذا الأمر رضاه، فيعطف عليَّ خاطره. قال له الشيخ: فإن كان ولا بد فإني أحضر لك فراشًا تنام عليه وغطاء تتغطَّى به. قال له: يا عم، لا بأس بذلك. فنهض الشيخ وفتح له باب البستان وأحضر له الفرش والغطاء، والشيخ لا يعلم أن بنت الملك تريد الخروج إلى البستان.

هذا ما كان من أمر ابن الملك، وأما ما كان من أمر الداية، فإنها لما ذهبت إلى بنت الملك وأخبرتها بأن الأثمار طابت على أشجارها، قالت لها: يا دايتي، انزلي معي إلى البستان لتتفرجي في غدٍ إن شاء الله تعالى، ولكن أرسلي إلى الحارس وعرفيه أننا في غد نكون عنده في البستان، فأرسلت له الداية أن الملكة تكون عنده غدًا في البستان، وأنه لا يترك في البستان سواقين ولا مرابعين، ولا يدع أحدًا من خلق الله أجمعين يدخل البستان. فلما جاءه الخبر من عند بنت الملك، أصلح المجاري واجتمع بالغلام وقال له: إن بنت الملك صاحبة هذا البستان، ويا سيدي لك المعذرة والمكان مكانك وأنا ما أعيش إلا في إحسانك، غير أن لساني تحت قدمي، فأعرفك أن الملكة حياة النفوس تريد الخروج إلى البستان غدًا في أول النهار، وقد أمرت أني لا أخلي أحدًا في البستان يراها، وأريد من فضلك أن تخرج من البستان في هذا النهار، فإن الملكة لم تقم فيه سوى هذا اليوم إلى العصر، ويصير لك مدة الشهور والدهور والأعوام. قال له: يا شيخ، لعلك حصل لك من جهتنا ضرر؟ قال: لا

والله يا مولاي، ما حصل لي من جهتك إلا الشرف. فقال له الغلام: إن كان الأمر كذلك فما يحل لك من جهتنا إلا كل خير، فإني أختفي في هذا البستان ولا يراني أحد حتى تروح بنت الملك إلى قصرها. قال الخولي: يا سيدي، متى نظرت خيال بشر من خلق الله تعالى ضربت عنقي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٢٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ لما قال للغلام: إن بنت الملك متى رأت خيال بشر ضربت عنقي. قال له الغلام: أنا ما أخلي أحدًا يراني جملة كافية، ولا شك أنك اليوم مقصِّر في النفقة على العيال. ومدَّ يده إلى الكيس وأخرج منه خمسمائة دينار وقال له: خذ هذا الذهب وأنفقه على عيالك، فيطيب قلبك من جهتهم. فلما نظر الشيخ إلى الذهب هانت عليه نفسه، وأكَّدَ على ابن الملك في عدم الظهور في البستان، ثم تركه جالسًا.

هذا ما كان من أمر الخولي وابن الملك، وأما ما كان من أمر بنت الملك، فإنه لما كان بكرة النهار دخل عليها خدامها، فأمرت بفتح باب السر الموصل إلى البستان الذي فيه القصر، ولبسَتْ حلة كسروية مرصَّعة باللؤلؤ والدر والجوهر، ولبسَتْ حلةً ومن تحتها قميص لطيف مرصع بالياقوت، ومن تحت الجميع ما يعجز عن وصفه اللسان ويتحيَّر فيه الجنان، وفي هواه يشجع الجبان، ومن فوق رأسها تاج من الذهب الأحمر مرصَّع بالدر والجوهر، وهي تخطر في قبقاب من اللؤلؤ الرطب مصوغ من الذهب الأحمر مرصَّع بالفصوص والمعادن، وجعلت يدها على كتف العجوز، وأمرت بالخروج من باب السر. وإذا بالعجوز قد نظرت البستان فوجدته قد امتلأ من الخدم والجواري، وهن يأكلن الثمار ويعكرن الأنهار، ويردن التمتُّع باللعب والفرجة في هذا النهار، فقالت للملكة: إنك صاحبة العقل الوافر والفطنة الكاملة، وأنت تعلمين أنك غير محتاجة لهذه الخدم في البستان، ولو كنت خارجة من قصر أبيك لكان سيرهم معك احترامًا لك، ولكنك يا سيدتي طالعة من باب السر إلى البستان بحيث لا يراك أحدٌ من خلق الله تعالى. قالت لها: لقد صدقتِ يا دايتي، فكيف يكون العمل؟ ثم قالت لها العجوز: اؤمري الخدام أن ترجع، وما أخبرك بهذا إلا احترامًا للملك. فأمرت الخدام بالرجوع. قالت الداية: بقي بقية من الخدام الذين يبغون في الأرض الفساد، فاصرفيهم ولا تدعي معك غير جاريتين من الجواري

لننشرح معهما. فلما نظرتها الداية قد صفى قلبها وراق لها الوقت قالت: الآن قد تفرجنا فرجة مليحة، فقومي بنا الآن إلى البستان. فقامت بنت الملك وجعلت يدها على كتف الداية وخرجت من باب السر، وجاريتاها يمشيان قدامها وهي تضحك عليهما وتتمايل في غلائلها، والداية تمشي قدامها وتريها الأشجار وتطعمها من الأثمار، وهي تروح من مكان إلى مكان.

ولم تزل سائرة بها إلى أن وصلت إلى ذلك القصر، فلما نظرته الملكة رأته جديدًا، فقالت: يا دايتي، أَمَا تنظرين هذا القصر قد عمرت أركانه وابيضت حيطانه؟ قالت الداية: والله يا سيدتي إني سمعت كلامًا، وهو أن جماعة من التجار أخذ منهم الخولي قماشًا وباعه، وأخذ بثمنه طوبًا وجيرًا وجبسًا وحجرًا وغير ذلك، فسألته ما فعل بذلك، فقال لي: عمرت به القصر الذي كان داثرًا. ثم قال الشيخ: إن التجار طالبوني بحقهم الذي لهم عليَّ فقلت: حتى تنزل بنت الملك إلى البستان وتنظر العمارة وتعجبها، فإذا طلعت أخذت منها ما تتفضَّل به عليَّ وأعطيهم حقهم الذي لهم. فقلت له: ما حملك على ذلك؟ قال: رأيته قد وقع وتهدمت أركانه وتقشر بياضه، وما رأيت لأحد مروءة أن يعمره، فاقترضت في ذمتي وعمرته، وأرجو من ابنة الملك أن تعمل ما هي أهله. فقلت له: إن ابنة الملك كلها خير وعوض. وما فعل هذا كله إلا طمعًا في إحسانك. قالت بنت الملك: والله لقد بناه عن مروءة وفَعَل فِعْل الأجواد، ولكن نادي لي الخازندارة. فنادت الداية الخازندارة فحضرت في الحال عند ابنة الملك، فأمرتها أن تعطي الخولي ألفَيْ دينار، فأرسلت العجوز رسولًا إلى الخولي، فلما وصل إليه الرسول قال له: واجب عليك امتثال أمر الملكة.

فلما سمع الخولي من الرسول هذا الكلام، ارتعدت مفاصله وضعفت قوته وقال في نفسه: لا شك أن ابنة الملك نظرت الغلام ولا يكون هذا اليوم عليَّ إلا أشأم الأيام. فخرج حتى وصل إلى داره وأعلم زوجته وأولاده بذلك، وأوصى وودَّعهم فتباكوا عليه، ثم إنه تمشى إلى أن وقف بين يدي ابنة الملك ووجهه مثل الكركم وهو يكاد أن يسقط من طوله، فعلمت العجوز منه ذلك، فأدركته بكلامها وقالت: يا شيخ، قبِّلِ الأرض شكرًا لله تعالى وابتهِلْ بالدعاء للملكة، فقد أعلمتها بما فعلتَ من عمارة القصر الداثر، ففرحت بذلك وقد أنعمت عليك في نظير ذلك بألفَيْ دينار، فاقبضهما من الخازندارة وادعُ لها وقَبِّلِ الأرض بين يديها وارجع إلى حالك. فلما سمع الخولي ذلك الكلام من الداية، قبض الألفَيْ دينار وقبَّل الأرض بين يدي ابنة الملك ودعا لها، ثم عاد إلى منزله وفرحت عياله به ودعوا لَمَن كان سببًا في هذا الأمر كله. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٠

قالت: بلغني إيها الملك السعيد، أن الشيخ الحارس لما أخذ الألفَيْ دينار من الملكة وعاد إلى منزله، فرحت عياله ودعوا لَمَن كان سببًا في ذلك كله. هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر العجوز، فإنها قالت: يا سيدتي، لقد صار هذا المكان مليحًا، وما رأيتُ قطُّ أنصع من بياضه ولا أحسن من دهانه، يا ترى هل الأصلح ظاهره أو باطنه؟ وإلا عمل ظاهره بياضًا وباطنه سوادًا؟ فادخلي بنا حتى نتفرج على باطنه. فدخلت الداية وبنت الملك خلفها، فوجداه مدهونًا ومزوقًا من داخلٍ بأحسن التزويق، فنظرت بنت الملك يمينًا وشمالًا إلى أن وصلت إلى صدر الإيوان، فشخصت إليه وأطالت النظر فيه، فعلمت الداية أن عينها لحظت تصوير ذلك المنام، فأخذت الجاريتين عندها حتى لا يشغلاها. فلما انتهت بنت الملك إلى رؤية تصوير المنام، التفتت إلى العجوز وهي متعجبة تدق يدًا على يد وقالت: يا دايتي، تعالي انظري شيئًا عجيبًا لو كُتِب بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لَمَن اعتبر. قالت العجوز: وما هو يا سيدتي؟ قالت لها الملكة: ادخلي صدر الإيوان وانظري، وأي شيء تنظريه فعرِّفيني به. فدخلت العجوز وتأمَّلت تصوير المنام وخرجت وهي متعجبة وقالت: والله يا سيدتي، إن هذا هو صورة البستان والصياد والشَّرَك وجميع ما رأيته في المنام، وما منع الذَّكَر لما طار من أن يعود إلى أنثاه ويخلصها من شَرَك الصياد إلا مانع عظيم، فإني نظرته تحت مخالب الجارح، وقد ذبحه وشرب دمه ومزَّق لحمه وأكله، وهذا يا سيدتي سبب تأخيره عن العود إليها وتخليصها من الشَّرَك، ولكن يا سيدتي إنما العجب من تصوير هذا المنام بالزواق، ولو كنتِ أنتِ أردتِ أن تفعلي ذلك لَعجزتِ عن تصويره، والله إن هذا الشيء عجيب يُؤَرَّخ في السِّيَر، ولكن يا سيدتي لعل الملائكة المُوكَّلين

ببني آدم علموا أن الطير الذكر مظلوم، حيث ظلمناه ولمناه على عدم عوده، فأقاموا حجة الذكر وبيَّنوا عذره، وها أنا قد رأيته في هذه الساعة بين مخالب الجارح وهو مذبوح.

قالت بنت الملك: يا دايتي، هذا الطير الذي جرى عليه القضاء والقدر، ونحن قد ظلمناه. قالت العجوز: يا سيدتي، بين يدي الله تعالى تلتقي الخصوم، ولكن يا سيدتي قد تبين لنا الحق ووضح لنا عذر الطير الذكر، ولولا أنه تعلقت به مخالب الجارح وذبحه وشرب دمه وأكل لحمه، ما تأخر عن الرجوع إلى الطيرة، بل كان يرجع إليها ويخلصها من الشَّرَك، ولكن الموت ما فيه حيلة وخصوصًا ابن آدم، فإنه يجوِّع نفسه ويُطعِم زوجته، ويعرِّي نفسه ويكسوها، ويُغضِب أهله ويرضيها، ويعصي والدَيْه ويطيعها، وهي تطَّلِع على سره وخبيئته، ولا تصبر عنه ساعة واحدة، فلو غاب عنها ليلة واحدة لم تنم عينها ولم يكن عندها أعز منه، فتعزه أكثر من والديها، وإذا ناما يتعانقان ويجعل يده تحت عنقها وهي تجعل يدها تحت عنقه، كما قال الشاعر:

تَوَسَّدْتُهَا زَنْدِي وَبِتُّ ضَجِيعَهَا ... وَقُلْتُ لِلَيْلِي طُلْ فَقَدْ أَشْرَقَ الْبَدْرُ
فَيَا لَيْلَةً لَمْ يَخْلُقِ اللهُ مِثْلَهَا ... فَأَوَّلُهَا حُلْوٌ وَآخِرُهَا مُرُّ

وبعد ذلك فهو يقبِّلها وتقبِّله، ومن جملة ما جرى لبعض الملوك مع زوجته أنها ضعفت وماتت، فدفن نفسه معها بالحياة ورضي لنفسه بالموت من محبته إياها، ومن فرط الألفة التي كانت بينهما. وكذلك جرى لبعض الملوك حين ضعف ومات، فلما قصدوا أن يدفنوه قالت زوجته لأهلها: دعوني أدفن نفسي معه بالحياة وإلا أقتل نفسي وأبقى في ذمتكم، فلما علموا أنها لا ترجع عن ذلك تركوها، فرمت نفسها في القبر معه من كثرة محبتها إياه وشفقتها عليه. وما زالت العجوز تحدِّثها بحديث أخبار الرجال والنساء حتى زال ما كان في قلبها من بغض الرجال، فلما عرفت العجوز المودة التي تجدَّدت عندها للرجال قالت: إنه آن أوان تفرجنا في البستان. فخرجتا من القصر يتمشيان بين الأشجار، فلاحت من ابن الملك التفاتة فوقعت عينه عليها ونظر إلى شكلها، واعتدال قدِّها، وتورُّد خدها، وسواد طرفها، وبارع ظرفها، وباهر جمالها، ووافر كمالها؛ فاندهش عقله، وشخص إليها بصره، وعدم في الغرام رشده، وتجاوَزَ به العشق حدَّه، واشتعلت بخدمتها جوارحه، والتهبت بنار العشق جوانحه، فغشي عليه ووقع على الأرض مُغمًى عليه. فلما أفاق وجدها غابت عن عينه، وتوارت منه في الأشجار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك أردشير لما كان مختفيًا في البستان ونزلت بنت الملك هي والعجوز مشيا بين الأشجار، رآها ابن الملك فغُشِي عليه من شدة ما حصل له من العشق، فلما أفاق وجدها غابت عن عينه وتوارت منه في الأشجار، فتنهَّدَ من قلبه وأنشد هذه الأبيات:

وَلَمَّا رَأَتْ عَيْنِي بَدِيعَ جَمَالِهَا ... تَمَزَّقَ قَلْبِي بِالصَّبَابَةِ وَالْوَجْدِ
فَأَصْبَحْتُ مَرْمِيًّا طَرِيحًا عَلَى الثَّرَى ... وَمَا عَلِمَتْ بِنْتُ الْمَلِيكِ بِمَا عِنْدِي
تَثَنَّتْ فَأَحْمَتْ قَلْبَ صَبٍّ مُتَيَّمٍ ... فَبِاللهِ رِقِّي وَارْحَمِي صَادِقَ الْوَجْدِ
فَيَا رَبِّ قَرِّبْ لِي الْوِصَالَ وَأَحْظِنِي ... بِمُهْجَةِ قَلْبِي، خَشْيَتِي ظُلْمَةُ اللَّحْدِ
أُقَبِّلُهَا عَشْرًا وَعَشْرًا وَعَشْرَةً ... تَكُونُ مِنَ الْمُضْنَى الْكَئِيبِ عَلَى الْخَدِّ

ولم تزل العجوز تفرج بنت الملك في البستان إلى أن وصلت إلى المكان الذي فيه ابن الملك، وإذا بالعجوز قالت: يا خفي الألطاف أَمِّنَّا ممَّا نخاف. فلما سمع ابن الملك الإشارة خرج من خبائه وتعجَّب في نفسه وتاه، وتمشى بين الأشجار بقدٍّ يُخجِل الأغصان، وتكلَّلَ جبينه بالعرق وصارت وجنتاه كالشفق، فسبحان الله العظيم فيما خلق. فلاحت التفاتة من بنت الملك فنظرته، فلما رأته صارت شاخصة له ساعة طويلة، ورأت حُسْنه وجماله، وقدَّه واعتداله، وعيونه التي تغازل الغزلان، وقامته التي تفضح غصون البان، فأذهل عقلها وسلب لبها ورشقها بسهام عينيه في قلبها، فقالت للعجوز: يا دايتي، من أين لنا هذا الغلام المليح القوام؟ قالت: أين هو يا سيدتي؟ قالت: ها هو قريب بين الأشجار. فصارت العجوز تتلفَّت يمينًا وشمالًا كأنه لم يكن عندها خبر به وقالت: ومَن عرَّف



فصار كلٌّ واحدٍ منهم كالسكران، واعتنقا وهما في غاية الاشتياق.

هذا الشاب طريقَ هذا البستان؟ قالت لها حياة النفوس: ومَن يعرفنا بخبر هذا الشاب؟ فسبحان مَن خلق الرجال! ولكن يا دايتي، هل أنت تعرفينه؟ قالت لها: يا سيدتي، هو الشاب الذي كان يراسلك معي. قالت لها بنت الملك وهي غريقة في بحر هواها ونار شوقها وجواها: يا دايتي، ما أحسن هذا الشاب! فإنه مليح الطلعة، وأظن أنه ما على وجه الأرض أحسن منه.

فلما علمت العجوز أن هواه ملكها قالت لها: أَمَا قلتُ لك يا سيدتي إنه شاب مليح بوجه صبيح. قالت لها بنت الملك: يا دايتي، إن بنات الملوك لا يعرفن أحوال الدنيا، ولا يعرفن صفات مَن فيها، ولا عاشرْنَ ولا أخذْنَ ولا أعطيْنَ. يا دايتي، كيف الوصول إليه؟ وبأي حيلةٍ أُقْبِل بوجهي عليه؟ وماذا أقول له ويقول لي؟ قالت العجوز: أي شيء في يدي الآن من الحيلة؟ قد صرنا متحيرين في هذا الأمر من أجلك. قالت بنت الملك: يا دايتي، اعلمي أنه ما مات أحد بالغرام إلا أنا، فها أنا أيقنت بالممات من وقتي، وكل هذا من نار وجدي. فلما سمعت العجوز كلامها، ورأت في هواه غرامها قالت لها: يا سيدتي، أما حضوره عندك فلا سبيل إليه، وأنت معذورة في عدم رواحك إليه لأنك صغيرة، لكن قومي معي وأنا قدامك إلى أن تصلي إليه وأنا أكون مخاطبة له، فما يحصل لك خجل وهي لحظة عين، حتى يحصل الأنس بينكما. قالت الملكة: قومي قدامي فقضاء الله لا يُرَدُّ. ثم قامت الداية وبنت الملك حتى أقبلا على ابن الملك وهو جالس كأنه البدر في تمامه، فلما وصلتا إليه قالت له العجوز: انظر يا فتى مَن حضر بين يديك، وهي بنت ملك الزمان حياة النفوس، فاعرف قيمتها ومقدار مشيها إليك وقدومها عليك، قم تعظيمًا لها وتمثَّل قائمًا على قدمَيْك. فنهض الغلام من وقته وساعته قائمًا على قدميه، ووقعت عينه في عينها، فصار كلٌّ واحد منهما كالسكران بغير مدام، وقد زاد بها شوقه وغرامه، ففتحت بنت الملك يديها وكذلك الغلام، واعتنقا وهما في غاية الاشتياق، فغلب عليهما الهوى والغرام، فغُشِي عليهما الاثنان، ووقعا على الأرض واستمرا ساعة طويلة، فخشيت العجوز من الهتيكة فأدخلتهما القصر وقعدت على بابه وقالت للجواري: اغتنموا الفرجة فإن الملكة نائمة. فرجع الجواري إلى الفرجة. ثم إنهما قاما من غشيتهما فوجدا أنفسهما داخل القصر، ثم قال الغلام: بالله عليك يا سيدة الملاح، هل هذا منام أم أضغاث أحلام؟ ثم اعتنقا الاثنان وسكرا من غير مدام، وتشاكيا لوعة الغرام، فأنشد الغلام هذه الأبيات:

الشَّمْسُ مِنْ وَجْهِهَا الْوَضَّاحِ طَالِعَةٌ	كَذَاكَ مِنْ وَجْنَتَيْهَا حُمْرَةُ الشَّفَقِ
فَإِنَّهُ حَيْثُمَا لِلنَّاظِرِينَ بَدَا	يَغِيبُ مِنْهُ حَيَاءً كَوْكَبُ الْأُفُقِ
وَإِنْ بَدَا بَارِقٌ مِنْ ثَغْرِ مَبْسِمِهَا	لَاحَ الصَّبَاحُ فَأَجْلَى غَيْهَبَ الْغَسَقِ
وَإِنْ تُثَنِّي قَوَامًا مِنْ مَعَاطِفِهَا	تَغَارُ مِنْهُ غُصُونُ الْبَانِ فِي الْوَرَقِ
عِنْدِي عَنِ الْكُلِّ مَا يُغْنِي بِرُؤْيَتِهَا	أُعِيذُهَا بِإِلَهِ النَّاسِ وَالْفَلَقِ

أَعَارَتِ الْبَدْرَ جُزْءًا مِنْ مَحَاسِنِهَا وَرَامَتِ الشَّمْسُ تَحْكِيهَا فَلَمْ تُطِقِ
مِنْ أَيْنَ لِلشَّمْسِ أَعْطَافٌ تَمِيسُ بِهَا مِنْ أَيْنَ لِلْبَدْرِ حُسْنُ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ
فَمَنْ يَلُمْنِي وَكُلِّي فِي مَحَبَّتِهَا مَا بَيْنَ مُفْتَرِقٍ فِيهَا وَمُتَّفِقِ
هِيَ الَّتِي مَلَكَتْ قَلْبِي بِلَفْتَتِهَا فَمَا الَّذِي لِقُلُوبِ الْعَاشِقِينَ بَقِي

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن الملك لما فرغ من شعره ضمته بنت الملك إلى صدرها وقبَّلت فاه وما بين عينيه، فعادت إليه روحه وصار يشكو إليها ما قاساه من شدة العشق وجور الغرام، وكثرة الشوق والهيام، وما جرى له من قسوة قلبها؛ فلما سمعت كلامه قبَّلَتْ يدَيْه وقدمَيْه، وكشفت رأسها فأظلم الديجور وأشرقت فيه البدور، وقالت: يا حبيبي وغاية مرادي، لا كان يوم الصدود ولا جعله الله بيننا يعود. فعندها تعانقا وتباكيا وأنشدت بنت الملك هذه الأبيات:

يَا مُخْجِلَ الْبَدْرِ وَشَمْسَ النَّهَارِ — حَكَمْتَ فِي قَتْلِ مُحِبٍّ فَحَارْ
بِسَيْفِ لَحْظٍ قَاطِعٍ فِي الْحَشَا — وَأَيْنَ مِنْ سَيْفِ اللِّحَاظِ الْفِرَارْ
وَشِبْهُ قَوْسٍ حَاجِبَاكَ ارْتَمَى — مِنْهَا بِقَلْبِي سَهْمُ وَجْدٍ وَنَارْ
وَمِنْ جَنَى خَدَّيْكَ لِي جَنَّةٌ — فَهَلْ لِقَلْبِي عَنْ جَنَاهَا اصْطِبَارْ
وَقَدُّكَ الْمَايِسُ غُصْنٌ زَهَا — مِنْ حَمْلِ هَذَا الْغُصْنِ تُجْنَى الثِّمَارْ
جَذَبْتَنِي قَهْرًا وَأَسْهَرْتَنِي — وَقَدْ خَلَعْتُ فِي هَوَاكَ الْعِذَارْ
أَعَانَكَ اللهُ بِنُورِ الضِّيَا — وَقَرَّبَ الْبُعْدَ وَأَدْنَى الْمَزَارْ
فَارْحَمْ فُؤَادًا فِي هَوَاكَ انْكَوَى — وَقَلْبَ مُضْنًى بِعُلَاكَ اسْتَجَارْ

فلما فرغت من شعرها، فاض عليها الغرام، وهامت وبكت بدموع غزار سجام، فأحرقت قلب الغلام فتغنَّى في هواها وهام، وتقدم إليها وقبَّل يديها وبكى بكاءً شديدًا، ولم يزالا في عتاب ومنادمات وأشعار إلى أن أذَّن العصر، ولم يكن بينهما غير ذلك، فهَمَّا بالانصراف، فقالت له بنت الملك: يا نور عيني وحشاشة كبدي، هذا وقت الفراق فمتى يكون التلاق؟ قال الغلام وقد أصابه من كلامها سهام: والله لا أحبُّ ذِكْرَ الفراق. ثم إنها

خرجت من القصر، فالتفت إليها فوجدها تئنُّ أنينًا يذيب الحجر، وتبكي بدموع كالمطر، فغرق من العشق في بحر الهلكات، وأنشد هذه الأبيات:

أَيَا مُنْيَةَ الْقَلْبِ زَادَ اشْتِغَالِي ... لِفَرْطِ هَوَاكِ فَكَيْفَ احْتِيَالِي
فَوَجْهُكِ كَالصُّبْحِ مَهْمَا بَدَا ... وَشَعْرُكِ فِي اللَّوْنِ يَحْكِي اللَّيَالِي
وَقَدُّكِ غُصْنٌ إِذَا مَا انْثَنَى ... وَقَدْ حَرَّكَتْهُ رِيَاحُ الشَّمَالِ
وَأَلْحَاظُ عَيْنَيْكِ تَحْكِي الظِّبَا ... إِذَا رَمَقَتْهَا كِرَامُ الرِّجَالِ
وَخَصْرُكِ مُضْنًى بِرِدْفٍ ثَقِيلٍ ... فَهَذَا ثَقِيلٌ وَهَذَاكَ بَالِ
وَمِنْ خَمْرِ رِيقِكِ أَحْلَى شَرَابٍ ... وَمِسْكٍ زَكِيٍّ وَبَرْدِ الزُّلَالِ
فَيَا ظَبْيَةَ الْحَيِّ كُفِّي الْأَسَى ... وَجُودِي عَلَيَّ بِطَيْفِ الْخَيَالِ

فلما سمعت ذلك بنت الملك في وصفها، رجعت إليه واعتنقته بقلب حريق أضرم ناره الفراق، ولا يُطْفِئه غير التقبيل والعناق، وقالت: إن صاحب المثل السائر يقول: الصبر على الحبيب ولا فقده. ولا بد أن أدبِّر حيلةً في الاجتماع. ثم ودَّعَتْه وراحت وهي لا تدري أين تضع قدمها من شدة عشقها. ولم تزل سائرة حتى ألقت نفسها في مقصورتها، وأما الغلام فإنه قد زاد به الشوق والهيام، وحُرِم لذيذ المنام. ثم إن الملكة لم تذق طعامًا، وفرغ صبرها وضعف جلدها، فلما أصبح الصباح طلبت الداية، فلما حضرت بين يديها وجدت حالها تغيَّر، فقالت لها: لا تسألي عمَّا أنا فيه؛ لأن جميع ما أنا فيه من يدك. ثم قالت لها: أين محبوب قلبي؟ قالت لها العجوز: يا سيدتي، ومتى فارقك؟ هل بعد عنك غير هذه الليلة؟ قالت لها: وهل يمكنني أن أصبر عنه ساعة واحدة؟ قومي تحيَّلِي واجمعي بيني وبينه بسرعةٍ، فإن روحي كادت أن تخرج. قالت لها الداية: طوِّلِي روحك يا سيدتي حتى أدبِّر لكما أمرًا لطيفًا لا يشعر به أحد. فقالت لها: والله العظيم إذا لم تأتِ به في هذا اليوم لَأقولن للملك وأخبره أنكِ أفسدتِ حالي، فيبر عنقك. قالت العجوز: سألتك بالله أن تصبري عليَّ، فإن هذا الأمر خطر. ولم تزل تخضع لها حتى صبَّرتها ثلاثة أيام، وبعد ذلك قالت لها: يا دايتي، إن الثلاثة أيام مقوَّمة عليَّ بثلاث سنين، فإن فات اليوم الرابع ولم تحضريه عندي سعيتُ في قتلك. فخرجت الداية من عندها وتوجهت إلى منزلها.

فلما كان صبح اليوم الرابع دعت بمواشط البلد، وطلبت منهم نقشًا مليحًا من أجل تزويق بنتٍ بِكْرٍ وتنقيشها وتكتيبها، فأحضرن إليها مطلوبها من أحسن ما يكون، ثم دعت بالغلام فحضر، وفتحت صندوقها وأخرجت منه بقجة فيها حلة من ثياب النساء

تساوي خمسة آلاف دينار بعصابة مطرزة بأنواع الجواهر، وقالت: يا ولدي، أتحب أن تجتمع بحياة النفوس؟ قال لها: نعم. فأخرجت محفة وحفَّفَتْه بها وكحَّلته، ثم أعرته وركبت النقش على يديه من ظفره إلى كتفه، ومن مشط رجليه إلى فخذيه، وكتبت سائر جسده، فصار كأنه ورد أحمر على صفايح المرمر، ثم بعد مدة لطيفة غسلته ونظفته وأخرجت له قميصًا ولباسًا، ثم ألبسته تلك الحلة الكسروية وعصبته وقنَّعته وعلَّمته كيف يمشي، وقالت له: قدِّمِ الشمال وأخِّرِ اليمين. ففعل ما أمرته به ومشى قدامها، فصار كأنه حورية خرجت من الجنة، ثم قالت له: قوِّ قلبك فإنك قادم على قصر ملك، ولا بد أن يكون على باب القصر جنود وخدم، ومتى فزعت منهم أو حصل عندك وهم، تفرَّسوا فيك وعرفوك، فيحصل لنا الأذى وتروح أرواحنا، فإن لم يكن عندك مقدرة على ذلك فأَعْلِمْني. قال: إن هذا الأمر لا يروِّعني، فطيبي نفسًا وقرِّي عينًا. فخرجت تمشي أمامه إلى أن وصلا إلى باب القصر وهو ملآن بالخدام، والتفتت العجوز إليه لتنظر هل حصل عنده وهم أم لا؟ فوجدته على حاله ولم يتغيَّر، فلما وصلت العجوز نظر إليها رئيس الخدام فعرفها، ووجد خلفها جارية تتحيَّر العقول في وصفها، فقال في نفسه: أما العجوز فهي الداية، وأما التي خلفها فما في أرضنا مَن يشبه شكلها ولا يقارب حُسْنها ولا ظرفها، إلا إن كانت الملكة حياة النفوس، ولكنها محجوبة لا تخرج أبدًا، فيا ليت شعري كيف خرجت في الطريق؟ ويا ترى هل خرجت بإذن الملك أم بغير إذنه؟ فنهض قائمًا على قدميه حتى يكشف خبرها فتبعه نحو ثلاثين خادمًا، فلما نظرتهم العجوز طار عقلها وقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، قد راحت أرواحنا في هذه الساعة بلا شكٍّ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما رأت رئيس الخدام مُقبِلًا هو وغلمانه حصل لها غاية الخوف وقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، قد راحت أرواحنا في هذه الساعة بلا شك. فلما سمع رئيس الخدام من العجوز هذا الكلام، أدركه الوهم لما يعلمه من سطوة بنت الملك، وأن أباها تحت حكمها. ثم قال في نفسه: لعل الملك أمر الداية أن تأخذ ابنته لقضاء حاجةٍ ولا تريد أن يعلم أحد بحالها، ومتى تعرَّضتُ لها يصير في نفسها شيء عظيم مني وتقول: إن هذا الطواشي واجهني ليكشف عن حالي. فتسعى في قتلي، فليس لي بهذا الأمر حاجة. فولَّى راجعًا ورجع الثلاثون خادمًا معه نحو باب القصر، وطردوا الخلق من عند باب القصر، فدخلت الداية وسلَّمت برأسها، فوقف الثلاثون خادمًا إجلالًا لها وردُّوا عليها السلام. ثم دخلت ودخل ابن الملك خلفها، ولم يزالا داخلين من الأبواب حتى عدوا جميع الدركات، وستر عليهما الستار إلى أن وصلا إلى الباب السابع، وهو باب القصر الأكبر الذي فيه سرير الملك، ومنه يتوصل إلى مقاصير السراري وقاعات الحريم وقصر بنت الملك، فوقفت العجوز هناك وقالت: يا ولدي، ها نحن قد وصلنا إلى ها هنا، فسبحان مَن أوصلنا إلى هذا المكان، ويا ولدي، ما يتأتى لنا الاجتماع إلا في الليل، فإنه ستر على الخائف. قال لها: صدقتِ، فكيف الحيلة؟ قالت له: اختفِ في هذا المكان المظلم. فقعد في الجب وراحت العجوز إلى محل آخَر وخلَّتْه فيه حتى ولَّى النهار، فحضرت إليه وأخرجته ودخلا من باب القصر، ولم يزالا داخلين حتى وصلا إلى مقصورة حياة النفوس، فطرقت الدايةُ البابَ فخرجت جارية صغيرة وقالت: مَن بالباب؟ فقالت الداية: أنا. فرجعت الجارية واستأذنت سيدتها في دخول الداية، فقالت لها: افتحي لها ودعيها تدخل هي ومَن معها. فدخلا.

فلما أقبلا التفتت الداية إلى حياة النفوس، فوجدتها قد جهَّزت المجلس وصفَّتِ القناديل وفرشت المراتب واللواوين بالبسط، وحطت المساند وأوقدت الشموع على الشمعدانات الذهب والفضة، وحطَّتِ السماط والفواكه والحلويات، وأطلقت المسك والعود والعنبر، وقعدت بين القناديل والشموع، فصار ضوء وجهها يغلب ضوء الجميع. فلما نظرت الداية قالت لها: يا دايتي، أين محبوب قلبي؟ قالت لها: يا سيدتي، ما لقيته ولا وقعت عيني عليه، ولكن جئتُ لكِ بأخته شقيقته بين يديك. قالت لها: هل أنت مجنونة؟ ليس لي حاجة بأخته، فهل إذا وجع الإنسان رأسه ربط يده؟ قالت: لا والله يا سيدتي، ولكن انظري إليها فإن أعجبتك خليها عندك. وكشفت عن وجهها، فلما عرفته قامت على أقدامها وضمَّتْه إلى صدرها وضمَّها إلى صدره، ثم وقعا على الأرض مغشيًّا عليهما ساعة طويلة، فرشت عليهما الداية ماءَ الورد فأفاقا، ثم إنها قبَّلته في فمه ما ينوف عن ألف قُبْلة، وأنشدت هذه الأبيات:

زَارَنِي مَحْبُوبُ قَلْبِي فِي الْغَلَسْ ... قُمْتُ إِجْلَالًا لَهُ حَتَّى جَلَسْ
قُلْتُ: يَا سُؤْلِي وَيَا كُلَّ الْمُنَى ... زُرْتَنِي فِي اللَّيْلِ مَا خِفْتَ الْعَسَسْ
قَالَ لِي: خِفْتُ وَلَكِنَّ الْهَوَى ... آخِذٌ لِلرُّوحِ مِنِّي وَالنَّفَسْ
فَاعْتَنَقْنَا وَالْتَزَمْنَا سَاعَةً ... هَا هُنَا امْنُنْ فَلَا تَخْشَ حَرَسْ
ثُمَّ قُمْنَا مَا بِنَا مِنْ رِيبَةٍ ... نَنْفُضُ الْأَذْيَالَ مَا فِيهَا دَنَسْ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حياة النفوس لما أتاها محبوبها في القصر، تعانقا وأنشدت أشعارًا فيما يناسب ذلك، فلما فرغت من إنشادها قالت: هل هذا صحيح من كوني نظرتك في منزلي وأنت نديمي ومؤنسي؟ ثم قوي بها الهوى وأضرمها الجوى، حتى كاد أن يطير عقلها من الفرح به، فأنشدت هذه الأبيات:

بِنَفْسِي الَّذِي قَدْ زَارَ فِي غَسَقِ الدُّجَى ... وَكُنْتُ إِلَى مِيعَادِهِ مُتَرَقِّبَا
فَمَا رَاعَنِي إِلَّا رَخِيمُ بُكَائِهِ ... فَقُلْتُ لَهُ: أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبَا
وَقَبَّلْتُهُ فِي خَدِّهِ أَلْفَ قُبْلَةٍ ... وَعَانَقْتُهُ أَلْفًا وَكَانَ مُحَجَّبَا
وَقُلْتُ: لَقَدْ نُلْتُ الَّذِي كُنْتُ أَرْتَجِي ... فَلِلَّهِ حَمْدٌ قَدْ أَحَقَّ وَأَوْجَبَا
وَبِتْنَا كَمَا شِئْنَا بِأَحْسَنِ لَيْلَةٍ ... إِلَى أَنْ جَلَا مِنْ لَيْلِنَا الصُّبْحُ غَيْهَبَا

فلما أصبح الصباح أدخلته في محل عندها لم يطَّلِع عليه أحدٌ إلى أن أتى الليل، فأطلعته وجلسا يتنادمان، فقال لها: قصدي أن أعود إلى دياري وأُعْلِم أبي بأخبارك لأجل أن يجهِّز وزيره إلى أبيك فيخطبك منه. قالت: يا حبيبي، أخشى أن تروح إلى أرضك وحكمك فتلتهي عني وتَسْلَى محبتي، أو أن أباك لا يوافقك على هذا الكلام فأموت أنا والسلام، والرأي السديد أن تكون أنت معي وفي قبضتي فتنظر إلى طلعتي وأنظر إلى طلعتك، حتى أدبر لك حيلة وأخرج أنا وأنت في ليلة فننزح إلى بلادك، فإني قطعت رجائي ويئست من أهلي. فقال لها: سمعًا وطاعةً. واستمرَّا على ما هما فيه من شرب الخمر. ثم إنه طاب لهما الشراب في ليلة من الليالي، فلم يهجعا ولم يناما إلى أن لاح الفجر، وإذا بأحد الملوك أرسل إلى أبيها هدية ومن جملتها قلادة من الجوهر اليتيم، وهي

تسعة وعشرون حبة لا تفي خزائن ملك بثمنها. ثم إن الملك قال: ما تصلح هذه القلادة إلا لبنتي حياة النفوس. والتفت إلى خادم كانت قلعت أضراسه لمقتضى ذلك، فناداه الملك وقال: خذ هذه القلادة وأوصلها إلى حياة النفوس وقل لها: إن أحد الملوك أرسلها هدية لأبيك ولا يوجد مالٌ يَفِي لها بقيمة، فضعيها في عنقك. فأخذها الغلام وهو يقول: الله تعالى يجعلها آخِر لبسها من الدنيا، لقد أعدمتني نفع أضراسي.

ثم إنه سار حتى وصل إلى باب المقصورة فوجد الباب مغلوقًا والعجوز نائمة على الباب، فأيقظها فانتبهت مرعوبةً وقالت له: ما حاجتك؟ قال لها: إن الملك أرسلني في حاجة إلى ابنته. قالت: إن المفتاح ما هو حاضر، رح إلى أن أحضر المفتاح. قال لها: ما أقدر أن أروح للملك. فراحت العجوز لأجل أن تحضر المفتاح فأدركها الخوف، فطلبت النجاة لنفسها. فلما أبطأت على الخادم خاف من إبطائه على الملك، فحرَّكَ الباب وهزَّه فانكسر القفيز وانفتح الباب فدخل، ولم يزل داخلًا إلى أن وصل إلى الباب السابع، فلما دخل المقصورة وجدها مفروشة بفرش عظيم وهناك شموع وقناني، فتعجَّبَ الخادم من ذلك الأمر وتمشى إلى أن وصل إلى التخت وعليه ستر من الإبريسم، وعليه شبكة من الجوهر، فكشف الستر عنه فوجد بنت الملك وهي راقدة وفي حضنها شاب أحسن منها، فعظَّمَ الله تعالى الذي خلقه من ماء مهين، ثم قال: ما أحسن هذه الفعال ممَّن تبغض الرجال؟ ومن أين وصلت إلى هذا؟ وأظنها ما قلعت أضراسي إلا من أجله. ثم إنه رد الستر إلى مكانه وخرج طالبًا الباب، فانتبهت مرعوبة ونظرت للخادم كافور ونادته فلم يُجِبْها، فنزلت ولحقته وأخذت ذيله ووضعته على رأسها وقبَّلت رجليه، وقالت له: استر ما ستر الله. فقال: الله لا يستر عليك ولا على مَن يستر عليك، أنت قلعتِ أضراسي وتقولين لي: لا يذكر لي أحد شيئًا من صفات الرجال. وانفلت منها وخرج وهو يجري وقفل عليهما الباب، وحط عليه خادمًا يحرسه ودخل على الملك، فقال له الملك: هل أعطيت القلادة لحياة النفوس؟ فقال الخادم: والله إنك تستحق أكثر من هذا كله. فقال الملك: وما حصل؟ قل لي وأسرع في الكلام. قال: لا أقول لك إلا في خلوة بيني وبينك. فقال له: قل بلا خلوة. فقال الخادم: أعطني الأمان. فرمى له منديل الأمان، فقال الخادم: أيها الملك، دخلت على الملكة حياة النفوس فوجدتها في مجلس مفروش، وهي نائمة وفي حضنها شاب، فقفلتُ عليهما الباب وحضرت بين يديك. فلما سمع الملك كلامه، نهض قائمًا وأخذ سيفًا في يده وصاح على رئيس الخدام وقال له: خذ معك صبيانك وادخل على حياة النفوس وهاتها هي ومَن معها، وهما على التخت نائمان وغطوهما بغطائهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما أمر الخادم أن يأخذ صبيانه ويتوجهوا إلى حياة النفوس ويأتوا بها هي ومَن معها بين يديه، خرج الخادم ومَن معه ودخلوا فوجدوا حياة النفوس واقفة على أقدامها والبكاء والعويل قد أذابها، وكذلك ابن الملك، فقال رئيس الخدام للغلام: اضطجع على السرير كما كنتَ وكذلك ابنة الملك. فخشيت بنت الملك عليه وقالت له: ما هذا وقت المخالفة. فاضطجع الاثنان وحملوهما إلى أن أوصلوهما بين يدي الملك، فلما كشف الملك عنهما نهضت ابنة الملك على أقدامها، فنظر لها الملك وأراد أن يضرب عنقها، فسبق الغلام ورمى نفسه في صدر الملك وقال: أيها الملك، ليس لها ذنب، الذنب مني أنا، فاقتلني قبلها. فقصده ليقتله فرمت حياة النفوس نفسها على أبيها وقالت: اقتلني أنا ولا تقتله، فإنه ابن الملك الأعظم صاحب جميع الأرض في طولها والعرض.

فلما سمع الملك الكلام كلام ابنته، التفت إلى وزيره وكان محضر سوء وقال له: ما تقول يا وزير في هذا الأمر؟ قال الوزير: الذي أقوله: كل مَن وقع في هذا الأمر يحتاج للكذب، وما لهما إلا ضرب أعناقهما بعد أن تعذِّبهما بأنواع العذاب. فعندها دعا الملك بسيَّاف نقمته فجاء ومعه صبيانه، فقال الملك: خذوا هذا العلق واضربوا عنقه، وبعده هذه الفاجرة، واحرقوهما ولا تشاوروني في أمرهما مرةً ثانية. فعند ذلك حط السياف يده في ظهرها ليأخذها، فصاح الملك عليه ورجمه بشيء كان في يده كاد أن يقتله وقال له: يا كلب، كيف تكون حليمًا عند غضبي؟ حطَّ يدك في شعرها وجرها منه حتى تقع على وجهها. ففعل كما أمره الملك وسحبها على وجهها، وكذلك الغلام، إلى أن وصل بهما إلى محل الدم، وقطع من ذيل ثوبه وعصب عينيه، وجرَّدَ سيفه وكان ماضيًا، وأخَّرَ بنت الملك ترجيًا أن تقع فيها شفاعة، وقد اشتغل بالغلام ولعب السيف ثلاث مرات وجميع العسكر يتباكون ويدعون الله أن يحصل لهما شفاعة، فرفع السياف يده وإذا بغبار قد ثار حتى

ملأ الأقطار. وكان السبب في ذلك أن الملك أبا الغلام لما أبطأ عليه خبر ولده، تجهَّزَ في عسكر عظيم وتوجَّهَ بنفسه للبحث عن ولده.

هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الملك عبد القادر، فإنه لما ظهر ذلك الغبار قال: يا قوم ما الخبر؟ وما هذا الغبار الذي غشي الأبصار؟ فنهض الوزير الأكبر ونزل من بين يديه متوجهًا إلى ذلك الغبار ليعرف حقيقة أمره، فوجد خلقًا كالجراد لا يُحصَى لهم عدد ولا ينفذ لهم مدد، قد ملئوا الجبال والأودية والتلال، فعاد الوزير إلى الملك وأخبره بالقضية، فقال الملك للوزير: انزل واعرف لنا خبر هذا العسكر، وما السبب في مجيئهم إلى بلادنا؟ واسأل عن قائد هذا الجيش وبلغه مني السلام واسأله: ما سبب حضوره؟ فإن كان يقصد قضاء حاجة ساعدناه، وإن كان له ثأر عند أحد الملوك ركبنا معه، وإن كان يريد هدية هاديناه، فإن هذا عدد عظيم وجيش جسيم، ونخشى على أرضنا من سطوته. فنزل الوزير ومشى بين الخيام والجنود والأعوان، ولم يزل ماشيًا من أول النهار إلى قرب المغرب حتى وصل إلى أصحاب السيوف المذهبة والخيام المكوكبة، ثم وصل من بعدهم إلى الأمراء والوزراء والحجاب والنواب. ولم يزل يتمشى إلى أن وصل إلى السلطان، فرآه ملكًا عظيمًا، فلما رآه أرباب الدولة صاحوا عليه: قبِّلِ الأرض. فقبَّل الأرض وقام، فصاحوا عليه ثانيًا وثالثًا إلى أن رفع رأسه وقصد أن يقوم من طوله من شدة الهيبة، فلما تمثَّلَ بين يدي الملك قال: أدام الله أيامك، وأعز سلطانك، ورفع قدرك أيها الملك السعيد وبعدُ، فإن الملك عبد القادر يسلم عليك ويقبِّل الأرض بين يديك، ويسألك في أي المهمات أتيت؟ فإن كنت قاصدًا أخذ ثأر من الملوك ركب في خدمتك، وإن كنت قاصدًا غرضًا يمكنه قضاؤه قام بخدمتك في شأنه. قال له الملك: أيها الرسول، اذهب إلى صاحبك وقل له: إن الملك الأعظم له ولد غاب عنه مدة، وقد أبطأت عليه أخباره، وانقطعت عنه آثاره، فإن كان في هذه المدينة أخذه وارتحل عنكم، وإن كان جرى عليه أمر من الأمور وارتمى عندكم بمحظور، فإن والده يخرب دياركم وينهب أموالكم ويقتل رجالكم ويسبي نساؤكم، فارجع إلى صاحبك سرعة وعرِّفه بذلك من قبل أن يحل به البلاء. قال: سمعًا وطاعة. ثم قصد الانصراف فصاح عليه الحجاب: قبِّلِ الأرض، قبِّلِ الأرض. فقبَّلها عشرين مرة، فما قام إلا وروحه في أنفه. ثم خرج من مجلس الملك، ولم يزل سائرًا وهو متفكر في أمر هذا الملك وكثرة جيوشه إلى أن وصل إلى الملك عبد القادر وهو مقطوف اللون في غاية الوجل مرتعد الفرائص، ثم عرَّفه بما اتفق له. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما رجع من عند الملك الأعظم، وأخبر الملك عبد القادر بما وقع له وهو مقطوف اللون ترتعد فرائصه من شدة الوجل، قال له الملك عبد القادر وقد داخله الوسواس والمخافة على نفسه وعلى الناس: يا وزير، مَن يكون ولد هذا الملك؟ قال: إن ولده هو الذي أمرتَ بقتله، والحمد لله الذي لم يعجِّل قتله، فإن أباه كان يخرب ديارنا وينهب أموالنا. فقال له الملك: انظر رأيك الفاسد حيث أشرتَ علينا بقتله، فأين الغلام ولد هذا الملك الهمام؟ قال له: أيها الملك الهمام، إنك قد أمرت بقتله. فلما سمع هذا الكلام اندهش عقله، وصاح من صميم قلبه ورأسه: ويلكم، أدركوا السياف لئلا يوقع عليه القتل. ففي الوقت أحضروا السياف، فلما حضر قال له: يا ملك الزمان، قد ضربت عنقه كما أمرتَني. فقال له: يا كلب، إنْ صحَّ ذلك لا بد أن ألحقك به. قال: أيها الملك، إنك أمرتني بقتله من غير أن أشاورك فيه مرةً ثانية. قال الملك: كنت في غيظي، فتكلَّمِ الحقَّ قبل تلف روحك. قال له: أيها الملك، هو في قيد الحياة. ففرح الملك واطمأنَّ قلبه وأمر بإحضاره. فلما حضر بين يديه نهض له قائمًا على قدميه، وقبَّل فاه وقال له: يا ولدي، أستغفرُ الله العظيم مما وقع مني في حقك، فلا تتكلم بما يحط قدري عند والدك الملك الأعظم. قال الغلام: يا ملك الزمان، وأين الملك الأعظم؟ قال له: لقد جاء بسببك. قال الغلام: وحق حرمتك ما أبرح من بين يديك حتى أبرِّئ عرضي وعرض بنتك ممَّا نُسِبنا إليه، وهي بكر عذراء، فاطلب الدايات القوابل لتكشف عليها بين يديك، فإن وجدتَ بكارتها زالت فقد أبحتك دمي، وإن كانت عذراء فأَظْهِر براءة عرضي وعرضها. فدعا القوابل، فلما كشفْنَ عليها وجدْنَها عذراء، فأخبرن الملك بذلك وطلبن منه الإنعام، فأنعم عليهم وخلع ما كان عليه، وكذلك أنعم على جميع مَن في الحريم، وأخرجوا طاسات الطيب فطيبوا أرباب الدولة وفرحوا غاية الفرح.

ثم إن الملك اعتنق الغلام وعامله بالتعظيم والإكرام، وأمر بإدخاله الحمام مع خاصته من الخدام، فلما خرج أفرغ عليه خلعة سنية وتوجه بتاج من الجوهر ووشحه بوشاح من الإبريسم مزركش بالذهب الأحمر، مرصَّع بالدر والجوهر، وأركبه فرسًا من أحسن الخيل بسرج من الذهب مرصَّع بالدر والجوهر، وأمر أرباب ورؤساء مملكته بالركوب في خدمته إلى أن يصل إلى أبيه. ثم أوصى الغلام أن يقول لأبيه الملك الأعظم: إن الملك عبد القادر تحت أمرك، سامع مطيع لك في جميع ما تأمره وتنهاه. فقال الغلام: لا بد من ذلك. ثم ودَّعه وسار متوجِّهًا إلى أبيه، فلما نظر إليه أبوه طار عقله من الفرح، ثم نهض له قائمًا على قدميه ومشى له خطوات وعانقه، وشاع الفرح والسرور في عسكر الملك الأعظم، ثم حضر جميع الوزراء والحجاب، وجميع الجند والقواد، وقبَّلوا الأرض بين يديه وفرحوا بقدومه، وكان لهم في الفرح يوم عظيم، وأباح ابن الملك لَمن معه وغيرهم من مدينة الملك عبد القادر أن يتفرجوا على ما عليه عساكر الملك الأعظم، ولا يعارضهم أحد حتى يروا كثرة جنوده وقوة سلطانه، فصار كلُّ مَن دخل سوق البزازين ونظر الغلام قبل ذلك وهو جالس في المكان، يتعجَّب منه كيف رضي لنفسه ذلك مع شرف نفسه وعظيم منزلته! ولكن أحوجه إلى ذلك حبه وميله لبنت الملك. وشاعت الأخبار بكثرة عساكره، فبلغ ذلك حياة النفوس فأشرفت من أعلى القصر ونظرت إلى الجبال، فرأتها امتلأت بعساكر وجيوش، وكانت في قصر أبيها مسجونة تحت الأمر حتى يعلموا ما يأمر به الملك في شأنها، إما بالرضى والإطلاق، وإما بالقتل والإحراق.

فلما رأت حياة النفوس هذه العساكر وعلمت أنها عساكر أبيه، خافت أن ابن الملك ينساها ويلتهي عنها بأبيه، ثم يرحل عنها فيقتلها أبوها، فأرسلت إليه الجارية التي كانت عندها في المقصورة برسم الخدمة، وقالت لها: امضي إلى أردشير ابن الملك ولا تخافي، فإذا وصلتِ إليه فقبِّلي الأرض بين يديه وعرفيه بنفسك وقولي له: إن سيدتي تسلِّم عليك وإنها الآن محبوسة في قصر أبيها تحت الأمر، فإما أن يقصد العفو عنها، وإما أن يقصد قتلها، وتسألك أنك لا تنساها ولا تتركها، فإنك اليومَ ذو مقدرة، ومهما أشرت إليه لا يقدر أحد أن يخالف أمرك، فإن حسن عندك أن تخلِّصها من أبيها وتأخذها عندك كان من فضلك، فإنها قد تحملت هذه المكاره من أجلك، وإن لم يحسن عندك ذلك حيث فرغ غرضك منها، فقل لوالدك الملك الأعظم لعله يشفع لها عند أبيها، ولا يرحل حتى يطلقها من أبيها، ويأخذ عليه العهد والميثاق ألَّا يفعل بها سوءًا ولا يتعمَّد قتلها، وهذا آخر الكلام ولا أوحش الله منك والسلام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية حين أرسلتها حياة النفوس إلى أردشير ابن الملك الأعظم، وصلت إليه وأخبرته بكلام سيدتها، فلما سمع منها هذا الكلام بكى بكاءً شديدًا وقال لها: اعلمي أن حياة النفوس سيدتي وأنا عبد هواها وأسيرها، ولا نسيت ما كان بيننا ولا مرارة يوم الفراق، فقولي لها بعد أن تقبِّلي قدمَيْها: إني أحدِّث أبي في أمرها، ويرسل وزيره الذي خطبك منه أولًا يخطبك، فإنه لم يقدر أن يخالف، فإن أرسل إليك أبوك ليشاورك في ذلك، فلا تخالفي، فإني لا أروح بلادي إلا بك. فرجعت الجارية إلى سيدتها وقبَّلت يديها وبلَّغَتْها رسالته، فلما سمعت ذلك الكلام بكت من شدة الفرح وحمدت الله تعالى.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر الغلام فإنه اختلى بأبيه في الليل وسأله عن حاله وما جرى له، فحدثه بجميع ما جرى من أوله إلى آخره، فقال له: ما تريد أن أفعل لك يا ولدي؟ فإن أردت إتلافه أخربت دياره ونهبت أمواله وهتكت حريمه. فقال له: لا أريد ذلك يا أبي، فإنه لم يفعل معي شيئًا يوجب ذلك، بل أريد اتصالي بها وأريد من إحسانك أن تجهز هدية وتقدمها لأبيها، ولكن تكون هدية نفيسة وترسلها مع وزيرك صاحب الرأي السديد. فقال له أبوه: سمعًا وطاعة. ثم إن أباه قصد ما ادَّخره من قديم الزمان، وأخرج منه كل شيء نفيس ثم عرضه على ولده فأعجبه، ثم دعا بالوزير وأرسل ذلك صحبته وأمره أن يسير بذلك إلى الملك عبد القادر، ويخطب منه بنته لابنه ويقول له: اقبل هذه الهدية وردَّ له الجواب. فسار الوزير متوجهًا إلى الملك عبد القادر، وكان الملك عبد القادر حزينًا من وقت فارق الغلام، ولم يزل مشغولَ الخاطر متوقعًا خراب ملكه وأخذ ضياعه، وإذا بالوزير قد أقبل عليه وسلَّمَ وقبَّلَ الأرض بين يديه، فقام له الملك على الأقدام وقابله بالإكرام، فأسرع الوزير ووقع على قدميه وقبَّلهما وقال له: العفو يا ملك

الزمان، إن مثلك لا يقوم لمثلي، وأن أقل عبيد الخدام، واعلم أيها الملك أن ابن الملك تكلم مع أبيه وعرَّفه ببعض فضلك عليه وإحسانك له، فشكرك الملك على ذلك، وقد جهز لك صحبة خادمك الذي بين يديك هديةً، وهو يُقْرِئك السلام ويخصُّك بالتحية والإكرام. فلما سمع الملك منه ذلك لم يصدقه من شدة خوفه حتى تقدَّمت إليه الهدية، فلما عُرِضت عليه وجدها هدية لا يفي بقدرها مالٌ، ولا يقدر ملك من ملوك الأرض على مثلها، فصغرت نفسه عنده؛ فعند ذلك نهض الملك قائمًا على قدميه، وحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقد شكر الملك ذلك الغلام.

ثم قال له الوزير: أيها الملك الكريم، أصغِ لكلامي، واعلم أن الملك الأعظم قد ورد عليك واختار القرب منك، وقد جئتك قاصدًا راغبًا في بنتك السيدة المصونة والجوهرة المكنونة حياة النفوس وزواجها بولده أردشير، فإن أجبتَ لهذا الأمر وكنتَ به راضيًا فاتفق معي على صداقها. فلما سمع منه ذلك الكلام قال: سمعًا وطاعة، أما من جهتي أنا فليس عندي مخالفة، وهو أحب ما يكون عندي، وأما من جهة البنت فإنها بالغة رشيدة وأمرها بيد نفسها، واعلم أن ذلك الأمر راجع إلى البنت، فإنها بالاختيار إلى نفسها. ثم إنه التفت إلى رئيس الخدام وقال له: امضِ إلى بنتي وعرِّفها بهذه الأحوال. فقال رئيس الخدام: سمعًا وطاعة. ثم إنه مشى حتى طلع قصر الحريم ودخل على بنت الملك وقبَّل يديها وأخبرها بما ذكره الملك، ثم قال لها: ما تقولين أنت في جواب هذا الكلام؟ فقالت: سمعًا وطاعة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن رئيس خدام الحريم لما أخبر بنت الملك بخطبتها لابن الملك الأعظم قالت: سمعًا وطاعةً. فلما سمع رئيس خدام الحريم هذا الكلام رجع إلى الملك وأعلمه الجواب، ففرح بذلك فرحًا شديدًا، ثم إنه دعا بخلعة سنية وأفرغها على الوزير، وأمر له بعشرة آلاف دينار وقال له: أوصل الجواب إلى الملك، واستأذنه لي في أن أنزل إليه. فقال الوزير: سمعًا وطاعة. ثم إن الوزير خرج من عند الملك عبد القادر ومشى حتى وصل إلى الملك الأعظم، وأوصل إليه الجواب وبلغه ما معه من الكلام، ففرح الملك بذلك، وأما ابن الملك فإنه قد طار عقله من الفرح، واتسع صدره وانشرح. ثم أذن الملك الأعظم بأن الملك عبد القادر ينزل إليه ويقابله، فلما كان في اليوم الثاني، ركب الملك عبد القادر وحضر عند الملك الأعظم فتلقاه ورفع مكانه وحيَّاه، وجلس هو وإياه، ووقف ابن الملك بين أيديهما. ثم قام خطيب من خاصة الملك عبد القادر وخطب خطبة بليغة، وهنَّأ ابن الملك بما قد حصل له من بلوغ مراده بتزويجه بالملكة سيدة بنات الملوك. ثم إن الملك الأعظم بعد جلوس الخطيب أمر بإحضار صندوق مملوء بالدر والجوهر وخمسين ألف دينار، وقال للملك عبد القادر: إني وكيل عن ولدي في جميع ما استقر عليه الأمر. فاعترف الملك عبد القادر بقبض الصداق، ومن جملته خمسون ألف دينار من أجل فرح بنته سيدة بنات الملوك حياة النفوس، وبعد هذا الكلام أحضروا القضاة والشهود، وكتبوا كتاب بنت الملك عبد القادر على ابن الملك الأعظم أردشير، وكان يومًا مشهودًا، وفرح فيه سائر المحبين واغتاظ به سائر المبغضين والحاسدين. ثم إنهم عملوا الولائم والدعوات، وبعد ذلك دخل عليها ابن الملك فوجدها درةً ما ثُقِبت، ومهرًا لغيره ما رُكِبت، فريدة مصونة وجوهرة مكنونة، وظهر ذلك لأبيها.

ثم إن الملك الأعظم سأل ولده: هل بقي في نفسه حاجة قبل الرحيل؟ قال: نعم أيها الملك، اعلم أني أريد الانتقام من الوزير الذي أساءنا، والطواشي الذي افترى الكذب علينا. فبعث الملك الأعظم إلى الملك عبد القادر في الحال، يطلب منه ذلك الوزير والطواشي

فأرسلهما إليه، فلما حضرا بين يديه أمر بشنقهما على باب المدينة، ثم أقاموا بعد ذلك مدة يسيرة وطلبوا من الملك عبد القادر إذنًا لابنته أن تتجهَّز للسفر، فجهَّزَها أبوها وأركبوا ابنه الملك في تخت من الذهب الأحمر، مرصَّع بالدر والجوهر، تجره الخيل الجياد، وأخذت معها جميع جواريها وخدمها، وعادت الداية إلى مكانها بعد هروبها وصارت على عادتها، وركب الملك الأعظم وولده وركب الملك عبد القادر وجميع أهل مملكته لوداع صهره وابنته، وكان يومًا يُعَدُّ من أحسن الأيام. فلما بعدوا عن الديار حلف الملك الأعظم على صهره أن يرجع إلى بلاده، فودَّعه ورجع إلى دياره بعد أن ضمه إلى صدره وقبَّله بين عينيه، وشكره على فضله وإحسانه، وأوصاه على ابنته. وبعد وداع الملك الأعظم وولده رجع إلى ابنته وعانقها، ثم قبَّلَتْ يدَيْه وبكيا في موقف الوداع، ثم رجع إلى مملكته وسار ابن الملك الأعظم هو وزوجته ووالده إلى أن وصلوا إلى أرضهم وجدَّدوا فرحهم، ثم أقاموا في ألذ عيش وأهناه، وأرغده وأحلاه، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات، ومخرِّب القصور ومعمِّر القبور، وهذا آخِر القصة.

حكاية جلناز وبدر باسم

ومما يُحكَى أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، في أرض العجم، ملكٌ يقال له شهرمان، وكان مستقره خراسان، وكان عنده مائة سرية، ولم يُرزَق منهن في طول عمره بذكر ولا أنثى، فتذكَّر ذلك يومًا من الأيام وصار يتأسف حيث مضى غالب عمره ولم يُرزَق بولد ذكر يَرِث الملك من بعده كما ورثه هو عن آبائه وأجداده، فحصل له بسبب ذلك غاية الغم والقهر الشديد. فبينما هو جالس يومًا من الأيام إذ دخل عليه بعض مماليكه وقال له: يا سيدي، إن على الباب جارية مع تاجر لم يُرَ أحسن منها. فقال لهم: عليَّ بالتاجر والجارية. فأتاه بالتاجر والجارية، فلما رآها وجدها تشبه الرمح الرديني، وهي ملفوفة في إزار من حرير مزركش بالذهب؛ فكشف التاجر عن وجهها فأضاء المكان من حُسْنها، وارتخى لها سبع ذوائب حتى وصلت إلى خلاخلها كأذيال الخيل، وهي بطرف كحيل، وردف ثقيل، وخصر نحيل، تشفي سقام العليل، وتطفئ نار الغليل، كما قال الشاعر في المعنى هذه الأبيات:

كَلِفْتُ بِهَا وَقَدْ تَمَّتْ بِحُسْنٍ ... وَكَمَّلَهَا السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ
فَلَا طَالَتْ وَلَا قَصُرَتْ وَلَكِنْ ... رَوَادِفُهَا يَضِيقُ بِهَا الْإِزَارُ

قَوَامٌ بَيْنَ إِيجَازٍ وَبَسْطٍ ... فَلَا طُولٌ يُعَابُ وَلَا اقْتِصَارُ
وَشَعْرٌ يَسْبِقُ الْخَلْخَالَ مِنْهَا ... وَلَكِنْ وَجْهُهَا أَبَدًا نَهَارُ

فتعجب الملك من رؤيتها وحُسْنها، وجمالها وقدِّها واعتدالها، وقال للتاجر: يا شيخ، بكم هذه الجارية؟ قال التاجر: يا سيدي اشتريتها بألفَيْ دينار من التاجر الذي كان ملكها قبلي، ولي ثلاث سنين مسافرًا بها، فتكلفت إلى أن وصلت إلى هذا المكان ثلاثة آلاف دينار، وهي هدية مني إليك. فخلع عليه الملك خلعة سنية، وأمر له بعشرة آلاف دينار، فأخذها وقبَّلَ يدي الملك، وشكر فضله وإحسانه وانصرف. ثم إن الملك سلم الجارية إلى المواشط، وقال لهن: أصلحن أحوال هذه الجارية وزيِّنَّها، وافرشن لها مقصورة وأدخلنها فيها، وأمر حجَّابه أن ينقلوا إليها جميع ما تحتاج إليه، وكانت المملكة التي هو مقيم فيها على جانب البحر، وكانت مدينته تُسمَّى المدينة البيضاء، فأدخلوا الجارية في مقصورة، وكانت تلك المقصورة لها شبابيك تطلُّ على البحر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك لما أخذ الجارية وسلمها للمواشط، وقال لهن: أصلحن شأنها وأدخلنها في مقصورة، وأمر حجَّابه أن يغلقوا عليها جميع الأبواب بعد أن ينقلوا لها جميع ما تحتاج إليه، فأدخلوها في مقصورة، وكانت تلك المقصورة لها شبابيك تطل على البحر. ثم إن الملك دخل على الجارية فلم تقم له ولم تفكر فيه، فقال الملك: كأنها كانت عند قوم لم يعلِّموها الأدب. ثم إنه التفت إلى تلك الجارية، فرآها بارعةً في الحُسْن والجمال، والقدِّ والاعتدال، ووجهها كأنه دائرة القمر عند تمامه، أو الشمس الضاحية في السماء الصاحية، فتعجَّبَ من حُسْنها وجمالها، وقدِّها واعتدالها، فسبَّحَ الله الخالق جلَّتْ قدرته. ثم إن الملك تقدم إلى الجارية وجلس بجانبها، وضمها إلى صدره وأجلسها على فخذه، ومص رضاب ثَغْرها، فوجده أحلى من الشهد. ثم إنه أمر بإحضار الموائد من أفخر الطعام، وفيها من سائر الألوان، فأكل الملك وصار يلقمها حتى شبعت وهي لم تتكلم بكلمة واحدة، فصار الملك يحدِّثها ويسألها عن اسمها وهي ساكتة لم تنطق بكلمة، ولم ترد عليه جوابًا، ولم تزل مطرقة برأسها إلى الأرض، وكان الحافظ لها من غضب الملك عليها فَرْط حُسْنها وجمالها، والدلال الذي كان لها، فقال الملك في نفسه: سبحان الله خالِق هذه الجارية! ما أظرفها إلا أنها لا تتكلم! ولكن الكمال لله تعالى. ثم إن الملك سأل الجواري هل تكلمت؟ فقلن له: من حين قدومها إلى هذا الوقت لم تتكلم بكلمة واحدة، ولم نسمع لها خطابًا. فأحضر الملك بعض الجواري والسراري، وأمرهن أن يغنين لها وينشرحن معها لعلها أن تتكلم، فلعبت الجواري والسراري قدامها بسائر الملاهي واللعب وغير ذلك، وغنَّيْنَ حتى طرب كلُّ مَن في المجلس، والجارية تنظر إليهن وهي ساكتة، ولم تضحك ولم تتكلم، فضاق صدر الملك، ثم إنه صرف الجواري، واختلى بتلك الجارية.

ثم إنه خلع ثيابه وخلع ثيابها، ونظر إلى بدنها فرآه كأنه سبيكة فضة فأَحَبَّها محبة عظيمة، ثم قام الملك وأزال بكارتها فوجدها بنتًا بِكْرًا، ففرح فرحًا شديدًا، وقال في نفسه: ياالله العجب، كيف تكون جارية مليحة القوام والمنظر، وأبقاها التجار بِكْرًا على حالها؟ ثم إنه مال إليها بالكلية ولم يلتفت إلى غيرها، وهجر جميع سراريه والمحاظي، وأقام معها سنة كاملة كأنها يوم واحد وهي لم تتكلم. فقال لها يومًا من الأيام وقد زاد عشقه بها والغرام: يا منية النفوس، إن محبتك عندي عظيمة، وقد هجرت من أجلك جميع الجواري والسراري والنساء والمحاظي، وجعلتك نصيبي من الدنيا، وقد طولت روحي عليك سنة كاملة، وأسأل الله تعالى من فضله أن يلين قلبك لي فتكلِّميني، وإن كنت خرساء فأعلميني بالإشارة حتى أقطع العشم من كلامك، وأرجو الله سبحانه أن يرزقني منك بولدٍ ذَكَر يَرِث ملكي من بعدي، فإني وحيد فريد ليس لي مَن يَرِثني، وقد كبر سني، فبالله عليك إن كنت تحبِّينني أن تردِّي عليَّ الجواب. فأطرقت الجارية رأسها إلى الأرض وهي تتفكَّر، ثم إنها رفعت رأسها، وتبسمت في وجه الملك، فتخيَّلَ للملك البرق قد ملأ المقصورة وقالت: أيها الملك الهمام والأسد الضرغام، قد استجاب الله دعاءك، وإني حامل منك، وقد آنَ أوان الوضع، ولكن لا أعلم هل الجنين ذكر أم أنثى؟ ولولا أني حملت منك ما كلَّمْتُك كلمةً واحدة.

فلما سمع الملك كلامها تهلَّلَ وجهه بالفرح والانشراح، وقبَّلَ رأسها ويديها من شدة الفرح، وقال: الحمد لله الذي مَنَّ عليَّ بأمرين كنت أتمناهما؛ الأول: كلامك. والثاني: إخبارك بالحمل مني. ثم إن الملك قام من عندها وخرج وجلس على كرسي مملكته وهو في الانشراح الزائد، وأمر الوزير أن يُخرِج للفقراء والمساكين والأرامل وغيرهم مائة ألف دينار شكرًا لله تعالى وصدقةً عنه، ففعل الوزير ما أمره به الملك. ثم إن الملك دخل بعد ذلك إلى الجارية، وجلس عندها وحضنها، وضمَّها إلى صدره، وقال لها: يا سيدتي ومالكة رقِّي، لماذا السكوت، ولكِ عندي سنة كاملة ليلًا ونهارًا، قائمة نائمة، ولم تكلميني في هذه السنة إلا في هذا النهار، فما سبب سكوتك؟ فقالت الجارية: اسمع يا ملك الزمان، واعلم أني مسكينة غريبة مكسورة الخاطر فارقت أمي وأهلي. فلما سمع الملك كلامها عرف مرادها، فقال لها: أما قولك مسكينة فليس لهذا الكلام محل، فإن جميع ملكي ومتاعي وما أنا فيه في خدمتك، وأنا أيضًا صرتُ مملوكك، وأما قولك فارقت أمي وأهلي وأخي، فأعلميني في أي مكان هم، وأنا أرسل إليهم وأحضرهم عندك. فقالت له: اعلم أيها الملك السعيد أن اسمي جلناز البحرية، وكان أبي من ملوك البحر ومات، وخلَّفَ لنا الملك، فبينما نحن فيه

إذ تحرَّكَ علينا ملك من الملوك، وأخذ الملك من أيدينا، ولي أَخٌ يُسمَّى صالح، وأمي من نساء البحر، فتنازعت أنا وأخي فحلفت أن أرمي نفسي عند رجل من أهل البر، فخرجت من البحر وجلست على طرف جزيرة في القمر، فجاز بي رجل فأخذني وذهب بي إلى منزله وراودني عن نفسي، فضربته على رأسه فكاد أن يموت، فخرج بي وباعني لهذا الرجل الذي أخذتَني منه، وهو رجل جيد صالح صاحب دين وأمانة ومروءة، ولولا أن قلبك حبني فقدَّمْتَني على جميع سراريك، ما كنت قعدت عندك ساعة واحدة، وكنت رميت نفسي إلى البحر من هذا الشباك، وأروح إلى أمي وجماعتي، وقد استحيت أن أسير إليهم وأنا حامل منك، فيظنون بي سوءًا، ولا يصدِّقونني — ولو حلفت لهم — إذا أخبرتهم أنه اشتراني ملك بدراهمه، وجعلني نصيبه من الدنيا، واختصَّ بي عن زوجاته وسائر ما ملكت يمينه، وهذه قصتي والسلام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جلناز البحرية لما سألها الملك شهرمان حكت له قصتها من أولها إلى آخرها، فلما سمع كلامها شكرها وقبَّلها بين عينيها، وقال لها: والله يا سيدتي ونور عيني إني لا أقدر على فراقك ساعة واحدة، وإنْ فارقتِني متُّ من ساعتي، فكيف يكون الحال؟ فقالت: يا سيدي، قد قرب أوان ولادتي، ولا بد من حضور أهلي لأجل أن يباشروني؛ لأن نساء البر لا يعرفن طريقة ولادة بنات البحر، وبنات البحر لا يعرفن طريقة ولادة بنات البر، فإذا حضر أهلي أنقلب معهم وينقلبون معي. فقال لها الملك: وكيف يمشون في البحر ولا يبتلون؟ فقالت: إنا نمشي في البحر كما تمشون أنتم في البر، ببركة الأسماء المكتوبة على خاتم سليمان بن داود عليهما السلام، ولكن أيها الملك إذا جاء أهلي وإخواتي، فإني أُعلِمهم أنك اشتريتني بمالك، وفعلتَ معي الجميل والإحسان، فينبغي أن تصدق كلامي عندهم ويشاهدون حالك بعيونهم، ويعلمون أنك ملك ابن ملك. فعند ذلك قال الملك: يا سيدتي، افعلي ما بدا لك مما تحبين؛ فإني مطيع لك في جميع ما تفعلينه. فقالت الجارية: اعلم يا ملك الزمان إنا نسير في البحر وعيوننا مفتوحة، وننظر ما فيه وننظر الشمس والقمر والنجوم والسماء كأنها على وجه الأرض، ولا يضرنا ذلك، واعلم أيضًا أن في البحر طوائف كثيرة وأشكالًا مختلفة من سائر الأجناس التي في البر، واعلم أيضًا أن جميع ما في البر بالنسبة لما في البحر شيء قليل جدًّا. فتعجب الملك من كلامها.

ثم إن الجارية أخرجت من كتفها قطعتين من العود القماري، وأخذت منهما جزءًا وأوقدت مجمرة النار، وألقت ذلك الجزء فيها وصفرت صفرة عظيمة، وصارت تتكلم



ثم خرج خمسُ جَوَارٍ كأنهن الأقمار، وعليهن شَبَهٌ من الجارية «جلناز».

بكلام لا يفهمه أحد، فطلع دخان عظيم والملك ينظر، ثم قالت للملك: يا مولاي، قم واختفِ في مخدع حتى أُرِيك أخي وأمي وأهلي من حيث لا يرونك؛ فإني أريد أن أحضرهم وتنظر في هذا المكان في هذا الوقت العجب، وتتعجَّب ممَّا خلق الله تعالى من الأشكال المختلفة والصور الغريبة. فقام الملك من وقته وساعته ودخل مخدعًا، وصار ينظر ما تفعل، فصارت تبخر وتعزم إلى أن أزبد البحر واضطرب، وخرج منه شاب مليح الصورة بهي

المنظر، كأنه البدر في تمامه، بجبين أزهر وخد أحمر، وشعر كأنه الدر والجوهر، وهو أشبه الخلق بأخته، ولسان الحال في حقه ينشد هذين البيتين:

الْبَدْرُ يَكْمُلُ كُلَّ شَهْرٍ مَرَّةً وَجَمَالُ وَجْهِكِ كُلَّ يَوْمٍ يَكْمُلُ
وَحُلُولُهُ فِي قَلْبِ بُرْجٍ وَاحِدٍ وَلَكِ الْقُلُوبُ جَمِيعُهُنَّ الْمَنْزِلُ

ثم خرج من البحر عجوز شمطاء، ومعها خمس جوارٍ كأنهن الأقمار، وعليهن شبه من الجارية التي اسمها جلناز. ثم إن الملك رأى الشاب والعجوز والجواري يمشين على وجه الماء حتى قدموا على الجارية، فلما قربوا من الشباك ونظرتهم جلناز قامت لهم، وقابلتهم بالفرح والسرور، فلما رأوها عرفوها ودخلوا عندها وعانقوها وبكوا بكاءً شديدًا، ثم قالوا لها: يا جلناز، كيف تتركينا أربع سنين ولم نعلم المكان الذي أنتِ فيه؟ والله إنها ضاقت علينا الدنيا من شدة فراقك، ولا نلتذُّ بطعامٍ ولا شرابٍ يومًا من الأيام، ونحن نبكي بالليل والنهار من فرط شوقنا إليك. ثم إن الجارية صارت تقبِّل يد الشاب أخيها ويد أمها، وكذلك بنات عمها، وجلسوا عندها ساعة وهم يسألونها عن حالها وما جرى لها، وعمَّا هي فيه، فقالت لهم: اعلموا أني لَمَّا فارقتكم وخرجت من البحر، جلست على طرف جزيرة، فأخذني رجل وباعني لرجل تاجر، فأتى بي التاجر إلى هذه المدينة وباعني لملكها بعشرة آلاف دينار، ثم إنه احتفل بي وترك جميع سراريه ونسائه ومحاظيه من أجلي، واشتغل بي عن جميع ما عنده وما في مدينته.

فلما سمع أخوها كلامها قال: الحمد لله الذي جمع شملنا بك، لكن قصدي يا أختي أن تقومي وتروحي معنا إلى بلادنا وأهلنا. فلما سمع الملك كلام أخيها، طار عقله خوفًا على الجارية أن تقبل كلام أخيها، ولا يقدر هو أن يمنعها مع أنه مولع بحبها، فصار متحيرًا شديد الخوف من فراقها. وأما الجارية جلناز فإنها لما سمعت كلام أخيها قالت: والله يا أخي إن الرجل الذي اشتراني ملك هذه المدينة وهو ملك عظيم، ورجل عاقل كريم، جيد في غاية الجود وقد أكرمني، وهو صاحب مروءة ومال كثير، وليس له ولد ذكر ولا أنثى، وقد أحسن إليَّ وصنع معي كل خير، ومن يوم ما جئته إلى هذا الوقت ما سمعت منه كلمة رديئة تسوء خاطري، ولم يزل يلاطفني ولا يفعل شيئًا إلا بمشاورتي، وأنا عنده في أحسن الأحوال وأتم النِّعَم، وأيضًا متى فارقته يهلك فإنه لا يقدر على فراقي أبدًا ولا ساعة واحدة، وإن فارقته أنا الأخرى متُّ من شدة محبتي إياه، بسبب فرط إحسانه



فلما رفع بصرَه نحو الشجرة، وقعَت عينُه في عينِ «جوهرة».

لي مدة مقامي عنده، فإنه لو كان أبي حيًّا لَمَا كان لي مقام عنده مثل مقامي عند هذا الملك العظيم الجليل المقدار، وقد رأيتموني حاملة منه، والحمد لله الذي جعلني بنت ملك البحر، وزوجي أعظم ملوك البر، ولم يقطع الله تعالى بي وعوَّضني خيرًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جلناز البحرية لما حكت لأخيها جميع حكايتها، وقالت: إن الله تعالى لم يقطع بي وعوضني خيرًا، وإن الملك ليس له ولد ذكر ولا أنثى، وأطلب من الله تعالى أن يرزقني بولدٍ ذكر يكون وارثًا عن هذا الملك العظيم ما خوَّله الله تعالى من هذه العمارات والقصور والأملاك. فلما سمع أخوها وبنات عمها كلامها، قرت أعينهم بذلك الكلام وقالوا لها: يا جلناز، أنتِ تعلمين بمنزلتك عندنا وتعرفين محبتنا إياكِ، وتتحقَّقين أنك أعز الناس جميعًا عندنا، وتعتقدين أن قصدنا لك الراحة من غير مشقة ولا تعب، فإن كنت في غير راحة فقومي معنا إلى بلادنا وأهلنا، وإن كنتِ مرتاحة هنا في معزة وسرور، فهذا هو المراد والمنى؛ فإننا لا نريد إلا راحتك على كل حال. فقالت جلناز: والله إني في غاية الراحة والهناء والعز والمنى. فلما سمع الملك منها ذلك الكلام فرح واطمأنَّ قلبه، وشكرها على ذلك، وازداد فيها حبًّا ودخل حبها في صميم قلبه، وعلم منها أنها تحبه كما يحبها، وأنها تريد القعود عنده حتى ترى ولده منها.

ثم إن الجارية التي هي جلناز البحرية أمرت جواريها أن يقدمن الموائد والطعام من سائر الألوان، وكانت جلناز هي التي باشرت الطعام في المطبخ، فقدمت لهم الجواري بالطعام والحلويات والفواكه. ثم إنها أكلت هي وأهلها، وبعد ذلك قالوا لها: يا جلناز، إن سيدك رجل غريب منا، وقد دخلنا بيته من غير إذنه، ولم يعلم بنا وأنت تشكرين لنا فضله، وأيضًا أحضرتي لنا طعامه فأكلنا، ولم نجتمع به ولم نره ولم يرنا، ولا حضر عندنا ولا أكل معنا حتى يكون بيننا وبينه خبز وملح. وامتنعوا كلهم من الأكل واغتاظوا عليها، وصارت النار تخرج من أفواههم كالمشاعل؛ فلما رأى الملك ذلك طار عقله من شدة الخوف منهم، ثم إن جلناز قامت إليهم وطيَّبت خاطرهم، ثم بعد ذلك تمشت إلى أن دخلت المخدع الذي فيه الملك سيدها وقالت له: يا سيدي، هل رأيت وسمعت شكري لك

وثنائي عليك عند أهلي، وسمعت ما قالوا لي من أنهم يريدون أن يأخذوني معهم إلى أهلنا وبلادنا. فقال لها الملك: سمعت ورأيت، جزاكِ الله عنَّا خيرًا، والله ما علمتُ قدرَ محبتي عندك إلا في هذه الساعة المباركة، ولم أشك في محبتك إياي. فقالت له: يا سيدي، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ وأنت قد أحسنتَ إليَّ، وتكرَّمت عليَّ بجلائل النعم، وأراك تحبني غاية المحبة، وعملت معي كل جميل، واخترتني على جميع مَن تحب وتريد، فكيف يطيب قلبي على فراقك والرواح من عندك؟ وكيف يكون ذلك وأنت تحسن وتتفضَّل عليَّ؟ فأريد من فضلك أن تأتي وتسلِّم على أهلي، وتراهم ويَرَوك، ويحصل الصفاء والود بينكم، ولكن اعلم يا ملك الزمان أن أخي وأمي وبنات عمي قد أحبوك محبة عظيمة لما شكرتك لهم، وقالوا: ما نروح إلى بلادنا من عندك حتى نجتمع بالملك ونسلِّم عليه. فيريدون أن ينظروك ويأتنسوا بك. فقال لها الملك: سمعًا وطاعة، فإن هذا هو مرادي.

ثم إنه قام من مقامه وسار إليهم وسلَّمَ عليهم بأحسن سلام؛ فبادروا إليه بالقيام وقابلوه أحسن مقابلة، وجلس معهم في القصر، وأكل معهم على المائدة، وأقام معهم مدة ثلاثين يومًا. ثم بعد ذلك أرادوا التوجه إلى بلادهم ومحلهم، فأخذوا بخاطر الملك والملكة جلناز البحرية، ثم ساروا من عندهما بعد أن أكرمهم الملك غاية الإكرام. وبعد ذلك استوفت جلناز أيام حملها وجاء أوان الوضع، فوضعت غلامًا كأنه البدر في تمامه، فحصل للملك بذلك غاية السرور؛ لأنه ما رُزِق بولد ولا بنت في عمره، فأقاموا الأفراح والزينة مدة سبعة أيام، وهم في غاية السرور والهناء، وفي اليوم السابع حضرت أم الملكة جلناز، وأخوها وبنات عمها الجميع لما علموا أن جلناز قد وضعت. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جلناز لما وضعت وجاء إليها أهلها، قابلهم الملك وفرح بقدومهم، وقال لهم: أنا قلت ما أسمِّي ولدي حتى تحضروا وتسموه أنتم بمعرفتكم. فسمَّوْه بدر باسم، واتفقوا جميعًا على هذا الاسم، ثم إنهم عرضوا الغلام على خاله صالح، فحمله على يديه، وقام به من بينهم، وتمشى في القصر يمينًا وشمالًا، ثم خرج به من القصر ونزل به البحر المالح، ومشى حتى خفي عن عين الملك، فلما رآه الملك أخذ ولده وغاب عنه في قاع البحر، يئس منه وصار يبكي وينتحب، فلما رأته جلناز على هذه الحالة، قالت له: يا ملك الزمان، لا تخف ولا تحزن على ولدك؛ فأنا أحبُّ ولدي أكثر منك، وإن ولدي مع أخي فلا تبالِ من البحر ولا تخشَ عليه من الغرق، ولو علم أخي أنه يحصل للصغير ضرر ما فعل الذي فعله، وفي هذه الساعة يأتيك بولدك سالمًا إن شاء الله تعالى. فلم يكن غير ساعة إلا والبحر قد اختبط واضطرب، وطلع منه خال الصغير، ومعه ابن الملك سالمًا، وطار من البحر إلى أن وصل إليهم والصغير على يديه وهو ساكت ووجهه كالقمر في ليلة تمامه.

ثم إن خال الصغير نظر إلى الملك، وقال له: لعلك خفت على ولدك ضررًا لَمَّا نزلتُ به في البحر وهو معي؟ فقال: نعم يا سيدي خفت عليه، وما ظننت أنه يسلم منه قطُّ. فقال له: يا ملك البر، إنَّا كحَّلناه بكحلٍ نعرفه، وقرأنا عليه الأسماء المكتوبة على خاتم سليمان بن داود عليهما السلام، فإن المولود إذا وُلِد عندنا صنعنا به ما ذكرتُ لك، فلا تخَفْ عليه من الغرق، ولا الخنق، ولا من سائر البحار إذا نزل فيها، ومثلما تمشون أنتم في البر نمشي نحن في البحر. ثم أخرج من جيبه محفظة مختومة، ففضَّ ختامها ونثرها، فنزل منها جواهر منظومة من سائر أنواع اليواقيت والجواهر، وثلاثمائة قضيب من الزمرد، وثلاثمائة قصبة من الجواهر الكبار التي هي قدر بيض النعام، نورها أضوأ من نور الشمس والقمر،

وقال: يا ملك الزمان، هذه الجواهر واليواقيت هدية مني إليك؛ لأننا ما أتيناك بهدية قطُّ؛ لأننا ما كنا نعلم موضع جلناز ولا نعرف لها أثرًا ولا خبرًا، فلما رأيناك اتصلت بها، وقد صرنا كلنا شيئًا واحدًا أتيناك بهذه الهدية، وبعد كل قليل من الأيام نأتيك بمثلها إن شاء الله تعالى؛ لأن هذه الجواهر واليواقيت عندنا أكثر من الحصى في البر، ونعرف جيدها ورديئها وجميع طرقها ومواضعها، وهي سهلة علينا. فلما نظر الملك إلى تلك الجواهر واليواقيت اندهش عقله، وحار لبه، وقال: والله إن جوهرة من هذه الجواهر تعادل ملكي. ثم إن الملك شكر فضل صالح البحري، ونظر إلى الملكة جلناز، وقال لها: أنا استحيت من أخيك؛ لأنه تفضَّل عليَّ وهاداني بهذه الهدية السنية التي يعزُّ عنها أهل الأرض. فشكرت جلناز أخاها على ما فعل، فقال أخوها: يا ملك الزمان، لك علينا حقٌّ قد سبق، وشكرك علينا قد وجب؛ لأنك قد أحسنت إلى أختي، ودخلنا منزلك، وأكلنا زادك، وقد قال الشاعر:

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً بِسَعْدِي شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَا بُكَاهَا فَقُلْتُ الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

ثم قال صالح: ولو وقفنا في خدمتك يا ملك الزمان ألف سنة على وجوهنا، ما قدرنا أن نكافئك، وكان ذلك في حقك قليلٌ. فشكره الملك شكرًا بليغًا، وأقام صالح عند الملك هو وأمه وبنات عمه أربعين يومًا، ثم إن صالحًا أخا جلناز قام وقبَّلَ الأرض بين يدي الملك زوج أخته، فقال له: ما تريد يا صالح؟ فقال صالح: يا ملك الزمان، قد تفضَّلْتَ علينا والمراد من إحسانك أن تتصدق علينا وتعطينا إذنًا، فإننا قد اشتقنا إلى أهلنا وبلادنا وأقاربنا وأوطاننا، ونحن ما بقينا ننقطع عن خدمتك، ولا عن أختي ولا عن ابن أختي، فوالله يا ملك الزمان ما يطيب لقلبي فراقكم، ولكن كيف نعمل ونحن قد رُبِّينا في البحر، وما يطيب لنا البر؟ فلما سمع الملك كلامه نهض قائمًا على قدميه، وودَّعَ صالحًا البحري وأمه وبنات عمه، وتباكوا للفراق، ثم قالوا له: عن قريب نكون عندكم ولا نقطعكم أبدًا، وبعد كل قليل من الأيام نزوركم. ثم إنهم طاروا وقصدوا البحر حتى صاروا فيه وغابوا عن العين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أقارب جلناز البحرية لما ودَّعوا الملك وجلناز تباكوا من أجل فراقهم، ثم إنهم طاروا ونزلوا في البحر وغابوا عن العين، فأحسن الملك إلى جلناز وأكرمها إكرامًا زائدًا، ونشأ الصغير منشأ حسنًا، وكان خاله وجدته وخالته وبنات عم أمه بعد كل قليل من الأيام يأتون محل الملك، ويقيمون عنده الشهر والشهرين، ثم يرجعون إلى أماكنهم، ولم يزل الولد يزداد بزيادة السن حُسْنًا وجمالًا، إلى أن صار عمره خمسة عشر عامًا، وكان فريدًا في كماله وقدِّه واعتداله، وقد تعلَّمَ الخط والقراءة والأخبار والنحو واللغة والرمي بالنشاب، وتعلَّمَ اللعب بالرمح وتعلَّمَ الفروسية، وسائر ما يحتاج إليه أولاد الملوك، ولم يَبْقَ أحدٌ من أولاد أهل المدينة من الرجال والنساء إلا وله حديث بمحاسن ذلك الصبي؛ لأنه كان بارع الجمال والكمال، مُتَّصِفًا بمضمون قول الشاعر:

كَتَبَ الْعِذَارُ بِعَنْبَرٍ فِي لُؤْلُؤٍ ... سَطْرَيْنِ مِنْ سَبَجٍ عَلَى تُفَّاحِ
الْقَتْلُ فِي الْحَدَقِ الْمِرَاضِ إِذَا رَنَتْ ... وَالسُّكْرُ فِي الْوَجَنَاتِ لَا فِي الرَّاحِ

فكان الملك يحبه محبة عظيمة، ثم إن الملك أحضر الوزير والأمراء وأرباب الدولة وأكابر المملكة، وحلَّفهم الأيمان الوثيقة أنهم يجعلون بدر باسم ملكًا عليهم بعد أبيه، فحلفوا له الأيمان الوثيقة، وفرحوا بذلك. وكان الملك مُحْسِنًا في حق العالَم، وكان لطيف الكلام محضر خير لا يتكلَّم إلا بما فيه المصلحة للناس. ثم إن الملك ركب في ثاني يوم هو وأرباب الدولة، وسار الأمراء وجميع العساكر، مشوا في المدينة ورجعوا، فلما قاربوا القصر ترجل الملك في خدمة ولده، وصار هو وسائر الأمراء وأرباب الدولة يحملون الغاشية قدامه، فصار كل واحد من الأمراء وأرباب الدولة يحمل الغاشية ساعةً، فلم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى دهليز القصر وهو راكب ثم ترجَّلَ، فحضنه أبوه هو والأمراء وأجلسوه

على سرير الملك، ووقف أبوه وكذلك الأمراء قدامه. ثم إن بدر باسم حكم بين الناس، وعزل الظالم وولَّى العادل، واستمر في الحكومة إلى قريب الظهر، ثم قام عن سرير الملك، ودخل على أمه جلناز البحرية وعلى رأسه التاج وهو كأنه القمر، فلما رأته أمه والملك بين يديه قامت إليه وقبَّلته وهنَّأته بالسلطنة ودعت له ولوالده بطول البقاء والنصر على الأعداء، فجلس عند والدته واستراح، ولما كان وقت العصر ركب والأمراء بين يديه حتى وصل إلى الميدان ولعب بالسلاح إلى وقت العشاء مع أبيه وأرباب دولته، ثم رجع إلى القصر والناس جميعهم بين يديه، وصار في كل يوم يركب إلى الميدان، وإذا رجع يقعد للحكومة بين الناس وينصف بين الأمير والفقير، ولم يزل كذلك مدة سنة كاملة، وبعد ذلك صار يركب للصيد والقنص ويدور في البلدان والأقاليم التي تحت حكمه، وينادي بالأمان والاطمئنان ويفعل ما تفعل الملوك، وكان أوحد أهل زمانه في العز والشجاعة والعدل بين الناس. فاتفق أن والد الملك بدر باسم مرض يومًا من الأيام، فخفق قلبه وأحسَّ بالانتقال إلى دار البقاء، ثم ازداد به المرض حتى أشرف على الموت، فأحضر ولده، ووصَّاه بالرعية، ووصَّاه بوالدته، وبسائر أرباب دولته، وبجميع الأتباع وحلَّفهم، وعاهَدَهم على طاعة ولده ثاني مرة، واستوثق منهم بالأيمان، ثم مكث بعد ذلك أيامًا قلائل وتُوفِّي إلى رحمة الله تعالى، فحزن عليه ولده بدر باسم وزوجته جلناز والأمراء والوزراء وأرباب الدولة، وعملوا له تربة ودفنوه فيها، ثم إنهم قعدوا في عزائه شهرًا كاملًا، وأتى صالح أخو جلناز وأمها وبنات عمها، وعزوهم في الملك، وقالوا: يا جلناز، إن كان الملك مات فقد خلَّفَ هذا الغلام الماهر، ومَن خلَّفَ مثله ما مات، وهذا هو العديم النظير الأسد الكاسر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أخا جلناز صالحًا وأمها وبنات عمها قالوا لها: إن كان الملك قد مات، فقد خلف هذا الغلام العديم النظير، الأسد الكاسر، والقمر الزاهر. ثم إن أرباب الدولة والأكابر دخلوا على الملك بدر باسم، وقالوا له: يا ملك، لا بأس بالحزن على الملك، ولكن الحزن لا يصلح إلا للنساء، فلا تشغل خواطرك وخاطرنا بالحزن على والدك، فإنه قد مات وخلفك، ومَن خلف مثلك ما مات. ثم إنهم لاطفوه وسلوه، وبعد ذلك أدخلوه الحمام، فلما خرج من الحمام لبس بدلة فاخرة منسوجة من الذهب مرصعة بالجواهر والياقوت، ووضع تاج الملك على رأسه وجلس على سرير ملكه، وقضى أشغال الناس وأنصف الضعيف من القوي، وأخذ للفقير حقه من الأمير، فأحبه الناس حبًّا شديدًا، ولم يزل كذلك مدة سنة كاملة، وبعد كل مدة قليلة تزوره أهله البحرية، فطاب عيشه وقرت عينه. ولم يزل على هذه الحالة مدة مديدة، فاتفق أن خاله دخل ليلة من الليالي على جلناز وسلم عليها، فقامت له واعتنقته وأجلسته إلى جانبها، وقالت له: يا أخي، كيف حالك وحال والدتي وبنات عمي؟ فقال لها: يا أختي، إنهم طيبون بخير وحظ عظيم، وما ينقص عليهم إلا النظر إلى وجهك. ثم إنها قدمت له شيئًا من الأكل فأكل، ودار الحديث بينهما، وذكروا الملك بدر باسم وحُسْنه وجماله، وقَدَّه واعتداله، وفروسيته وعقله وأدبه، وكان الملك بدر باسم متكئًا، فلما سمع أمه وخاله يذكرانه ويتحدثان في شأنه، أظهر أنه نائم وصار يسمع حديثهما، فقال صالح لأخته جلناز: إن عمر ولدك سبعة عشر عامًا، ولم يتزوَّج، ونخاف أن يجري له أمر ولم يكن له ولد، فأريد أن أزوِّجه بملكة من ملكات البحر تكون في حسنه وجماله. فقالت جلناز: اذكرهن لي فإني أعرفهن. فصار يعدهن لها واحدة بعد واحدة، وهي تقول: ما أرضى هذه لولدي ولا أزوجه إلا بمَن تكون مثله في الحُسْن والجمال والعقل والدين والأدب والمروءة والملك والحسب والنسب.

فقال لها: ما بقيت أعرف واحدة من بنات الملوك البحرية، وقد عددت لك أكثر من مائة بنت وأنت ما يعجبك واحدة منهن، ولكن انظري يا أختي هل ابنك نائم أم لا؟ فجسته فوجدت عليه آثار النوم، فقالت له: إنه نائم، فما عندك من الحديث؟ وما قصدك بنومه؟ فقال لها: يا أختي، اعلمي أني قد تذكَّرت بنتًا من بنات البحر تصلح لابنك، وأخاف أن أذكرها فيكون ولدك منتبهًا فيتعلَّق قلبه بمحبتها، وربما لا يمكننا الوصول إليها، فيتعب هو ونحن وأرباب دولته، ويصير لنا شغل بذلك، وقد قال الشاعر:

الْعِشْقُ أَوَّلُ مَا يَكُونُ مَجَاجَةً فَإِذَا تَحَكَّمَ صَارَ بَحْرًا وَاسِعَا

فلما سمعت أخته كلامه، قالت له: قل لي ما شأن هذه البنت؟ وما اسمها؟ فأنا أعرف بنات البحر من ملوك وغيرهم، فإذا رأيتها تصلح له خطبتها من أبيها، ولو أني أصرف جميع ما تملكه يدي عليها، فأخبرني بها، ولا تخشَ شيئًا فإن ولدي نائم. فقال: أخاف أن يكون يقظان، وقد قال الشاعر:

عَشِقْتُهُ عِنْدَمَا أَوْصَافُهُ ذُكِرَتْ وَالْأُذْنُ تَعْشَقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَانَا

فقالت له جلناز: قل وأوجز ولا تخف يا أخي. فقال: والله يا أختي ما يصلح لابنك إلا الملكة جوهرة بنت الملك السمندل، وهي مثله في الحُسْن والجمال، والبهاء والكمال، ولا يوجد في البحر ولا في البر ألطف ولا أحلى شمائل منها؛ لأنها ذات حُسْن وجمال، وقَدٍّ واعتدال، وخَدٍّ أحمر وجبين أزهر، وشعر كأنه الجوهر، وطرف أحور، وردف ثقيل، وخصر نحيل، ووجه جميل، إن التفتت تخجل المها والغزلان، وإن خطرت يغار غصن البان، وإذا أسفرت تخجل الشمس والقمر وتسبي كلَّ مَن نظر، عذبة المراشف ليِّنة المعاطف. فلما سمعت كلام أخيها قالت له: صدقت يا أخي، والله إني رأيتها مرارًا عديدة، وكانت صاحبتي ونحن صغار، وليس لنا اليوم معرفة ببعضنا لموجب البُعْد، ولي اليوم ثمانية عشر عامًا ما رأيتها، والله ما يصلح لولدي إلا هي. فلما سمع بدر باسم كلامهما، وفهم ما قالاه من أوله إلى آخِره في وصف البنت التي ذكرها صالح، وهي جوهرة بنت الملك السمندل، عشقها بالسماع، وأظهر لهم أنه نائم، وصار في قلبه من أجلها لهيب النار، وغرق في بحرٍ لا يُدرَك له ساحل ولا قرار. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك بدر باسم لما سمع كلام خاله صالح وأمه جلناز في وصف بنت الملك السمندل، صار في قلبه من أجلها لهيب النار، وغرق في بحرٍ لا يُدرَك له ساحل ولا قرار. ثم إن صالحًا نظر إلى أخته جلناز وقال: والله يا أختي ما في ملوك البحر أحمق من أبيها، ولا أقوى سطوةً منه، فلا تُعْلِمي ولدك بحديث هذه الجارية حتى نخطبها له من أبيها، فإن أنعم بإجابتها حمدنا الله تعالى، وإنْ ردَّنا ولم يزوجها لابنك نستريح ونخطب غيرها. فلما سمعت جلناز كلام أخيها صالح، قالت: نِعْمَ الرأي الذي رأيته. ثم إنهما سكتا وباتا تلك الليلة والملك بدر باسم في قلبه لهيب النار من عشق الملكة جوهرة، وكتم حديثه، ولم يقل لأمه ولا لخاله شيئًا من خبرها، مع أنه صار من حبها على مقالي الجمر. فلما أصبحوا دخل الملك هو وخاله الحمام واغتسلا، ثم خرجا وشربا الشراب وقدموا بين أيديهم الطعام، فأكل الملك بدر باسم وأمه وخاله حتى اكتفوا، ثم غسلوا أيديهم، وبعد ذلك قام صالح على قدميه، وقال للملك بدر باسم وأمه جلناز: عن إذنكما، قد عزمت على الرواح إلى الوالدة، فإن لي عندكم مدة أيام، وخاطرهم مشغول عليَّ، وهم في انتظاري. فقال الملك بدر باسم لخاله صالح: اقعد عندنا هذا اليوم. فامتثل كلامه، ثم إنه قال: قم بنا يا خالي واخرج بنا إلى البستان، فذهبا إلى البستان وصارا يتفرجان ويتنزهان فجلس الملك بدر باسم تحت شجرة مظلة، وأراد أن يستريح وينام، فتذكر ما قاله خاله صالح من وصف الجارية، وما فيها من الحُسْن والجمال؛ فبكى بدموع غزار، وأنشد هذين البيتين:

لَوْ قِيلَ لِي وَلَهِيبُ النَّارِ مُتَّقِدٌ وَالنَّارُ فِي الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءُ تَضْطَرِمُ
أَهُمْ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تُشَاهِدَهُمْ أَمْ شُرْبَةٌ مِنْ زُلَالِ الْمَاءِ قُلْتُ هُمُ

ثم شكا وأنَّ وبكى، وأنشد هذين البيتين:

مَنْ مُجِيرِي مِنْ عِشْقِ ظَبْيَةِ أُنْسٍ ذَاتِ وَجْهٍ كَالشَّمْسِ بَلْ هُوَ أَجْمَلْ
كَانَ قَلْبِي مِنْ حُبِّهَا مُسْتَرِيحًا فَتَلَظَّى بِحُبِّ بِنْتِ السَّمَنْدَلْ

فلما سمع خاله صالح مقاله، دق يدًا على يد وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم قال له: هل سمعت يا ولدي ما تكلمت به أنا وأمك من حديث الملكة جوهرة وذِكْرنا لأوصافها؟ فقال بدر باسم: نعم يا خالي، وعشقتها على السماع حين سمعت ما قلتم من الكلام، وقد تعلَّقَ قلبي بها وليس لي صبر عنها. فقال له: يا ملك، دعنا نرجع إلى أمك ونعلمها بالقضية، واستأذنها في أني آخذك معي وأخطب لك الملكة جوهرة، ثم نودِّعها وأرجع أنا وأنت؛ لأني أخاف إن أخذتك وسرت من غير إذنها أن تغضب عليَّ ويكون الحق معها؛ لأني أكون السبب في فراقكما كما أني كنت السبب في افتراقها منَّا، وتبقى المدينة بلا ملك، وليس عندهم مَن يسوسهم وينظر أحوالهم، فيفسد عليك أمر المملكة، ويخرج المُلْك من يدك. فلما سمع بدر باسم كلام خاله صالح قال له: اعلم يا خالي أني متى رجعت إلى أمي وشاورتها في ذلك لم تمكني من ذلك، فلا أرجع إليها ولا أشاورها أبدًا. وبكى قدام خاله وقال له: أروح معك ولا أعلمها ثم أرجع. فلما سمع صالح كلام ابن أخته حار في أمره، وقال: استعنتُ بالله تعالى على كل حال. ثم إن خاله صالحًا لما رأى ابن أخته على هذه الحالة، وعلم أنه لا يحب أن يرجع إلى أمه، بل يروح معه؛ أخرج من إصبعه خاتمًا منقوشًا عليه أسماء من أسماء الله تعالى، وناوَلَ الملك بدر باسم إياه، وقال له: اجعل هذا في إصبعك تأمن من الغرق ومن غيره، ومن شر دواب البحر وحيتانه. فأخذ الملك بدر باسم الخاتمَ من خاله صالح وجعله في إصبعه، ثم إنهما غطسا في البحر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك بدر باسم وخاله صالحًا لما غطسا في البحر سارا، ولم يزالا سائرين حتى وصلا إلى قصر صالح فدخلاه، فرأته جدته أم أمه وهي قاعدة، وعندها أقاربها، فلما دخلا عليهم قبَّلَا أيديهم، فلما رأته جدته قامت إليه واعتنقته وقبَّلت ما بين عينيه، وقالت له: قدوم مبارك يا ولدي، كيف خلفت أمك جلناز؟ قال لها: طيبة بخير وعافية، وهي تسلم عليك وعلى بنات عمها. ثم إن صالحًا أخبر أمه بما وقع بينه وبين أخته جلناز، وأن الملك بدر باسم عشق الملكة جوهرة بنت الملك السمندل على السماع، وقص لها القصة من أولها إلى آخرها، وقال: أنه ما أتى إلا ليخطبها من أبيها ويتزوجها. فلما سمعت جدة الملك بدر باسم كلام صالح اغتاظت عليه غيظًا شديدًا، وانزعجت واغتمت، وقالت له: يا ولدي، لقد أخطأت بذِكْر الملكة جوهرة بنت الملك السمندل قدام ابن أختك؛ لأنك تعلم أن الملك السمندل أحمق جبَّار قليل العقل، شديد السطوة، بخيل بابنته جوهرة على خطابها، فإن سائر ملوك البحر خطبوها منه، فأَبَى ولم يَرْضَ بأحد منهم، بل ردهم وقال لهم: ما أنتم أكفاء لها في الحُسْن ولا في الجمال ولا في غيرهما. ونخاف أن نخطبها من أبيها، فيردنا كما ردَّ غيرنا، ونحن أصحاب مروءة فنرجع مكسورين الخاطر. فلما سمع صالح كلام أمه قال لها: يا أمي، كيف يكون العمل؟ فإن الملك بدر باسم قد عشق هذه البنت لما ذكرتها لأختي جلناز، وقال: لا بد أن نخطبها من أبيها ولو أبذل جميع ملكي، وزعم أنه إن لم يتزوج بها يموت فيها عشقًا وغرامًا.

ثم إن صالحًا قال لأمه: اعلمي أن ابن أختي أحسن وأجمل منها، وأن أباه كان ملك العجم بأسرهم وهو الآن ملكهم، ولا تصلح جوهرة إلا له، وقد عزمت على أني آخذ جواهر من يواقيت وغيرها وأحمل هدية تصلح له، وأخطبها منه، فإن احتجَّ علينا بأنه ملك فهو أيضًا ملك ابن ملك، وإن احتجَّ علينا بالجمال فهو أجمل منها، وإن احتجَّ علينا

بسعة المملكة فهو أوسع مملكةً منها ومن أبيها، وأكثر أجنادًا وأعوانًا، فإن ملكه أكبر من ملك أبيها، ولا بد أن أسعى في قضاء حاجة ابن أختي، ولو أن روحي تذهب؛ لأني كنت سبب هذه القضية، ومثلما رميته في بحار عشقها، أسعى في زواجه بها، والله تعالى يساعدني على ذلك. فقالت له أمه: افعل ما تريد، وإياك أن تغلظ عليه الكلام إذا كلَّمْتَه، فإنك تعرف حماقته وسطوته، وأخاف أن يبطش بك؛ لأنه لا يعرف قدرَ أحد. فقال لها: السمع والطاعة. ثم إنه نهض وأخذ معه جرابين ملآنين من الجواهر واليواقيت، وقضبان الزمرد، ونفائس المعادن من سائر الأحجار، وحمَّلهما لغلمانه، وسار بهم هو وابن أخته إلى قصر الملك السمندل، واستأذن في الدخول عليه، فأذن له؛ فلما دخل قبَّل الأرض بين يديه وسلم بأحسن سلام، فلما رآه الملك السمندل قام إليه وأكرمه غاية الإكرام، وأمره بالجلوس فجلس، فلما استقر به الجلوس، قال له الملك: قدوم مبارك، أوحشتنا يا صالح، ما حاجتك حتى إنك أتيتَ إلينا؟ فأخبرني بحاجتك حتى أقضيها لك. فقام وقبَّلَ الأرض ثاني مرة، وقال: يا ملك الزمان، حاجتي إلى الله وإلى الملك الهمام، والأسد الضرغام الذي بمحاسن ذكره سارت الركبان، وشاع خبره في الأقاليم والبلدان بالجود والإحسان، والعفو والصفح والامتنان. ثم إنه فتح الجرابين، وأخرج منهما الجواهر وغيرها، ونثرها قدام الملك السمندل، وقال له: يا ملك الزمان، عساك تقبل هديتي، وتتفضَّل عليَّ وتجبر قلبي بقبولها مني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن صالحًا لما قدَّم الهدية إلى الملك السمندل، وقال له: القصد من الملك أن يتفضل عليَّ، ويجبر قلبي بقبولها مني. قال له الملك السمندل: لأي سبب أهديتَ لي هذه الهدية؟ قل لي قصتك وأخبرني بحاجتك، فإن كنتُ قادرًا على قضائها قضيتها لك في هذه الساعة ولا أحوجك إلى تعب، وإن كنتُ عاجزًا عن قضائها فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها. فقام وقبَّلَ الأرض ثلاث مرات، وقال: يا ملك الزمان، إن حاجتي أنت قادر على قضائها، وهي تحت حوزك وأنت مالكها، ولم أكلف الملك مشقة، ولم أكن مجنونًا حتى أخاطب الملك في شيء لا يقدر عليه، فبعض الحكماء قال: إذا أردتَ أن تُطاع فسَلْ عمَّا يُستطاع. فأما حاجتي التي جئتُ في طلبها، فإن الملك حفظه الله قادر عليها. فقال له الملك: اسأل حاجتك، واشرح قضيتك واطلب مرادك. فقال له: يا ملك الزمان، اعلم أني قد أتيتُكَ خاطبًا راغبًا في الدرة اليتيمة، والجوهرة المكنونة، الملكة جوهرة بنت مولانا، فلا تخيِّب أيها الملك قاصدك. فلما سمع الملك كلامه، ضحك حتى استلقى على قفاه استهزاءً به، وقال: يا صالح، كنت أحسبك رجلًا عاقلًا وشابًّا فاضلًا لا تسعى إلا بسداد، ولا تنطق إلا برشاد، وما الذي أصاب عقلك ودعاك إلى هذا الأمر العظيم، والخطر الجسيم، حتى إنك تخطب بنات الملوك أصحاب البلدان والأقاليم؟ وهل بلغ من قدرك أنك انتهيت إلى هذه الدرجة العالية؟ وهل نقص عقلك إلى هذه الغاية حتى تواجهني بهذا الكلام؟ فقال صالح: أصلح الله الملك، إني لم أخطبها لنفسي، ولو خطبتها لنفسي كنت كفؤًا لها، بل أكثر؛ لأنك تعلم أن أبي ملك من ملوك البحر، وإن كنتَ اليومَ ملكنا، ولكن أنا ما خطبتها إلا للملك بدر باسم صاحب أقاليم العجم، وأبوه الملك شهرمان، وأنت تعرف سطوته، وإن زعمت أنك ملك عظيم فالملك بدر باسم ملك أعظم، وإن ادَّعَيْتَ أن ابنتك جميلة فالملك بدر باسم أجمل منها، وأحسن صورةً وأفضل حسبًا ونسبًا، فإنه فارس زمانه، فإن أجبتَ

إلى ما سألتُكَ تكن يا ملك الزمان قد وضعتَ الشيء في محله، وإن تعاظمْتَ علينا فإنك ما أنصفتنا، ولا سلكت بنا الطريق المستقيم، وأنت تعلم أيها الملك أن هذه الملكة جوهرة بنت مولانا الملك لا بد لها من الزواج، فإن الحكيم يقول: لا بد للبنت من الزواج أو القبر. فإن كنت عزمت على زواجها، فإن ابن أختي أحق بها من سائر الناس.

فلما سمع الملك كلام صالح، اغتاظ غيظًا شديدًا، وكاد عقله أن يذهب، وكادت روحه أن تخرج من جسده، وقال له: يا كلب الرجال، وهل مثلك يخاطبني بهذا الكلام، وتذكر ابنتي في المجالس وتقول: إن ابن أختك جلناز كفء لها، فمَن هو أنت؟ ومَن هي أختك؟ ومَن هو ابنها؟ ومَن هو أبوه؟ حتى تقول لي هذا الكلام وتخاطبني بهذا الخطاب، فهل أنتم بالنسبة إلينا إلا كلاب؟ ثم صاح على غلمانه، وقال: يا غلمان، خذوا رأس هذا العلق. فأخذوا السيوف وجرَّدوها، وطلبوه فولَّى هاربًا، ولِبَابِ القصر طالبًا، فلما وصل إلى باب القصر رأى أولاد عمه وقرابته وعشيرته وغلمانه، وكانوا أكثر من ألف فارس غارقين في الحديد، والزرد النضيد، وبأيديهم الرماح، وبيض الصفاح، فلما رأوا صالحًا على تلك الحالة، قالوا له: ما الخبر؟ فحدَّثهم بحديثه، وكانت أمه قد أرسلتهم إلى نصرته، فلما سمعوا كلامه علموا أن الملك أحمق شديد السطوة، فترجلوا عن خيولهم، وجرَّدوا سيوفهم، ودخلوا على الملك السمندل، فرأوه جالسًا على كرسي مملكته غافلًا عن هؤلاء، وهو شديد الغيظ على صالح، ورأوا خدامه وغلمانه وأعوانه غير مستعدين، فلما رآهم وبأيديهم السيوف مجرَّدة صاح على قومه، وقال: يا ويلكم، خذوا رءوس هؤلاء الكلاب، فلم تكن غير ساعة حتى انهزم قوم الملك السمندل، وركنوا إلى الفرار، وكان صالح وأقاربه قد قبضوا على الملك السمندل وكتَّفوه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن صالحًا وأقاربه كتفوا الملك السمندل، ثم إن جوهرة لما انتبهت علمت أن أباها قد أُسِر، وأن أعوانه قد قُتِلوا، فخرجت من القصر هاربةً إلى بعض الجزائر، ثم إنها قصدت شجرة عالية واختفت فوقها، ولما اقتتلت هاتان الطائفتان فرَّ بعض غلمان الملك السمندل هاربين، فرآهم بدر باسم فسألهم عن حالهم، فأخبروه بما وقع. فلما سمع أن الملك السمندل قُبِض عليه، ولَّى هاربًا وخاف على نفسه، وقال في قلبه: إن هذه الفتنة كانت من أجلي، وما المطلوب إلا أنا. فولَّى هاربًا، وللنجاة طالبًا، وصار لا يدري أين يتوجه، فساقته المقادير إلى تلك الجزيرة التي فيها جوهرة بنت الملك السمندل، فأتى عند الشجرة وانطرح مثل القتيل، وأراد الراحة بانطراحه ولا يعلم أن كل مطلوب لم يسترح، ولا يعلم أحد ما خفي له في الغيب من التقادير، فلما رفع بصره نحو الشجرة، وقعت عينه في عين جوهرة، فنظر إليها فرآها كأنها القمر إذا أشرق، فقال: سبحان خالق هذه الصورة البديعة، وهو خالق كل شيء وهو على كل شيء قدير، سبحان الله العظيم الخالق البارئ المصور، والله إن صدقني حذري تكون هذه جوهرة بنت الملك السمندل، وأظنها لما سمعت بوقوع الحرب بينهما هربت، وأتت إلى هذه الجزيرة، واختفت فوق هذه الشجرة، وإن لم تكن هذه الملكة جوهرة فهذه أحسن منها. ثم إنه صار متفكرًا في أمرها وقال في نفسه: أقوم أمسكها وأسألها عن حالها، فإن كانت هي فإني أخطبها من نفسها، وهذا هو بغيتي. فانتصب قائمًا على قدميه، وقال لجوهرة: يا غاية المطلوب، مَن أنت؟ ومَن أتى بك إلى هذا المكان؟ فنظرت جوهرة إلى بدر باسم، فرأته كأنه البدر إذا ظهر من تحت الغمام الأسود، وهو رشيق القوام مليح الابتسام، فقالت له: يا مليح الشمائل، أنا الملكة جوهرة بنت الملك السمندل، وقد هربت في هذا المكان؛ لأن صالحًا وجنده تقاتلوا مع أبي وقتلوا جنده وأسروه هو وبعض جنده، فهربت أنا خوفًا على نفسي. ثم إن الملكة

جوهرة قالت للملك بدر باسم: وأنا ما أتيت إلى هذا المكان إلا هاربة خوفًا من القتل، ولم أدرِ ما فعل الزمان بأبي.

فلما سمع الملك بدر باسم كلامها، تعجب غاية العجب من هذا الاتفاق الغريب، وقال: لا شك أني نلت غرضي بأسر أبيها. ثم إنه نظر إليها وقال لها: انزلي يا سيدتي، فإني قتيل هواكِ وأسرتني عيناكِ، وعلى شأني وشأنك كانت هذه الفتنة وهذه الحروب، واعلمي أني أنا الملك بدر باسم ملك العجم، وأن صالحًا هو خالي، وهو الذي أتى إلى أبيك وخطبك منه، وأنا قد تركت ملكي لأجلك، واجتماعنا في هذا الوقت من عجائب الاتفاق، فقومي وانزلي عندي حتى أروح أنا وأنت إلى قصر أبيك وأسأل خالي صالحًا في إطلاقه، وأتزوَّج بك في الحلال. فلما سمعت جوهرة كلام بدر باسم، قالت في نفسها: على شأن هذا العلق اللئيم، كانت هذه القضية وأَسْر أبي، وقتل حجَّابه وحشمه، وتشتت أنا عن قصري، وخرجت مسبية إلى تلك الجزيرة؟ فإن لم أعمل معه حيلة أتحصَّن بها منه تمكَّنَ مني ونال غرضه؛ لأنه عاشق والعاشق مهما كان فِعْله لا يُلام عليه فيه. ثم إنها خادعته بالكلام ولين الخطاب، وهو لا يدري ما أضمرته له من المكائد، وقالت له: يا سيدي ونور عيني، هل أنت الملك بدر باسم ابن الملكة جلناز؟ فقال لها: نعم يا سيدتي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٤٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جوهرة بنت الملك السمندل قالت للملك بدر باسم: هل أنت يا سيدي الملك بدر باسم ابن الملكة جلناز؟ قال لها: نعم يا سيدتي. فقالت: قطع الله أبي وأزال ملكه عنه، ولا جبر له قلبًا، ولا ردَّ له غربة إن كان يريد أحسن منك وأحسن من هذه الشمائل الظريفة، والله إنه قليل العقل والتدبير. ثم قالت له: يا ملك الزمان، لا تؤاخذ أبي بما فعل، وإن كنت أحببتني شبرًا، فأنا أحببتك ذراعًا، وقد وقعتُ في شَرَك هواكَ، وصرتُ من جملة قتلاك، وقد انتقلت المحبة التي كانت عندك وصارت عندي، وما بقي عندك منها إلا معشار ما عندي. ثم إنها نزلت من فوق الشجرة وقربت منه وأتت إليه واعتنقته وضمته إلى صدرها وصارت تُقبِّله، فلما رأى الملك بدر باسم فعلها ازدادت محبته لها، واشتدَّ غرامه بها، وظنَّ أنها عشقته، ووثق بها وصار يضمها ويُقبِّلها، ثم إنه قال لها: يا ملكة، والله لم يصف لي خالي صالح ربع معشار ما أنت عليه من الجمال، ولا ربع قيراط من أربعة وعشرين قيراطًا. ثم إن جوهرة ضمته إلى صدرها وتكلمت بكلام لا يُفهَم، وتفلت في وجهه، وقالت له: اخرج من هذه الصورة البشرية إلى صورة طائر أحسن الطيور، أبيض الريش، أحمر المنقار والرجلين. فما تمَّ كلامها حتى انقلب الملك بدر باسم إلى صورة طائر أحسن ما يكون من الطيور، وانتفض ووقف على رجليه، وصار ينظر إلى جوهرة، وكان عندها جارية من جواريها تُسمَّى مرسينة، فنظرت إليها وقالت: والله لولا أخاف من كون أبي أسيرًا عند خاله لقتلته، فلا جزاه الله خيرًا، فما أشأم قدومه علينا، فهذه الفتنة كلها من تحت رأسه، ولكن يا جارية خذيه واذهبي به إلى الجزيرة المعطشة، واتركيه هناك حتى يموت عطشانًا. فأخذته الجارية وأوصلته إلى الجزيرة وأرادت الرجوع من عنده، ثم قالت في نفسها: والله إن صاحب هذا الحُسْن

والجمال لا يستحق أن يموت عطشانًا. ثم إنها أخرجته من الجزيرة المعطشة، وأتت به إلى جزيرة كثيرة الأشجار والأثمار والأنهار، فوضعته فيها ورجعت إلى سيدتها، وقالت لها: قد وضعته في الجزيرة المعطشة.

هذا ما كان من أمر بدر باسم، وأما ما كان من أمر صالح خال الملك بدر باسم، فإنه لما احتوى على الملك السمندل وقتل أعوانه وخدمه وصار تحت أسره، قد طلب جوهرة بنت الملك فلم يجدها، فرجع إلى قصره عند أمه وقال: يا أمي، أين ابن أختي الملك بدر باسم؟ فقالت: يا ولدي، والله ما لي به علم ولا أعرف أين ذهب، فإنه لما بلغه أنك تقاتلت مع الملك السمندل، وجَرَتْ بينكم الحروب والقتال، فزع وهرب. فلما سمع صالح كلام أمه حزن على ابن أخته وقال: يا أمي، والله إننا قد فرطنا في الملك بدر باسم، وأخاف أن يهلك أو يقع به أحد من جنود الملك السمندل، أو تقع به ابنة الملك جوهرة، فيحصل لنا من أمه خجل، ولا يحصل لنا منها خير؛ لأني قد أخذته بغير إذنها. ثم إنه بعث خلفه الأعوان والجواسيس إلى جهة البحر وغيره، فلم يقفوا له على خبر، فرجعوا أعلموا الملك صالحًا بذلك فزاد همه وغمه، وقد ضاق صدره على الملك بدر باسم.

هذا ما كان من أمر الملك بدر باسم وخاله صالح، وأما ما كان من أمر أمه جلناز البحرية، فإنها لما نزل ابنها بدر باسم مع خاله صالح انتظرته فلم يرجع إليها، وأبطأ خبره عنها، فقعدت أيامًا عديدة في انتظاره، ثم إنها قامت ونزلت في البحر وأتت أمها، فلما نظرتها أمها قامت إليها وقبَّلتها واعتنقتها، وكذلك بنات عمها، ثم إنها سألت أمها عن الملك بدر باسم، فقالت لها: يا بنتي، قد أتى هو وخاله، ثم إن خاله قد أخذ يواقيت وجواهر وتوجه بها هو وإياه إلى الملك السمندل وخطب ابنته، فلم يُجِبْه وشدَّدَ على أخيك في الكلام، فأرسلتُ إلى أخيك نحو ألف فارس، ووقعت الحرب بينهم وبين الملك السمندل، فنصر الله أخاك عليه، وقتل أعوانه وجنوده، وأسر الملك السمندل، فبلغ ذلك الخبر ولدك، فكأنه خاف على نفسه فهرب من عندنا بغير اختيارنا، ولم يَعُدْ إلينا بعد ذلك ولم نسمع له خبرًا. ثم أن جلناز سألتها عن أخيها صالح، فأخبرتها أنه جالس على كرسي المملكة في محل الملك السمندل، وقد أرسل إلى جميع الجهات بالتفتيش على ولدك، وعلى المملكة جوهرة. فلما سمعت جلناز كلام أمها، حزنت على ولدها حزنًا شديدًا، واشتدَّ غضبها على أخيها صالح لكونه أخذ ولدها، ونزل به البحر من غير إذنها. ثم إنها قالت: يا أمي، إني خائفة على الملك الذي لنا؛ لأني أتيتكم، وما أعلمتُ أحدًا من أهل المملكة، وأخشى إن أبطأتُ عليهم أن يفسد المُلْك علينا، وتخرج المملكة من أيدينا، والرأي السديد أني أرجع وأسوس

المملكة إلى أن يدبر الله لنا أمرَ ولدي، ولا تنسوا ولدي ولا تتهاونوا في أمره، فإنه إن حصل له ضرر هلكتُ لا محالة؛ لأني لا أرى الدنيا إلا به، ولا ألتذُّ إلا بحياته. فقالت: حبًّا وكرامة يا بنتي، لا تسألي على ما عندنا من فراقه وغيبته. ثم إن أمها أرسلت مَن يفتش عليه، ورجعت أمه حزينة القلب باكية العين إلى المملكة، وقد ضاقت بها الدنيا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة جلناز لما رجعت من عند أمها إلى مملكتها، قد ضاق صدرها، واشتد أمرها. هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر الملك بدر باسم، فإنه لما سحرته الملكة جوهرة وأرسلته مع جاريتها إلى الجزيرة المعطشة، وقالت لها: دعيه فيها يموت عطشانًا، لم تضعه الجارية إلا في جزيرة خضراء مثمرة ذات أشجار وأنهار، فصار يأكل من الثمار ويشرب من الأنهار، ولم يزل كذلك مدة أيام وليالٍ، وهو في صورة طائر لا يعرف أين يتوجه، ولا كيف يطير. فبينما هو ذات يوم من الأيام في تلك الجزيرة إذ أتى هناك صياد من الصيادين ليصطاد شيئًا يتقوَّت به، فرأى الملك بدر باسم وهو في صورة طائر أبيض الريش، أحمر المنقار والرجلين، يسبي الناظر ويدهش الخاطر، فنظر إليه الصياد فأعجبه وقال في نفسه: إن هذا الطائر مليح، وما رأيت طيرًا مثله في حُسْنه ولا في شكله. ثم إنه رمى الشبكة عليه واصطاده، ودخل به المدينة وقال في نفسه: إني أبيعه وآخذ ثمنه. فقابله واحد من أهل المدينة وقال له: بكم هذا الطائر يا صياد؟ فقال له الصياد: إذا اشتريته فماذا تعمل به؟ قال: أذبحه وآكله. فقال له الصياد: مَن يطيب قلبه أن يذبح هذا الطائر ويأكله؟ إني أريد أن أهديه إلى الملك فيعطيني أكثر من المقادر الذي تعطينيه أنت في ثمنه، ولا يذبحه بل يتفرج عليه وعلى حُسْنه وجماله؛ لأني في طول عمري وأنا صياد ما رأيت مثل في صيد البحر ولا في صيد البر، وأنت إنْ رغبت فيه فما نهاية ما تعطيني في ثمنه؟ درهمًا! وأنا والله العظيم لا أبيعه.

ثم إن الصياد ذهب به إلى دار الملك، فلما رآه الملك أعجبه حسنه وجماله وحمرة منقاره ورجليه، فأرسل إليه خادمًا ليشتريه منه، فأتى الخادم إلى الصياد، وقال له: أتبيع هذا الطائر؟ قال: لا، بل هو للملك هدية مني إليه. فأخذه الخادم وتوجه به إلى الملك، وأخبره بما قاله؛ فأخذه الملك، وأعطى الصياد عشرة دنانير، فأخذها وقبَّلَ الأرض

وانصرف، وأتى الخادم بالطائر إلى قصر الملك، ووضعه في قفص مليح وعلَّقه وحطَّ عنده ما يأكل وما يشرب، فلما نزل الملك قال للخادم: أين الطائر؟ أَحْضِرْه حتى أنظره، والله إنه مليح. فأتى به الخادم ووضعه بين يدي الملك، وقد رأى الأكل عنده لم يأكل منه شيئًا، فقال الملك: والله لا أدري ما يأكل حتى أطعمه. ثم أمر بإحضار الطعام فأحضرت الموائد بين يديه، فأكل الملك من ذلك، فلما نظر الطير إلى اللحم والطعام والحلويات والفواكه أكل من جميع ما في السماط الذي قدام الملك، فبُهِت له الملك، وتعجَّبَ من أكله، وكذلك الحاضرون. ثم قال الملك لَمن حوله من الخدام والمماليك: عمري ما رأيت طيرًا يأكل مثل هذا الطير. ثم أمر الملك أن تحضر زوجته لتتفرج عليه، فمضى الخادم ليحضرها، فلما رآها قال لها: يا سيدتي، إن الملك يطلبك لأجل أن تتفرجي على هذا الطير الذي اشتراه، فإننا لما حضرنا بالطعام طار من القفص، وسقط على المائدة، وأكل من جميع ما فيها، فقومي يا سيدتي تفرجي عليه، فإنه مليح النظر، وهو أعجوبة من أعاجيب الزمان. فلما سمعت كلام الخادم أتت بسرعة، فلما نظرت إلى الطير وتحقَّقَتْه غطَّتْ وجهها، وولَّتْ راجعةً، فقام الملك وراءها وقال لها: لأي شيء غطَّيْتِ وجهك، وما عندك غير الجواري والخدام التي في خدمتك وزوجك؟ فقالت له: أيها الملك، إن هذا الطير ليس بطائر، وإنما هو رجل مثلك. فلما سمع الملك كلام زوجته قال لها: تكذبين، ما أكثر ما تمزحين! كيف يكون غير طائر؟ فقالت له: والله ما مزحت معك، وما قلتُ لك إلا حقًّا، إن هذا الطير هو الملك بدر باسم ابن الملك شهرمان صاحب بلاد العجم، وأمه جلناز البحرية. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة الملك لما قالت للملك: إن هذا ليس بطائر، وإنما هو رجل مثلك، وهو الملك بدر باسم ابن الملك شهرمان وأمه جلناز البحرية، قال لها: وكيف صار إلى هذا الشكل؟ قالت له: إنه قد سحرته الملكة جوهرة بنت الملك السمندل. ثم حدَّثَتْه بما جرى له من أوله إلى آخره، وأنه قد خطب جوهرة من أبيها، فلم يَرْضَ أبوها بذلك، وأن خاله صالحًا اقتتل هو والملك السمندل، وانتصر صالح عليه وأسره. فلما سمع الملك كلام زوجته تعجَّبَ غاية العجب، وكانت هذه الملكة زوجته أسحر أهل زمانها. فقال لها الملك: بحياتي عليك أن تحليه من سحره، ولا تخليه معذبًا قطع الله تعالى يد جوهرة، ما أقبحها! وما أقل دينها وأكثر خداعها ومكرها! قالت له زوجته: قل له: يا بدر باسم ادخل هذه الخزانة. فأمره الملك أن يدخل الخزانة. فلما سمع كلام الملك دخل الخزانة، فقامت زوجة الملك وسترت وجهها، وأخذت في يدها طاسة ماء، ودخلت الخزانة وتكلَّمَتْ على الماء بكلامٍ لا يُفهَم، وقالت له: بحق هذه الأسماء العظام والآيات الكرام، وبحق الله تعالى خالق السموات والأرض، ومحيي الأموات، وقاسم الأرزاق والآجال، أن تخرج من هذه الصورة التي أنت فيها، وترجع إلى الصورة التي خلقك الله عليها. فلم يتم كلامها حتى انتفض نفضة، ورجع إلى صورته، فرآه الملك شابًّا مليحًا ما على وجه الأرض أحسن منه.

ثم إن الملك بدر باسم لما نظر إلى هذه الحالة قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، سبحان خالق الخلائق، ومُقدِّر أرزاقهم وآجالهم. ثم إنه قبَّلَ يدي الملك ودعا له بالبقاء، وقبَّلَ الملك رأس بدر باسم وقال له: يا بدر باسم، حدِّثني بحديثك من أوله إلى آخِره. فحدَّثَه الملك بحديثه ولم يكتم منه شيئًا، فتعجب الملك من ذلك، ثم قال له: يا بدر باسم، قد خلَّصَك الله من السحر، فما الذي اقتضاه رأيك؟ وما تريد أن تصنع؟ قال له: يا ملك

الزمان، أريد من إحسانك أن تجهِّز لي مركبًا وجماعة من خدامك، وجميع ما أحتاج إليه، فإن لي زمانًا طويلًا وأنا غائب، وأخاف أن تروح المملكة مني، وما أظن أن والدتي بالحياة من أجل فراقي، والغالب على ظني أنها ماتت من حزنها عليَّ؛ لأنها لا تدري ما جرى لي، ولا تعرف هل أنا حي أم ميت، وأنا أسألك أيها الملك أن تتم إحسانك عليَّ بما طلبتُه منك. فلما نظر الملك إلى حُسْنه وجماله وفصاحته، أجابه وقال له: سمعًا وطاعة. ثم إنه جهَّزَ له مركبًا ونقل فيه ما يحتاج إليه، وسيَّرَ معه جماعة من خدامه، فنزل في المركب بعد أن ودَّعَ الملك، وساروا في البحر وساعدهم الريح. ولم يزالوا سائرين مدة عشرة أيام متوالية، ولما كان اليوم الحادي عشر هاج البحر هيجانًا شديدًا، وصار المركب يرتفع وينخفض، ولم تقدر البحرية أن يمسكوه، ولم يزالوا على هذه الحالة والأمواج تلعب بهم حتى قربوا إلى صخرة من صخر البحر، فوقعت تلك الصخرة على المركب، فانكسر وغرق جميع مَن كان فيه إلا الملك بدر باسم، فإنه ركب على لوحٍ من الألواح بعد أن أشرف على الهلاك. ولم يزل ذلك اللوح يجري به في البحر، ولا يدري إلى أين هو ذاهب، وليس له حيلة في منع اللوح، بل سار اللوح به مع الماء والريح.

ولم يزل كذلك مدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع طلع به اللوح على ساحل البحر، فوجد هناك مدينة بيضاء مثل الحمامة الشديدة البياض، وهي مبنية في الجزيرة التي على ساحل البحر، لكنها عالية الأركان، مليحة البنيان، رفيعة الحيطان، والبحر يضرب في سورها. فلما عايَنَ الملك بدر باسم تلك الجزيرة التي فيها هذه المدينة، فرح فرحًا شديدًا، وكان قد أشرف على الهلاك من الجوع والعطش، فنزل من فوق اللوح وأراد أن يصعد إلى المدينة، فأتت إليه بغال وحمير وخيول عدد الرمل، فصاروا يضربونه ويمنعونه أن يطلع من البحر إلى المدينة. ثم إنه عام خلف تلك المدينة، وطلع إلى البر، فلم يجد هناك أحدًا، فتعجَّبَ وقال: يا تُرَى، لَمَن هذه المدينة؟ وهي ليس لها ملك، ولا فيها أحد، ومن أين هذه البغال والحمير والخيول التي منعَتْني من الطلوع؟ وصار متفكِّرًا في أمره وهو ماشٍ، وما يدري أين يذهب. ثم بعد ذلك رأى شيخًا بقالًا، فلما رآه الملك بدر باسم سلَّمَ عليه فردَّ عليه السلام، ونظر إليه الشيخ فرآه جميلًا، فقال له: يا غلام، من أين أقبلتَ؟ ومَن أوصلك إلى هذه المدينة؟ فحدَّثه بحديثه من أوله إلى آخِره، فتعجَّبَ منه وقال له: يا ولدي، أَمَا رأيتَ أحدًا في طريقك؟ فقال له: يا والدي، إنما أتعجب من هذه المدينة حيث كانت خالية من الناس. فقال له الشيخ: يا ولدي، اطلع إلى الدكان لئلا تهلك. فطلع بدر باسم، وقعد في الدكان، فقام الشيخ وجاء له بشيء من الطعام، وقال له: يا ولدي، ادخل

في داخل الدكان، فسبحان مَن سلَّمك من هذه الشيطانة. فخاف الملك بدر باسم خوفًا شديدًا، ثم أكل من طعام الشيخ حتى اكتفى، وغسل يده، ونظر إلى الشيخ وقال له: يا سيدي، ما سبب هذا الكلام؟ فقد خوَّفْتَني من هذه المدينة، ومن أهلها. فقال له الشيخ: يا ولدي، اعلم أن هذه المدينة مدينة السَّحَرَة، وبها ملكة ساحرة كأنها شيطانة، وهي كاهنة سحَّارة مكَّارة غدَّارة، والتي تنظرها من الخيل والبغال والحمير، هؤلاء كلهم مثلك ومثلي من بني آدم، لكنهم غرباء؛ لأن كلَّ مَن يدخل هذه المدينة وهو شاب مثلك، تأخذه هذه الكافرة الساحرة، وتقعد معه أربعين يومًا، وبعد الأربعين يومًا تسحره فيصير بغلًا أو فرسًا أو حمارًا من هذه الحيوانات التي نظرتها على جانب البحر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ البقَّال لما حكى للملك بدر باسم، وأخبره بحال الملكة السحارة، قال له: إن كل أهل هذه المدينة قد سحرتهم، وإنك لما أردت الطلوع إلى البحر خافوا عليك أن تسحرك مثلهم، فقالوا لك بالإشارة: لا تطلع لئلا تراك الساحرة. شفقة عليك، فربما تعمل فيك مثلما عملت فيهم، وقال له: إنها قد ملكت هذه المدينة من أهلها بالسحر، واسمها الملكة لاب، وتفسيره بالعربي تقويم الشمس. فلما سمع الملك بدر باسم ذلك الكلام من الشيخ خاف خوفًا شديدًا، وصار يرتعد مثل القصبة الريحية، وقال له: أنا ما صدقت أني خلصت من البلاء الذي كنتُ فيه من السحر، حتى ترميني المقادير في مكان أقبح منه؟ فصار متفكرًا في حاله وما جرى له. فلما نظر إليه الشيخ رآه قد اشتد خوفه، فقال له: يا ولدي، قم واجلس على عتبة الدكان، وانظر إلى تلك الخلائق وإلى لباسهم وألوانهم، وما هم فيه من السحر، ولا تَخَفْ فإن الملكة وكلَّ مَن في المدينة يحبني ويراعيني، ولا يرجفون لي قلبًا، ولا يتعبون لي خاطرًا. فلما سمع الملك بدر باسم كلام الشيخ خرج وقعد على باب الدكان يتفرج، فجازت عليه الناس، فنظر إلى عالم لا يُحصَى عدده، فلما نظره الناس تقدموا إلى الشيخ وقالوا له: يا شيخ، هل هذا أسيرك وصيدك في هذه الأيام؟ فقال لهم: هذا ابن أخي، وسمعت أن أباه قد مات، فأرسلت خلفه وأحضرته لأطفئ نار شوقي به. فقالوا له: إن هذا شاب مليح الشباب، ولكن نحن نخاف عليه من الملكة لاب لئلا ترجع عليك بالغدر، وتأخذه منك؛ لأنها تحب الشباب الملاح. فقال لهم الشيخ: إن الملكة لا تعصي أمري، وهي تراعيني وتحبني، وإذا علمت أنه ابن أخي لا تتعرَّض له ولا تسوءني فيه ولا تشوش خاطري به. فأقام الملك بدر باسم عند الشيخ مدة أشهر في أكل وشرب، وحبه الشيخ محبة عظيمة.

ثم إن بدر باسم كان جالسًا على دكان الشيخ ذات يوم على جري عادته، وإذا بألف خادم وبأيديهم السيوف مجردة وعليهم أنواع الملابس، وفي وسطهم المناطق المرصعة بالجواهر، وهم راكبون الخيول العربية متقلدون السيوف الهندية، وقد جاءوا على دكان الشيخ وسلموا عليه ثم مضوا، وجاء بعدهم ألف جارية كأنهن الأقمار، وعليهن أنواع الملابس من الحرير الأطلس مطرزة بطرازات الذهب مرصعة بأنواع الجواهر، وكلهن متقلدات الرماح، وفي وسطهن جارية راكبة على فرس عربية عليها سرج من الذهب مرصع بأنواع الجواهر واليواقيت، ولم يزلن سائرات حتى وصلن إلى دكان الشيخ وسلمن عليه، ثم توجهن، وإذا بالملكة لاب قد أقبلت في موكب عظيم، وما زالت مقبلة إلى أن وصلت إلى دكان الشيخ، فرأت الملك بدر باسم وهو جالس على الدكان كأنه بدر في تمامه، فلما رأته الملكة لاب حارت في حُسْنه وجماله، واندهشت وصارت ولهانة به، ثم أقبلت على الدكان ونزلت وجلست عند الملك بدر باسم وقالت للشيخ: من أين لك هذا المليح؟ فقال: هذا ابن أخي جاءني عن قريب. فقالت: دعه يكون الليلة عندي لأتحدث أنا وإياه. قال لها: أتأخذينه مني ولا تسحرينه؟ قالت: نعم. قال: احلفي لي. فحلفت أنها لا تؤذيه ولا تسحره، ثم أمرت أن يقدموا له فرسًا مليحًا مسرجًا ملجمًا بلجامٍ من ذهب، وكل ما عليه ذهب مرصع بالجواهر، ووهبت للشيخ ألف دينار وقالت له: استعِنْ به. ثم إن الملكة لاب أخذت الملك بدر باسم، وراحت به وهو كأنه البدر في ليلة أربعة عشر، وسار معها، وصار الناس كلما نظروا إليه وإلى حُسْنه وجماله يتوجعون عليه، ويقولون: والله إن هذا الشاب لا يستحق أن تسحره هذه الملعونة. والملك بدر باسم يسمع كلام الناس، ولكنه ساكت وقد سلَّمَ أمره إلى الله تعالى، ولم يزالوا سائرين إلى القصر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك بدر باسم لم يزل سائرًا هو والملكة لاب وأتباعها إلى أن وصلوا إلى باب القصر، ثم ترجَّلَ الأمراء والخدام وأكابر الدولة، وقد أمرت الحجاب أن يأمروا أرباب الدولة كلهم بالانصراف، فقبَّلوا الأرض وانصرفوا، ودخلت الملكة والخدام والجواري في القصر، فلما نظر الملك بدر باسم إلى القصر، رأى قصرًا لم يَرَ مثله قطُّ، وحيطانه مبنية بالذهب، وفي وسط القصر بِرْكة عظيمة غزيرة الماء في بستان عظيم، فنظر الملك بدر باسم إلى البستان، فرأى فيه طيورًا تناغي بسائر اللغات والأصوات المفرحة والمحزنة، وتلك الطيور من سائر الأشكال والألوان، فنظر الملك بدر باسم إلى مُلْك عظيم، فقال: سبحان الله مِن كرمه وحلمه يرزق من يعبد غيره، فجلست الملكة في شباك يشرف على البستان، وهي على سرير من العاج وفوق السرير فرش عالٍ، وجلس الملك بدر باسم إلى جانبها فقبلته وضمته إلى صدرها، ثم أمرت الجواري بإحضار مائدة، فحضرت مائدة من الذهب الأحمر مرصعة بالدر والجوهر، وفيها من سائر الأطعمة، فأكلا حتى اكتفيا وغسلا أيديهما، ثم أحضرت الجواري أواني الذهب والفضة والبلور، وأحضرت أيضًا جميع أجناس الأزهار وأطباق النقل. ثم إنها أمرت بإحضار مغنيات، فحضر عشر جوارٍ كأنهن الأقمار بأيديهن سائر آلات الملاهي. ثم إن الملكة ملأت قدحًا وشربته، وملأت آخَر وناولت الملك بدر باسم إياه فأخذه وشربه، ولم يزالا كذلك يشربان حتى اكتفيا، ثم أمرت الجواري أن يغنين، فغنين بسائر الألحان، وتخيل للملك بدر باسم أنه يرقص به القصر طربًا، فطاش عقله وانشرح صدره، ونسي الغربة وقال: إن هذه الملكة شابة مليحة ما بقيت أروح من عندها أبدًا؛ لأن ملكها أوسع من ملكي، وهي أحسن من الملكة جوهرة، ولم يزل يشرب معها إلى أن أمسى المساء، وأوقدت القناديل والشموع، وأطلقوا

البخور، ولم يزالا يشربان إلى أن سكرا والمغنيات يغنين، فلما سكرت الملكة لاب قامت من موضعها، ونامت على سرير، وأمرت الجواري بالانصراف، ثم أمرت الملك بدر باسم بالنوم إلى جانبها، فنام معها في أطيب عيش إلى أن أصبح الصباح. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة لما قامت من النوم دخلت الحمام الذي في القصر، والملك بدر باسم صحبتها، واغتسلا، فلما خرجا من الحمام أفرغت عليه أجمل القماش، وأمرت بإحضار آلات الشراب، فأحضرتها الجواري فشربا. ثم إن الملكة قامت وأخذت بيد الملك بدر باسم وجلسا على الكرسي، وأمرت بإحضار الطعام فأكلا وغسلا أيديهم، ثم قدمت الجواري لهما أواني الشراب والفواكه والأزهار والنقل، ولم يزالا يأكلان ويشربان والجواري تغني باختلاف الألحان إلى المساء، ولم يزالا في أكل وشرب وطرب مدة أربعين يومًا. ثم قالت له: يا بدر باسم، هل هذا المكان أطيب أم دكان عمك البقال؟ قال لها: والله يا ملكة إن هذا طيب، وذلك أن عمي رجل صعلوك يبيع الباقلا. فضحكت من كلامه، ثم إنهما رقدا في أطيب حال إلى الصباح. فانتبه الملك بدر باسم من نومه، فلم يجد الملكة لاب بجانبه، فقال: يا ترى، أين راحت؟ وصار مستوحشًا من غيبتها ومتحيرًا في أمره، وقد غابت عنه مدة طويلة ولم ترجع، فقال في نفسه: أين ذهبت؟ ثم إنه لبس ثيابه وصار يفتش عليها فلم يجدها، فقال في نفسه: لعلها ذهبت إلى البستان. فمضى إلى البستان فرأى فيه نهرًا جاريًا، وبجانبه طيرة بيضاء، وعلى شاطئ ذلك النهر شجرة، وفوقها طيور مختلفة الألوان، فصار ينظر إلى الطيور والطيور لا تراه، وإذا بطائر أسود نزل على تلك الطيرة البيضاء فصار يزقها زق الحمام، ثم إن الطير الأسود وثب على تلك الطيرة ثلاث مرات، ثم بعد ساعة انقلبت تلك الطيرة في صورة بشر فتأملها وإذا هي الملكة لاب، فعلم أن الطير الأسود إنسان مسحور وهي تعشقه، وتسحر نفسها طيرة ليجامعها، فأخذته الغيرة واغتاظ على الملكة لاب من أجل الطير الأسود.

ثم إنه رجع إلى مكانه ونام على فراشه، وبعد ساعة رجعت إليه، وصارت الملكة لاب تقبِّله وتمزح معه، وهو شديد الغيظ عليها، فلم يكلِّمها كلمة واحدة، فعلمت ما به

وتحقَّقت أنه رآها حين صارت طيرة، وكيف واقَعَها ذلك الطير، فلم تُظهِر له شيئًا، بل كتمت ما بها. فلما قضى حاجتها قال لها: يا ملكة، أريد أن تأذني لي في الرواح إلى دكان عمي، فإني قد تشوَّقت إليه ولي أربعون يومًا ما رأيته. فقالت له: رُحْ إليه ولا تبطئ عليَّ؛ فإني ما أقدر أن أفارقك، ولا أصبر عنك ساعة واحدة. فقال لها: سمعًا وطاعة. ثم إنه ركب ومضى إلى دكان الشيخ البقال، فرحَّبَ به وقام إليه وعانَقَه، وقال له: كيف أنت مع هذه الكافرة؟ فقال له: كنتُ طيبًا في خير وعافية، إلا أنها كانت في هذه الليلة نائمة في جانبي، فاستيقظت فلم أرها، فلبست ثيابي ودرت أفتش عليها إلى أن أتيت إلى البستان ... وأخبره بما رآه من النهر والطيور التي كانت فوق الشجرة، فلما سمع الشيخ كلامه قال له: احذر منها واعلم أن الطيور التي كانت على الشجرة كلهم شباب غرباء عشقتهم وسحرتهم طيورًا، وذلك الطير الأسود الذي رأيته كان من جملة مماليكها، وكانت تحبه محبة عظيمة، فمدَّ عينه إلى بعض الجواري فسحرته في صورة طير أسود. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بدر باسم لما حكى للشيخ البقال جميع حكاية الملكة لاب وما رآه منها، أعلمه الشيخ أن الطيور التي على الشجر كلها شباب غرباء وسحرتهم، وكذلك الطير الأسود كان من مماليكها، وسحرته في صورة طير أسود، وكلما اشتاقت إليه تسحر نفسها طيرة ليجامعها؛ لأنها تحبه محبة عظيمة، ولما علمت أنك علمت بحالها أضمرت لك السوء ولا تصفى لك، ولكن ما عليك بأس منها ما دمتُ أراعيك أنا فلا تَخَفْ، فإني رجل مسلم واسمي عبد الله، وما في زماني أسحر مني، ولكني لا أستعمل السحر إلا عند اضطراري إليه، وكثيرًا ما أبطل سحر هذه الملعونة، وأخلص الناس منها ولا أبالي بها؛ لأنها ليس لها عليَّ سبيل، بل هي تخاف مني خوفًا شديدًا، وكذلك كل مَن كان في المدينة ساحرًا مثلها على هذا الشكل يخافون مني، وكلهم على دينها يعبدون النار دون الملك الجبار، فإذا كان غد تعالَ عندي وأعلِمْني بما تعمله معك، فإنها في هذه الليلة تسعى في هلاكك، وأنا أقول لك على ما تفعله معها حتى تتخلص من كيدها.

ثم إن الملك بدر باسم ودَّع الشيخ ورجع إليها، فوجدها جالسة في انتظاره، فلما رأته قامت إليه وأجلسته ورحَّبت به وجاءت له بأكل وشرب فأكلا حتى اكتفيا، ثم غسلا أيديهما، ثم أمرت بإحضار الشراب فحضر، وصارا يشربان إلى نصف الليل، ثم مالت عليه بالأقداح وصارت تعاطيه حتى سكر وغاب عن حسِّه وعقله. فلما رأته كذلك قالت له: بالله عليك وبحق معبودك إنْ سألتك عن شيء فهل تخبرني عنه بالصدق، وتجيبني إلى قولي؟ فقال لها وهو في حالة السكر: نعم يا سيدتي. قالت له: يا سيدي ونور عيني، لما استيقظتَ من نومك ولم تَرَني وفتشت عليَّ وجئتني في البستان ورأيت الطير الأسود الذي وثب عليَّ، فأنا أخبرك بحقيقة هذا الطائر، إنه كان من مماليكي وكنت أحبه محبةً عظيمة، فتطلَّع يومًا لجارية من جواريَّ فحصلتْ لي غيرة، وسحرتُه في صورة طير أسود، وأما

الجارية فإني قتلتها، وإني اليومَ لم أصبر عنه ساعة واحدة، وكلما اشتقتُ إليه أسحر نفسي طيرة وأروح إليه لينط عليَّ، ويتمكَّن مني كما رأيتَ، أَمَا أنت لأجل هذا مغتاظ مني؟ مع أني وحق النار والنور والظل والحرور قد ازددت فيك محبةً، وجعلتُك نصيبي من الدنيا. فقال وهو سكران: إن الذي فهمتِه من غيظي بسبب ذلك صحيح، وليس لغيظي سببٌ غير ذلك. فضمَّتْه وقبَّلَتْه، وأظهرت له المحبة ونامت ونام الآخر بجانبها.

فلما كان نصف الليل قامت من الفراش، والملك بدر باسم منتبهٌ وهو يُظهِر أنه نائم، وصار يسرق النظر وينظر ما تفعل، فوجدها قد أخرجَتْ من كيس أحمر شيئًا أحمر، وغرسته في وسط القصر، فإذا هو صار نهرًا يجري مثل البحر، وأخذت كبشةَ شعيرٍ بيدها وبذرتها فوق التراب، وسقَتْه من هذا الماء فصار زرعًا مسنبلًا، فأخذته وطحنته دقيقًا، ثم وضعته في موضع ورجعت نامت عند بدر باسم إلى الصباح. فلما أصبح الصباح قام الملك بدر باسم وغسل وجهه، ثم استأذَنَ الملكةَ في الرواح إلى الشيخ فأذنت له، فذهب إلى الشيخ وأعلَمَه بما جرى منها، وما عايَنَ، فلما سمع الشيخ كلامه ضحك، وقال: والله إن هذه الكافرة الساحرة قد مكرت بك، ولكن لا تبالِ بها أبدًا. ثم أخرَجَ له قدرَ رطلٍ سويقًا، وقال له: خذْ هذا معك، واعلم أنها إذا رأته تقول لك: ما هذا؟ وما تعمل به؟ فقُلْ لها: زيادة الخير خير. وكُلْ منه، فإذا أخرجَتْ هي سويقها، وقالت لك: كُلْ من هذا السويق. فأَرِها أنك تأكل منه وكُلْ من هذا، وإياك أن تأكل من سويقها شيئًا، ولو حبةً واحدةً، فإنْ أكلتَ منه ولو حبة واحدة، فإن سحرها يتمكَّن منك فتسحرك، وتقول لك: اخرجْ من هذه الصورة البشرية. فتخرج من صورتك إلى أي صورة أرادَتْ، وإذا لم تأكل منه، فإن سحرها يبطل ولا يضرك منه شيء، فتخجل هي غاية الخجل وتقول لك: إنما أنا أمزح معك. وتقرُّ لك بالمحبة والمودة، وكل ذلك نفاق ومكر منها، فأَظْهِر لها أنت المحبةَ، وقل لها: يا سيدتي ويا نور عيني، كُلِي من هذا السويق وانظري لذَّتَه. فإذا أكلَتْ منه ولو حبةً واحدة، فخُذْ في كفك ماءً واضربه في وجهها، وقل لها: اخرجي من هذه الصورة البشرية إلى أي صورةٍ أردتَ. ثم خلِّها وتعالَ إليَّ حتى أدبِّر لك أمرًا.

ثم ودَّعه بدر باسم، وسار إلى أن طلع القصر ودخل عليها، فلما رأته قالت له: أهلًا وسهلًا ومرحبًا. ثم قامت له وقبَّلته وقالت له: أبطأتَ عليَّ يا سيدي. فقال لها: كنتُ عند عمي. ورأى عندها سويقًا، فقال لها: وقد أطعَمَني عمي من هذا السويق. فقالت له: إن عندنا سويقًا أحسن منه. ثم إنها حطَّتْ سويقه في صحنٍ وسويقها في صحنٍ آخَر، وقالت له: كُلْ من هذا، فإنه أطيب من سويقك. فأظهَرَ لها أنه يأكل منه، فلما علمت أنه أكل

منه أخذت في يدها ماءً ورشَّتْه به، وقالت له: اخرجْ من هذه الصورة يا علق يا لئيم، وكُنْ في صورةِ بغلٍ أعور قبيح المنظر. فلم يتغيَّر، فلما رأته على حاله لم يتغيَّر، قامَتْ له وقبَّلته بين عينيه، وقالت له: يا محبوبي، إنما كنتُ أمزح معك، فلا تتغيَّر عليَّ بسبب ذلك. فقال لها: والله يا سيدتي ما تغيَّرتُ عليك أصلًا، بل أعتقد أنك تحبينني، فكُلِي من سويقي هذا. فأخذت منه لقمةً وأكلَتْها، فلما استقرت في بطنها اضطربَتْ، فأخذ الملك بدر باسم في كفه ماءً ورشَّها به في وجهها، وقال لها: اخرجي من هذه الصورة البشرية إلى صورةِ بغلةٍ زرزورية. فما نظرت نفسها إلا وهي في تلك الحالة، فصارت دموعها تنحدر على خدَّيْها، وصارت تمرغ خدَّيْها على رجلَيْه، فقام يلجمها فلم تقبل اللجامَ، فتركها وذهب إلى الشيخ وأعلَمَه بما جرى، فقام الشيخ وأخرج له لجامًا وقال له: خذ هذا اللجام وألجمها به. فأخذه وأتى عندها، فلما رأته تقدَّمَتْ إليه، وحطَّ اللجام في فمها وركبها، وخرج من القصر، وتوجَّهَ إلى الشيخ عبد الله، فلما رآها قام لها وقال لها: أخزاكِ الله تعالى يا ملعونة. ثم قال له الشيخ: يا ولدي، ما بقي لك في هذه البلد إقامة، فاركبها وسِرْ بها إلى أي مكان شئتَ، وإياكَ أن تسلِّم اللجام إلى أحد. فشكره الملك بدر باسم وودَّعه وسار.

ولم يزل سائرًا ثلاثة أيام، ثم أشرف على مدينة فلقيه شيخ مليح الشيبة، فقال له: يا ولدي، من أين أقبلتَ؟ قال: من مدينة هذه الساحرة. قال له: أنت ضيفي في هذه الليلة. فأجابه وسار معه في الطريق، وإذا بامرأة عجوز كلَّمَا نظرت البغلة بكت وقالت: لا إله إلا الله، إن هذه البغلة تشبه بغلة ابني التي ماتت، وقلبي متشوش عليها، فبالله عليك يا سيدي أن تبيعني إياها. فقال لها: والله يا أمي، ما أقدر أن أبيعها. قالت له: بالله عليك لا ترد سؤالي، فإن ولدي إن لم أشتَرِ له هذه البغلة ميت لا محالة. ثم إنها أطنبَتْ عليه في السؤال، فقال: ما أبيعها إلا بألف دينار. وقال بدر باسم في نفسه: من أين لهذه العجوز تحصيل ألف دينار. فعند ذلك أخرجَتْ من حزامها ألف دينار، فلما نظر الملك بدر باسم إلى ذلك قال لها: يا أمي، إنما أنا أمزح معك، وما أقدر أن أبيعها. فنظر إليه الشيخ، وقال له: يا ولدي، إن هذه البلد ما يكذب فيها أحد، وكلُّ مَن كذب في هذه البلد قتلوه. فنزل الملك بدر باسم من فوق البغلة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك بدر باسم لما نزل من فوق البغلة وسلَّمَها إلى المرأة العجوز، أخرجت اللجام من فمها وأخذت في يدها ماء ورشتها به، وقالت: يا بنتي، اخرجي من هذه الصورة إلى الصورة التي كنتِ عليها. فانقلبَتْ في الحال وعادت إلى صورتها الأولى، وأقبلَتْ كلٌّ واحدة منهما على الأخرى وتعانَقَتا، فعلم الملك بدر باسم أن هذه العجوز أمها وقد تمَّتِ الحيلة عليه، فأراد أن يهرب، وإذا بالعجوز صفرت صفرة عظيمة فتمثَّلَ بين يديها عفريت كأنه الجبل العظيم، فخاف الملك بدر باسم ووقف، فركبت العجوز على ظهره وأردفت بنتها خلفها، وأخذت الملك بدر باسم قدامها، وطار بهم العفريت، فما مضى عليهم غير ساعة ووصلوا إلى قصر الملكة لاب، فلما جلسَتْ على كرسي الملكة التفتَتْ إلى الملك بدر باسم، وقالت له: يا علق، قد وصلت إلى هذا المكان ونلت ما تمنيت، وسوف أريك ما أعمل بك وبهذا الشيخ البقال، فكَمْ أحسنتُ له وهو يسوءني، وأنت ما وصلتَ إلى مرادك إلا بواسطته. ثم أخذت ماءً ورشَّتْه به، وقالت له: اخرجْ من هذه الصورة التي أنت فيها إلى صورةِ طيرٍ قبيحِ المنظر أقبح ما يكون من الطيور. فانقلب في الحال وصار طيرًا قبيح المنظر، فجعلته في قفص وقطعت عنه الأكل والشرب، فنظرت إليه جارية فرحمَتْه، وصارت تُطعِمه وتسقيه وبغير عِلْم الملكة.

ثم إن الجارية وجدَتْ سيدتها غافلةً في يوم من الأيام، فخرجت وتوجَّهَتْ إلى الشيخ البقال وأعلَمَتْه بالحديث وقالت له: إن الملكة لاب عازمةٌ على هلاكِ ابنِ أخيك. فشكرها الشيخ وقال لها: لا بد أن آخذ المدينةَ منها وأجعلك ملكتها عوضًا عنها. ثم صفر صفرة عظيمة، فخرج له عفريت له أربعة أجنحة، فقال له: خذ هذه الجارية وامضِ بها إلى مدينة جلناز البحرية وأمها فراشة، فإنهما أسحرُ مَن يوجد على وجه الأرض. وقال للجارية: إذا وصلتِ إلى هناك فأخبريهما بأن الملك بدر باسم في أَسْر الملكة لاب. فحملها العفريت وطار

بها، فلم يكن إلا ساعة حتى نزل بها على قصر الملكة جلناز البحرية، فنزلت الجارية من فوق سطح القصر ودخلت على الملكة جلناز، وقبَّلَتِ الأرضَ وأعلمَتْها بما قد جرى لولدها من أول الأمر إلى آخِره، فقامت إليها جلناز وأكرمتها وشكرتها ودقَّتِ البشائرَ في المدينة، وأعلمَتْ أهلها وأكابر دولتها بأن الملك بدر باسم وُجِد.

ثم إن جلناز البحرية وأمها فراشة وأخاها صالحًا أحضروا جميع قبائل الجان وجنود البحر؛ لأن ملوك الجان قد أطاعوهم بعد أسر الملك السمندل، ثم إنهم طاروا في الهواء ونزلوا على مدينة الساحرة، ونهبوا القصر وقتلوا جميع مَن كان فيه، ونهبوا المدينة وقتلوا جميع مَن كان فيها من الكَفَرة في طرفة عين، وقالت للجارية: أين ابني؟ فأخذت الجارية القفصَ وأتَتْ به بين يديها، وأشارت إلى الطائر الذي فيه وقالت: هذا ولدك. فأخرجَتْه الملكة جلناز من القفص، ثم أخذت بيدها ماءً ورشَّتْه به، وقالت له: اخرجْ من هذه الصورة إلى الصورة التي كنتَ عليها. فلم يتم كلامها حتى انتفض وصار بشرًا كما كان، فلما رأته أمه على صورته الأصلية قامت إليه واعتنقته، فبكى بكاءً شديدًا، وكذلك خاله صالح وجَدَّته فراشة وبنات عمه، وصاروا يقبِّلون يدَيْه ورجلَيْه. ثم إن جلناز أرسلَتْ خلف الشيخ عبد الله وشكرته على فعله الجميل مع ابنها، وزوَّجَتْه بالجارية التي أرسلها إليها بأخبار ولدها، ودخل بها، ثم جعلته ملكَ تلك المدينة، وأحضرَتْ ما بقي من أهل المدينة من المسلمين وبايَعَتْهم للشيخ عبد الله وعاهدتهم وحلَّفتهم أن يكونوا في طاعته وفي خدمته، فقالوا: سمعًا وطاعة.

ثم إنهم ودَّعوا الشيخ عبد الله وساروا إلى مدينتهم، فلما دخلوا قصرهم تلقَّاهم أهل مدينتهم بالبشائر والفرح، وزيَّنوا المدينة ثلاثة أيام لشدة فرحهم بملكهم بدر باسم، وفرحوا فرحًا شديدًا. ثم بعد ذلك قال الملك بدر باسم لأمه: يا أمي، ما بقي إلا أني أتزوج ويجتمع شملنا ببعضنا أجمعين. فقالت: يا ولدي، نِعْمَ الرأي الذي رأيتَه، ولكن اصبرْ حتى نسأل على مَن يصلح لك من بنات الملوك. فقالت جَدَّته فراشة وبنات عمه وخاله: نحن يا بدر باسم كلنا في الوقت نساعدك على ما تريد. ثم إن كل واحدة منهن نهضَتْ ومضت تفتِّش في البلاد، وكذلك جلناز البحرية بعثَتْ جواريها على أعناق العفاريت وقالت لهن: لا تتركنَ مدينةً ولا قصرًا من قصور الملوك حتى تتأمَّلْنَ جميعَ مَن فيه من البنات الحِسَان. فلما رأى الملك بدر باسم اعتناءَهن بهذا الأمر، قال لأمه جلناز: يا أمي، اتركي هذا الأمر، فإنه ليس يرضيني إلا جوهرة بنت الملك السمندل؛ لأنه جوهرة كاسمها. فقالت أمه: قد عرفتُ مقصودك. ثم أرسلت في الحال مَن يأتيها بالملك السمندل، ففي الوقت

أحضروه بين يدَيْها، ثم أرسلت إلى بدر باسم، فلما جاء باسم أعلمَتْه بمجيء السمندل، فدخل عليه، فلما رآه الملك السمندل مُقبِلًا قام له وسلَّمَ عليه ورحَّبَ به. ثم إن الملك بدر باسم خطب منه بنته جوهرة، فقال له: هي في خدمتك وجاريتك وبين يديك. ثم إن الملك السمندل أرسَلَ بعض أصحابه إلى بلاده وأمرهم بإحضار بنته جوهرة، وأن يُعلِموها أن أباها عند الملك بدر باسم ابن جلناز البحرية، فطاروا في الهواء وغابوا ساعة ثم جاءوا ومعهم الملكة جوهرة، فلما عايَنَتْ أباها تقدَّمَتْ إليه واعتنقَتْه، فنظر إليها وقال: يا بنتي، اعلمي أنني قد زوَّجْتُكِ بهذا الملك الهمام، والأسد الضرغام، الملك بدر باسم ابن الملكة جلناز، وأنه أحسنُ أهلِ زمانه وأجملهم وأرفعهم قدرًا وأشرفهم حسبًا، ولا يصلح إلا لكِ ولا تصلحين إلا له. فقالت له: يا أبي، أنا ما أقدر أن أخالفك، فافعل ما تريد، فقد زال الهمُّ والتنكيد، وأنا له من جملة الخدام. فعند ذلك أحضروا القضاة والشهود، وكتبوا كتاب الملك بدر باسم ابن الملكة جلناز البحرية على الملكة جوهرة، وأهل المدينة زيَّنوها، وأطلقوا البشائر وأطلقوا كلَّ مَن في الحبوس، وكسا الملك الأرامل والأيتام، وخلع على أرباب الدولة والأمراء والأكابر، ثم أقاموا الفرح العظيم، وعملوا الولائم، وأقاموا في الأفراح مساءً وصباحًا مدة عشرة أيام، وجلوها على الملك بدر باسم بتسع خلع، ثم خلع الملك بدر باسم على الملك السمندل، وردَّه إلى بلاده وأهله وأقاربه. ولم يزالوا في ألذ عيش وأهنأ أيام، يأكلون ويشربون ويتنعَّمون، إلى أنْ أتاهم هادم اللذات، ومفرِّق الجماعات، وهذا آخِر حكايتهم رحمة الله عليهم أجمعين.

حكاية سيف الملوك وبديعة الجمال

واعلمْ أيها الملك السعيد، أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، ملكٌ من ملوك العجم اسمه محمد بن سبائك، وكان يحكم على بلاد خراسان، وكان في كل عام يغزو بلادَ الكفَّار في الهند والسند والصين، والبلاد التي وراء النهر وغير ذلك من العجم وغيرها، وكان ملكًا عادلًا شجاعًا كريمًا جوَّادًا، وكان ذلك الملك يحب المُنادَمات والروايات والأشعار والأخبار والحكايات والأسمار وسِيَر المتقدِّمين، وكان كلُّ مَن يحفظ حكايةً غريبة ويحكيها له يُنعِم عليه، وقيل إنه كان إذا أتاه رجل غريب بسَمَر غريب، وتكلَّمَ بين يديه واستحسنه وأعجَبَه كلامه، يخلع عليه خلعة سنية، ويعطيه ألف دينار، ويُركبه فرسًا مسرجًا ملجمًا، ويكسوه من فوق إلى أسفل، ويعطيه عطايا عظيمة، فيأخذها الرجل وينصرف لحال سبيله. فاتفق أنه أتاه رجل كبير بسمرٍ غريب، فتحدَّثَ بين يديه فاستحسنه، وأعجبه

كلامه، فأمر له بجائزة سنية ومن جملتها ألف دينار خراسانية، وفرس بعدة كاملة، ثم بعد ذلك شاعت هذه الأخبار عن هذا الملك في جميع البلدان، فسمع به رجل يقال له التاجر حسن، وكان كريمًا جوادًا عالمًا شاعرًا فاضلًا، وكان عند ذلك الملك وزيرٌ حَسُودٌ محضرُ سوءٍ لا يحب الناسَ جميعًا؛ لا غنيًّا ولا فقيرًا، وكان كلما ورد على ذلك الملك أحدٌ وأعطاه شيئًا يحسده ويقول: إن هذا الأمر يُفنِي المالَ ويخرِّب الديار، وإن الملك دأبه هذا الأمر. ولم يكن ذلك الكلام إلا حسدًا وبغضًا من ذلك الوزير.

ثم إن الملك سمع بخبر التاجر حسن، فأرسل إليه وأحضره، فلما حضر بين يديه قال له: يا تاجر حسن، إن الوزير خالفني وعاداني من أجل المال الذي أعطيه للشعراء والندماء وأرباب الحكايات والأشعار، وإني أريد منك أن تحكي لي حكاية مليحة وحديثًا غريبًا بحيث لم أكن سمعتُ مثله قطُّ، فإنْ أعجبني حديثك أعطيتك بلادًا كثيرة بقلاعها، وأجعلها زيادة على إقطاعك، وأجعل مملكتي كلها بين يديك، وأجعلك كبيرَ وزرائي تجلس على يميني، وتحكم في رعيتي، وإن لم تَأْتِني بما قلتُ لكَ أخذتُ جميعَ ما في يدك وطردتُك من بلادي. فقال التاجر حسن: سمعًا وطاعةً لمولانا الملك، لكنْ يطلب منك المملوك أن تصبر عليه سنة، ثم أحدِّثك بحديثٍ ما سمعتَ مثله في عمرك ولا سمع غيرك بمثله ولا بأحسن منه قطُّ. فقال الملك: قد أعطيتك مهلة سنة كاملة. ثم دعا بخلعة سنية فألبسه إياها وقال له: الزمْ بيتك ولا تركب ولا تَرُحْ ولا تَجِئْ مدةَ سنة كاملة حتى تحضر بما طلبتُه منك، فإن جئتَ بذلك فلك الإنعام الخاص، وأبشر بما وعدتُك به، وإنْ لم تَجِئْ بذلك فلا أنت منَّا ولا نحن منك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك محمد بن سبائك لما قال للتاجر حسن: إنْ جئتَني بما طلبته منك فلك الإنعام الخاص، وأبشِرْ بما وعدتُكَ به، وإنْ لم تَجِئْني بذلك فلا أنت منَّا ولا نحن منك. فقبَّلَ التاجر حسن الأرضَ بين يديه وخرج، ثم اختار من مماليكه خمسة أنفس كلهم يكتبون ويقرءون، وهم فضلاء عقلاء أدباء من خواص مماليكه، وأعطى كلَّ واحد خمسة آلاف دينار، وقال لهم: أنا ما ربَّيتُكم إلا لمثل هذا اليوم، فأعينوني على قضاء غرض الملك، وأنقذوني من يده. فقالوا له: وما الذي تريد أن تفعل؟ فأرواحنا فداؤك. قال لهم: أريد أن يسافر كلُّ واحد منكم إلى إقليم، وأنْ تستقصوا على العلماء والأدباء والفضلاء، وأصحاب الحكايات الغريبة والأخبار العجيبة، وابحثوا لي عن قصة سيف الملوك، وتأتوني بها، وإذا لقيتموها عند أحد فرغِّبوه في ثمنها، ومهما طلب من الذهب والفضة فأعطوه إياه، ولو طلب منكم ألف دينار فأعطوه المتيسِّر وعِدُوه بالباقي، وأتوني بها، ومَن وقع منكم بهذه القصة وأتاني بها، فإني أعطيه الخُلَع السنية والنِّعَم الوفِيَّة، ولم يكن عندي أعز منه. ثم إن التاجر حسن قال لواحد منهم: رُحْ أنت إلى بلاد الهند والسند وأعمالها وأقاليمها. وقال للآخَر: رُحْ أنت إلى بلاد العجم والصين وأقاليمها. وقال للآخَر: رُحْ أنت إلى بلاد خراسان وأعمالها وأقاليمها. وقال للآخَر: رُحْ أنت إلى بلاد المغرب وأقطارها وأقاليمها وأعمالها وجميع أطرافها. وقال للآخَر وهو الخامس: رُحْ أنت إلى بلاد الشام ومصر وأعمالها وأقاليمها. ثم إن التاجر اختار لهم يومًا سعيدًا وقال لهم: سافروا في هذا اليوم واجتهدوا في تحصيل حاجتي ولا تتهاونوا ولو كان فيها بذل الأرواح. فودَّعوه وساروا وكل واحد منهم ذهَبَ إلى الجهة التي أمره بها، فمنهم أربعة أنفس غابوا أربعة أَشْهُر وفتَّشوا ولم يجدوا شيئًا، فضاق صدر التاجر حسن لما رجع إليه الأربعة مماليك، وأخبروه أنهم فتَّشوا المدائن والبلاد والأقاليم على مطلوب سيدهم، فلم يجدوا شيئًا

منه. وأما المملوك الخامس، فإنه سافَرَ إلى أنْ دخل بلادَ الشام ووصل إلى مدينة دمشق، فوجدها مدينة طيبة أمينة ذات أشجار وأنهار وأثمار وأطيار، تسبِّح الله الواحد القهَّار، الذي خلق الليل والنهار، فأقام فيها أيامًا وهو يسأل عن حاجة سيده فلم يُجِبْه أحد، ثم إنه أراد أن يرحل منها ويسافر إلى غيرها، وإذا هو بشابٍّ يجري ويتعثَّر في أذياله، فقال له المملوك: ما بالك تجري وأنت مكروب؟ وإلى أين تقصد؟ فقال له: هنا شيخ كلَّ يوم يجلس على كرسي في مثل هذا الوقت، ويحدِّث حكاياتٍ وأخبارًا وأسمارًا مِلَاحًا لم يسمع أحدٌ مثلها، وأنا أجري حتى أجد لي موضعًا قريبًا، وأخاف أني لا أحصل لي موضعًا من كثرة الخلق. فقال له المملوك: خذني معك. فقال له الفتى: أسرِعْ في مشيتك. فغلق بابه، وأسرَعَ في السَّيْر معه حتى وصل إلى الموضع الذي يحدِّث فيه الشيخ بين الناس، فرأى ذلك الشيخ صبيحَ الوجه، وهو جالس على كرسي يحدِّث الناسَ، فجلس قريبًا منه وصغى ليسمع حديثه، فلما جاء وقت غروب الشمس فرغ الشيخ من الحديث، وسمع الناس ما تحدَّثَ به وانفضُّوا من حوله، فعند ذلك تقدَّمَ إليه المملوك وسلَّم عليه، فردَّ عليه وزاده في التحية والإكرام، فقال له المملوك: إنك يا سيدي الشيخ رجلٌ مليح محتشم، وحديثك مليح، وأريد أن أسألك عن شيء. فقال له: اسألْ عما تريد. فقال له المملوك: هل عندك قصة سمر سيف الملوك وبديعة الجمال؟ فقال له الشيخ: وممَّنْ سمعتَ هذا الكلام؟ ومَن الذي أخبَرَك بذلك؟ فقال المملوك: أنا ما سمعتُ ذلك من أحد، ولكن أنا من بلادٍ بعيدة وجئتُ قاصدًا لهذه القصة، فمهما طلبتَ من ثمنها أعطيك إنْ كانت عندك وتُنعِم وتتصدَّق عليَّ بها، وتجعلها من مكارم أخلاقك صدقةً عن نفسك، ولو أن روحي في يدي وبذلتها لك فيها لطاب خاطري بذلك. فقال له الشيخ: طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا وهي تحضر لك، ولكن هذا سمر لا يتحدَّث به أحد على قارعة الطريق، ولا أعطي هذه القصة لكل أحد. فقال له المملوك: بالله يا سيدي لا تبخل عليَّ بها، واطلبْ مهما أردتَ. فقال له الشيخ: إنْ كنتَ تريد هذه القصة فأعطني مائة دينار، وأنا أعطيك إياها، ولكن بخمسة شروط. فلما عرف أنها عند الشيخ، وأنه سمح له بها، فرح فرحًا شديدًا وقال له: أعطيك مائة دينار ثمنها وعشرة جعالة، وآخذها بالشروط التي ذكرتَها. فقال له الشيخ: رُحْ هات الذهب وخذ حاجتك. فقام المملوك، وقبَّلَ يدي الشيخ وراح إلى منزله فَرِحًا مسرورًا، وأخذ في يده مائةَ دينار وعشرة، ووضعها في كيس كان معه، فلما أصبح الصباح قام ولبس ثيابه، وأخذ الدنانير وأتى بها إلى الشيخ، فرآه جالسًا على باب داره، فسلَّمَ عليه فردَّ عليه السلام، فأعطاه المائة دينار وعشرة، فأخذها منه الشيخ وقام ودخل داره وأدخَلَ المملوك وأجلسه

في مكانٍ وقدَّمَ له دواةً وقلمًا وقرطاسًا، وقدَّمَ له كتابًا وقال له: اكتبِ الذي أنت طالبه من هذا الكتاب من قصة سمر سيف الملوك. فجلس المملوك يكتب هذه القصة إلى أن فرغ من كتابتها، ثم قرأها على الشيخ وصحَّحَها، وبعد ذلك قال له الشيخ: اعلمْ يا ولدي أن أول شرطٍ أنك لا تقول هذه القصة على قارعة الطريق، ولا عند النساء والجواري، ولا عند العبيد والسفهاء، ولا عند الصبيان، وإنما تقرؤها عند الأمراء والملوك والوزراء، وأهل المعرفة من المفسِّرين وغيرهم. فقَبِل المملوكُ الشروطَ، وقبَّلَ يدَي الشيخ وودَّعَه، وخرج من عنده. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مملوكَ حسن لما نقل القصة من كتاب الشيخ الذي بالشام، وأخبره بالشروط وودَّعه، وخرج من عنده وسافَرَ في يومه فرحانًا مسرورًا، ولم يزل مُجِدًّا في السير من كثرة الفرح الذي حصل له بسبب تحصيله لقصة سمر سيف الملوك حتى وصل إلى بلاده، وأرسل تابِعَه يبشِّر التاجر ويقول له: إن مملوكك قد وصل سالمًا وبلغ مراده ومقصوده. وحين وصل المملوك إلى مدينة سيده وأرسَلَ إليه البشير لم يَبْقَ من الميعاد الذي بين الملك وبين التاجر حسن غير عشرة أيام، ودخل على سيده التاجر وأخبره بما حصل له، ففرح فرحًا عظيمًا واستراح المملوك في مكانِ خلوته، وأعطى سيده الكتاب الذي فيه قصة سيف الملوك وبديع الجمال. فلما رأى سيده ذلك خلع على المملوك جميعَ ما كان عليه من ملابسه وأعطاه عشرة من الخيل الجياد، وعشرة من الجمال، وعشرة من البغال، وثلاثة عبيد ومملوكَيْن. ثم إن التاجر أخذ القصةَ وكتبها بخطه مفسَّرة، وطلع إلى الملك وقال له: أيها الملك السعيد، إني جئتُ بسمرٍ وحكايات مليحة نادرة لم يسمع مثلَها أحدٌ قطُّ. فلما سمع الملك كلامَ التاجر حسن أَمَرَ في وقته وساعته بأن يحضر كل أمير عاقل، وكل عالم فاضل، وكل أديب وشاعر ولبيب، وجلس التاجر حسن وقرأ هذه السيرة عند الملك، فلما سمعها الملك وكلُّ مَن كان حاضرًا تعجَّبوا واستحسنوها، وكذلك استحسنها الذين كانوا حاضرين ونثروا عليه الذهب والفضة والجواهر، ثم أمر الملك للتاجر حسن بخلعة سنية من أفخر ملبوسه، وأعطاه مدينة كبيرة بقلاعها وضياعها، وجعله من أكابر وزرائه وأجلسه على يمينه، ثم أمر الكتَّابَ أن يكتبوا هذه القصة بالذهب ويجعلوها في خزائنه الخاصة، وصار الملك كلما ضاق صدره يُحضِر التاجر حسن فيقرؤها.

ومضمون هذه القصة أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، في مصر ملك يُسمَّى عاصم بن صفوان، وكان ملكًا سخيًّا جوَّادًا صاحب هيبة ووقار، وكان له بلاد

كثيرة وقلاع وحصون وجيوش وعساكر، وكان له وزير يُسمَّى فارس بن صالح، وكانوا جميعًا يعبدون الشمس والنار دون الملك الجبار الجليل القهار. ثم إن هذا الملك صار شيخًا كبيرًا قد أضعَفَه الكِبَر والسَّقَم والهَرَم؛ لأنه عاش مائة وثمانين سنة، ولم يكن له ولد ذكر ولا أنثى، وكان بسبب ذلك في همٍّ وغمٍّ ليلًا ونهارًا، فاتفق أنه كان جالسًا يومًا من الأيام على سرير ملكه والأمراء والوزراء والمقدمون وأرباب الدولة في خدمته على جري عادتهم، وعلى قدر منازلهم، وكل مَن دخل عليه من الأمراء ومعه ولد أو ولدان يحسده الملك ويقول في نفسه: كلٌّ واحد مسرورٌ فرحان بأولاده، وأنا ما لي ولد، وفي غدٍ أموت وأترك مُلْكي وتختي وضِياعي وخزائني وأموالي، وتأخذها الغرباء، وما يذكرني أحدٌ قطُّ ولا يبقى لي ذِكْر في الدنيا. ثم إن الملك عاصم استغرق في بحر الفكر، ومن كثرة توارُد الأحزان والأفكار على قلبه، بكى ونزل من فوق تخته وجلس على الأرض يبكي ويتضرَّع، فلما رآه الوزير والجماعة الحاضرون من أكابر الدولة فعل بنفسه ذلك، صاحوا على الناس وقالوا لهم: اذهبوا إلى منازلكم واستريحوا حتى يفيق الملك ممَّا هو فيه. فانصرفوا ولم يَبْقَ غير الملك والوزير، فلما أفاق الملك قبَّلَ الوزير الأرضَ بين يدَيْه وقال له: يا ملك الزمان، ما سبب هذا البكاء؟ فأخبِرْني بمَن عاداك من الملوك وأصحاب القلاع أو من الأمراء وأرباب الدولة، وعرِّفني بمَن يخالفك أيها الملك حتى نكون كلنا عليه ونأخذ روحه من بين جنبَيْه. فلم يتكلم الملك ولم يرفع رأسه. ثم إن الوزير قبَّلَ الأرضَ بين يدَيْه ثانيًا وقال له: يا ملك الزمان، أنا مثل ولدك وعبدك، وقد ربَّيْتَني، فأنا لم أعرف سببَ غمِّك وهمِّك وجزعك وما أنت فيه، فمَن يعرف غيري ويقوم مقامي بين يديك؟ فأخبِرْني بسبب هذا البكاء والحزن. فلم يتكلم ولم يفتح فاه، ولم يرفع رأسه، وما زال يبكي ويصوت بصوتٍ عالٍ وينوح بنواحٍ زائد ويتأوَّه، والوزير صابر له. ثم بعد ذلك قال له الوزير: إنْ لم تَقُلْ لي ما سبب ذلك وإلا قتلتُ نفسي بين يدَيْك من ساعتي، وأنت تنظر ولا أراك مهمومًا. ثم إن الملك عاصمًا رفع رأسه ومسح دموعه، وقال: يا أيها الوزير الناصح، خلِّني بهمِّي وغمِّي، فالذي في قلبي من الأحزان يكفيني. فقال له الوزير: قُلْ لي أيها الملك ما سبب هذا البكاء، لعلَّ الله يجعل الفرجَ على يدي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الوزير لما قال للملك عاصم: قُلْ لي ما سبب هذا البكاء، لعل الله يجعل لك الفرج على يدي. قال له الملك: يا وزير، إن بكائي ما هو على مالٍ ولا على خيلٍ ولا على شيء، ولكن أنا بقيت رجلًا كبيرًا وصار عمري نحو مائة وثمانين سنة، ولا رُزِقت ولدًا ذكرًا ولا أنثى، فإذا متُّ يدفنوني، ثم ينمحي رسمي وينقطع اسمي، ويأخذ الغرباء تختي ومُلْكي، ولا يذكرني أحدٌ أبدًا. فقال الوزير: يا ملك الزمان، أنا أكبرُ منك بمائة سنة ولا رُزِقت بولدٍ قطُّ، ولم أَزَلْ ليلًا ونهارًا في همٍّ وغمٍّ، وكيف نفعل أنا وأنت؟ ولكن سمعتُ بخبر سليمان بن داود عليهما السلام، وأن له ربًّا عظيمًا قادرًا على كل شيء، فينبغي أن أتوجَّه إليه بهدية وأقصده في أن يسأل ربَّه لعله يرزق كلَّ واحدٍ منا بولد. ثم إن الوزير تجهَّزَ للسفر وأخذ هدية فاخرة وتوجَّهَ بها إلى سليمان بن داود عليهما السلام.

هذا ما كان من أمر الوزير، وأما ما كان من أمر سليمان بن داود عليهما السلام، فإن الله سبحانه وتعالى أوحى إليه وقال: يا سليمان، إن مَلِك مصر أرسَلَ إليك وزيرَه الكبير بالهدايا والتُّحَف وهي كذا وكذا، فأرسِلْ إليه وزيرَك آصف بن برخيا لاستقباله بالإكرام والزاد في موضع الإقامات، فإذا حضر بين يديك فقُلْ له: إن الملك أرسلك تطلب كذا وكذا، وإن حاجتك كذا وكذا، ثم اعرِضْ عليه الإيمانَ. فحينئذٍ أَمَرَ سليمان وزيرَه آصف أن يأخذ معه جماعة من حاشيته لِلِقائهم بالإكرام والزاد الفاخر في موضع الإقامات، فخرج آصف بعد أنْ جهَّزَ جميعَ اللوازم إلى لقائهم، وسار حتى وصل إلى فارس وزيرِ ملك مصر، فاستقبله وسلَّمَ عليه وأكرَمَه هو ومَن معه إكرامًا زائدًا، وصار يقدِّم إليهم الزاد والعلوفات في مواضع الإقامات، وقال لهم: أهلًا وسهلًا ومرحبًا بالضيوف القادمين، فأَبْشِروا بقضاء حاجتكم، وطِيبوا نفسًا، وقرُّوا عينًا، وانشرحوا صدورًا. فقال الوزير في نفسه: مَن أخبَرَهم

بذلك؟ ثم إنه قال لآصف بن برخيا: ومَن أخبركم بنا وبأغراضنا يا سيدي؟ فقال له آصف: إن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي أخبرنا بهذا. فقال الوزير فارس: ومَن أخبَرَ سيدنا سليمان؟ قال له: أخبَرَه ربُّ السموات والأرض وإله الخلق أجمعين. فقال له الوزير فارس: ما هذا إلا إله عظيم. فقال له آصف بن برخيا: وهل أنتم لا تعبدونه؟ فقال فارس وزير ملك مصر: نحن نعبد الشمس ونسجد لها. فقال له آصف: يا وزير فارس، إن الشمس كوكب من جملة الكواكب المخلوقة لله سبحانه وتعالى، وحاشا أن تكون ربًّا؛ لأن الشمس تظهر أحيانًا وتغيب أحيانًا، وربنا حاضر لا يغيب، وهو على كل شيء قدير.

ثم إنهم سافروا قليلًا حتى وصلوا إلى قرب تخت ملك سليمان بن داود عليهما السلام، فأمر سليمان بن داود عليهما السلام جنودَه من الإنس والجن وغيرهما أن يصطفُّوا في طريقهم صفوفًا، فوقفَتْ وحوشُ البحر والفِيَلة والنمور والفهود جميعًا، واصطفوا في الطريق صفَّيْن، وكل جنس انحازَتْ أنواعُه وحدها، وكذلك الجان، كلٌّ منهم ظهر للعيون من غير خفاء على صورة هائلة مختلفة الأحوال، فوقفوا جميعًا صفَّيْن، والطيور نشرَتْ أجنحتَها على الخلائق لتظلَّهم، وصارت الطيور تناغي بعضها بسائر اللغات وبسائر الألحان. فلما وصل أهل مصر إليهم هابوهم ولم يجسروا على المشي، فقال لهم آصف: ادخلوا بينهم وامشوا ولا تخافوا منهم، فإنهم رعايا سليمان بن داود وما يضركم منهم أحد. ثم إن آصف دخل بينهم، فدخل وراءه الخلق أجمعون، ومن جملتهم جماعة وزير ملك مصر وهم خائفون، ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا إلى المدينة فأنزلوهم في دار الضيافة وأكرموهم غاية الإكرام، وأحضروا لهم الضيافات الفاخرة مدة ثلاثة أيام، ثم أحضروهم بين يدي سليمان نبي الله عليه السلام، فلما دخلوا عليه أرادوا أن يقبِّلوا الأرضَ بين يدَيْه، فمنعهم من ذلك سليمان بن داود وقال: لا ينبغي أن يسجد إنسانٌ على الأرض إلا لله عز وجل خالق الأرض والسموات وغيرهما، ومَن أراد منكم أن يقف فَلْيقف، ولكن لا يقف أحدٌ منكم في خدمتي. فامتثَلوا، وجلس الوزير فارس وبعض خدَّامه، ووقف في خدمته بعض الأصاغر، فلما استقر بهم الجلوس مدُّوا لهم الأسمطة، فأكل العالم والخلق أجمعون من الطعام حتى اكتفوا. ثم إن سليمان أَمَرَ وزيرَ مصر أن يذكر حاجتَه لتُقضَى، وقال له: تكلَّمْ ولا تَخَفْ شيئًا ممَّا جئتَ بسببه، فإنك ما جئتَ إلا لقضاء حاجة، وأنا أخبرك بها، وهي كذا وكذا، وأن ملك مصر الذي أرسَلَك اسمه عاصم، وقد صار شيخًا كبيرًا هَرِمًا ضعيفًا، ولم يرزقه الله تعالى بولد ذَكَر ولا أنثى، فصار في الغمِّ والهمِّ والفكر ليلًا ونهارًا، حتى اتفق له أنه جلس على كرسي مملكته يومًا من الأيام ودخل عليه الأمراء

والوزراء وأكابر دولته، فرأى بعضهم له ولدان وبعضهم له ولد، وبعضهم له ثلاثة أولاد، وهم يدخلون ومعهم أولادهم ويقفون في الخدمة، فتذكَّرَ في نفسه وقال من فرط حزنه: يا ترى مَن يأخذ مملكتي بعد موتي؟ وهل يأخذها إلا رجل غريب، وأصير أنا كأني لم أكن؟ فغرق في بحر الفكر بسبب هذا، ولم يزل متفكِّرًا حزينًا حتى فاضَتْ عيناه بالدموع، فغطَّى وجهه بالمنديل وبكى بكاءً شديدًا، ثم قام من فوق سريره وجلس على الأرض يبكي وينتحب، ولم يعلم ما في قلبه إلا الله تعالى، وهو جالس على الأرض. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام، لما أخبَرَ الوزير فارسًا بما حصل للملك من الحزن والبكاء، وما حصل بينه وبين وزيره فارس من أوله إلى آخِره، قال بعد ذلك للوزير فارس: هل هذا الذي قلتُه لكَ يا وزير صحيح؟ فقال الوزير فارس: يا نبي الله، إن الذي قلتَه حقٌّ وصدق، ولكنْ يا نبي الله، لَمَّا كنتُ أتحدَّث أنا والملك في هذه القضية، لم يكن عندنا أحدٌ قطُّ ولم يشعر بخبرنا أحدٌ من الناس، فمَن أخبَرَك بهذه الأمور كلها؟ قال له: أخبرني ربي الذي يعلم خائنةَ الأعين وما تُخفِي الصدور. فحينئذٍ قال الوزير فارس: يا نبي الله، ما هذا إلا ربٌّ كريم عظيم على كل شيء قدير. ثم أسلَمَ الوزير فارس هو ومَن معه، ثم قال نبي الله سليمان للوزير: إنَّ معك كذا وكذا من التُّحَف والهدايا. قال الوزير: نعم. فقال له سليمان: قد قبلتُ منك الجميع، ولكني وهبتُها لكَ فاسترِحْ أنت ومَن معك في المكان الذي نزلتم فيه حتى يزول عنكم تعبُ السفر، وفي غدٍ إنْ شاء الله تعالى نقضي حاجتَك على أتم ما يكون بمشيئة الله تعالى، رب الأرض والسماء وخالق الخلق أجمعين.

ثم إن الوزير فارسًا ذهب إلى موضعه، وتوجَّهَ إلى السيد سليمان ثاني يوم، فقال له نبي الله سليمان: إذا وصلتَ إلى الملك عاصم بن صفوان، واجتمعتَ أنت وهو فاطلعَا فوق الشجرة الفلانية واقعدا ساكتَيْن، فإذا كان بين الصلاتين، وقد برد حرُّ القائلة، فَانْزِلا إلى أسفل الشجرة وانظرا هناك تجدا ثعبانين يخرجان، رأس أحدهما كرأس القرد، ورأس الآخَر كرأس العفريت، فإذا رأيتماهما فارمياهما بالنشاب واقتلاهما، ثم ارميا من جهةِ رأسَيْهما قدرَ شبرٍ واحد، ومن جهةِ ذيلَيْهما كذلك، فتبقى لحومهما، فاطبخاهما، وأَتْقِنَا طبخهما وأطعماهما زوجتَيْكما، وناما معهما تلك الليلة، فإنهما يحملان بإذن الله تعالى بأولادٍ ذكور. ثم إن سليمان عليه السلام أحضَرَ خاتمًا وسيفًا وبقجة فيها قباءان مكلَّلان

بالجواهر، وقال: يا وزير فارس، إذا كبر ولداكما وبلغا مبلغَ الرجال فأعطيا كلَّ واحد منهما قباءً من هذين القباءين. ثم قال للوزير: باسم الله، قضى الله تعالى حاجتك، وما بقي لك إلا أن تسافر على بركة الله تعالى، فإن الملك ليلًا ونهارًا ينتظر قدومك وعينه دائمًا تلاحظ الطريق.

ثم إن الوزير فارسًا تقدَّمَ لنبي الله سليمان بن داود عليهما السلام وودَّعَه، وخرج من عنده بعد أن قبَّلَ يدَيْه، وسافَرَ بقيةَ يومه وهو فرحان بقضاء حاجته، وجدَّ في السفر ليلًا ونهارًا، ولم يزل مسافرًا حتى وصل إلى قرب مصر، فأرسَلَ بعض خدَّامه ليُعلِم الملكَ عاصمًا بذلك، فلما سمع الملك عاصم بقدومه وقضاء حاجته، فرِحَ فرحًا شديدًا هو وخواصه وأرباب مملكته وجميع جنوده، وخصوصًا بسلامة الوزير فارس. فلما تلاقى الملك هو والوزير، ترجَّلَ الوزير وقبَّلَ الأرضَ بين يدَيْه وبشَّرَ الملك بقضاء حاجته على أتمِّ الوجوه، وعرض عليه الإيمانَ والإسلام، فأسلَمَ الملك عاصم وقال للوزير فارس: رُحْ بيتك واستَرِحْ هذه الليلة، واستَرِحْ أيضًا جمعةً من الزمان، وادخُلِ الحمَّامَ وبعد ذلك تعالَ عندي حتى أُخبِرَك بشيء نتدبَّر فيه. فقبَّلَ الوزير الأرضَ وانصرف هو وحاشيته وغلمانه وخَدَمه إلى داره واستراح ثمانيةَ أيام، ثم بعد ذلك توجَّهَ إلى الملك وحدَّثَه بجميع ما كان بينه وبين سليمان بن داود عليهما السلام، ثم إنه قال للملك: قُمْ وحدك وتعالَ معي. فقام هو والوزير وأخذا قوسَيْن ونشابين، وطلعا فوق الشجرة وقعدا ساكتين إلى أن مضى وقت القائلة، ولم يزالا إلى قرب العصر، ثم نزلا ونظرا فرأَيَا ثعبانَيْن خرجَا من أسفل تلك الشجرة، فنظرهما الملك وأحَبَّهما؛ لأنهما أعجباه حين رآهما بالأطواق الذهب، وقال: يا وزير، إن هذين الثعبانين مطوَّقان بالذهب، والله إن هذا شيء عجيب، خلِّنا نمسكهما ونجعلهما في قفص ونتفرَّج عليهما. فقال الوزير: هذان خلقهما الله لمنفعتهما، فارْمِ أنت واحدًا بنشابة، وأرمي أنا واحدًا بنشابة. فرمى الاثنان عليهما بالنشاب، فقتلاهما وقطعا من جهةِ رأسَيْهما شبرًا، ومن جهةِ ذنبَيْهما شبرًا ورمياها، ثم ذهبا بالباقي إلى بيت الملك، وطلبا الطباخ، وأعطياه ذلك اللحم وقالا له: اطبخْ هذا اللحم طبخًا مليحًا بالتقلية والأبازير، وأغرِقْه في زبديتين وهاتهما وتعالَ هنا في الوقت الفلاني والساعة الفلانية ولا تُبطِئ. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك والوزير لما أعطيَا الطباخ لحمَ الثعبانَيْن، وقالا له: اطبخْه واغرفْه في زبديتين وهاتهما هنا، ولا تبطئ. أخذ الطباخ اللحمَ وذهب به إلى المطبخ وطبخه، وأتقن طبخه بتقلية عظيمة، ثم غرفه في زبديتين وأحضرهما بين يدي الملك والوزير، فأخذ الملك زبدية والوزير زبدية وأطعماهما لزوجتَيْهما، وباتا تلك الليلة معهما، فبإرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته ومشيئته حملتَا في تلك الليلة، فمكث الملك بعد ذلك ثلاثة أشهر، وهو متشوش الخاطر يقول في نفسه: يا تُرَى، هل هذا الأمر صحيح أم غير صحيح؟ ثم إن زوجته كانت جالسة يومًا من الأيام فتحرك الولد في بطنها، فعلمت أنها حامل، فتوجعت وتغيَّرَ لونها، وطلبت واحدًا من الخدام الذين عندها وهو أكبرهم، وقالت: اذهبْ إلى الملك في أي موضع يكون، وقل له: يا ملك الزمان، أبشِّرك أن سيدتنا ظهر حملها والولد قد تحرَّكَ في بطنها. فخرج الخادم سريعًا وهو فرحان، فرأي الملك وحده ويده على خده، وهو متفكِّر في ذلك، فأقبَلَ عليه الخادم وقبَّلَ الأرض بين يديه، وأخبره بحمل زوجته، فلما سمع كلامَ الخادم نهض قائمًا على قدمَيْه، ومن شدة فرحه قبَّلَ يدَ الخادم ورأسَه، وخلع ما كان عليه وأعطاه إياه، وقال لَمَن كان حاضرًا في مجلسه: مَن كان يحبني فَلْيُنْعِم عليه. فأعطوه من الأموال والجواهر واليواقيت والخيل والبغال والبساتين شيئًا لا يُعَد ولا يُحصَى.

ثم إن الوزير دخل في ذلك الوقت على الملك وقال: يا ملك الزمان، أنا في هذه الساعة كنت قاعدًا في البيت وحدي، وأنا مشغول الخاطر متفكِّر في شأن الحمل، وأقول في نفسي: يا تُرَى هل هو حق؟ وإن خاتون تحبل أم لا؟ وإذا بالخادم دخل عليَّ، وبشَّرَني بأن زوجتي خاتون حامل، وأن الولد قد تحرَّكَ في بطنها وتغيَّرَ لونها، فمن فرحتي خلعتُ ما كان عليَّ من القماش وأعطيتُ الخادم إياه، وأعطيته ألف دينار وجعلته كبيرَ الخدام. ثم

إن الملك عاصمًا قال: يا وزير، إن الله تبارك وتعالى أنعَمَ علينا بفضله وإحسانه وجوده وامتنانه، وبالدين القويم، وأكرمنا بكرمه وفضله، وقد أخرجنا من الظلمات إلى النور، وأريد أن أفرِّج على الناس وأُفرِحهم. فقال الوزير: افعلْ ما تريد؟ فقال: يا وزير، انزلْ في هذا الوقت، وأخرِجْ كلَّ مَن كان في الحبس من أصحاب الجرائم، ومَن عليهم ديون، وكل مَن وقع منه ذنب، بعد ذلك نجازيه بما يستحقه، ونرفع عن الناس الخراج ثلاثَ سنوات، وانصبْ في دائر هذه المدينة مطبخًا حول الحيطان، ومُرِ الطبَّاخين أن يعلِّقوا عليه جميعَ أنواع القدور، وأن يطبخوا سائر أنواع الطعام، ويداوموا الطبخ بالليل والنهار، وكل مَن كان في هذه المدينة وما حولها من البلاد البعيدة والقريبة يأكلون ويشربون ويحملون إلى بيوتهم، ومُرْهم أن يفرحوا ويزيِّنوا المدينةَ سبعةَ أيام، ولا يقفلوا حوانيتهم ليلًا ولا نهارًا.

فخرج الوزير من وقته وساعته وفعل ما أمره به الملك عاصم، وزيَّنوا المدينةَ والقلعةَ والأبراجَ أحسن الزينة، ولبسوا أحسن ملبوس، وصار الناس في أكل وشرب ولعب وانشراح إلى أن حصل الطلق لزوجة الملك بعد انقضاء أيامها، فوضعَتْ ولدًا ذكرًا كالقمر ليلة تمامه فسمَّاه سيف الملوك، وكذلك زوجة الوزير وضعَتْ ولدًا كالصباح، فسمَّاه ساعدًا. فلما بلغا رشدهما صار الملك عاصم كلما ينظرهما يفرح بهما الفرحَ الشديد، فلما صار عمرهما عشرين سنة طلب الملكُ وزيرَه فارسًا في خلوة، وقال له: يا وزير، قد خطر ببالي أمرٌ أريد أن أفعله ولكن أستشيرك فيه. فقال له الوزير: مهما خطر ببالك فافعلْه، فإن رأيك مبارك. فقال الملك عاصم: يا وزير، أنا صرت رجلًا كبيرًا شيخًا هَرِمًا؛ لأني طعنتُ في السن، وأريد أن أقعد في زاوية لأعبد الله تعالى، وأعطي ملكي وسلطنتي لولدي سيف الملوك؛ فإنه صار شابًّا مليحًا كاملَ الفروسيةِ والعقل والأدب والحشمة والرياسة، فما تقول أيها الوزير في هذا الرأي؟ فقال الوزير: نِعْمَ الرأي الذي رأيتَه، وهو رأي مبارك سعيد، فإذا فعلتَ أنت هذا فأنا الآخَر أفعل مثلك، ويكون ولدي ساعدٌ وزيرًا له؛ لأنه شاب مليح ذو معرفة ورأي، ويصير الاثنان مع بعضهما، ونحن ندبِّر شأنهما ولا نتهاون في أمرهما، بل ندلُّهما على الطريق المستقيم.

ثم قال الملك عاصم لوزيره: اكتبِ الكُتُبَ وأرسِلْها مع السعاة إلى جميع الأقاليم والبلاد والحصون والقلاع التي تحت أيدينا، ومُرْ أكابرها أن يكونوا في الشهر الفلاني حاضرين في ميدان الفيل. فخرج الوزير فارس من وقته وساعته، وكتب إلى جميع العمَّال وأصحاب القلاع، ومَن كان تحت حكم الملك عاصم، أنْ يحضروا جميعهم في الشهر الفلاني، وأمَرَ أن يحضر كلُّ مَن في المدينة من قاصٍ ودان، ثم إن الملك عاصمًا بعد مضيِّ غالبِ تلك

المدة أَمَرَ الفرَّاشين أن يضربوا القباب في وسط الميدان، وأن يزيِّنوها بأفخر الزينة، وأن ينصبوا التخت الكبير الذي لا يقعد عليه الملك إلا في الأعياد، ففعلوا في الحال جميعَ ما أمرهم به ونصبوا التخت، وخرجت النواب والحجاب والأمراء، وخرج الملك وأمر أن يُنادَى في الناس: باسم الله ابرزوا إلى الميدان. فبرز الأمراء والوزراء وأصحاب الأقاليم والضياع إلى ذلك الميدان، ودخلوا في خدمة الملك على جري عادتهم، واستقروا كلهم في مراتبهم، فمنهم مَن قعد ومنهم مَن وقف إلى أن اجتمعت الناس جميعهم، وأمر الملك أن يمدوا السماط فمدوه وأكلوا وشربوا ودعوا للملك.

ثم أمر الملك الحجَّاب أن ينادوا في الناس بعدم الذهاب، فنادوا وقالوا في المناداة: لا يذهب منكم أحدٌ حتى يسمع كلام الملك. ثم رفعوا الستور، فقال الملك: مَن أَحَبَّني فَلْيمكثْ حتى يسمع كلامي. فقعد الناس جميعهم مطمئني النفوس بعد أن كانوا خائفين، ثم قام الملك على قدميه وحلَّفَهم ألَّا يقوم أحد من مقامه، وقال لهم: أيها الأمراء والوزراء وأرباب الدولة، كبيركم وصغيركم، ومَن حضر من جميع الناس، هل تعلمون أن هذه المملكة لي وراثة عن آبائي وأجدادي؟ قالوا له: نعم أيها الملك، كلنا نعلم ذلك. فقال لهم: أنا وأنتم كنا كلنا نعبد الشمس والقمر، ورزقنا الله تعالى الإيمان، وأنقذنا من الظلمات إلى النور، وهدانا الله سبحانه وتعالى إلى دين الإسلام، واعلموا أني الآن صرتُ رجلًا كبيرًا شيخًا هرمًا عاجزًا، وأريد أن أجلس في زاوية أعبد الله تعالى فيها، وأستغفره من الذنوب الماضية، وهذا ولدي سيف الملوك حاكم، وتعرفون أنه شاب مليح فصيح خبير بالأمور عاقل فاضل عادل، فأريد في هذه الساعة أن أعطيه مملكتي وأجعله ملكًا عليكم عوضًا عني، وأجلسه سلطانًا في مكاني، وأتخلَّى أنا لعبادة الله تعالى في زاوية، وابني سيف الملوك يتولَّى المُلْك ويحكم بينكم؛ فأي شيء قلتم كلكم بأجمعكم؟ فقاموا كلهم وقبَّلوا الأرض بين يدَيْه، وأجابوا بالسمع والطاعة، وقالوا: يا ملكنا وحامينا، لو أقمتَ علينا عبدًا من عبيدك لَأطعناه وسمعنا قولك وامتثلنا أمرك، فكيف بولدك سيف الملوك؟ قَبِلناه ورضيناه على العين والرأس. فقام الملك عاصم بن صفوان، ونزل من فوق سريره، وأجلَسَ ولدَه على التخت الكبير، ورفع التاج من فوق رأس نفسه، ووضعه فوق رأس ولده، وشد وسطه بمنطقة الملك، وجلس الملك عاصم على كرسي مملكته بجانب ولده، فقام الأمراء والوزراء وأكابر الدولة وجميع الناس، وقبَّلوا الأرض بين يدَيْه وصاروا وقوفًا يقولون لبعضهم: هو حقيق بالملك، وهو أولى به من الغير. ونادوا بالأمان، ودعوا له بالنصر والإقبال. ونثر سيفُ الملوك الذهبَ والفضةَ على رءوس الناس أجمعين. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملك عاصمًا لما أجلَسَ ولدَه سيف الملوك على التخت، ودعا له كامل الناس بالنصر والإقبال، نثَرَ الذهبَ والفضة على رءوس الناس أجمعين، وخلَعَ الخُلَع ووهب وأعطى، ثم بعد لحظة قام الوزير فارس وقبَّلَ الأرض وقال: يا أمراء، يا أرباب الدولة، هل تعرفون أني وزيرٌ ووزارتي قديمة قبل أن يتولَّى الملك عاصم بن صفوان، وهو الآن قد خلع نفسه من المُلْك وولَّى ولده عوضًا عنه؟ قالوا: نعم، نعرف وزارتك أبًا عن جد. فقال: والآن أخلع نفسي وأولِّي ولدي ساعدًا هذا، فإنه عاقل فَطِن خبير، فأي شيء تقولون بأجمعكم؟ فقالوا: لا يصلح وزيرًا للملك سيف الملوك إلا ولدك ساعد، فإنهما يصلحان لبعضهما. فعند ذلك قام الوزير فارس وقلع عمامة الوزارة ووضعها فوق رأس ولده ساعد، وحطَّ دَوَاة الوزراء قدَّامه أيضًا، وقالت الحجاب والأمراء: إنه يستحق الوزارة. فعند ذلك قام الملك عاصم والوزير فارس وفتحا الخزائن، وخلعا الخُلَع السنية على الملوك والأمراء والوزراء وأكابر الدولة والناس أجمعين، وأعطيا النفقة والأنعام، وكتبا لهم المناشير الجديدة والمراسيم بعلامة سيف الملوك وعلامة الوزير ساعد ابن الوزير فارس، وأقام الناس في المدينة جمعةً، وبعدها كلٌّ منهم سافَرَ إلى بلاده ومكانه.

ثم إن الملك عاصمًا أخذ ولده سيف الملوك وساعدًا ولد الوزير، ثم دخلوا المدينة وطلعوا القصر، وأحضروا الخازندار وأمروه بإحضار الخاتم والسيف والبقجة، وقال الملك عاصم: يا ولديَّ، تعالَيَا كل واحد منكما يختار من هذه الهدية شيئًا ويأخذه. فأول مَن مدَّ يده سيف الملوك فأخذ البقجة والخاتم، ومدَّ ساعدٌ يدَه فأخذ السيف والمُهْر، وقبَّلَا يدي الملك، وذهبا إلى منزلَيْهما. فلما أخذ سيف الملوك البقجةَ لم يفتحها ولم ينظر ما فيها، بل رماها فوق التخت الذي ينام عليه بالليل هو وساعد وزيره، وكان من عادتهما أن يناما

مع بعضهما. ثم إنهما فرشا لهما فراشَ النوم، ورقد الاثنان مع بعضهما على فراشهما والشموع تضيء عليهما، واستمرا إلى نصف الليل، ثم انتبه سيف الملوك من نومه، فرأى البقجة عند رأسه، فقال في نفسه: يا تُرَى أي شيء في هذه البقجة التي أهداها لنا الملك من التحف؟ فأخذها وأخذ الشمعة ونزل من فوق التخت وترك ساعدًا نائمًا، ودخل الخزانة وفتح البقجة فرأى فيها قباء من شغل الجان، ففتح القباء وفرده فوجد على البطانة التي من داخل في جهة ظهر القباء صورة بنت منقوشة بالذهب، ولكنَّ جمالها شيء عجيب، فلما رأى هذه الصورة طار عقله من رأسه، وصار مجنونًا بعشق تلك الصورة، ووقع في الأرض مَغشيًّا عليه، وصار يبكي وينتحب ويلطم على وجهه وصدره ويقبِّلها، ثم أنشد هذين البيتين:

الْحُبُّ أَوَّلُ مَا يَكُونُ مُجَاجَةً ... تَأْتِي بِهِ وَتَسُوقُهُ الْأَقْدَارُ
حَتَّى إِذَا خَاضَ الْفَتَى لُجَجَ الْهَوَى ... جَاءَتْ أُمُورٌ لَا تُطَاقُ كِبَارُ

ولم يزل سيف الملوك ينتحب ويبكي ويلطم على وجهه وصدره حتى انتبه الوزير ساعد، وتأمَّل الفرش فلم يَرَ سيف الملوك، فرأى شمعة، فقال في نفسه: أين راح سيف الملوك؟ ثم أخذ الشمعة وقام يدور في القصر جميعه حتى وصل إلى الخزانة التي فيها سيف الملوك، فرآه وهو يبكي بكاءً شديدًا وينتحب، فقال له: يا أخي، لأي سببٍ هذا البكاء؟ أي شيء جرى لك؟ فحدِّثْني وأخبِرْني بسبب ذلك. وسيف الملوك لم يكلِّمه ولم يرفع رأسه، بل يبكي وينتحب ويدق يده على صدره. فلما رآه ساعد على هذه الحالة قال: أنا وزيرك وأخوك وتربيت أنا وإياك، وإنْ لم تبيِّن لي أمورك وتُطلِعني على سرك، فعلى مَن تخرج سرك وتُطلِعه عليه؟ ولم يزل ساعدٌ يتضرَّع ويقبِّل الأرض ساعةً زمانية، وسيف الملوك لم يلتفت إليه، ولم يكلِّمه كلمة واحدة، بل يبكي. فلما راع ساعدًا حالُه وأعياه أمره، خرج من عنده وأخذ سيفًا ودخل الخزانة التي فيها سيف الملوك، وحطَّ ذبابه على صدر نفسه وقال لسيف الملوك: انتبه يا أخي، إنْ لم تقل لي أي شيء جرى، قتلتُ روحي ولا أراك في هذه الحال. فعند ذلك رفع سيف الملوك رأسه إلى وزيره ساعد، وقال له: يا أخي، أنا استحييت أن أقول لك وأخبرك بالذي جرى لي. فقال له ساعد: سألتك بالله رب الأرباب، ومُعتق الرقاب، ومُسبِّب الأسباب، الواحد التواب، الكريم الوهَّاب، أن تقول لي ما الذي جرى لك ولا تستحي مني؛ فأنا عبدك ووزيرك، ومشيرك في الأمور كلها. فقال سيف الملوك: تعالَ انظرْ إلى هذه الصورة. فلما رأى ساعد تلك الصورة تأمَّلَ

فيها ساعة زمانية، ورأى مكتوبًا على رأس الصورة باللؤلؤ المنظوم: هذه الصورةُ صورةُ بديعةِ الجمال بنت شماخ بن شاروخ ملك من ملوك الجان المؤمنين، الذين هم نازلون في مدينة بابل، وساكنون في بستان إرم بن عاد الأكبر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن سيفَ الملوك ابن الملك عاصم، والوزيرَ ساعدًا ابن الوزير فارس لما قرآ الكتابة التي على القباء، ورأيا فيها صورة بديعة الجمال بنت شماخ بن شاروخ ملك بابل، من ملوك الجان المؤمنين النازلين بمدينة بابل، الساكنين في بستان إرم بن عاد الأكبر؛ قال الوزير ساعد للملك سيف الملوك: يا أخي، أتعرف مَن صاحبة هذه الصورة من النساء حتى تفتش عليها؟ فقال سيف الملوك: لا والله يا أخي ما أعرف صاحبة هذه الصورة. فقال ساعد: تعالَ اقرأ هذه الكتابة. فتقدَّمَ سيف الملوك، وقرأ الكتابة التي على التاج وعرف مضمونها، فصرخ من صميم قلبه وقال: آه آه! فقال له ساعد: يا أخي، إن كانت صاحبة هذه الصورة موجودة، واسمها بديعة الجمال وهي في الدنيا، فأنا أُسرِع في طلبها من غير مهلة حتى تبلغ مرادك، فبالله يا أخي أن تترك البكاء لأجل أن تدخل أهل الدولة في خدمتك، فإذا كان ضحوة النهار فاطلُبِ التجار والفقراء والسواحين والمساكين واسألهم عن صفات هذه المدينة، لعل أحدًا ببركة الله سبحانه وتعالى وعونه يدلُّنا عليها وعلى بستان إرم.

فلما أصبح الصباح، قام سيف الملوك وطلع فوق التخت وهو معانق للقباء؛ لأنه صار لا يقوم ولا يقعد ولا يأتيه نوم إلا وهو معه، فدخلت عليه الأمراء والوزراء والجنود وأرباب الدولة، فلما تم الديوان وانتظم الجمع قال الملك سيف الملوك لوزيره ساعد: ابرزْ لهم، وقل لهم إن الملك حصل له تشويش، والله ما بات البارحة إلا وهو ضعيف. فطلع الوزير ساعد وأخبر الناس بما قال الملك، فلما سمع الملك عاصم ذلك لم يَهُنْ عليه ولده، فعند ذلك دعا بالحكماء والمنجمين، ودخل بهم على ولده سيف الملوك، فنظروا إليه ووصفوا له الشراب، واستمر موضعَه مدةَ ثلاثة أشهر، فقال الملك عاصم للحكماء الحاضرين وهو مغتاظ عليهم: ويلكم يا كلاب، هل عجزتم كلكم عن مداواة ولدي؟ فإن لم تداووه في هذه الساعة

أقتلكم جميعًا. فقال رئيسهم الكبير: يا ملك الزمان، إننا نعلم أن هذا ولدك، وأنت تعلم أننا لا نتساهل في مداواة الغريب، فكيف بمداواة ولدك؟ ولكن ولدك به مرض صعب، إنْ شئتَ معرفتَه نذكره لك ونحدِّثك به. قال الملك عاصم: أي شيء ظهر لكم من مرض ولدي؟ فقال له الحكيم الكبير: يا ملك الزمان، إن ولدك الآن عاشق ويحب مَن لا سبيلَ إلى وصاله. فاغتاظ الملك عليهم وقال: من أين علمتم أن ولدي عاشق؟ ومن أين جاء العشق لولدي؟ فقالوا له: اسأل أخاه ووزيره ساعدًا، فإنه هو الذي يعلم حاله. فعند ذلك قام الملك عاصم ودخل في خزانة وحده، ودعا بساعد وقال له: اصدُقْني بحقيقة مرض أخيك. فقال له: ما أعلم حقيقته. فقال الملك للسياف: خذ ساعدًا واربط عينيه واضرب رقبته. فخاف ساعد على نفسه، وقال: يا ملك الزمان، اعطِني الأمان. فقال له: قُلْ لي ولك الأمان. فقال له ساعد: إن ولدك عاشق. فقال له الملك: ومَن معشوقه؟ فقال ساعد: بنت ملك من ملوك الجان، فإنه رأى صورتها في قباء من البقجة التي أهداها إليكم سليمان نبي الله.

فعند ذلك قام الملك عاصم ودخل على ابنه سيف الملوك، وقال له: يا ولدي، أي شيء دهاك؟ وما هذه الصورة التي عشقتَها؟ ولأي شيء لم تخبرني؟ فقال سيف الملوك: يا أبت، كنتُ أستحيي منك، وما كنت أقدر أن أذكر لك، ولا أقدر أن أُظهِر أحدًا على شيء منه أبدًا، والآن قد علمتَ بحالي، فانظرْ كيف تعمل في مداواتي. فقال له أبوه: كيف تكون الحيلة؟ لو كانت هذه من بنات الإنس كنَّا دبَّرْنا حيلةً في الوصول إليها، ولكن هذه من بنات ملوك الجان، ومَن يقدر عليها إلا إذا كان سليمان بن داود؟ فإنه هو الذي يقدر على ذلك، ولكن يا ولدي قُمْ في هذه الساعة، وقوِّ روحك، واركبْ ورح إلى الصيد والقنص واللعب في الميدان، واشتغل بالأكل والشرب، واصرف الهمَّ والغمَّ عن قلبك، وأنا أجيء لك بمائة بنت من بنات الملوك، وما لك حاجة ببنات الجان التي ليس لنا قدرة عليهم، ولا هم من جنسنا. فقال له: أنا ما أتركها ولا أطلب غيرها. فقال له: كيف يكون العمل يا ولدي؟ فقال له ابنه: احضر لنا جميع التجار والمسافرين والسواحين في البلاد لنسألهم عن ذلك، لعل الله يدلنا على بستان إرم، وعلى مدينة بابل. فأمر الملك عاصم أن يحضر كل تاجر في المدينة، وكل غريب فيها، وكل رئيس في البحر، فلما حضروا سألهم عن مدينة بابل وعن جزيرتها وعن بستان إرم، فما أحد منهم عرف هذه الصفة، ولا أخبر عنها بخبر، وعند انفضاض المجلس قال واحد منهم: يا ملك الزمان، إنْ كنتَ تريد أن تعرف ذلك فعليك ببلاد الصين، فإنها مدينة كبيرة، ولعل أحدًا منها يدلك على مقصودك.

ثم إن سيف الملوك قال: يا أبي، جهِّزْ لي مركبًا للسفر إلى بلاد الصين. فقال له أبوه الملك عاصم: يا ولدي، اجلسْ أنت على كرسي مملكتك واحكم في الرعية، وأنا أسافر إلى

بلاد الصين وأمضي إلى هذا الأمر بنفسي. فقال سيف الملوك: يا أبي، إن هذا الأمر مُتعلقٌ بي وما، يقدر أحد أن يفتش عليه مثلي، وأي شيء يجري إذا كنتَ تعطيني إذنًا بالسفر، وأتغرَّب مدةً من الزمان؟ فإنْ وجدتُ لها خبرًا حصل المراد، وإنْ لم أجد لها خبرًا يكون في السفر انشراح صدري، ونشاط خاطري، ويهون أمري بسبب ذلك، وإن عشتُ رجعتُ إليك سالمًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن سيف الملوك قال لوالده الملك عاصم: جهِّزْ لي مركبًا لأسافر فيها إلى بلاد الصين حتى أفتِّش على مقصودي، فإنْ عشتُ رجعتُ إليك سالمًا. فنظر الملك إلى ابنه فلم يَرَ له حيلة غير أنه يعمل له الذي يرضيه، فأعطاه إذنًا بالسفر، وجهَّزَ له أربعين مركبًا وعشرين ألفَ مملوك غير الأتباع، وأعطاه أموالًا وخزائن وكل شيء يحتاج إليه من آلات الحرب، وقال له: سافِرْ يا ولدي في خير وعافية وسلامة، وقد استودعتُك عند مَن لا تخيب عنده الودائع. فعند ذلك ودَّعَه أبوه وأمه، وشُحِنت المراكب بالماء والزاد والسلاح والعساكر، ثم سافروا. ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا إلى مدينة الصين، فلما سمع أهل الصين أنه وصل إليهم أربعون مركبًا مشحونة بالرجال والعُدَد والسلاح والذخائر، اعتقدوا أنهم أعداء جاءوا إلى قتالهم وحصارهم، فقفلوا أبواب المدينة وجهَّزوا المنجنيقات، فلما سمع الملك سيف الملوك ذلك أرسَلَ إليهم مملوكين من مماليكه الخواص، وقال لهم: امضوا إلى ملك الصين، وقولوا له: إن هذا سيف الملوك ابن الملك عاصم، جاء إلى مدينتك ضيفًا ليتفرج في بلادك مدة من الزمان، ولا يقاتل ولا يخاصم، فإنْ قبلتَه نزل عندك، وإنْ لم تقبله رجع ولا يشوِّش عليك ولا على أهل مدينتك.

فلما وصل المماليك إلى المدينة قالوا لأهلها: نحن رُسُل الملك سيف الملوك. ففتحوا لهم الباب، وذهبوا بهم وأحضروهم عند ملكهم، وكان اسمه قعفوشاه، وكان بينه وبين الملك عاصم قبل تاريخه معرفة، فلما سمع أن الملك القادم عليه هو سيف الملوك ابن الملك عاصم، خلع على الرُّسُل وأَمَرَ بفتح الأبواب وجهَّزَ الضيافات، وخرج بنفسه مع خواص دولته وجاء إلى سيف الملوك وتعانَقَا، وقال له: أهلًا وسهلًا ومرحبًا بمَن قدم علينا، وأنا مملوكك ومملوك أبيك ومدينتي بين يديك، وكل ما تطلبه يحضر إليك. وقدَّمَ له الضيافات والزاد في مواضع الإقامات، وركب الملك سيف الملوك وساعد وزيره ومعهما

خواص دولتهما وبقية العساكر، وساروا في ساحل البحر إلى أن دخلوا المدينة، وضُرِبت الكاسات ودُقَّت البشائر، وأقاموا فيها مدة أربعين يومًا في ضيافات حسنة.

ثم بعد ذلك قال له: يا ابن أخي، كيف حالك؟ هل أعجبتك بلادي؟ فقال له سيف الملوك: أدام الله تعالى تشريفها بك أيها الملك. فقال الملك قعفوشاه: ما جاء بك إلا حاجة طرأَتْ لك، وأي شيء تريده من بلادي فأنا أقضيه لك. فقال له سيف الملوك: إن حديثي عجيب، وهو أني عشقتُ صورةَ بديعةِ الجمال. فبكى ملك الصين رحمةً له وشفقةً عليه، وقال له: وما تريد الآن يا سيف الملوك؟ فقال له: أريد منك أن تحضر لي جميع السوَّاحين والمسافرين، ومَن له عادة بالأسفار حتى أسألهم عن صاحبة هذه الصورة، لعل أحدًا منهم يخبرني بها. فأرسل الملك قعفوشاه النواب والحجاب والأعوان، وأمرهم أن يُحضِروا جميعَ مَن في البلاد من السواحين والمسافرين، فأحضروهم وكانوا جماعة كثيرة، فاجتمعوا عند الملك قعفوشاه، ثم سأل الملك سيف الملوك عن مدينة بابل، وعن بستان إرم، فلم يردَّ عليه أحدٌ منهم جوابًا. فتحيَّرَ الملك سيف الملوك في أمره، ثم بعد ذلك قال واحد من الرؤساء البحرية: أيها الملك، إنْ أردتَ أن تعلم هذه المدينة وذلك البستان، فعليك بالجزائر التي في بلاد الهند. فعند ذلك أمر سيف الملوك أن يحضروا المركب، ففعلوا ونقلوا فيها الماءَ والزادَ وجميعَ ما يحتاجون إليه، وركب سيف الملوك وساعد وزيره بعد أن ودَّعوا الملك قعفوشاه، وسافروا في البحر مدة أربعة أشهر في ريح طيبة سالمين مطمئنين، فاتفق أن خرج عليهم ريح في يوم من الأيام، وجاءهم الموج من كل مكان، ونزلت عليهم الأمطار وتغيَّرَ البحر من شدة الريح، ثم ضربت المراكب بعضها بعضًا من شدة الريح، فانكسرت جميعها وكذلك الزوارق الصغيرة، وغرقوا جميعهم وبقي سيف الملوك مع جماعة من مماليكه في زروق صغير.

ثم سكت الريح وسكن بقدرة الله تعالى، وطلعت الشمس ففتح سيف الملوك عينه، فلم يَرَ شيئًا من المراكب، ولم يَرَ غير السماء والماء، وهو ومَن معه في الزورق الصغير، فقال لمَن معه من مماليكه: أين المراكب والزوارق الصغيرة؟ وأين أخي ساعد؟ فقالوا له: يا ملك الزمان، لم يَبْقَ مراكب ولا زوارق، ولا مَن فيها، فإنهم غرقوا كلهم وصاروا طعمًا للسمك. فصرخ سيف الملوك، وقال كلمة لا يخجل قائلها وهي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصار يلطم على وجهه، وأراد أن يرمي نفسه في البحر، فمنعه المماليك وقالوا له: يا ملك، أي شيء يفيدك من هذا؟ فأنت الذي فعلتَ بنفسك هذه الفعال، ولو سمعت كلام أبيك ما كان جرى عليك من هذا شيء، ولكن كل هذا مكتوب من القِدَم بإرادةِ بارئ النسم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن سيف الملوك لما أراد أن يرمي نفسه في البحر منعته المماليك، وقالوا له: أي شيء يفيدك من هذا؟ فأنت الذي فعلتَ بنفسك هذه الفعال، ولكن هذا شيء مكتوب من القِدَم بإرادة بارئ النسم، حتى يستوفي العبد ما كتب الله عليه، وقد قال المنجِّمون لأبيك عند ولادتك: إن ابنك هذا تجري عليه الشدائد كلها، وحينئذٍ ليس لنا حيلة إلا الصبر حتى يفرِّج الله علينا الكرب الذي نحن فيه. فقال سيف الملوك: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، لا مفرَّ من قضاء الله تعالى ولا مهرب. ثم إنه تنهَّدَ وأنشد هذه الأبيات:

تَحَيَّرْتُ وَالرَّحْمَنُ لَا شَكَّ فِي أَمْرِي وَأَدْرَكَنِي الْوَسْوَاسُ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّنِي صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ
وَمَا طَعْمُ صَابِ الصَّبْرِ صَبْرِي وَإِنَّمَا صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَحَرَّ مِنَ الْجَمْرِ
وَمَا حِيلَتِي فِي الْأَمْرِ هَذَا وَإِنَّمَا أُفَوِّضُ أَحْوَالِي إِلَى صَاحِبِ الْأَمْرِ

ثم غرق في بحر الأفكار، وجرَتْ دموعه على خده كالمدرار، ونام ساعة من النهار، ثم استفاق وطلب شيئًا من الأكل، فأكل حتى اكتفى ورفعوا الزاد من قدامه والزورق سائر بهم، ولم يعلموا إلى أي جهةٍ يتوجه بهم، ولم يزل يسير بهم مع الأمواج والرياح ليلًا ونهارًا مدةً مديدة من الزمان، حتى فرغ منهم الزاد، وذهلوا عن الرشاد، وصاروا في أشد ما يكون من الجوع والعطش والقلق، وإذا بجزيرة قد لاحت لهم على بُعْدٍ، فصارت الرياح تسوقهم إلى أن وصلوا إليها وأرسوا عليها، وطلعوا من الزورق وتركوا فيه واحدًا،

ثم توجَّهوا إلى تلك الجزيرة، فرأوا فيها فواكه كثيرة من سائر الألوان، فأكلوا منها حتى اكتفوا، وإذا بشخص جالس بين تلك الأشجار، طويل الوجه، رؤيته عجيبة، أبيض اللحية والبدن، فنادى بعض المماليك باسمه وقال له: لا تأكلْ من هذه الفواكه؛ لأنها لم تستوِ وتعالَ عندي حتى أطعمك من هذه الفواكه المستوية. فنظر إليه المملوك وظنَّ أنه من جملة الغرقى الذين غرقوا وطلع على هذه الجزيرة، ففرح برؤيته غايةَ الفرح ومشى حتى وصل قريبًا منه، وذلك المملوك لا يعلم الذي قدر عليه في الغيب، وما هو مُسطَّر على جبينه، فلما صار ذلك المملوك قريبًا منه وثب عليه ذلك الرجل لأنه مارد، وركب فوق أكتافه ولفَّ إحدى رجلَيْه على رقبته، والأخرى أرخاها على ظهره، وقال له: امشِ ما بقي لك مني خلاص، وأنت بقيت حماري. فصاح ذلك المملوك على رفقائه وصار يبكي ويقول: وا سيداه! اخرجوا وانجوا بأنفسكم من هذه الغابة واهربوا؛ لأن واحدًا من سكانها ركب فوق أكتافي، وإن البقية يطلبونكم ويريدون أن يركبوكم مثلي.

فلما سمعوا ذلك الكلام الذي قاله المملوك، هربوا كلهم ونزلوا في الزورق، فتبعوهم في البحر وقالوا لهم: أين تذهبون؟ تعالوا اقعدوا عندنا ولنركب فوق ظهوركم ونطعمكم ونسقيكم وتبقوا حميرنا. فلما سمعوا منهم هذا الكلام أسرعوا بالسير في البحر إلى أن بعدوا عنهم وتوجَّهوا متوكلين على الله تعالى. ولم يزالوا كذلك مدةَ شهر حتى بانت لهم جزيرة أخرى، فطلعوا في تلك الجزيرة فرأوا فيها فواكه مختلفة الأنواع، فاشتغلوا بأكل الفواكه، وإذا هم بشيء في الطريق يلوح على بُعْد، فلما قربوا منه نظروا إليه فرأوه بَشِع المنظر مرميًّا مثل عامود من فضة، فلكزه مملوك برجله وإذا هو شخص طويل العينين، مشقوق الرأس، وهو مُخْتَفٍ تحت إحدى أذنيه؛ لأنه كان إذا نام يحطُّ أذنَه تحت رأسه ويتغطَّى بالأذن الأخرى. ثم خطف ذلك المملوكَ الذي لكزه وراح به في وسط الجزيرة، فإذا هي كلها غيلان يأكلون بني آدم. ثم إن ذلك المملوك صاح على رفقائه وقال لهم: فوزوا بأنفسكم فإن هذه الجزيرة جزيرة الغيلان، يأكلون بني آدم ويريدون أن يقطعوني ويأكلوني. فلما سمعوا هذا الكلام ولَّوْا مُعرِضين، ونزلوا من البر إلى الزورق، ولم يجمعوا من هذه الفواكه شيئًا. وساروا مدة أيام، فاتفق أنه ظهرت لهم يومًا من الأيام جزيرة أخرى، فلما وصلوا إليها وجدوا فيها جبلًا عاليًا، فطلعوا في ذلك الجبل فرأوا فيه غابة كثيرة الأشجار وهم جياع، فاشتغلوا بأكل الفواكه، فلم يشعروا إلا وقد خرج لهم من بين الأشجار أشخاص هائلة المنظر طوال، طول كل واحد منهم خمسون ذراعًا، وأنيابه خارجة من فمه مثل أنياب الفيل، وإذا هم بشخص جالس على قطعة لباد أسود فوق

صخرة من الحجر وحواليه الزنوج، وهم جماعة كثيرة واقفون في خدمته، فجاء هؤلاء الزنوج وأخذوا سيف الملوك ومماليكه وأوقفوهم بين يدي ملكهم، وقالوا: إنَّا لقينا هذه الطيور بين الأشجار. وكان الملك جائعًا، فأخذ من المماليك اثنين وذبحهما وأكلهما. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الزنوج لما أخذوا الملك سيف الملوك ومماليكه، وأوقفوهم بين يدي ملكهم، وقالوا له: يا ملك، إنَّا لقينا هذه الطيور بين الأشجار. فأخذ ملكهم مملوكَيْن، وذبحهما وأكلهما، فلما رأى سيف الملوك هذا الأمر خاف على نفسه وبكى، ثم أنشد هذين البيتين:

أَلِفَ الْحَوَادِثَ مُهْجَتِي وَأَلِفْتُهَا بَعْدَ التَّنَافُرِ وَالْكَرِيمُ أَلُوفُ
لَيْسَ الْهُمُومُ عَلَيَّ صِنْفًا وَاحِدًا عِنْدِي بِحَمْدِ اللهِ مِنْهُ أُلُوفُ

ثم تنهد وأنشد أيضًا هذين البيتين:

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

فلما سمع الملك بكاءه وتعديده قال: إن هؤلاء طيور مليحة الصوت والنغمة، قد أعجبتني أصواتهم، فاجعلوا كلَّ واحد منهم في قفص. فحطوا كلَّ واحد منهم في قفص، وعلقوهم على رأس الملك ليسمع أصواتهم، وصار سيف الملوك ومماليكه في الأقفاص، والزنوج يُطعِمونهم ويسقونهم، وهم ساعة يبكون، وساعة يضحكون، وساعة يتكلمون، وساعة يسكتون، كل هذا وملك الزنوج يتلذَّذ بأصواتهم. ولم يزالوا على تلك الحالة مدة من الزمان، وكان للملك بنت متزوجة في جزيرة أخرى، فسمعت أن أباها عنده طيور لها أصوات مليحة، فأرسلت جماعة إلى أبيها تطلب منه شيئًا من الطيور، فأرسل إليها أبوها سيف الملوك وثلاثة مماليك في أربعة أقفاص مع القاصد الذي جاء في طلبهم، فلما وصلوا

إليها ونظرتهم أعجبوها، فأمرت أن يطلعوهم في موضع فوق رأسها، فصار سيف الملوك يتعجب مما جرى له، ويتفكر ما كان فيه من العز، وصار يبكي على نفسه والمماليك الثلاثة يبكون على أنفسهم، كل هذا وبنت الملك تعتقد أنهم يغنون. وكانت عادة بنت الملك إذا وقع عندها أحد من بلاد مصر أو من غيرها وأعجبها، يصير له عندها منزلة عظيمة، وكان بقضاء الله تعالى وقدره أنها لما رأت سيف الملوك أعجبها حسنه وجماله وقده واعتداله، فأمرت بإكرامهم.

واتفق أنها اختلت يومًا من الأيام بسيف الملوك وطلبت منه أن يجامعها، فأبى سيف الملوك ذلك، وقال لها: يا سيدتي، أنا رجل غريب وبحبٍّ الذي أهواه كئيب، وما أرضى بغير وصاله. فصارت بنت الملك تلاطفه وتراوده، فامتنع منها، ولم تقدر أن تدنو منه، ولا أن تصل إليه بحالٍ من الأحوال، فلما أعياها أمره غضبت عليه وعلى مماليكه، وأمرتهم أن يخدموها وينقلوا إليها الماء والحطب، فمكثوا على هذه الحالة أربع سنوات، فأعيا سيف الملوك ذلك الحال وأرسل يتشفع عند الملكة عسى أن تعتقهم ويمضوا إلى حال سبيلهم، ويستريحوا مما هم فيه، فأرسلت أحضرت سيف الملوك وقالت: إنْ وافقتَني على غرضي أعتقتُك من الذي أنت فيه، وتروح لبلادك سالمًا غانمًا. وما زالت تتضرع إليه وتأخذ بخاطره فلم يُجِبْها إلى مقصودها، فأعرضت عنه مغضبةً، وصار سيف الملوك والمماليك عندها في الجزيرة على تلك الحالة، وعرف أهلها أنهم طيور بنت الملك فلم يتجاسر أحد من أهل المدينة على أن يضرهم بشيء، وصار قلب بنت الملك مطمئنًّا عليهم، وتحقَّقت أنهم ما بقي لهم خلاص من هذه الجزيرة، فصاروا يغيبون عنها اليومين والثلاثة، ويدورون في البرية ليجمعوا الحطب من جوانب الجزيرة، ويأتوا به إلى مطبخ بنت الملك، فمكثوا على هذه الحالة خمس سنوات، فاتفق أن سيف الملوك قعد هو ومماليكه يومًا من الأيام على ساحل البحر يتحدثون فيما جرى، فالتفت سيف الملوك فرأى نفسه في هذا المكان هو ومماليكه، فتذكَّرَ أمه وأباه وأخاه ساعدًا، وتذكَّر العزَّ الذي كان فيه، فبكى وزاد في البكاء والنحيب، وكذلك المماليك بكوا مثله.

ثم قال المماليك: يا ملك الزمان، إلى متى نبكي والبكاء لا يفيد؟ وهذا أمر مكتوب على جباهنا بتقدير الله عز وجل، وقد جرى القلم بما حكم، وما ينفعنا إلا الصبر؛ لعل الله سبحانه وتعالى الذي ابتلانا بهذه الشدة يفرجها عنا. فقال لهم سيف الملوك: يا إخوتي، كيف نعمل في خلاصنا من هذه الملعونة؟ ولا أرى لنا خلاصًا إلا أن يخلصنا الله منها بفضله، ولكن خطر ببالي أننا نهرب ونستريح من هذا التعب. فقالوا له: يا ملك الزمان، أين نروح من هذه الجزيرة، وهي كلها غيلان يأكلون بني آدم؟ وكل موضع توجَّهْنا

إليه وجدونا فيه، فإما أن يأكلونا وإما أن يأسرونا ويردونا إلى موضعنا، وتغضب علينا بنت الملك. فقال سيف الملوك: أنا أعمل لكم شيئًا، لعل الله تعالى يساعدنا به على الخلاص، ونخلص من هذه الجزيرة. فقالوا له: كيف تعمل؟ فقال: نقطع من هذه الأخشاب الطوال ونفتل من قشرها حبالًا، ونربط بعضها في بعض ونجعلها فلكًا ونرميه في البحر، ونملؤه من تلك الفاكهة ونعمل له مجاديف وننزل فيه، لعل الله تعالى أن يجعل لنا به فرجًا، فإنه على كل شيء قدير، وعسى الله أن يرزقنا الريح الطيب الذي يوصلنا إلى بلاد الهند ونخلص من هذه الملعونة. فقالوا له: هذا رأي حسن. وفرحوا به فرحًا شديدًا، وقاموا في الوقت والساعة يقطعون الأخشاب لعمل الفلك، ثم فتلوا الحبال لربط الأخشاب في بعضها، واستمروا على تلك مدةَ شهر، وكل يوم في آخِر النهار يأخذون شيئًا من الحطب، ويروحون به إلى مطبخ بنت الملك، ويجعلون بقية النهار لأشغالهم في صنع الفلك إلى أن أتَمُّوه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن سيف الملوك ومماليكه لما قطعوا الأخشاب من الجزيرة وفتلوا الحبال، ربطوا الفلك الذي عملوه، فلما فرغوا من عمله رموه في البحر، ووسقوه من الفواكه التي في الجزيرة من تلك الأشجار، وتجهَّزوا في آخِر يومهم، ولم يُعلِموا أحدًا بما فعلوا، ثم ركبوا في ذلك الفلك، وساروا في البحر مدة أربعة أشهر، ولم يعلموا أين يذهب بهم، وفرغ منهم الزاد، وصاروا في أشد ما يكون من الجوع والعطش، وإذا بالبحر قد أرغى وأزبد، وطلع له أمواج عالية، فأقبل عليهم تمساح هائل، ومد يده وخطف مملوكًا من المماليك وبلعه، فلما رأى سيف الملوك ذلك التمساح فعل بالمملوك ذلك الفعل، بكى بكاءً شديدًا، وصار في الفلك هو والمملوك الباقي وحدهما، وبعدَا عن مكان التمساح وهما خائفان، ولم يزالا كذلك حتى ظهر لهما يومًا من الأيام جبلٌ عظيم هائل عالٍ شاهق في الهواء، ففرحا به، وظهر لهما بعد ذلك جزيرة، فجدَّا في السير إليها وهما مستبشران بدخولهما الجزيرة. فبينما هما على تلك الحال، وإذا بالبحر قد هاج وعلت أمواجه وتغيَّرت حالاته، فرفع تمساح رأسه ومد يده، فأخذ المملوك الذي بقي من مماليك سيف الملوك وبلعه، فصار سيف الملوك وحده حتى وصل إلى الجزيرة، وصار يعالج إلى أن صعد فوق الجبل، ونظر فرأى غابة، فدخل الغابة ومشى بين الأشجار، وصار يأكل من الفواكه، فرأى الأشجار قد طلع فوقها ما يزيد عن عشرين قردًا كبارًا، كل واحد منهم أكبر من البغل، فلما رأى سيف الملوك هذه القرود حصل له خوف شديد، ثم نزلت القرود واحتاطوا به من كل جانب، وبعد ذلك ساروا أمامه، وأشاروا إليه أن يتبعهم، ومشوا فمشى سيف الملوك خلفهم، وما زالوا سائرين وهو تابعهم حتى أقبلوا على قلعة عالية البنيان مشيدة الأركان، فدخلوا تلك القلعة ودخل سيف الملوك وراءهم، فرأى فيها من سائر التحف والجواهر والمعادن ما يكلُّ عنه وصفه اللسان، ورأى في تلك القلعة شابًّا لا نباتَ بعارضَيْه، لكنه

طويل زائد الطول. فلما رأى سيف الملوك ذلك الشاب استأنس به، ولم يكن في تلك القلعة غير ذلك الشاب من البشر.

ثم إن الشاب لما رأى سيف الملوك أعجبه غاية الإعجاب، فقال له: ما اسمك؟ ومن أي البلاد أنت؟ وكيف وصلتَ إلى هنا؟ فأخبرني بحديثك، ولا تكتم منه شيئًا. فقال له سيف الملوك: أنا والله ما وصلت إلى هنا بخاطري، ولا كان هذا المكان مقصودي، وأنا لا أقدر أن أسير من مكان إلى مكان حتى أنال مطلوبي. فقال له الشاب: وما مطلوبك؟ فقال له سيف الملوك: أنا من بلاد مصر واسمي سيف الملوك، وأبي اسمه الملك عاصم بن صفوان … ثم إنه حكى له ما جرى له من أول الأمر إلى آخِره؛ فقام ذلك الشاب في خدمة سيف الملوك وقال: يا ملك الزمان، أنا كنت في مصر وسمعت بأنك سافرت إلى بلاد الصين، وأين هذه البلاد من بلاد الصين؟ إن هذا لَشيء عجيب وأمر غريب. فقال له سيف الملوك: كلامك صحيح، ولكن سافرت بعد ذلك من بلاد الصين إلى بلاد الهند، فخرج علينا ريح وهاج البحر وكسرت جميع المراكب التي كانت معي. وذكر له جميع ما جرى له إلى أن قال: وقد وصلت إليك في هذا المكان. فقال له الشاب: يا ابن الملك، يكفي ما جرى لك من هذه الغربة وشدائدها، والحمد لله الذي أوصلك إلى هذا المكان، فاقعد عندي لآنس بك إلى أن أموت وتكون أنت ملكًا على هذا الإقليم، فإن فيه هذه الجزيرة التي لا يُعرَف لها حد، وإن هذه القرود أصحاب صنائع وكل شيء طلبته تجده ها هنا. فقال سيف الملوك: يا أخي، ما أقدر أن أقعد في مكان حتى تُقضَى حاجتي، ولو أطوف جميع الدنيا وأسأل عن غرضي، لعل الله يبلغني مرادي أو يكون سعيي إلى مكان فيه أجلي فأموت.

ثم إن الشاب التفَتَ إلى قرد وأشار إليه، فغاب القرد ساعة ثم أتى ومعه قرود مشدودة الوسط بالفوط الحرير، وقدموا السماط ووضعوا فيه نحو مائة صحفة من الذهب والفضة، وفيها من سائر الأطعمة، وصارت القرود واقفة على عادة الأتباع بين يدي الملوك. ثم أشار للحجاب بالقعود، فقعدوا ووقف الذي عادته الخدمة، ثم أكلوا حتى اكتفوا، ثم رفعوا السماط وأتوا بطشوت وأباريق من الذهب فغسلوا أيديهم، ثم جاءوا بأواني الشراب نحو أربعين آنية، كل آنية فيها نوع من الشراب، فشربوا وتلذذوا وأطربوا وطاب لهم وقتهم، وجميع القرود يرقصون ويلعبون وقت اشتغال الآكلين بالأكل. فلما رأى سيف الملوك ذلك تعجَّبَ منهم، ونسي ما جرى له من الشدائد. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن سيف الملوك لما رأى فعل القرود ورقصهم، تعجَّب منهم ونسي ما جرى له من الغربة وشدائدها، فلما كان الليل أوقدوا الشموع ووضعوها في الشمعدانات الذهب والفضة، ثم أتوا بأواني النُّقْل والفاكهة فأكلوا، ولما جاء وقت النوم فرشوا لهم الفرش وناموا. فلما أصبح الصباح قام الشاب على عادته، ونبه سيف الملوك وقال له: أخرِجْ رأسك من هذا الشباك، وانظر أي شيء هذا الواقف تحت الشباك. فنظر فرأى قرودًا ملأت الفلا الواسع والبرية كلها، وما يعلم عدد تلك القرود إلا الله تعالى. فقال سيف الملوك: هؤلاء قرود كثيرون قد ملئوا الفضاء، ولأي شيء اجتمعوا في هذا الوقت؟ فقال له الشاب: إن هذه عادتهم، وجميع ما في الجزيرة قدامي، وبعضهم جاء من سَفَر يومين أو ثلاثة أيام، فإنهم يأتون في كل يوم سبت ويقفون هنا حتى أنتبه من منامي، وأُخرِج رأسي من هذا الشباك، فحين يبصرونني يقبِّلون الأرض بين يدي، ثم ينصرفون إلى أَشغالهم. وأخرَجَ رأسه من الشباك حتى رأوه، فلما نظروه قبَّلوا الأرض بين يديه وانصرفوا.

ثم إن سيف الملوك قعد عند الشاب مدة شهر كامل، وبعد ذلك ودَّعَه وسافَرَ، فأمر الشاب نفرًا من القرود نحو المائة قرد بالسفر معه، فسافروا في خدمة سيف الملوك مدة سبعة أيام حتى أوصلوه إلى آخِر جزائرهم، ثم ودَّعوه ورجعوا إلى أماكنهم. وسافَرَ سيف الملوك وحده في الجبال والتلال والبراري والقفار مدة أربعة أشهر، يوم يجوع ويوم يشبع، ويوم يأكل من الحشيش، ويوم يأكل من ثمر الأشجار، وصار يتندم على ما فعل بنفسه وعلى خروجه من عند ذلك الشاب، وأراد أن يرجع إليه على أثره، فرأى شبحًا أسود يلوح على بعد، فقال في نفسه: هل هذه بلدة سوداء أم كيف الحال؟ ولكن لا أرجع حتى أنظر أي شيء هذا الشبح. فلما قرب منه رآه قصرًا عالي البنيان، وكان الذي بناه يافث بن نوح

عليه السلام، وهو القصر الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز، وبقوله: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾، ثم إن سيف الملوك جلس على باب القصر وقال في نفسه: يا تُرَى، ما شأن داخل هذا القصر؟ ومَن فيه من الملوك؟ فمَن يخبرني بحقيقة الأمر؟ وهل سكانه من الإنس أو من الجن؟ فقعد يتفكَّر ساعة زمانية، ولم يجد أحدًا يدخله ولا يخرج منه، فقام يمشي وهو متوكل على الله حتى دخل القصر، وعدَّ في طريقه سبعة دهاليز، فلم يَرَ أحدًا، ونظر على يمينه ثلاثة أبواب، وقدامه باب عليه ستارة مسبولة، فتقدَّمَ إلى ذلك الباب ورفع الستارة بيده، ومشى داخل الباب، وإذا هو بإيوان كبير مفروش بالبسط الحرير، وفي صدر ذلك الإيوان تخت من الذهب، وعليه بنت جالسة وجهها مثل القمر، وعليها ملبوس الملوك وهي كالعروس في ليلة زفافها، وتحت التخت أربعون سماطًا وعليها صحاف الذهب والفضة وكلها ملآنة بالأطعمة الفاخرة. فلما رآها سيف الملوك أقبَلَ عليها وسلَّمَ، فردَّتْ عليه السلام وقالت له: هل أنت من الإنس أو من الجن؟ فقال: أنا من خيار الإنس، فإني ملك ابن ملك. فقالت له: أي شيء تريد؟ دونك وهذا الطعام، وبعد ذلك حدِّثني بحديثك من أوله إلى آخِره؟ وكيف وصلتَ إلى هذا الموضع؟

فجلس سيف الملوك على السماط، وكشف المكبة عن السُّفرة، وكان جائعًا، وأكل من تلك الصحاف حتى شبع، وغسل يده وطلع على التخت، وقعد عند البنت، فقالت له: مَن أنت؟ وما اسمك؟ ومن أين جئتَ؟ ومَن أوصلك إلى هنا؟ فقال لها سيف الملوك: أما أنا فحديثي طويل. فقالت له: قل لي من أين أنت؟ وما سبب مجيئك إلى هنا؟ وما مرادك؟ فقال لها: أخبريني أنتِ ما شأنك؟ وما اسمك؟ ومَن جاء بك إلى هنا؟ ولأي شيء أنتِ قاعدة في هذا المكان وحدك؟ فقالت له البنت: أنا اسمي دولة خاتون بنت ملك الهند، وأبي ساكن في مدينة سرنديب، ولأبي بستان مليح كبير ما في الهند وأقطارها أحسن منه، وفيه حوض كبير، فدخلت في ذلك البستان يومًا من الأيام مع جواري وتقرَّبت أنا وجواري، ونزلنا في ذلك الحوض وصرنا نلعب وننشرح، فلم أشعر إلا وشيء مثل السحاب نزل عليَّ وخطفني من بين جواري، وطار بي بين السماء والأرض، وهو يقول: يا دولة خاتون، لا تخافي وكوني مطمئنة القلب. ثم طار بي مدة قليلة، وبعد ذلك أنزلني هذا القصر، ثم انقلب من وقته وساعته، فإذا هو شاب مليح حسن الشباب نظيف الثياب، وقال لي: أتعرفينني؟ فقلت: لا يا سيدي. فقال: أنا ابن الملك الأزرق ملك الجان، وأبي ساكن في قلعة القلزم، وتحت يده ستمائة ألف من الجن الطيارة والغواصين، واتفق لي أنى كنت عابرًا في طريق ومتوجهًا إلى حال سبيلي، فرأيتك وعشقتك، ونزلت عليك وخطفتك من بين

الجواري، وجئت بك إلى هذا القصر المشيد، وهو موضعي ومسكني، فلا أحد يصل إليه قطُّ لا من الجن ولا من الإنس، ومن الهند إلى هنا مسير مائة وعشرين سنة، فتحقَّقي أنك لا تنظرين بلاد أبيك وأمك أبدًا، فاقعدي عندي في هذا المكان مطمئنة القلب والخاطر، وأنا أحضر بين يديك كل ما تطلبينه. ثم بعد ذلك عانقني وقبَّلني. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن البنت قالت لسيف الملوك: ثم إن ابن ملك الجان بعد أن أخبرني عانقني وقبَّلني وقال لي: اقعدي هنا ولا تخافي من شيء. ثم تركني وغاب ساعة وبعد ذلك أتى ومعه هذا السماط والفرش والبسط، ولكن يجيئني في كل يوم ثلاثاء على هذه الحالة، وعند مجيئه يأكل ويشرب معي ويعانقني ويقبِّلني، وأنا بنت بكر على الحالة التي خلقني الله تعالى عليها ولم يفعل بي شيئًا. وأبي اسمه تاج الملوك ولم يعلم لي بخبر، ولم يقع لي على أثر، وهذا حديثي فحدِّثني أنت بحديثك. فقال لها سيف الملوك: إن حديثي طويل وأخاف إن حدَّثْتُك يطول الوقت علينا فيجيء العفريت. فقالت له: إنه لم يسافر من عندي إلا قبل دخولك بساعة، ولن يأتي إلا في يوم الثلاثاء، فاقعدْ واطمئنَّ وطيِّب خاطرك، وحدِّثني بما جرى لك من الأول إلى الآخر. فقال سيف الملوك: سمعًا وطاعة.

ثم ابتدأ بحديثه حتى أكمله من الأول إلى الآخر، فلما وصل إلى حكاية بديعة الجمال تغرغرت عيناها بالدموع الغزار وقالت: ما هو ظني فيك يا بديعة الجمال، آه من الزمان يا بديعة الجمال، أما تذكرينني ولا تقولين أختي دولة خاتون أين راحت! ثم إنها زادت في البكاء وصارت تتأسف حيث لم تذكرها بديعة الجمال، فقال لها سيف الملوك: يا دولة خاتون، إنك إنسية وهي جنية، فمن أين تكون هذه أختك؟ فقالت له: إنها أختي من الرضاع، وسبب ذلك أن أمي نزلت تتفرج في البستان فجاءها الطلق فولدتني في البستان، وكانت أم بديعة الجمال في البستان هي وأعوانها، فجاءها الطلق فنزلت في طرف البستان وولدت بديعة الجمال، وأرسلت بعض جواريها إلى أمي تطلب منها طعامًا وحوائج للولادة، فبعثت إليها أمي ما طلبته وعزمت عليها، فقامت وأخذت بديعة الجمال معها، وأتت إلى أمي فأرضعت أمي بديعة الجمال، ثم أقامت أمها وهي معها عندنا في البستان مدة شهرين، وبعد ذلك سافرت إلى بلادها وأعطت أمي حاجة وقالت لها: إذا احتجتِ إليَّ

أجيئك في وسط البستان. وكانت تأتي بديعة الجمال مع أمها في كل عام ويقيمان عندنا مدة من الزمان، ثم يرجعان إلى بلادهما، فلو كنت أنا عند أمي يا سيف الملوك ونظرتك عندنا في بلادنا، ونحن مجتمع شملنا مثل العادة، كنت أتحيل عليها بحيلة حتى أوصلك إلى مرادك، ولكن أنا في هذا المكان ولا يعرفون خبري، فلو عرفوا خبري وعلموا أني هنا كانوا قادرين على خلاصي من هذا المكان، ولكن الأمر إلى الله سبحانه وتعالى، وأي شيء أعمل؟

فقال سيف الملوك: قومي وتعالي معي نهرب ونسير إلى حيث يريد الله تعالى. فقالت له: لا نقدر على ذلك، والله لو هربنا مسيرة سنة لجاء بنا هذا الملعون في ساعة ويهلكنا. فقال سيف الملوك: أنا أختفي في موضع وإذا جاز عليَّ أضربه بالسيف فأقتله. فقالت له: ما تقدر أن تقتله إلا إنْ قتلتَ روحه. فقال لها سيف الملوك: وروحه في أي مكان؟ فقالت: أنا سألته عنها مرات عديدة فلم يقر لي بمكانها، فاتفق أني ألححتُ عليه يومًا من الأيام فاغتاظ مني، وقال لي: كم تسألينني عن روحي! ما سبب سؤالك عن روحي؟ فقلت له: يا حاتم، أنا ما بقي لي أحد غيرك إلا الله، وأنا ما دمت بالحياة لم أزل معانقة لروحك، وإنْ كنتُ أنا ما أحفظ روحك وأحطها في وسط عيني، فكيف تكون حياتي بعدك؟ وإذا عرفتُ روحك حفظتُها مثل عيني اليمين. فعند ذلك قال لي: إني حين وُلِدت أخبر المنجمون أن هلاك روحي يكون على يد واحد من أولاد الملوك الإنسية، فأخذت روحي ووضعتها في حوصلة عصفور، وحبست العصفور في حقٍّ، ووضعت الحق في علبة، ووضعت العلبة في داخل سبع علب، ووضعت العلب في قلب سبع صناديق، ووضعت الصناديق في طابق من رخام في جانب هذا البحر المحيط؛ لأن هذا الجانب بعيد عن بلاد الإنس، وما يقدر أحد من الإنس أن يصل إليه، وها أنا قلت لك، ولا تقولي لأحد على هذا فإنه سر بيني وبينك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن دولة خاتون لما أخبرت سيف الملوك بروح الجني الذي خطفها، وبيَّنَتْ له ما قاله الجني إلى أن قال لها: وهذا سر بيننا. قالت له: مَن أحدِّثه به، وما يأتيني أحد غيرك حتى أقول له؟ ثم والله إنك جعلت روحك في حصن حصين عظيم لا يصل إليه أحد، فكيف يصل إلى ذلك أحد من الإنس؟ حتى لو فرض المحال وقدَّرَ الله مثل ما قال المنجِّمون فكيف يكون أحد من الإنس يصل إلى هذا؟ فقال: ربما كان أحد منهم في إصبعه خاتم سليمان بن داود عليهما السلام، ويأتي إلى هنا ويضع يده بهذا الخاتم على وجه الماء، ثم يقول: بحق هذه الأسماء إن روح فلان تطلع. فيطلع التابوت فيكسره، والصناديق كذلك والعلب، ويخرج العصفور من الحق ويخنقه فأموت أنا. فقال سيف الملوك: هو أنا ابن الملك، وهذا خاتم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في إصبعي، فقومي بنا إلى شاطئ هذا البحر حتى نبصر هل كلامه هذا كذب أم صدق؟ فعند ذلك قام الاثنان ومشيا إلى أن وصلا إلى البحر، ووقفت دولة خاتون على جانب البحر، ودخل سيف الملوك في الماء إلى وسطه وقال: بحق ما في هذا الخاتم من الأسماء والطلاسم، وبحق سليمان عليه السلام، أن تخرج روح فلان ابن الملك الأزرق الجني. فعند ذلك هاج البحر وطلع التابوت فأخذه سيف الملوك، وضربه على الحجر فكسره وكسر الصناديق والعلب، وأخرج العصفور من الحق وتوجَّهَا إلى القصر، وطلعا فوق التخت، وإذا بغبرة هائلة وشيء عظيم طائر وهو يقول: أبقني يا ابن الملك ولا تقتلني واجعلني عتيقك وأنا أبلغك مقصودك. فقالت له دولة خاتون: قد جاء الجني فاقتل العصفور لئلا يدخل هذا الملعون القصر ويأخذه منك ويقتلك ويقتلني بعدك. فعند ذلك خنق العصفور فمات فوقع الجني على الأرض كوم رماد أسود. فقالت خاتون: قد خلصنا من يد هذا الملعون وكيف نعمل؟



ضحك وقال لي: عمري ما رأيت حِمارًا مِثلَك.

فقال سيف الملوك: المستعان بالله تعالى الذي بلانا، فإنه يدبرنا ويعيننا على خلاصنا ممَّا نحن فيه.

ثم قام سيف الملوك وقلع من أبواب القصر نحو عشرة أبواب، وكانت تلك الأبواب من الصندل والعود، ومساميرها من الذهب والفضة، ثم أخذا حبالًا كانت هناك من الحرير والإبريسم، وربط الأبواب بعضها في بعض، وتعاوَنَ هو ودولة خاتون إلى أن وصلا بها إلى

البحر ورمياها فيه بعد أن صارت فلكًا، وربطوه على الشاطئ، ثم رجعا إلى القصر وحملا الصحاف الذهب والفضة وكذلك الجواهر واليواقيت والمعادن النفيسة، ونقلا جميع ما في القصر من الذي خفَّ حمله وغلا ثمنه، وحطَّاه في ذلك الفلك وركبا فيه متوكلين على الله تعالى الذي مَن توكَّلَ عليه كفاه ولا يخيبه، وعملا لهما خشبتين على هيئة المجاديف، ثم حلَّا الحبال، وتركا الفلك يجري بهما في البحر، ولم يزالا سائرين على تلك الحالة مدة أربعة أشهر حتى فرغ منهما الزاد، واشتد عليهما الكرب وضاقت أنفسهما، فطلبا من الله أن يرزقهما النجاة مما هما فيه.

وكان سيف الملوك في مدة سيرهما، إذا نام يجعل دولة خاتون خلف ظهره، فإذا انقلب كان السيف بينهما. فبينما هما على تلك الحالة ليلةً من الليالي، فاتفق أن سيف الملوك كان نائمًا ودولة خاتون يقظانة، وإذا بالفلك مال إلى طرف البر وجاء إلى مينا، وفي تلك المينا مراكب، فنظرت دولة خاتون المراكب وسمعت رجلًا يتحدث مع البحرية، وكان الذي يتحدث رئيس الرؤساء وكبيرهم، فلما سمعت دولة خاتون صوت الرئيس علمت أن هذا البر مينا مدينة من المدن، وأنهما وصلا إلى العمار؛ ففرحت فرحًا شديدًا ونبَّهَتْ سيف الملوك من النوم وقالت له: قُمْ واسأل هذا الريس عن اسم هذه المدينة وعن هذه المينا. فقام سيف الملوك وهو فرحان وقال له: يا أخي، ما اسم هذه المدينة؟ وما يقال لهذه المينا؟ وما اسم ملكها؟ فقال له الريس: يا صاقع الوجه، يا بارد اللحية، إذا كنت لا تعرف هذه المينا، ولا هذه المدينة، فكيف جئتَ إلى هنا؟ فقال سيف الملوك: أنا غريب وقد كنت في سفينة من سفن التجار، فانكسرت وغرقت بجميع ما فيها وطلعت على لوح فوصلت إلى هنا، فسألتك، والسؤال ما هو عيب. فقال الريس: هذه مدينة عمارية، وهذه المينا تُسمَّى مينا كمين البحرين. فلما سمعت دولة خاتون هذا الكلام فرحت فرحًا شديدًا، وقالت: الحمد لله. فقال سيف الملوك: ما الخبر؟ فقالت: يا سيف الملوك، أبشِرْ بالفرج القريب، فإن ملك هذه المدينة عَمِّي أخو أبي. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن دولة خاتون لما قالت لسيف الملوك: أبشِرْ بالفرج القريب، فإن ملك هذه المدينة عمي أخو أبي، واسمه عالي الملوك. ثم قالت له: اسأله وقل له: هل سلطان هذه المدينة عالي الملوك طيب؟ فسأله عن ذلك، فقال له الريس وهو مغتاظ منه: أنت تقول عمري ما جئت إلى هنا، وإنما أنا رجل غريب فمَنْ عرَّفك باسم صاحب المدينة؟ ففرحت دولة خاتون وعرفت الريس، وكان اسمه معين الدين وهو من رؤساء أبيها، وإنما خرج ليفتِّش عليها حين فقدت فلم يجدها، ولم يزل دائرًا حتى وصل إلى مدينة عمها، ثم قالت لسيف الملوك: قل له: يا ريس معين الدين تعالَ كلِّمْ سيدتك. فناداه بما قالته له، فلما سمع الريس كلام سيف الملوك اغتاظ غيظًا شديدًا، وقال له: يا كلب، مَن أنت وكيف عرفتني؟ ثم قال لبعض البحرية: ناولوني عصًا من الشوم حتى أروح إلى هذا النحس وأكسر رأسه. فأخذ العصا وتوجَّهَ إلى جهة سيف الملوك، فرأى الفلك ورأى فيه شيئًا عجيبًا بهيجًا فاندهش عقله، ثم تأمَّلَ وحقَّقَ النظر فرأى دولة خاتون وهي جالسة مثل فلقة القمر، فقال له الريس: ما الذي عندك؟ فقال له: عندي بنت تُسمَّى دولة خاتون. فلما سمع الريس هذا الكلام وقع مغشيًّا عليه حين سمع باسمها وعرف أنها سيدته وبنت ملكه، فلما أفاق ترك الفلك وما فيه وتوجَّهَ إلى المدينة وطلع قصر الملك فاستأذن عليه، فدخل الحاجب إلى الملك، وقال: إن الريس معين جاء إليك ليبشِّرك. فأذِنَ له بالدخول، فدخل على الملك وقبَّلَ الأرضَ بين يديه وقال له: يا ملك، عندك البشارة، فإن بنت أخيك دولة خاتون وصلت إلى المدينة طيبة بخير، وهي في الفلك وصحبتها شاب مثل القمر ليلة تمامه.

فلما سمع الملك خبر بنت أخيه فرح وخلع على الريس خلعة سنية، وأمر من ساعته أن يزيِّنوا المدينةَ لسلامة بنت أخيه، وأرسَلَ إليها وأحضَرَها عنده هي وسيف الملوك، وسلَّمَ

عليهما وهنَّأهما بالسلامة، ثم إنه أرسَلَ إلى أخيه ليُعلِمه بأن ابنته وُجِدت وهي عنده. ثم إنه لما وصل إليه الرسول تجهَّزَ واجتمعت العساكر، وسافَرَ تاج الملوك أبو دولة خاتون حتى وصل إلى أخيه عالي الملوك، واجتمع ببنته دولة خاتون وفرحوا فرحًا شديدًا، وقعد تاج الملوك عند أخيه جمعة من الزمان، ثم إنه أخذ بنته وكذلك سيف الملوك وسافروا حتى وصلوا إلى سرنديب بلاد أبيها، واجتمعت دولة خاتون بأمها وفرحوا بسلامتها وأقاموا الأفراح، وكان ذلك يومًا عظيمًا لا يُرَى مثله، وأما الملك فإنه أكرَمَ سيف الملوك وقال له: يا سيف الملوك، إنك فعلتَ معي ومع ابنتي هذا الخير كله، وأنا لا أقدر أن أكافِئَك عليه، وما يكافِئُك إلا رب العالمين، ولكن أريد منك أن تقعد على التخت في موضعي وتحكم في بلاد الهند، فإني قد وهبتُ لك ملكي وتختي وخزائني وخَدَمي، وجميع ذلك يكون هبةً مني لك.

فعند ذلك قام سيف الملوك، وقبَّلَ الأرض بين يدي الملك وشكَرَه، وقال له: يا ملك الزمان، قد قَبِلتُ جميعَ ما وهبْتَه لي، وهو مردود مني إليك هدية أيضًا، وأنا يا ملك الزمان ما أريد مملكة ولا سلطنة، وما أريد إلا أن الله تعالى يبلغني مقصودي. فقال له الملك: هذه خزائني بين يديك يا سيف الملوك، مهما طلبته منها فخذه، ولا تشاورني فيه وجزاك الله عني كل خير. فقال سيف الملوك: أعَزَّ الله الملك، لا حظَّ لي في المُلْك ولا في المال حتى أبلغ مرادي، ولكن غرضي الآن أن أتفرج في هذه المدينة وأنظر شوارعها وأسواقها. فأمر تاج الملوك أن يحضروا له فرسًا من جياد الخيل، فأحضروا له فرسًا مسرجًا ملجمًا من جياد الخيل، فركبها وطلع إلى السوق وشقَّ في شوارع المدينة. فبينما هو ينظر يمينًا وشمالًا إذ رأى شابًّا ومعه قباء وهو ينادي عليه بخمسة عشر دينارًا، فتأمَّلَه فوجده يشبه أخاه ساعدًا، وفي نفس الأمر هو بعينه إلا أنه تغيَّرَ لونه وحاله من طول الغربة ومشقات السفر فلم يعرفه، ثم قال لمَن حوله: هاتوا هذا الشاب لأستخبره. فأتوا به إليه، فقال: خذوه وأوصلوه إلى القصر الذي أنا فيه وخلوه عندكم إلى أن أرجع من الفرجة. فظنوا أنه قال لهم خذوه وأوصلوه إلى السجن، وقالوا: لعل هذا مملوك من مماليكه هرب منه. فأخذوه وأوصلوه إلى السجن وقيَّدوه وتركوه قاعدًا، فرجع سيف الملوك من الفرجة وطلع القصر ونسي أخاه ساعدًا، ولم يذكره له أحد، فصار ساعد في السجن، ولما خرجوا بالأسارى إلى أشغال العمارات أخذوا ساعدًا معهم، وصار يشتغل مع الأسارى وكثر عليه الوسخ، ومكث ساعد على هذه الحالة مدة شهر وهو يتذكر في أحواله، ويقول في نفسه: ما سبب سجني؟

وقد اشتغل سيف الملوك بما هو فيه من السرور وغيره، فاتفق أن سيف الملوك جلس يومًا من الأيام وتذكَّرَ أخاه ساعدًا، فقال للمماليك الذين كانوا معه: أين المملوك الذي كان معكم في اليوم الفلاني؟ فقالوا: أَمَا قلتَ لنا أوصلوه إلى السجن؟ فقال سيف الملوك: أنا ما قلتُ لكم هذا الكلام، وإنما قلت لكم أوصلوه إلى القصر الذي أنا فيه. ثم إنه أرسل الحجَّاب إلى ساعد فأتوا به وهو مقيَّد، ثم فكوه من قيده وأوقفوه بين يدي سيف الملوك، فقال له: يا شاب، من أي البلاد أنت؟ فقال له: أنا من مصر، واسمي ساعد بن الوزير فارس. فلما سمع سيف الملوك كلامه نهض من فوق التخت وألقى نفسه عليه، وتعلَّقَ برقبته، ومن فرحه صار يبكي بكاءً شديدًا، وقال: يا أخي ساعد، الحمد لله حيث عشت ورأيتك، فأنا أخوك سيف الملوك ابن الملك عاصم. فلما سمع ساعد كلام أخيه وعرفه، تعانَقَا مع بعضهما وتباكيا، فتعجَّبَ الحاضرون منهما، ثم أمر سيف الملوك أن يأخذوا ساعدًا ويذهبوا به إلى الحمام، فذهبوا به إلى الحمام وعند خروجه من الحمام ألبسوه ثيابًا فاخرة وأتوا به إلى مجلس سيف الملوك، فأجلَسَه معه على التخت، ولما علم تاج الملوك فرح فرحًا شديدًا باجتماع سيف الملوك وأخيه ساعد، وحضر وجلس الثلاثة يتحدثون فيما جرى لهم من الأول إلى الآخر.

ثم إن ساعدًا قال: يا أخي، يا سيف الملوك، لما غرقت المركب وغرقت المماليك طلعت أنا وجماعة من المماليك على لوح خشب، وسار بنا في البحر مدة شهر كامل، ثم بعد ذلك رمانا الريح بقدرة الله تعالى على جزيرة، فطلعنا عليها ونحن جياع، فدخلنا بين الأشجار وأكلنا من الفواكه، واشتغلنا بالأكل، فلم نشعر إلا وقد خرج علينا أقوام مثل العفاريت، فوثبوا علينا وركبوا فوق أكتافنا وقالوا لنا: امشوا بنا، فأنتم صرتم حميرنا. فقلتُ للذي ركبني: ما أنت؟ ولأي شيء ركبتَني؟ فلما سمع مني هذا الكلام لفَّ رجله على رقبتي حتى كدتُ أن أموت، وضرب ظهري برجله الأخرى، فظننت أنه قطع ظهري، فوقعت في الأرض على وجهي وما بقي عندي قوة بسبب الجوع والعطش؛ فحيث وقعت عرف أني جائع، فأخذ بيدي وأتى بي إلى شجرة كثيرة الأثمار وهي من الكمثرى، فقال لي: كُلْ من هذه الشجرة حتى تشبع. فأكلت من تلك الشجرة حتى شبعت، وقمت أمشي بغير اختياري، فما مشيت غير قليل حتى ولَّى ذلك الشخص وركب فوق أكتافي، فصرت ساعةً أمشي، وساعة أجري، وساعة أهرول، وهو راكب يضحك ويقول: عمري ما رأيت حمارًا مثلك.

فاتفق أننا جمعنا شيئًا من عناقيد العنب يومًا من الأيام ثم وضعناه في حفرة بعد أن دُسْناه بأرجلنا، فصارت تلك الحفرة بركة كبيرة، فصبرنا مدة وأتينا إلى تلك الحفرة فوجدنا الشمس قد ضربت ذلك الماء فصار خمرًا. فبقينا نشرب منه ونسكر فتحمرُّ

وجوهنا ونغني ونرقص من نشوة السُّكْر. فقالوا: ما الذي يحمِّر وجوهكم ويصيِّركم ترقصون وتغنون؟ فقلنا لهم: لا تسألون عن هذا، وما تريدون بالسؤال عنه؟ فقالوا: أخبرونا حتى نعرف حقيقة الأمر. فقلنا: عصير العنب. فذهبوا بنا إلى وادٍ ولم نعرف له طولًا من عرض، وفي ذلك الوادي كروم من العنب لا يُعرَف أولها من آخِرها، وكل عنقود من العناقيد التي فيها قدر عشرين رطلًا، وكله داني القطوف. فقالوا لنا: اجمعوا من هذه. فجمعنا منه شيئًا كثيرًا، ورأيت هناك حفرة كبيرة أكبر من الحوض الكبير، فملأناها عنبًا ودُسْناه بأرجلنا وفعلنا كما فعلنا أول مرة، فصار خمرًا وقلنا لهم: هذا بلغ حد الاستواء، فأي شيء تشربون به؟ فقالوا لنا: إنه كان عندنا حمير مثلكم فأكلناهم وبقيت رءوسهم، فاسقونا في جماجمهم. فأسقيناهم فسكروا ثم رقدوا، وكانوا نحو المائتين، فقلنا لبعضنا: أَمَا يكفي هؤلاء أن يركبونا حتى يأكلونا أيضًا! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولكن نحن نقوي عليهم السُّكر ثم نقتلهم ونستريح منهم، ونخلص من أيديهم. فنبهناهم وصرنا نملأ لهم تلك الجماجم ونسقيهم، فيقولون: هذا مرٌّ. فقلنا لهم: لأي شيء تقولون هذا مرٌّ؟ وكل مَن قال ذلك إنْ لم يشرب منه عشر مرات فإنه يموت من يومه. فخافوا من الموت، وقالوا لنا: اسقونا تمام العشر مرات. فلما شربوا بقية العشر مرات سكروا وزاد عليهم السكر، وهمدت قوتهم، فجررناهم من أيديهم، ثم إننا جمعنا من حطب تلك الكروم شيئًا كثيرًا، وجعلنا حولهم وفوقهم، وأوقدنا النار في الحطب ووقفنا من بعيد ننظر ما يكون منهم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٢

قالت بلغني أيها الملك السعيد، أن ساعدًا قال: لما أوقدت النار في الحطب أنا ومَن معي من المماليك، وصارت الغيلان في وسطها، وقفنا من بعيد لننظر ما يكون منهم، ثم قَدِمنا إليهم بعد أن خمدت النار فرأيناهم صاروا كومَ رماد، فحمدنا الله تعالى الذي خلصنا منهم وخرجنا من تلك الجزيرة، وطلبنا ساحل البحر، ثم افترقنا من بعضنا؛ فأما أنا واثنان من المماليك فمشينا حتى وصلنا إلى غابة كبيرة كثيرة الأشجار فاشتغلنا بالأكل، وإذا بشخصٍ طويلِ القامة طويلِ اللحية طويلِ الأذنين، بعينين كأنهما مشعلان، وقدَّامه غنمٌ كثير يرعاها، وعنده جماعة أُخَر في كيفيته، فلما رآنا استبشر وفرح ورحَّبَ بنا وقال: أهلًا وسهلًا، تعالوا عندي حتى أذبح لكم شاةً من هذه الأغنام وأشويها وأُطعِمكم. فقلنا له: وأين موضعك؟ فقال: قريب من هذا الجبل، فاذهبوا إلى هذه الجهة حتى تروا مغارةً فادخلوا فيها، فإنَّ فيها ضيوفًا كثيرًا مثلكم، فروحوا واقعدوا معهم حتى نجهز لكم الضيافة. فاعتقدنا أن كلامه حق، فسرنا إلى تلك الجهة، ودخلنا تلك المغارة فرأينا الضيوف الذين فيها كلهم عميانًا، فحين دخلنا عليهم قال واحد منهم: أنا مريض. وقال الآخَر: أنا ضعيف. فقلنا لهم: أي شيء هذا القول الذي تقولونه؟ وما سبب ضعفكم ومرضكم؟ فقالوا: مَن أنتم؟ فقلنا لهم: نحن ضيوف. قالوا لنا: ما الذي أوقعكم في يد هذا الملعون؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذا غول يأكل بني آدم، وقد أعمانا ويريد أن يأكلنا. فقلنا لهم: كيف أعماكم هذا الغول؟ فقالوا: إنه في هذا الوقت يعميكم مثلنا. فقلنا لهم: وكيف يعمينا؟ فقالوا لنا: إنه يأتيكم بأقداح من اللبن ويقول لكم: أنتم تعبتم من السفر، فخذوا هذا اللبن واشربوا منه. فحين تشربون منه تصيرون مثلنا.

فقلت في نفسي: ما بقي لنا خلاص إلا بحيلة. فحفرتُ حفرة في الأرض وجلستُ عليها، ثم بعد ساعة دخل الملعون الغول علينا ومعه أقداح من اللبن، فناوَلَني قدحًا وناوَلَ

مَن معي كل واحد قدحًا، وقال لنا: أنتم جئتم من البر عَطَاشَى، فخذوا هذا اللبن واشربوا منه حتى أشوي لكم اللحم. فأما أنا فأخذتُ القدح وقرَّبتُه من فمي ودلقته في الحفرة وصحتُ: آه، قد راحت عيني وعميت. وأمسكت عيني بيدي، وصرت أبكي وأصيح وهو يضحك ويقول: لا تَخَفْ. وأما الاثنان رفيقاي فإنهما شربَا اللبن فعميا، فقام الملعون من وقته وساعته وغلق باب المغارة وقَرُب مني وجسَّ أضلاعي فوجدني هزيلًا، وما عليَّ شيء من اللحم، فجسَّ غيري فرآه سمينًا ففرح، ثم ذبح ثلاثة أغنام وسلخها وجاء بأسياخ من الحديد، ووضع فيها لحم الأغنام ووضعها على النار وشواه وقدَّمه إلى رفيقيَّ، فأكلا وأكل معهما، ثم جاء بزق ملآن خمرًا وشربه ورقد على وجهه وشخر. فقلت في نفسي: إنه غرق في النوم وكيف أقتله؟ ثم تذكرتُ الأسياخ، فأخذتُ منها سيخين ووضعتهما في النار، وصبرت عليهما حتى صارا مثل الجمر، ثم قمتُ وشددتُ وسطي ونهضتُ على أقدامي، وأخذت السيخين الحديد بيدي وتقربت من الملعون وأدخلتهما في عينَيْه واتَّكأتُ عليهما بقوتي، فنهض من حلاوة الروح قائمًا على قدمَيْه وأراد أن يمسكني بعد أن عمي، فهربتُ منه داخل المغارة وهو يسعى خلفي، فقلت للعميان الذين عنده: كيف العمل مع هذا الملعون؟ فقال واحد منهم: يا ساعد، انهض واصعد إلى الطاقة. وأخذت السيف وأتيت عند ذلك الرجل، فقال: خذه واضربه في وسطه فإنه يموت في الحال. فقمت وجريت خلفه وقد تعب من الجري، فجاء إلى العميان ليقتلهم، فجئت إليه وضربته بالسيف في وسطه، فصار نصفين، فصاح عليَّ وقال لي: يا رجل، حيث أردتَ قتلي فاضربني ضربة ثانية. فهممتُ أن أضربه ضربةً ثانية، فقال الذي دلَّني على السيف: لا تضربه ضربة ثانية؛ فإنه لا يموت بل يعيش ويهلكنا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ساعدًا قال: لما ضربت الغول بالسيف قال لي: يا رجل، حيث ضربتَني وأردتَ قتلي، فاضربني ضربة ثانية. فهممتُ أن أضربه، فقال لي الذي دلَّني على السيف: لا تضربه ضربة ثانية، فإنه لا يموت بل يعيش ويهلكنا. فامتثلتُ أمرَ ذلك الرجل ولم أضربه، فمات الملعون، فقال لي الرجل: قُمِ افتَحِ المغارة ودَعْنا نخرج منها، لعل الله يساعدنا ونستريح من هذا الموضع. فقلت له: ما بقي علينا ضرر، بل نستريح ونذبح من هذه الأغنام ونشرب من هذا النبيذ؛ لأن البر طويل. فأقمنا في هذا المكان مدة شهرين ونحن نأكل من هذه الأغنام ومن هذه الفواكه، فاتفق أننا جلسنا على شاطئ البحر يومًا من الأيام، فرأينا مركبًا كبيرة تلوح في البحر على بُعْد، فأشرنا إلى أهلها وصحنا عليهم، فخافوا من ذلك الغول، وكانوا يعرفون أن هذه الجزيرة فيها غول يأكل الآدميين فطلبوا الهروب، فأشرنا إليهم بفاضل عمائمنا وقربنا منهم وصرنا نصيح عليهم، فقال واحد من الركاب وكان حديد البصر: يا معاشر الركَّاب، إني أرى هذه الأشباح آدميين مثلنا وليس عليهم زيُّ الغيلان. ثم إنهم ساروا جهتنا قليلًا إلى أن قربوا منا، فلما تحققوا أننا آدميون، سلَّموا علينا فردَدْنا عليهم السلام وبشَّرناهم بقتل الغول الملعون فشكرونا.

ثم إننا تزوَّدنا من الجزيرة بشيء من الفواكه فيها، ثم نزلنا المركب وسارت بنا في ريح طيبة مدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك سارت علينا ريح وازداد ظلام الجو، فما كان غير ساعة واحدة حتى جذب الريحُ المركبَ إلى جبلٍ فانكسرت وتمزَّقت ألواحها، فقدَّرَ الله العظيم أني تعلَّقْتُ بلوح منها وركبتُه، فسار بي يومين وقد أَتَتْ ريح طيبة، فصرت فوق اللوح أجدف برجلي ساعةً زمانية حتى أوصَلَني الله تعالى إلى البر بالسلامة، فطلعتُ إلى هذه المدينة وقد صرتُ غريبًا فريدًا وحيدًا لا أدري ما أصنع، وقد أضرَّ بي الجوع

وحصل لي الجهد الأكبر، فأتيتُ إلى سوق المدينة وقد تواريتُ وقلعتُ هذا القباء، وقلت في نفسي: أبيعه وآكل بثمنه حتى يقضي الله ما هو قاضٍ. ثم إني يا أخي أخذت القباء في يدي والناس ينظرونه ويتزايدون في ثمنه، حتى أتيتَ أنت ونظرتَني وأمرتَ بي إلى القصر، فأخذني الغلمان وسجنوني، ثم إنك تذكَّرْتَني بعد هذه المدة فأحضرتَني عندك، وقد أخبرتُك بما جرى لي، والحمد لله على الاجتماع.

فلما سمع سيف الملوك وتاج الملوك أبو دولة خاتون حديثَ الوزير ساعد، تعجَّبَا من ذلك عجبًا شديدًا، وقد أعَدَّ تاج الملوك أبو دولة قانون مكانًا مليحًا لسيف الملوك وأخيه ساعد، وصارت دولة خاتون تأتي لسيف الملوك وتشكره وتتحدَّث معه على إحسانه، فقال الوزير ساعد: أيتها الملكة، المراد منك المساعدة على بلوغ غرضه. فقالت: نعم أسعى في مراده حتى يبلغ مراده إنْ شاء الله تعالى. ثم التفتَتْ إلى سيف الملوك، وقالت له: طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا.

هذا ما كان من أمر سيف الملوك ووزيره ساعد، وأما ما كان من أمر الملكة بديعة الجمال، فإنها وصلت إليها الأخبار برجوع أختها دولة خاتون إلى أبيها ومملكتها، فقالت: لا بد من زيارتها والسلام عليها في زينة بهية وحلى وحلل، فتوجَّهَتْ إليها، فلما قربت من مكانها قابلَتْها الملكة دولة خاتون، وسلَّمَتْ عليها وعانقَتْها وقبَّلتها بين عينَيْها، وهنَّتها الملكة بديعة الجمال بالسلامة، ثم جلستا تتحدثان، فقالت بديعة الجمال لدولة خاتون: أي شيء جرى لك في الغربة؟ فقالت دولة خاتون: يا أختي، لا تسأليني عما جرى لي من الأمور، يا ما تقاسي الخلائق من الشدائد. فقالت لها بديعة الجمال: وكيف ذلك؟ قالت: يا أختي، إني كنت في القصر المشيد، وقد احتوى عليَّ فيه ابن الملك الأزرق … ثم حدَّثَتْها ببقية الحديث من أوله إلى آخره، وحديث سيف الملوك وما جرى له في القصر، وما قاسى من الشدائد والأهوال حتى وصل إلى القصر المشيد، وكيف قتل ابن الملك الأزرق، وكيف قلع الأبواب وجعلها فلكًا وعمل لها مجاديف، وكيف دخل إلى ها هنا؛ فتعجَّبَتْ بديعة الجمال، ثم قالت: والله يا أختي، إن هذا من أغرب العجائب، وأريد أن أخبرك بأصل حكايته لكن يمنعني الحياء من ذلك. فقالت لها بديعة الجمال: ما سبب الحياء، وأنت أختي ورفيقتي، وبيني وبينك شيء كثير، وأنا أعرف أنك ما تطلبين لي إلا الخير، فمن أي شيء تستحيين مني؟ فأخبريني بما عندك ولا تستحي مني، ولا تُخْفِي مني شيئًا من ذلك. فقالت لها دولة خاتون: إنه نظر صورتك في القباء الذي أرسَلَه أبوك إلى سليمان بن داود عليهما السلام، فلم يفتحه ولم ينظر ما فيه، بل أرسَلَه إلى الملك عاصم بن صفوان ملك مصر في

جملة الهدايا والتحف التي أرسَلَها إليه، والملك عاصم أعطاه لولده سيف الملوك قبل أن يفتحه، فلما أخذه سيف الملوك فتحه وأراد أن يلبسه فرأى فيه صورتك، فعشقها وخرج في طلبك، وقاسى هذه الشدائد كلها من أجلك. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن دولة خاتون أخبرت بديعة الجمال بأصل محبة سيف الملوك لها وعشقه إياها، وأن سببها القباء الذي فيه صورتها، وحين عايَنَ الصورةَ خرج من ملكه هائمًا، وغاب عن أهله من أجلها، وقالت لها: إنه قاسى من الأهوال ما قاساه من أجلك. فقالت بديعة الجمال وقد احمرَّ وجهها وخجلت من دولة خاتون: إن هذا شيء لا يكون أبدًا، فإن الإنس لا يتفقون مع الجان. فواصلت دولة خاتون تصف لها سيف الملوك، وحسن صورته وسيرته وفروسيته، ولم تَزَلْ تُثْنِي عليه وتذكر لها صفاته حتى قالت: يا أختي، لأجل الله تعالى ولأجلي، تحدَّثي معه ولو كلمة واحدة. فقالت بديعة الجمال: إن هذا الكلام الذي تقولينه لا أسمعه، ولا أطيعك فيه. وكأنها لم تسمع منه شيئًا، ولم يقع في قلبها شيء من محبة سيف الملوك وحُسْن صورته وسيرته وفروسيته.

ثم إن دولة خاتون صارت تتضرع لها، وتقبِّل رجلَيْها، وتقول: يا بديعة الجمال، بحق اللبن الذي رضعناه أنا وأنتِ، وبحق النقش الذي على خاتم سليمان عليه السلام، أن تسمعي كلامي هذا، فإني تكلَّفْتُ له في القصر المشيد بأني أُرِيه وجهك، فبالله عليك أن تُرِيه صورتك مرةً واحدة لأجل خاطري، وأنتِ الأخرى تنظرينه. وصارت تبكي لها وتتضرع إليها وتقبِّل يدَيْها ورجلَيْها حتى رضيت وقالت: لأجلك أُرِيه وجهي مرة واحدة. فعند ذلك طاب قلب دولة خاتون وقبَّلَتْ يديها ورجلَيْها وخرجت، وجاءت إلى القصر الأكبر الذي في البستان وأمرت الجواري أن يفرشْنَه وينصبْنَ فيه تختًا من الذهب، ويجعلْنَ أواني الشراب مصفوفة. ثم إن دولة خاتون قامت ودخلت على سيف الملوك وساعد وزيره وهما جالسان في مكانهما، وبشَّرَتْ سيف الملوك ببلوغ إربه وحصول مراده وقالت له: توجَّهْ إلى البستان أنت وأخوك وادخلا القصر، واختفيا عن أعين الناس بحيث لا ينظركما أحد ممَّنْ في القصر، حتى أجيء أنا وبديعة الجمال. فقام سيف الملوك وساعد وتوجَّهَا

إلى المكان الذي دلَّتْهما عليه دولة خاتون، فلما دخلاه رأيا تختًا من الذهب منصوبًا وعليه الوسائد، وهناك الطعام والشراب فجلسا ساعة من الزمان، ثم إن سيف الملوك تذكَّرَ معشوقته فضاق صدره، وهاج عليه الشوق والغرام، فقام ومشى حتى خرج من دهليز القصر، فتبعه أخوه ساعد، فقال له: يا أخي، اقعد أنت مكانك ولا تتبعني حتى أجيء إليك. فقعد ساعد ونزل سيف الملوك ودخل البستان وهو سكران من خمر الغرام، حيران من فرط العشق والهيام، وقد هَزَّه الشوق، وغلب عليه الوَجْد، فأنشد هذه الأبيات:

يَا بَدِيعَ الْجَمَالِ مَا لِي سِوَاكِ فَارْحَمِينِي إِنِّي أَسِيرُ هَوَاكِ
أَنْتِ سُؤْلِي وَمُنْيَتِي وَسُرُورِي قَدْ أَبَى الْقَلْبُ أَنْ يُحِبَّ سِوَاكِ
لَيْتَ شِعْرِي هَلْ قَدْ عَلِمْتِ بُكَائِي طُولَ لَيْلِي مُسَهَّدُ الْجَفْنِ بَاكِي
فَأْمُرِي النَّوْمَ أَنْ يُلِمَّ بِجَفْنِي فَعَسَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَرَاكِ
فَاعْطِفِي فِي الْهَوَى عَلَى مُسْتَهَامٍ أَنْقِذِيهِ مِنْ مُهْلِكَاتِ جَفَاكِ
زَادَكِ اللهُ بَهْجَةً وَسُرُورًا وَجَمِيعُ الْعِدَى تَكُونُ فِدَاكِ
يُحْشَرُ الْعَاشِقُونَ تَحْتَ لِوَائِي وَجَمِيعُ الْمِلَاحِ تَحْتَ لِوَاكِ

ثم بكى وأنشد أيضًا هذين البيتين:

بَدِيعَةَ الْحُسْنِ أَضْحَتْ بُغْيَتِي أَبَدًا لِأَنَّهَا فِي ضَمِيرِ الْقَلْبِ أَسْرَارِي
فَإِنْ نَطَقْتُ فَنُطْقِي فِي مَحَاسِنِهَا وَإِنْ سَكَتُّ فَفِيهَا عَقْدُ إِضْمَارِي

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشَدَ أيضًا هذه الأبيات:

وَفِي كَبِدِي نَارٌ يَزِيدُ وَقُودُهَا وَأَنْتُمْ مُرَادِي وَالْغَرَامُ يَطُولُ
أَمِيلُ إِلَيْكُمْ لَا أَمِيلُ لِغَيْرِكُمْ وَأَرْجُو رِضَاكُمْ وَالْمُحِبُّ حَمُولُ
لِكَيْ تَرْحَمُوا مَنْ أَنْحَلَ الْحُبُّ جِسْمَهُ وَأَضْعَفَهُ وَالْقَلْبُ مِنْهُ عَلِيلُ
فَرِقُّوا وَجُودُوا وَأَنْعِمُوا وَتَفَضَّلُوا فَلَمْ أَنْتَقِلْ عَنْكُمْ وَلَسْتُ أَحُولُ

ثم بكى وأنشد أيضًا هذين البيتين:

وَصَلَتْنِي الْهُمُومُ وَصْلَ هَوَاكِ وَجَفَانِي الرُّقَادُ مِثْلُ جَفَاكِ
وَحَكَى لِي الرَّسُولُ أَنَّكِ غَضْبَى يَا كَفَى اللهُ شَرَّ مَا هُوَ حَاكِ

ثم إن ساعدًا استبطأه فخرج من القصر يفتِّش عليه في البستان، فرآه ماشيًا في البستان متحيرًا وهو ينشد هذين البيتين:

وَاللهِ وَاللهِ الْعَظِيمِ وَحَقِّ مَنْ يَتْلُو مِنَ الْقُرْآنِ سُورَةَ فَاطِرِ
مَا جَالَ طَرْفِي فِي مَحَاسِنَ مَنْ أَرَى إِلَّا وَشَخْصُكَ يَا بَدِيعُ مُسَامِرِي

ثم اجتمع سيف الملوك وساعد أخوه وصارا يتفرجان في البستان، ويأكلان من الفواكه. هذا ما كان من أمر ساعد وسيف الملوك، وأما ما كان من أمر دولة خاتون، فإنها لما أَتَتْ هي وبديعة الجمال إلى القصر دخلتا فيه بعد أن أتحفه الخدام بأنواع الزينة، وفعلوا فيه جميع ما أمرتهم به دولة خاتون، وقد أَعَدُّوا لبديعة الجمال تختًا من الذهب لتجلس عليه، فلما رأت بديعة الجمال ذلك التخت جلسَتْ عليه، وكان بجانبها طاقة تشرف على البستان، وقد أتت الخدام بأنواع الطعام الفاخر، فأكلت بديعة الجمال هي ودولة خاتون، وصارت دولة خاتون تلقِّمها حتى اكتفت، ثم دعت بأنواع الحلويات فأحضرها الخدام وأكلتا منها بحسب الكفاية وغسلتا أيديهما. ثم إنها هيَّأت الشرابَ وآلات المدام، وصفت الأباريق والكاسات، وصارت دولة خاتون تملأ وتسقي بديعة الجمال، ثم تملأ الكأس وتشرب هي. ثم إن بديعة الجمال نظرت من الطاقة التي بجانبها إلى ذلك البستان، ورأت ما فيه من الأثمار والأغصان، فلاحَتْ منها التفاتةٌ إلى جهة سيف الملوك، فرأته وهو دائر في البستان وخلفه الوزير ساعد، وسمعت سيف الملوك ينشد الأشعار وهو يذرف الدموع الغزار، فلما نظرته أعقبَتْها تلك النظرةُ ألفَ حسرة. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بديعة الجمال لما رأت سيف الملوك وهو دائر في البستان، نظرته نظرةً أعقبَتْها ألف حسرة، فالتفتَتْ إلى دولة خاتون وقد لعب الخمر بأعطافها، وقالت لها: يا أختي، مَن هذا الشاب الذي أراه في البستان وهو حائر ولهان كئيب؟ فقالت لها دولة خاتون: هل تأذنين في حضوره عندنا حتى نراه؟ قالت لها: إنْ أمكنكِ أن تُحضريه فأحضريه. فعند ذلك نادَتْه دولة خاتون، وقالت له: يا ابن الملك، اصعدْ إلينا وأَقْدِمْ بحُسْنك وجمالك علينا. فعرف سيف الملوك صوت دولة خاتون فصعد إلى القصر، فلما وقع نظره على بديعة الجمال خرَّ مغشيًّا عليه، فرشَّتْ عليه دولة خاتون قليلًا من ماء الورد فأفاق من غشيته، ثم نهض وقبَّلَ الأرض قدَّام بديعة الجمال، فبُهِتَتْ من حُسْنه وجماله، فقالت دولة خاتون: اعلمي أيتها الملكة أن هذا سيف الملوك الذي كانت نجاتي بقضاء الله تعالى على يديه، وهو الذي جرى عليه كامل المشقات من أجلك، وقصدي أن تشمليه بنظرك. فقالت بديعة الجمال وقد ضحكت: ومَن يَفِي بالعهود حتى يَفِي بها هذا الشاب؟ لأن الإنس ليس لهم مودة. فقال سيف الملوك: أيتها الملكة، إن عدم الوفاء لا يكون عندي أبدًا، وما كل الخلق سواء. ثم إنه بكى بين يديها وأنشد هذه الأبيات:

أَيَا بَدِيعَ الْجَمَالِ إِنَّنِي شَبَحٌ مُضْنًى أَهِيمُ بِطَرْفٍ سَاحِرٍ جَانِ
بِحَقِّ مَا جَمَعَتْ خَدَّاكِ مِنْ مَلَحٍ مِنْ أَبْيَضَ وَشَقِيقٍ أَحْمَرَ قَانِ
لَا تَنْقِمِي بِنِكَالِ الْهَجْرِ مِنْ دَنِفٍ فَإِنَّ جِسْمِي مِنْ طُولِ النَّوَى فَانِ
هَذَا مُرَادِي وَهَذَا مُنْتَهَى أَمَلِي وَالْوَصْلُ قَصْدِي عَلَى تَقْدِيرِ إِمْكَانِ

ثم إنه بكى بكاءً شديدًا وتحكَّمَ عنده العشق والهيام، فصار يسلِّم عليها بهذه الأبيات:

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ مُحِبٍّ مُتَيَّمِ ... وَكُلُّ كَرِيمٍ لِلْكَرِيمِ جَمِيلُ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا عَدِمْتُ خَيَالَكُمْ ... وَلَمْ يَخْلُ مِنْكُمْ مَجْلِسٌ وَمُقِيلُ
أَغَارُ عَلَيْكُمْ لَسْتُ أَذْكُرُ اسْمَكُمْ ... وَكُلُّ حَبِيبٍ لِلْحَبِيبِ يَمِيلُ
فَلَا تَقْطَعُوا حَسَنَاتِكُمْ عَنْ مُحِبِّكُمْ ... فَإِنَّ الْأَسَى يُرْدِيهِ وَهْوَ عَلِيلُ
أُرَاعِي النُّجُومَ الزُّهْرَ وَهْيَ تَرُوعُنِي ... وَلَيْلِيَ فِي فَرْطِ الْغَرَامِ يَطُولُ
وَلَمْ يَبْقَ لِي صَبْرٌ وَلَا لِي حِيلَةٌ ... فَأَيَّ كَلَامٍ فِي السُّؤَالِ أَقُولُ
عَلَيْكُمْ سَلَامُ فِي سَاعَةِ الْجَفَا ... سَلَامٌ مِنَ الْوَلْهَانِ وَهْوَ حَمُولُ

ثم إنه من كثرة وَجْدِه وغرامه أنشد أيضًا هذه الأبيات:

إِنْ كَانَ قَصْدِي غَيْرَكُمْ يَا سَادَتِي ... لَا نِلْتُ مِنْكُمْ بُغْيَتِي وَإِرَادَتِي
مَنْ ذَا الَّذِي حَازَ الْجَمَالَ سِوَاكُمُ ... حَتَّى تَقُومَ الْآنَ فِيهِ قِيَامَتِي
هَيْهَاتِ أَنْ أَسْلُو الْهَوَى وَأَنَا الَّذِي ... أَفْنَيْتُ فِيكُمْ مُهْجَتِي وَحُشَاشَتِي

فلما فرغ من شعره بكى بكاءً شديدًا، فقالت له بديعة الجمال: يا ابن الملك، إني أخاف أن أُقبِلَ عليك بالكلية فلا أجد منك إلفةً ولا محبة، فإن الإنس ربما كان خيرهم قليلًا وغدرهم جليلًا، واعلم أن السيد سليمان بن داود عليهما السلام أخذ بلقيس بالمحبة، فلما رأى غيرها أحسن منها أعرَضَ عنها. فقال لها سيف الملوك: يا عيني ويا روحي، ما خلق الله كل الإنس سواء، وأنا إنْ شاء الله أَفِي بالعهد، وأموت تحت أقدامك، وسوف تبصرين ما أفعل موافقًا لما أقول، والله على ما أقول وكيل. فقالت له بديعة الجمال: اقعدْ واطمئِنَّ واحلفْ لي على قدر دينك، ونتعاهد على أننا لا نخون بعضنا، ومَن خان صاحبه ينتقم الله تعالى منه. فلما سمع سيف الملوك منها ذلك الكلام، قعد ووضع كل منهما يده في يده صاحبه وتحالَفَا أن كلًّا منهما لا يختار على صاحبه أحدًا من الإنس ولا من الجن. ثم إنهما تعانَقَا ساعة زمانية وتباكَيَا من شدة فرحهما، وغلب الوَجْد على سيف الملوك فأنشَدَ هذه الأبيات:

بَكَيْتُ غَرَامًا وَاشْتِيَاقًا وَلَوْعَةً ... عَلَى شَأْنِ مَنْ يَهْوَاهُ قَلْبِي وَمُهْجَتِي
وَبِي زَادَتِ الْآلَامُ مِنْ طُولِ هَجْرِكُمْ ... وَبَاعِي قَصِيرٌ عَنْ تَقَارُبِ نِسْبَتِي

وَحُزْنِيَ مِمَّا ضَاقَ عَنْهُ تَجَلُّدِي   يُوَضِّحُ لِلُّوَّامِ بَعْضَ بَلِيَّتِي
وَقَدْ ضَاقَ بَعْدَ الاتِّسَاعِ حَقِيقَةً   مَجَالُ اصْطِبَارِي لَا بِحَوْلِي وَقُوَّتِي
فَيَا هَلْ تَرَى قَدْ يَجْمَعُ اللهُ شَمْلَنَا   وَتَبْرَى مِنَ الْآلَامِ وَالسَّقْمِ غُصَّتِي

وبعد أن تحالفت بديعة الجمال هي وسيف الملوك، قام سيف الملوك يمشي، وقامت بديعة الجمال تمشي أيضًا ومعها جارية حاملة شيئًا من الأكل، وحاملة أيضًا قنانية ملآنة خمرًا، ثم قعدت بديعة الجمال ووضعت الجاريةُ بين يديها الأكلَ والمُدَام، فلم يمكثا غير ساعة إلا وسيف الملوك قد أقبَلَ، فلاقَتْه بالسلام وتعانقا وقعدا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن بديعة الجمال لما أحضرت الطعام والشراب، وجاء سيف الملوك فلاقَتْه بالسلام، ثم قعدا يأكلان ويشربان ساعة، فقالت بديعة الجمال: يا ابن الملك، إذا دخلتَ بستان إرم ترى خيمةً كبيرة منصوبة، وهي من أطلس أحمر وبطانتها من حرير أخضر، فادخلِ الخيمةَ وقوِّ قلبك؛ فإنك ترى عجوزًا جالسة على تخت من الذهب الأحمر مرصَّع بالدُّرِّ والجوهر، فإذا دخلتَ فسلِّمْ عليها بأدبٍ واحتشامٍ، وانظرْ إلى جهة التخت تجد تحتَه نعالًا منسوجةً بقضبان الذهب مزركشة بالمعادن، فخذْ تلك النعال وقبِّلها وضَعْها على رأسك، ثم حطها تحت إبطك اليمنى وقف قدام العجوز وأنت ساكت مطرق الرأس، فإذا سألَتْك وقالت لك: من أين جئتَ؟ وكيف وصلتَ إلى ها هنا؟ ومَن عرَّفَك هذا المكان؟ ومن شأن أي شيء أخذتَ هذه النعال؟ فاسكتْ أنت حتى تدخل جاريتي هذه وتتحدَّث معها وتستعطفها عليك وتسترضي خاطرها بالكلام، لعل الله تعالى يعطف قلبها عليك وتُجِيبك إلى ما تريد. ثم إنها نادت تلك الجارية، وكانت اسمها مرجانة، وقالت لها: بحق محبتي أن تقضي هذه الحاجة في هذا اليوم، ولا تتهاوني في قضائها، وإنْ قضيتِها في هذا اليوم فأنتِ حرة لوجه الله تعالى، ولك الإكرام، ولا يكون عندي أعز منك، ولا أُظهِر سري إلا عليك. فقالت لها: يا سيدتي ونور عيني، قولي لي ما حاجتك حتى أقضيها لك على رأسي وعيني. فقالت لها: أن تحملي هذا الإنسي على أكتافك وتوصليه إلى بستان إرم عند جدتي أم أبي، وتوصليه إلى خيمتها وتحتفظي عليه، وإذا دخلتِ الخيمةَ أنتِ وإياه ورأيتِه أخذ النعال وخدمها وقالت له: من أين أنت؟ ومن أي طريق أتيت؟ ومَن أوصلك إلى هذا المكان؟ ومن شأن أي شيء أخذت هذه النعال؟ وأي شيء حاجتك حتى أقضيها لك؟ فعند ذلك ادخلي بسرعة وسلِّمي عليها وقولي لها: يا سيدتي، أنا الذي جئتُ به هنا، وهو ابن ملك مصر، وهو الذي راح إلى القصر المشيد وقتل ابن الملك الأزرق وخلَّصَ الملكة دولة

خاتون، وأوصَلَها إلى أبيها سالمةً، وقد أوصلتُه إليك لأجل أن يخبرك ويبشِّرك بسلامتها فتنعمي عليه. ثم بعد ذلك قولي لها: يا سيدتي، إنه كامل العرض والمروءة والشجاعة، وهو صاحب مصر ومَلِكها، وقد حوى سائر الخصال الحميدة.

فإذا قالت لك: أي شيء حاجته؟ فقولي لها: إن سيدتي تسلِّم عليكِ وتقول لك: إلى متى وهي قاعدة في البيت عازبة بلا زواج؟ فقد طالت عليها المدة، فما مرادكم بعدم زواجها؟ ولأي شيء ما تزوِّجينها في حياتك وحياة أمها مثل البنات؟ فإذا قالت لك: كيف نعمل في زواجها؟ فإنْ كانت هي تعرف أحدًا ووقع في خاطرها أحدٌ تخبرنا عنه ونحن نعمل لها على مرادها على غاية ما يمكن. فعند ذلك قولي لها: يا سيدتي، إن بنتك تقول لك: أنتم كنتم تريدون تزويجي بسليمان عليه السلام، وصوَّرتم له صورتي في القباء، فلم يكن له نصيب فيَّ وقَدْ أرسَلَ القباء إلى ملك مصر، فأعطاه لولده، فرأى صورتي منقوشة فيه، فعشقني وترك مُلْكَ أبيه وأمه وأعرَضَ عن الدنيا وما فيها، وخرج هائمًا في الدنيا على وجهه، وقاسى أكبر الشدائد والأهوال من أجلي.

ثم إن الجارية حملت سيف الملوك، وقالت له: غمِّضْ عينيك. ففعل، فطارت به إلى الجو، ثم بعد ساعة قالت له: يا ابن الملك، افتح عينَيْك. ففتح عينيه فنظر البستان، وهو بستان إرم، فقالت له الجارية مرجانة: ادخل يا سيف الملوك هذه الخيمة. فذكر اللهَ سيفُ الملوك ودخل ومدَّ عينَيْه بالنظر في البستان، فرأى العجوز قاعدة على التخت، وفي خدمتها الجواري، فقَرُب منها بأدب واحتشام، وأخذ النعال وقبَّلَها وفعل ما وصفَتْه له بديعة الجمال، فقالت له العجوز: مَن أنت؟ ومِن أين أقبلْتَ؟ ومن أي البلاد أنت؟ ومَن جاء بك إلى هذا المكان؟ ولأي شيء أخذتَ هذه النعال وقبَّلْتَها؟ ومتى قلتَ لي على حاجة ولم أَقْضِها لك؟ فعند ذلك دخلت الجارية مرجانة، وسلَّمَتْ عليها بأدب واحتشام، ثم تحدثت بحديث بديعة الجمال الذي قالته لها. فلما سمعت العجوز هذا الكلام صرخت عليها واغتاظت منها، وقالت: من أين يحصل بين الإنس والجن اتفاق؟ وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما سمعت الكلام من الجارية اغتاظت غيظًا شديدًا وقالت: من أين للإنس مع الجن اتفاق؟ فقال سيف الملوك: أنا أتفق معك وأكون غلامك وأموت على حبك وأحفظ عهدك ولا أنظر غيرك، وسوف تنظرين صدقي وعدم كذبي وحسن مروءتي معك إنْ شاء الله تعالى. ثم إن العجوز تفكَّرت ساعة زمانية ورأسها مطرق، ثم رفعت رأسها وقالت: أيها الشاب المليح، هل تحفظ العهد والميثاق؟ فقال لها: نعم وحقِّ مَن رفع السماء وبسط الأرض على الماء، إني أحفظ العهد. فعند ذلك قالت العجوز: أنا أقضي لك حاجتك إنْ شاء الله تعالى، ولكن رحْ في الساعة إلى البستان، وتفرَّجْ فيه وكُلْ من الفواكه التي لا نظيرَ لها ولا في الدنيا مثلها، حتى أبعث إلى ولدي شهيال فيحضر، وأتحدث معه في شأن ذلك، ولا يكون إلا خيرًا إن شاء الله تعالى؛ لأنه لا يخالفني ولا يخرج عن أمري، وأزوِّجك بنته بديعة الجمال؛ فطِبْ نفسًا فإنها تكون زوجةً لك يا سيف الملوك. فلما سمع سيف الملوك منها ذلك الكلام شكرها وقبَّلَ يدَيْها ورجلَيْها وخرج من عندها متوجهًا إلى البستان. وأما العجوز فإنها التفتت إلى تلك الجارية وقالت لها: اطلعي فتِّشي على ولدي شهيال، وانظريه في أي الأقطار والأماكن وأحضريه عندي. فراحت الجارية وفتَّشَتْ على الملك شهيال فاجتمعت به، وأحضرته عند أمه.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر سيف الملوك، فإنه صار يتفرج في البستان، وإذا بخمسة من الجان، وهم من قوم الملك الأزرق قد نظروه، فقالوا: من أين هذا؟ ومَن جاء به إلى هذا المكان، ولعله الذي قتل ابن الملك الأزرق؟ ثم إنهم قالوا لبعضهم: إنَّا نحتال عليه بحيلة ونسأله ونستخبر منه. ثم صاروا يتمشون قليلًا قليلًا إلى أن وصلوا إلى سيف الملوك في طرف البستان، وقعدوا عنده وقالوا له: أيها الشاب المليح، ما قصَّرْتَ في قتل ابن الملك الأزرق وخلاص دولة خاتون منه، فإنه كلب غدَّار قد مكر بها، ولولا

أن الله قيَّضَك لها ما خَلَصتْ أبدًا، وكيف قتلتَه؟ فنظر إليهم سيف الملوك، وقال لهم: قد قتلتُه بهذا الخاتم الذي في إصبعي. فثبت عندهم أنه هو الذي قتَلَه، فقبض اثنان على يدَيْه، واثنان على رجلَيْه، والآخَر قبض على فمه حتى لا يصيح فيسمعه قوم الملك شهيال فينقذوه من أيديهم. ثم إنهم حملوه وطاروا به، ولم يزالوا طائرين حتى نزلوا عند ملكهم، وأوقفوه بين يديه وقالوا: يا ملك الزمان، قد جئناك بقاتل ولدك. فقال: وأين هو؟ قالوا: هذا. فقال له الملك الأزرق: هل قتلتَ ولدي وحشاشة كبدي ونور بصري بغير حقٍّ وبغير ذنب فعله معك؟ فقال له سيف الملوك: نعم، أنا قتلتُه، ولكن لظلمه وعدوانه؛ لأنه كان يأخذ أولاد الملوك ويذهب بهم إلى البئر المُعطلة والقصر المشيد ويفرِّق بينهم وبين أهليهم، ويفسق فيهم، وقتلتُه بهذا الخاتم الذي في إصبعي، وعجَّلَ الله بروحه إلى النار وبئس القرار. فثبت عند الملك الأزرق أن هذا هو قاتل ولده بلا شك، فعند ذلك دعا بوزيره وقال له: هذا قاتل ولدي ولا محالة من غير شك، فماذا تشير عليَّ في أمره؟ فهل أقتله أقبح قِتْلة، أو أعذِّبه أصعب عذاب، أو كيف أعمل؟ فقال الوزير الأكبر: اقطعْ منه عضوًا. وقال آخَر: اضربه كل يوم ضربًا شديدًا. وقال آخَر: اقطعوا وسطه. وقال آخَر: اقطعوا أصابعه جميعًا وأحرِقوها بالنار. وقال آخَر: اصلبوه. وصار كل واحد منهم يتكلم بحسب رأيه.

وكان عند الملك الأزرق أمير كبير له خبرة بالأمور ومعرفة بأحوال الدهور، فقال له: يا ملك الزمان، إني أقول لك كلامًا ما، والرأي لك في سماعِ ما أشير به عليك. وكان هو مشير مملكته ورئيس دولته، وكان الملك يسمع كلامه، ويعمل برأيه ولا يخالفه في شيء، فقام على قدمَيْه وقبَّلَ الأرض بين يدَيْه، وقال له: يا ملك الزمان، إذا أشرتُ عليك برأي في شأنِ هذا الأمر، فهل تتبعه وتعطيني الأمان؟ فقال له الملك: بيِّنْ رأيك وعليك الأمان. فقال: يا ملك، إنْ أنت قتلتَ هذا ولم تقبل نصحي ولم تتعقل كلامي، فإن قتله في هذا الوقت غير صواب؛ لأنه تحت يدك وفي حِمَاك وأسيرك، ومتى طلبتَه وجدتَه وتفعل به ما تريد، فاصبر يا ملك الزمان، فإن هذا قد دخل بستان إرم وتزوَّجَ بديعة الجمال بنت الملك شهيال، وصار منهم واحدًا، وجماعتك قبضوا عليه وأتوا به إليك، وما أخفى حاله منهم ولا منك، فإن قَتَلْتَه فإن الملك شهيال يطلب ثأرَه منك ويُعادِيك ويأتيك بالعسكر من أجل بنته، ولا مقدرةَ لك على عسكره، وليس لك به طاقة. فسمع منه ذلك، وأمر بسجنه.

هذا ما جرى لسيف الملوك، وأما ما كان من أمر السيدة بديعة الجمال، فإنها لما اجتمعَتْ بوالدها شهيال أرسلَتِ الجاريةَ تفتِّش على سيف الملوك، فلم تجده، فرجعت إلى سيدتها وقالت: ما وجدتُه في البستان. فأرسلَتْ إلى عَمَلة البستان، وسألَتْهم عن سيف

الملوك، فقالوا: نحن رأيناه قاعدًا تحت شجرة، وإذا بخمسة أشخاص من جماعة الملك الأزرق نزلوا عنده وتحدَّثوا معه، ثم إنهم حملوه وسدُّوا فمه وطاروا به وراحوا. فلما سمعت العجوز ذلك الكلام، لم يهن عليها واغتاظَتْ غيظًا شديدًا، وقامت على أقدامها وقالت لابنها الملك شهيال: كيف تكون ملكًا وتجيء جماعة الملك الأزرق إلى بستاننا، ويأخذون ضيفنا ويروحون به سالمين وأنت بالحياة، وكذلك أمه؟ وصارت تحرِّضه وتقول: لا ينبغي أن يتعدَّى علينا أحد في حياتك. فقال لها: يا أمي، إن هذا الإنسي قتل ابن الملك الأزرق وهو جني، فرماه الله في يده فكيف أذهب وأعاديه من أجل الإنسي؟ فقالت له أمه: اذهبْ إليه واطلبْ منه ضيفنا، فإن كان بالحياة وسلَّمَه إليك فخذه وتعالَ، وإنْ كان قتله فامسكِ الملكَ الأزرق بالحياة هو وأولاده وحريمه، وكل مَن يلوذ به من أتباعه، وائتني بهم بالحياة حتى أذبحهم بيدي وأخرب دياره، وإنْ لم تفعل ما أمرتُك به لا أجعلك في حلٍّ من لبني، والتربية التي ربيتُها لك تكون حرامًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز قالت لابنها شهيال: اذهب إلى الملك الأزرق وانظر سيف الملوك، فإنْ كان باقيًا بالحياة فهاتِه وتعالَ، وإنْ كان قتله فامسِكْه هو وأولاده وحريمه، وكل مَن يلوذ به وائتني بهم بالحياة حتى أذبحهم بيدي، وأخرب ملكه، وإنْ لم تذهب إليه وتفعل ما أمرتك به، فلا أجعلك في حلٍّ من لبني، وتكون تربيتك حرامًا. فعند ذلك قام الملك شهيال وأمر عسكره بالخروج، وتوجَّهَ إليه كرامةً لأمه ورعايةً لخاطرها وخواطر أحبابها ولأجل شيء كان مقدَّرًا في الأزل. ثم إن شهيال سافَرَ بعسكره ولم يزالوا مسافرين حتى وصلوا إلى الملك الأزرق وتلاقى العسكران، فانكسَرَ الملك الأزرق هو وعسكره ومسكوا أولاده كبارًا وصغارًا، وأربابَ دولته وأكابرها، وربطوهم وأحضروهم بين يدي الملك شهيال، فقال له: يا أزرق، أين سيف الملوك الإنسي الذي هو ضيفي؟ فقال له الملك الأزرق: يا شهيال، أنت جني وأنا جني، وهل لأجل إنسي قتَلَ ولدي تفعل هذه الفعال؟ وهو قاتِلُ ولدي وحشاشة كبدي وراحة روحي، وكيف عملتَ هذه الأعمال كلها وأهرقتَ دمَ كذا وكذا ألف جني؟ فقال له: خلِّ عنك هذا الكلام، فإنْ كان هو بالحياة فأحضِرْه وأنا أعتقك وأعتق كلَّ مَن قبضتُ عليه من أولادك، وإنْ كنتَ قتلتَه، فأنا أذبحك أنت وأولادك. فقال له الملك الأزرق: يا ملك، هل هذا أعزُّ عليك من ولدي؟ فقال له الملك شهيال: إن ولدك ظالم لكونه يخطف أولاد الناس وبنات الملوك ويضعهم في القصر المشيد والبئر المعطلة ويفسق فيهم. فقال له الملك الأزرق: إنه عندي، ولكنْ أصلِحْ بيننا وبينه. فأصلح بينهم وخلع عليهم وكتَبَ بين الملك الأزرق وبين سيف الملوك حجةً من جهة قتل ولده، وتسلَّمَه الملك شهيال وضيَّفَهم ضيافةً مليحة، وأقام الملك الأزرق عنده هو وعسكره ثلاثة أيام، ثم أخذ سيف الملوك وأتى به إلى أمه، ففرحَتْ به فرحًا شديدًا، وتعجَّبَ شهيال

من حسن سيف الملوك وكماله وجماله، وحكى له سيف الملوك حكايته من أولها إلى آخِرها وما وقع له مع بديعة الجمال.

ثم إن الملك شهيال قال: يا أمي، حيث رضيت بذلك فسمعًا وطاعةً لكل أمرٍ فيه رضاؤك، فخذيه وروحي به إلى سرنديب، واعملي هناك فرحًا عظيمًا، فإنه شاب مليح وقاسى الأهوال من أجلها. ثم إنها سافرت هي وجواريها إلى أن وصلْنَ إلى سرنديب، ودخلْنَ البستان الذي لأم دولة خاتون، ونظرَتْه بديعة الجمال بعد أن مضين إلى الخيمة واجتمعْنَ، وحدَّثَتْهن العجوز بما جرى له من الملك الأزرق، وكيف كان أشرف على الموت في سجن الملك الأزرق، وليس في الإعادة إفادة. ثم إن الملك سيف الملوك قال له: يا ملك العفو، أنا أطلب منك حاجة وأخاف أن تردَّني عنها خائبًا. فقال له تاج الملوك: والله لو طلبتَ روحي ما منعتُها عنك لما فعلتَ من الجميل. فقال سيف الملوك: أريد أن تزوِّج دولة خاتون بأخي ساعد، حتى نصير كلنا غلمانك. فقال تاج الملوك: سمعًا وطاعة. ثم إنه جمع أكابر دولته ثانيًا، وعقَدَ عَقْدَ بنته دولة خاتون على ساعد، ولما خلصوا من كتب الكتاب نثروا الذهب والفضة، وأمر أن يزيِّنوا المدينة، ثم أقاموا الفرح ودخل سيف الملوك على بديعة الجمال، ودخل ساعد على دولة خاتون في ليلة واحدة. ولم يزل سيف الملوك يختلي ببديعة الجمال أربعين يومًا، فقالت له في بعض الأيام: يا ابن الملك، هل بقي في قلبك حسرة على شيء؟ فقال سيف الملوك: حاش لله، قد قضيتُ حاجتي وما بقي في قلبي حسرة أبدًا، ولكن قصدي الاجتماع بأبي وأمي بأرض مصر، وأنظر هل استمروا طيبين أم لا؟ فأمرَتْ جماعة من خَدَمِها أن يوصِّلوه هو وساعدًا إلى أرض مصر، فوصَّلوهم إلى أهلهم بأرض مصر، واجتمع سيف الملوك بأبيه وأمه، وكذلك ساعد، وقعدا عندهم جمعة، ثم إن كلًّا منهما ودَّعَ أباه وأمه وسارا إلى مدينة سرنديب، وصارا كلما اشتاقا إلى أهلهما يروحان ويرجعان. وعاش سيف الملوك هو وبديعة الجمال في أطيب عيش وأهنأه، وكذلك ساعد مع دولة خاتون، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات، فسبحان الحي الذي لا يموت، وخلق الخلق وقضى عليهم بالموت، وهو أول بلا ابتداء وآخِر بلا انتهاء.

حكاية حسن الصائغ

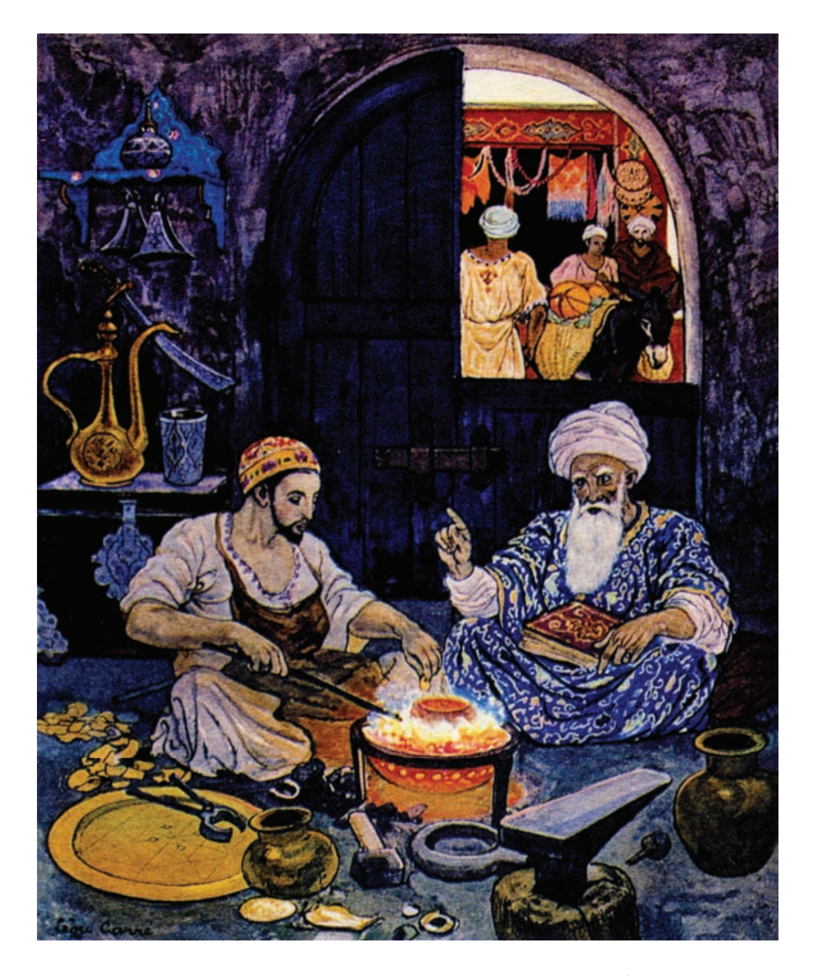
ومما حُكِي أيضًا أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجل تاجر من التجار مقيم بأرض البصرة، وكان ذلك التاجر له وَلَدانِ ذَكَرانِ، وكان عنده مال كثير، فقدَّرَ الله السميع العليم أن التاجر تُوفِّي إلى رحمة الله تعالى وترك تلك الأموال، فأخذ ولداه في

تجهيزه ودفنه، وبعد ذلك اقتسما الأموال بينهما بالسوية، وأخذ كل واحد منهما قسمه وفتحا لهما دكَّانَيْن؛ أحدهما نحَّاس، والثاني صائغ، فبينما الصائغ جالسٌ في دكانه يومًا من الأيام، إذا برجل أعجمي ماشٍ في السوق بين الناس، حتى مر على دكان الولد الصائغ، فنظر إلى صنعته وتأمَّلَها بمعرفته فأعجَبَتْه، وكان اسم الولد الصائغ حسن، فهزَّ الأعجمي رأسه وقال: والله إنك صائغ مليح. وصار ينظر إلى صناعته وهو ينظر إلى كتاب عتيق كان بيده والناس مشغولون بحُسْنه وجماله وقدِّه واعتداله، فلما كان وقت العصر خلَتِ الدكان من الناس، فعند ذلك أقبَلَ الرجل الأعجمي عليه وقال له: يا ولدي، أنت شابٌّ مليح، ما هذا الكتاب؟ وأنا ما لي ابن، وقد عرفت صنعةً ما في الدنيا أحسن منها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٧٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجمي لما أَقبَلَ على حسن الصائغ قال له: يا ولدي، أنت شاب مليح، ما هذا الكتاب؟ وأنا ما لي ابن، وقد عرفتُ صنعةً ما في الدنيا أحسَنَ منها، وقد سألني خلقٌ كثير من الناس في شأن تعليمها، فما رضيتُ أن أعلِّمها أحدًا منهم، ولكنْ قد سمحَتْ نفسي أن أعلِّمَك إياها، وأجعلك ولدي وأجعل بينك وبين الفقر حجابًا، وتستريح من هذه الصنعة والتعب في المطرقة والفحم والنار. فقال له حسن: يا سيدي، ومتى تعلِّمني؟ فقال: في غدٍ آتيك وأصنعُ لك من النحاس ذهبًا خالصًا بحضرتك. ففرح حسن وودَّع الأعجمي وسار إلى والدته، فدخل وسلَّمَ عليها وأكل معها وهو مدهوش بلا وعي ولا عقل، فقالت له أمه: ما بالك يا ولدي؟ احذرْ أن تسمع كلامَ الناس، خصوصًا الأعجام فلا تطاوِعْهم في شيء، فإن هؤلاء غشَّاشون يعملون صنعة الكيمياء، وينصبون على الناس ويأخذون أموالهم ويأكلونها بالباطل. فقال لها: يا أمي، نحن ناس فقراء وما عندنا شيء يطمع فيه حتى ينصب علينا، وقد جاءني رجل أعجمي لكنه شيخ صالح عليه أَثَرُ الصلاح، وإنما هو قد حنَّنَه الله عليَّ. فسكتَتْ أمه على غيظ، وصار ولدها مشغول القلب ولم يأخذه نومٌ في تلك الليلة من شدة فرحه بقول الأعجمي له.

فلما أصبح الصباح قام وأخذ المفاتيح وفتح الدكان، وإذا بالأعجمي قد أقبَلَ عليه، فقام له وأراد حسن أن يقبِّل يدَيْه، فامتنع ولم يرضَ بذلك وقال: يا حسن، عمِّرِ البودقة، وركِّبِ الكير. ففعل ما أمره به الأعجمي وأوقَدَ الفحم، فقال له الأعجمي: يا ولدي، هل عندك نحاس؟ قال: عندي طبق مكسور. فأمره أن يتكئ عليه بالكاز ويقطِّعه قطعًا صغارًا، ففعل كما قال له وقطَّعه قطعًا صغارًا، ورماه في البودقة ونفخ عليه بالكير حتى صار ماءً، فمدَّ الأعجمي يده إلى عمامته وأخرَجَ منها ورقةً ملفوفةً وفتحها وذرَّ منها



فقطَّع النحاسَ قِطَعًا صِغارًا ورماه في البودَقة ونفَخَ عليه.

شيئًا في البودقة مقدار نصف درهم، وذلك الشيء يشبه الكحل الأصفر، وأمَرَ حَسَنًا أن ينفخ عليه بالكير، ففعل مثل ما أمره حتى صار سبيكة ذهب، فلما نظر حسن إلى ذلك اندهش وتحيَّرَ عقله من الفرح الذي حصل له، وأخذ السبيكة وقلبها، وأخذ المبرد وبردها؛ فرآها ذهبًا خالصًا من عال العال، فطار عقله واندهش من شدة الفرح، ثم انحنى على يد الأعجمي ليقبِّلها، فقال له: خذْ هذه السبيكة وانزلْ بها إلى السوق وبِعْها واقبضْ ثمنَها

سريعًا ولا تتكلم. فنزل حسن إلى السوق وأعطى السبيكة إلى الدلَّال، فأخذها منه وحكَّها فوجدها ذهبًا خالصًا، ففتحوا بابها بعشرة آلاف درهم، وقد تزايَدَ فيها التجار فباعها بخمسة عشر ألف درهم، وقبض ثمنها ومضى إلى البيت وحكى لأمه جميع ما فعل، وقال لأمه: يا أمي، إني قد تعلَّمْتُ هذه الصنعة. فضحكَتْ عليه وقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا الصائغ لما حكى لأمه ما فعل الأعجمي، وقال لها: إني قد تعلَّمْتُ هذه الصنعة. قالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وسكتَتْ على غيظ منها. ثم إن حسنًا أخذ من جهله هونًا وذهب به إلى الأعجمي وهو قاعد في الدكان ووضعه بين يديه، فقال له: يا ولدي، ما تريد أن تصنع بهذا الهون؟ قال: نُدخِله النارَ ونعمله سبائك ذهب. فضحك الأعجمي وقال له: يا ولدي، هل أنت مجنون حتى تنزل السوق بسبيكتين في يوم واحد؟ أَمَا تعلم أن الناس يُنكِرون علينا وتروح أرواحنا؟ ولكنْ يا ولدي إذا علَّمْتُك هذه الصنعة لا تعملها في السنة إلا مرة واحدة، فهي تكفيك من السنة إلى السنة. قال: صدقتَ يا سيدي. ثم إنه قعد في الدكان وركب البودقة، ورمى الفحم في النار، فقال له الأعجمي: يا ولدي، ماذا تريد؟ قال: علِّمني هذه الصنعة. فضحك الأعجمي وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أنت يا ابني قليل العقل ما تصلح لهذه الصنعة قطُّ، هل أحدٌ في عمره يتعلَّم هذه الصنعة على قارعة الطريق أو في الأسواق؟ فإنِ اشتغلنا بها في هذا المكان يقول الناس علينا إن هؤلاء يصنعون الكيمياء، فتسمع بنا الحكَّام فتروح أرواحنا، فإنْ كنتَ يا ولدي تريد أن تتعلم هذه الصنعة، فاذهبْ معي إلى بيتي. فقام حسن وأغلَقَ الدكان وتوجَّهَ مع الأعجمي، فبينما هو في الطريق إذ تذكَّرَ قولَ أمه وحسب في نفسه ألف حساب، ووقف وأطرَقَ برأسه إلى الأرض ساعة زمانية، فالتفَتَ الأعجمي فرآه واقفًا، فضحك وقال له: هل أنت مجنون؟ كيف أُضمِرُ لك في قلبي الخيرَ وأنت تحسب أني أضرك؟ ثم قال له الأعجمي: إنْ كنتَ خائفًا من ذهابك معي إلى بيتي، فأنا أروح معك إلى بيتك وأعلِّمك هناك. فقال له حسن: نعم يا عم. فقال له: امشِ قدامي. فسار حسن قدامه إلى منزله، وسار الأعجمي خلفه إلى أن وصل منزلَه، فدخل حسن إلى

داره فوجد والدته، فأعلَمَها بحضور الأعجمي معه والأعجمي واقف على الباب، ففرشت لهما البيت ورتَّبَتْه، فلما فرغت من أمرها راحت، ثم إنَّ حَسَنًا أَذِنَ للأعجمي أن يدخل فدخل.

ثم إن حسنًا أخذ في يده طبقًا وذهَبَ به إلى السوق ليجيء فيه بشيء يأكله، فخرج وجاء بأكل وأحضَرَه بين يدَيْه وقال له: كُلْ يا سيدي لأجل أنْ يصير بيننا خبز وملح، والله تعالى ينتقم ممَّن يخون الخبز والملح. فقال له: صدقتَ يا ولدي. ثم تبسَّمَ وقال: يا ولدي، مَن يعرف قدر الخبز والملح؟ ثم تقدَّمَ الأعجمي وأكل مع حسن حتى اكتفيا، ثم قال له الأعجمي: يا ولدي يا حسن، هات لنا شيئًا من الحلوى. فمضى حسن إلى السوق وأحضَرَ عشر قبات من الحلوى، وفرح حسن بكلام الأعجمي. فلما قدَّمَ له الحلوى أكل منها وأكل معه حسن، ثم قال له الأعجمي: جزاك الله خيرًا يا ولدي، مثلك مَن يصاحبه الناس ويُظهِرونه على أسرارهم ويعلِّمونه ما ينفعه. ثم قال الأعجمي: يا حسن، أحضِرِ العدَّة. فما صدق حسن بهذا الحديث، وقد خرج مثل المهر إذا انطلق من الربيع حتى أتى إلى الدكان، وأخذ العدَّة ورجع ووضعها بين يدَيْه، فأخرَجَ الأعجمي قرطاسًا من الورق وقال: يا حسن، وحق الخبز والملح لولا أنت أعز من ولدي ما أطلعتُك على هذه الصنعة، وما بقي معي شيء من هذا الإكسير إلا هذا القرطاس، ولكنْ تأمَّلْ حين أركِّب العقاقير وأضعها قدامك، واعلم يا ولدي يا حسن أنك تضع على كل عشرة أرطال نحاسًا نصفَ درهم من هذا الذي في الورقة، فتصير العشرة أرطال ذهبًا خالصًا إبريزًا. ثم قال له: يا ولدي يا حسن، إن في هذه الورقة ثلاثة أوراق بالوزن المصري، وبعد أن يفرغ ما في هذه الورقة أعمل لك غيره. فأخذ حسن الورقة، فرأى فيها شيئًا أصفر أنعَمَ من الأول، فقال: يا سيدي، ما اسم هذا؟ وأين يوجد؟ وفي أي شيء يعمل؟ فضحك الأعجمي وطمع في حسن وقال له: عن أي شيء تسأل؟ اعمل وأنت ساكت. وأخرَجَ طاسة من البيت وقطعها وألقاها في البودقة، ورمى عليها قليلًا من الذي في الورقة، فصارت سبيكة من الذهب الخالص.

فلما رأى حسن ذلك فرح فرحًا شديدًا، وصار متحيرًا في عقله مشغولًا بتلك السبيكة، فأخرج الأعجمي صرةً من رأسه بسرعة وقطعها ووضعها في قطعة من الحلوى وقال له: يا حسن، أنت بقيتَ ولدي وصرتَ عندي أعزَّ من روحي ومالي، وعندي بنت أزوِّجُكَ بها. فقال حسن: أنا غلامك، ومهما فعلتَه معي كان عند الله تعالى. فقال الأعجمي: يا ولدي، طوِّلْ بالك وصبِّرْ نفسك فيحصل لك الخير. ثم ناوَلَه القطعة الحلوى، فأخذها وقبَّلَ يده

ووضعها في فمه وهو لا يعلم ما له في الغيب، ثم بلع القطعة الحلوى فسبقت رأسه رجلَيْه، وغاب عن الدنيا؛ فلما رآه الأعجمي وقد حلَّ به البلاء، فرح فرحًا شديدًا وقام على أقدامه، وقال له: وقعتَ يا علق يا كلب العرب، لي أعوام كثيرة أفتِّش عليك حتى حصلتُك يا حسن. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا الصائغ لما أكل القطعة الحلوى التي أعطاها له الأعجمي ووقع منها على الأرض مغشيًّا عليه، فرح الأعجمي وقال له: لي أعوام كثيرة وأنا أفتِّش عليك حتى حصلتك. ثم إن الأعجمي شدَّ وسطه وكتَّفَ حسنًا وربط رجلَيْه على يدَيْه، وأخذ صندوقًا وأخرَجَ منه الحوائج التي كانت فيه، ووضع حسنًا فيه وقفله عليه، وفرَّغَ صندوقًا آخَر وحطَّ فيه جميع المال الذي عند حسن، وسبائك الذهب التي عملها أولًا وثانيًا وقفله، ثم خرج يجري إلى السوق، وأحضَرَ حمَّالًا حمل الصندوقين، وتقدَّمَ إلى المركب الرأسية، وكانت تلك المركب مهيَّأة للأعجمي، وريسها منتظر له، فلما نظرته بحريتها أتوا إليه وحملوا الصندوقين ووضعوهما في المركب، وصرخ الأعجمي على الريس وعلى جميع البحرية وقال لهم: قوموا قد انقضَتِ الحاجة، وبلغنا المراد. فصرخ الريس على البحرية وقال لهم: أقلعوا المراسي وحلوا القلوع. وسارت المركب بريح طيبة.

هذا ما كان من أمر الأعجمي وحسن، وأما ما كان من أمر أم حسن، فإنها انتظرته إلى العشاء فلم تسمع له صوتًا ولا خبرًا جملة كافية، فجاءت إلى البيت فرأته مفتوحًا ولم تَرَ فيه أحدًا ولم تجد الصناديق ولا المال، فعرفَتْ أن ولدها قد فُقِد ونفذ فيه القضاء، فلطمَتْ على وجهها وشقَّتْ أثوابَها، وصاحت وولولت وصارت تقول: وا ولداه! وا ثمرة فؤاداه! ثم أنشدت هذه الأبيات:

لَقَدْ قَلَّ صَبْرِي ثُمَّ زَادَ تَمَلْمُلِي ... وَزَادَ نَحِيبِي بَعْدَكُمْ وَتَعَلُّلِي
وَلَا صَبْرَ لِي وَاللهِ بَعْدَ فِرَاقِكُمْ ... وَكَيْفَ اصْطِبَارِي بَعْدَ فُرْقَةِ مَأْمَلِي
وَبَعْدَ حَبِيبِي كَيْفَ أَلْتَذُّ بِالْكَرَى ... وَمَنْ ذَا الَّذِي يَهْنَى بِعَيْشِ التَّذَلُّلِ

رَحَلْتَ فَأَوْحَشْتَ الدِّيَارَ وَأَهْلَهَا وَكَدَّرْتَ مِنْ صَفْوِي مَشَارِبَ مَنْهَلِي
وَكُنْتَ مُعِينِي فِي الشَّدَائِدِ كُلِّهَا وَعِزِّي وَجَاهِي فِي الْوَرَى وَتَوَسُّلِي
فَلَا كَانَ يَوْمٌ كُنْتَ فِيهِ مُبَاعَدًا عَنِ الْعَيْنِ إِلَّا أَنْ أَرَاكَ تَعُودُ لِي

ثم إنها صارت تبكي وتنوح إلى الصباح، فدخل عليها الجيران وسألوها عن ولدها، فأخبرتهم بما جرى له مع الأعجمي، واعتقدَتْ أنها لا تراه بعد ذلك أبدًا، وجعلت تدور في البيت وتبكي. فبينما هي دائرة في البيت إذ رأت سطرين مكتوبين على الحائط، فأحضرَتْ فقيهًا فقرأهما لها، فإذا فيهما:

سَرَى طَيْفُ لَيْلِي عِنْدَمَا غَلَبَ الْكَرَى سُحَيْرًا وَصَحْبِي فِي الْفَلَاةِ رُقُودُ
فَلَمَّا انْتَبَهْنَا لِلْخَيَالِ الَّذِي سَرَى بَدَا الْجَوُّ قَفْرًا وَالْمَزَارُ بَعِيدُ

فلما سمعت أم حسن هذه الأبيات صاحت وقالت: نعم يا ولدي، إن الدار قفراء والمزار بعيد. ثم إن الجيران ودَّعوها بعد أن دعوا لها بالصبر وجمع الشمل قريبًا وانصرفوا، ولم تزل أم حسن تبكي آناء الليل وأطراف النهار، وبَنَتْ في وسط البيت قبرًا، وكتبَتْ عليه اسم حسن وتاريخ فقده، وكانت لا تفارق ذلك القبر، ولم يزل ذلك دأبها من حين فارَقَها ولدها. هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر ولدها حسن مع الأعجمي، فإن الأعجمي كان مجوسيًّا، وكان يبغض المسلمين كثيرًا، وكلما قدر على أحد من المسلمين يهلكه، وهو خبيث لئيم كيماوي كما قال فيه الشاعر:

هُوَ الْكَلْبُ وَابْنُ الْكَلْبِ وَالْكَلْبُ جَدُّهُ وَلَا خَيْرَ فِي كَلْبٍ تَنَاسَلَ مِنْ كَلْبِ

وكان اسم ذلك الملعون بهرام المجوسي، وكان له في كل سنة واحد من المسلمين يأخذه ويذبحه على مطلب، فلما تمَّتْ حيلته على حسن الصائغ، وسار به من أول النهار إلى الليل، رست المركب على برٍّ إلى الصباح، فلما طلعت الشمس وسارت المركب، أمر الأعجمي عبيده وغلمانه أن يحضروا له الصندوق الذي فيه حسن فأحضروه له، ففتحه وأخرَجَه منه ونشقه بالخل ونفخ في أنفه ذرورًا فعطس وتقايا البنج، وفتح عينيه ونظر يمينًا وشمالًا، فوجد نفسه في وسط البحر والمركب سائرة والأعجمي قاعد عنده؛ فعلم أنها حيلةٌ عُمِلت عليه قد عملها الملعون المجوسي، وأنه وقع في الأمر الذي كانت أمه تحذِّره منه، فقال كلمةً لا يخجل قائلُها وهي: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون،

اللهم الطُفْ بي في قضائك، وصبِّرْني على بلائك يا رب العالمين. ثم التفت إلى الأعجمي وكلَّمَه بكلام رقيق، وقال له: يا والدي، ما هذه الفعال؟ وأين الخبز والملح واليمين التي حلفتَها لي؟ فنظر إليه وقال له: يا كلب، هل مثلي يعرف خبزًا وملحًا؟ وأنا قد قتلتُ مثلَك ألفَ صبي إلا صبيًّا، وأنت تمام الألف. وصاح عليه، فسكت وعلم أن سهم القضاء نفذ فيه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما رأى نفسه وقع مع الأعجمي الملعون، كلَّمَه بكلام رقيق فلم يَفِدْه، بل صاح عليه، فسكَتَ وعلم أن سهم القضاء نفذ فيه، فعند ذلك أمر الملعون بحلِّ كتافه، ثم سقوه قليلًا من الماء والمجوسي يضحك ويقول: وحق النار والنور، والظل والحرور، ما كنتُ أظنُّ أنك تقع في شبكتي، ولكن النار قوَّتْني عليك وأعانَتْني على قبضك حتى أقضي حاجتي وأرجع وأجعلك قربانًا لها حتى ترضى عني. فقال حسن: قد خنتَ الخبز والملح. فرفع المجوسي يده وضربه ضربة، فوقع وعضَّ الأرضَ بأسنانه وغُشِي عليه وجرت دموعه على خده. ثم أمر المجوسي أن يوقدوا له نارًا، فقال له حسن: ما تصنع بها؟ فقال له: هذه النار صاحبة النور والشرر، وهي التي أعبدها، فإنْ كنتَ تعبدها مثلي فأنا أعطيك نصفَ مالي وأزوِّجك بنتي. فصاح حسن عليه وقال له: ويلك، إنما أنت مجوسي كافر تعبد النار دون المَلِك الجبَّار، خالق الليل والنهار، وما هذه إلا مصيبة في الأديان. فعند ذلك غضب المجوسي، وقال: أَمَا توافقني يا كلب العرب وتدخل في ديني؟ فلم يوافقه حسن على ذلك، فقام المجوسي الملعون وسجَدَ للنار وأمر غلمانه أن يرموا حسنًا على وجهه، فرموه على وجهه، وصار المجوسي يضربه بسوط مضفور من جلد حتى شرَّح جوانبه وهو يستغيث فلا يُغاث، ويستجير فلا يُجِيره أحد، فرفع طرفه إلى المَلِك القهَّار، وتوسَّلَ إليه بالنبي المختار، وقد عُدِم الاصطبار، وجرت دموعه على خدَّيْه كالأمطار، وأنشد هذين البيتين:

صَبْرًا لِحُكْمِكَ يَا إِلَهِي فِي الْقَضَا — أَنَا صَابِرٌ إِنْ كَانَ فِي هَذَا رِضَا
جَارُوا عَلَيْنَا وَاعْتَدَوْا وَتَحَكَّمُوا — فَعَسَاكَ بِالْإِحْسَانِ تَغْفِرُ مَا مَضَى

ثم إن المجوسي أَمَرَ العبيد أن يُقعِدوه، وأمر أن يأتوا إليه بشيء من المأكول والمشروب، فأحضروه فلم يرضَ أن يأكل ولا يشرب، وصار المجوسي يعذِّبه ليلًا ونهارًا مسافة الطريق وهو صابر يتضرَّع إلى الله عز وجل، وقد قسا قلب المجوسي عليه، ولم يزالوا سائرين في البحر مدة ثلاثة أشهر، وحسن معه في العذاب، فلما كملت الثلاثة أشهر أرسَلَ الله تعالى على المركب ريحًا، فاسودَّ البحر وهاج بالمركب من كثرة الريح، فقال الريس والبحرية: هذا والله كله ذنب هذا الصبي الذي له ثلاثة أشهر في العقوبة مع هذا المجوسي، وهذا ما يحل من الله تعالى. ثم إنهم قاموا على المجوسي وقتلوا غلمانه وكلَّ مَن معه، فلما رآهم المجوسي قتلوا الغلمان أيقَنَ بالهلاك وخاف على نفسه، وحلَّ حَسَنًا من كتافه وقلعه ما كان عليه من الثياب الرثَّة وألبَسَه غيرها وصالَحَه، ووعده أن يعلِّمه الصنعةَ ويردَّه إلى بلده، وقال له: يا ولدي، لا تؤاخذني بما فعلتُ معك. فقال له حسن: كيف بقيت أركنُ إليك؟ فقال له: يا ولدي، لولا الذنب ما كانت المغفرة، وأنا ما فعلتُ معك هذه الفعال إلا لأجل أن أنظر صبرك، وأنت تعلم أن الأمر كله بيد الله. ففرحت البحرية والريس بخلاصه، ودعا لهم حسن وحمد الله تعالى وشكره، فسكنت الرياح وانكشفت الظلمة، وطاب الريح والسفر.

ثم إن حَسَنًا قال للمجوسي: يا أعجمي، إلى أين تتوجه؟ قال: يا ولدي، أتوجَّه إلى جبل السحاب الذي فيه الإكسير الذي نعمله كيميائيًّا. وحلف له المجوسي بالنار والنور أنه ما بقي لحسن عنده ما يُخِيفه، فطاب قلب حسن وفرح بكلام المجوسي وصار يأكل معه ويشرب وينام ويلبسه من ملبوسه، ولم يزالوا مسافرين مدة ثلاثة أشهر أُخَر، وبعد ذلك رست المركب على بر طويل كله حصًى أبيض وأصفر وأزرق وأسود، وغير ذلك من جميع الألوان، فلما رست المركب نهض الأعجمي قائمًا وقال: يا حسن، قُمِ اطلع فإننا قد وصلنا إلى مطلوبنا ومرادنا. فقام حسن وطلع مع الأعجمي وأوصى المجوسي الريس على مصالحه، ثم مشى حسن مع المجوسي إلى أنْ بعدَا عن المركب وغابا عن الأعين، ثم قعد المجوسي وأخرَجَ من جيبه طبلًا نحاسًا وزخمة من حرير منقوشة بالذهب وعليها طلاسم، وضرب الطبل، فلما فرغ ظهرت غبرة من ظهر البرية، فتعجَّبَ حسن من فعله وخاف منه، وندم على طلوعه معه وتغيَّرَ لونه، فنظر إليه المجوسي وقال له: ما لك يا ولدي؟ وحق النار والنور ما بقي عليك خوف مني، ولولا أن حاجتي ما تُقضَى إلا على اسمك ما كنتُ أطلعتك من المركب، فأبشِرْ كلَّ خير، وهذه الغبرة غبرة شيء نركبه، فيُعِيننا على قطع هذه البرية، ويسهِّل علينا مشقتَها. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الأعجمي قال: إن هذه الغبرة غبرة شيء نركبه، فيعيننا على قَطْع هذه البرية ويسهِّل علينا مشقتَها، فما كان إلا قليل حتى انكشفت الغبرة عن ثلاث نجائب؛ فركب الأعجمي واحدة، وركب حسن واحدة، وحملا زادهما على الثالثة، وسارا سبعة أيام، ثم انتهيا إلى أرض واسعة، فلما نزلا في تلك الأرض نظرا إلى قبة معقودة على أربعة أعمدة من الذهب الأحمر، فنزلا من فوق النجائب ودخلا تحت القبة وأكلا وشربا واستراحا، فلاحت التفاتة من حسن فرأى شيئًا عاليًا، فقال له حسن: ما هذا يا عم؟ فقال المجوسي: هذا قصر. فقال له حسن: أَمَا تقوم ندخله لنستريح فيه ونتفرج عليه؟ فذهب المجوسي وقال له: لا تذكر لي هذا القصر، فإن فيه عدوي ووقعَتْ لي حكاية ليس هذا وقت إخبارك بها. ثم دق الطبل فأقبلَتِ النجائب، فركبا وسارا سبعة أيام، فلما كان اليوم الثامن قال المجوسي: يا حسن، ما الذي تنظره؟ فقال حسن: أنظر سحابًا وغمامًا بين المشرق والمغرب. فقال له المجوسي: ما هذا سحاب ولا غمام، وإنما هو جبل عظيم شاهق ينقسم عليه السحاب، وليس هناك سحاب يكون فوقه من فرط علوِّه وعِظَم ارتفاعه، وهذا الجبل هو المقصود لي وفوقه حاجتنا، ولأجل هذا جئتُ بك معي وحاجتي تُقضَى على يديك. فعند ذلك يَئِس حسن من الحياة، ثم قال للمجوسي: بحق معبودك، وبحق ما تعتقده من دينك، أي شيءٍ الحاجةُ التي جئتَ بي من أجلها؟ فقال له: إن صنعة الكيمياء لا تصلح إلا بحشيش ينبت في المحل الذي يمر به السحاب وينقطع عليه، وهو هذا الجبل، والحشيش فوقه، فإذا حصلنا الحشيش أُرِيك أي شيء هذه الصنعة. فقال له حسن من خوفه: نعم يا سيدي. وقد

يئس من الحياة، وبكى لفراق أمه وأهله ووطنه، وندم على مخالفته أمه وأنشد هذين البيتين:

تَأَمَّلْ صُنْعَ رَبِّكَ كَيْفَ تَأْتِي لَكَ السَّرَّاءُ مَعْ فَرَجٍ قَرِيبِ
وَلَا تَيْأَسْ إِذَا مَا نِلْتَ خَطْبًا فَكَمْ فِي الْخَطْبِ مِنْ لُطْفٍ عَجِيبِ

ولم يزالوا سائرين إلى أن وصلا إلى ذلك الجبل ووقفا تحته، فنظر حسن فوق ذلك الجبل قصرًا، فقال للمجوسي: ما هذا القصر؟ فقال المجوسي: هذا مسكن الجان والغيلان والشياطين. ثم إن المجوسي نزل من فوق نجيبه وأمره بالنزول، وقام إليه وقبَّلَ رأسه وقال: لا تؤاخذني بما فعلتُه معك، فأنا أحفظك عند طلوعك القصر، وينبغي أنك لا تخونني في شيء من الذي تحضره منه، وأكون أنا وأنت فيه سواء. فقال له: السمع والطاعة. ثم إن الأعجمي فتح جرابًا وأخرَجَ منه طاحونًا وأخرَجَ منه أيضًا مقدارًا من القمح وطحنه على تلك الطاحون، وعجن منه ثلاثة أقراص، وأوقَدَ النار وخبز الأقراص، ثم أخرَجَ الطبل النحاس والزخمة المنقوشة ودقَّ الطبل، فحضرت النجائب، فاختار منها نجيبًا وذبحه وسلخ جلده، ثم التفت إلى حسن وقال له: اسمع يا ولدي يا حسن ما أوصيك به. قال: نعم. قال: ادخل في هذا الجلد وأخيط عليك وأطرحك على الأرض، فتأتي طيور الرخم فتحملك وتطير بك إلى أعلى الجبل، وخذ هذه السكين معك، فإذا فرغَتْ من طيرانها وعرفتَ أنها حطَّتْك فوقه، فشُقَّ بها الجلد واخرجْ فإن الطير يخاف منك ويطير عنك، وطل لي من فوق الجبل وكلِّمني حتى أخبرك بالذي تعمله. ثم هيَّأَ له الثلاثة أقراص وركوة فيها ماء وحطَّها معه في الجلد، وبعد ذلك خيَّطه عليه، ثم بَعُد عنه، فجاء طير الرخم حمله وطار به إلى أعلى الجبل ووضعه هناك، فلما عرف حسن أن الرخم وضعه على الجبل، شقَّ الجلد وخرج منه وكلَّمَ المجوسي، فلما سمع المجوسي كلامه فَرِح ورقص من شدة الفرح وقال له: امضِ إلى ورائك ومهما رأيتَه فأعلمني به. فمضى حسن فرأى رممًا كثيرة وعندهم حطب كثير، فأخبره بجميع ما رآه، فقال له: هذا هو المقصود والمطلوب، فخذ من الحطب ستَّ حزم وارْمِها لي، فإنها هي التي نعملها كيمياء. فرمى له الست حزم، فلما رأى المجوسي تلك الحزم قد وصلت عنده قال لحسن: يا علق، قد انقضت الحاجة التي أردتُها منك، وإنْ شئتَ فدُمْ على هذا الجبل أو أَلْقِ نفسك على الأرض حتى تهلك. ثم مضى المجوسي، فقال حسن: لا حول ولا قوة

إلا بالله العلي العظيم، قد مكر بي هذا الكلب. ثم قعد ينوح على نفسه وأنشَدَ هذه الأبيات:

إِذَا أَرَادَ اللـهُ أَمْـرًا بِـامْـرِئٍ   وَكَانَ ذَا عَقْلٍ وَسَمْعٍ وَبَصَرْ
أَصَـمَّ أُذْنَـيْهِ وَأَعْـمَـى قَـلْـبَـهُ   وَسَلَّ مِنْهُ عَقْلَهُ سَلَّ الشَّعَرْ
حَـتَّى إِذَا أَنْفَذَ فِيهِ حُكْمَهُ   رَدَّ إِلَـيْـهِ عَـقْـلَـهُ لِـيَـعْـتَـبِـرْ
فَلَا تَقُلْ فِيمَا جَرَى كَيْفَ جَرَى   فَـكُـلُّ شَـيْءٍ بِـقَـضَـاءٍ وَقَـدَرْ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن المجوسي لما طلع حسن الجبل ورمى له حاجته من فوقه وبَّخَه، ثم تركه وسار، فقال حسن: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قد مكر بي هذا الكلب الملعون. ثم إنه وقف على قدميه والتفَتَ يمينًا وشمالًا، ثم مضى فوق الجبل وأيقَنَ في نفسه بالموت، وصار يتمشى حتى وصل إلى الطرف الآخَر من الجبل، فرأى بجنب الجبل بحرًا أزرق متلاطِمَ الأمواج قد أزبَدَ، وكل موجة منه كالجبل العظيم؛ فقعد وقرأ ما تيسَّرَ من القرآن، وسأل الله تعالى أن يهوِّن عليه، إما بالموت وإما بالخلاص من هذه الشدائد، ثم صلى على نفسه صلاةَ الجنازة ورمى نفسه في البحر، فحملته الأمواج على سلامة الله تعالى إلى أن طلع من البحر سالمًا بقدرة الله تعالى؛ ففرح وحمد الله تعالى وشكره، ثم قام يمشي ويفتِّش على شيء يأكله، فبينما هو كذلك وإذا هو بالمكان الذي كان فيه هو وبهرام المجوسي، ثم مشى ساعة فإذا هو بقصرٍ عظيم شاهق في الهواء فدخله، فإذا هو القصر الذي كان سأل عنه المجوسيَّ وقال له: إن هذا القصر فيه عدوى. فقال حسن: والله لا بد من دخولي هذا القصر، لعل الفرج يحصل لي فيه. فلما جاءه رأى بابه مفتوحًا، فدخل من الباب فرأى مصطبة في الدهليز، وعلى المصطبة بنتان كالقمرين بين أيديهما رقعة شطرنج، وهما يلعبان، فرفعت واحدة منهما رأسها إليه وصاحت من فرحتها وقالت: والله إن هذا آدمي، وأظنه الذي جاء به بهرام المجوسي في هذه السنة. فلما سمع حسن كلامها، رمى نفسه بين أيديهما وبكى بكاءً شديدًا وقال: يا سيداتي، هو أنا ذلك المسكين. فقالت البنت الصغرى لأختها الكبرى: اشهدي عليَّ يا أختي أن هذا أخي في عهد الله وميثاقه، وأني أموت لموته وأحيا لحياته، وأفرح لفرحه وأحزن لحزنه. ثم قامت له وعانَقَتْه وقبَّلَتْه، وأخذته من يده ودخلت به القصر وأختها معها وقلَّعَتْه ما كان عليه من الثياب الرثَّة، وأَتَتْ له ببدلة من ملابس الملوك وألبَسَتْه إياها وهيَّأت له الطعام من

سائر الألوان وقدَّمَتْه له، وقعدت هي وأختها وأكلتا معه وقالتا له: حدِّثنا بحديثك مع الكلب الفاجر الساحر من حين وقعت في يده إلى حين خَلُصْتَ منه، ونحن نحدِّثك بما جرى لنا معه من أول الأمر إلى آخره، حتى تصير على حذرٍ إذا رأيتَه.

فلما سمع حسن منهما هذا الكلام، ورأى الإقبالَ منهما عليه؛ اطمأنَّتْ نفسه، ورجع له عقله وصار يحدِّثهما بما جرى له معه من الأول إلى الآخِر، فقالتا له: هل سألتَه عن هذا القصر؟ قال: نعم سألتُه فقال لي: لا أحب سيرتَه؛ فإن هذا القصر للشياطين والأبالسة. فغضبَتِ البنتان غضبًا شديدًا وقالتا: هل جعَلَنا هذا الكافرُ شياطينَ وأبالسة؟ فقال لهما حسن: نعم. فقالت الصغيرة أخت حسن: والله لأقتلَنَّه أقبح قِتْلة وأعدِمَنَّه نسيمَ الدنيا. فقال حسن: وكيف تصلين إليه وتقتلينه؟ قالت: هو في بستانٍ يُسمَّى المشيد، ولا بد لي من قتله قريبًا. فقالت لها أختها: صدق حسن وكلُّ ما قاله عن هذا الكلب صحيح، ولكنْ حدِّثِيه بحديثنا كله حتى يبقى في ذهنه. فقالت البنت الصغيرة: اعلم يا أخي أننا من بنات الملوك، وأبونا ملك من ملوك الجان العِظَام الشأن، وله جنود وأعوان وخَدَم من المَرَدة، ورزقه الله تعالى بسبع بنات من امرأة واحدة، ولحقه من الحماقة والغيرة وعزَّة النفس ما لا مزيدَ عليه، حتى إنه لم يزوِّجنا لأحدٍ من الرجال، ثم إنه أحضر وزراءه وأصحابه وقال لهم: هل أنتم تعرفون لي مكانًا لا يطرقه طارق لا من الإنس ولا من الجن، ويكون كثيرَ الأشجار والأثمار والأنهار؟ فقالوا له: ما الذي تصنع به يا ملك الزمان؟ فقال: أريد أن أجعل فيه بناتي السبعة. فقالوا له: يا ملك، يصلح لهن قصرُ جبلِ السحاب الذي كان أنشأه عفريت من الجن المَرَدة الذين تمردوا على عهد سليمان عليه السلام، فلما هلك لم يسكنه أحد بعده لا من الجن ولا من الإنس؛ لأنه منقطع لا يصل إليه أحد، وحوله الأشجار والأثمار والأنهار، وحوله ماء جارٍ أحلى من الشهد وأبرد من الثلج، ما شرب منه أحد به برص أو جذام أو غيرهما إلا عُوفِي من وقته وساعته. فلما سمع والدنا بذلك، أرسلنا إلى هذا القصر، وأرسل معنا العساكر والجنود، وجمع لنا ما نحتاج فيه إليه، وكان إذا أراد الركوب يضرب الطبل، فيحضر له جميع الجنود، فيختار ما يركبه منهم وينصرف الباقون، فإذا أراد والدنا أننا نحضر عنده، أمر أتباعه من السَّحَرة بإحضارنا، فيأتوننا ويأخذوننا ويوصلوننا بين يدَيْه حتى يأتنس بنا ونقضي أغراضنا منه، ثم يرجعوننا إلى مكاننا، ونحن لنا خمس أَخَوات ذهبْنَ يتصيَّدْنَ في هذه الفَلَاة، فإن فيها من الوحوش ما لا يُعَد ولا يُحصَى، وكل اثنتين منا عليهما نوبة في القعود لتسوية الطعام، فجاءت النوبة علينا أنا وأختي هذه، فقعدنا لنسوِّي لهنَّ الطعام، وكنا نسأل الله سبحانه وتعالى

أن يرزقنا شخصًا آدميًّا يؤانسنا، فالحمد لله الذي أوصَلَك إلينا، فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، ما عليك بأس.

ففرح حسن وقال: الحمد لله الذي هدانا إلى طريق الخلاص وحنَّنَ علينا القلوب. ثم قامت وأخذته من يده وأدخَلَتْه مقصورةً وأخرجت منها من القماش والفرش ما لا يقدر عليه واحد من المخلوقات، ثم بعد ساعة حضر أَخَواتهما من الصيد والقنص، فأخبرتاهن بحديثِ حسن، ففرحْنَ به ودخلْنَ عليه في المقصورة وسلَّمْنَ عليه وهنَّيْنَه بالسلامة. ثم أقام عندهن في أطيب عيش وأهنى سرور، وصار يخرج معهن إلى الصيد والقنص ويذبح الصيد واستأنَسَ حسن بهن، ولم يزل معهن على هذه الحالة حتى صحَّ جسده وبرئ من الذي كان به، وقوي جسمه، وغلظ وسمن بسبب ما هو فيه من الكرامة، وقعوده عندهن في ذلك الموضع، وهو يتفرج ويتفسَّح معهن في ذلك القصر المزخرف وفي جميع البساتين والأزهار، وهنَّ يأخذْنَ بخاطره ويؤانِسْنَه بالكلام، وقد زالت عنه الوحشة وزادت البنات به فرحًا وسرورًا، وكذلك هو فرِحَ بهن أكثر ممَّا فرحْنَ به. ثم إن أخته الصغيرة حدَّثَتْ أَخَواتها بحديث بهرام المجوسي، وأنه جعلهن شياطين وأبالسة وغيلانًا، فحلفْنَ لها أنه لا بد من قتله. فلما كان العام الثاني، حضر الملعون ومعه شاب مليح مسلم كأنه القمر، وهو مقيد بقيد ومعذَّب غاية العذاب، فنزل به تحت القصر الذي دخل فيه حسن على البنات، وكان حسن جالسًا على النهر تحت الأشجار، فلما رآه حسن خفق قلبه وتغيَّرَ لونه وضرب بكفَّيْه. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا الصائغ لما رأى المجوسي، خفق قلبه وتغيَّرَ لونه وضرب بكفَّيْه، وقال للبنات: بالله يا أَخَواتي، أَعِنَّني على قتل هذا الملعون، فها هو قد حضر في قبضتكن ومعه شاب مسلم أسير من أولاد الناس الأكابر، وهو يعذِّبه بأنواع العذاب الأليم، وقصدي أن أقتله وأشفي فؤادي منه، وأُرِيح هذا الشاب من عذابه وأربح الثواب، ويرجع الشاب المسلم إلى وطنه، فيجتمع شمله مع إخوانه وأهله وأحبابه، ويكون ذلك صدقةً عنكن وتفزْنَ بالأجر من الله تعالى. فقال له البنات: السمع والطاعة لله ولك يا حسن. ثم إنهن ضربن لهن لثامات ولبسن آلات الحرب، وتقلَّدْنَ السيوف، وأحضرْنَ لحسن جوادًا من أحسن الخيل، وهيَّأْنَه بعُدَّةٍ كاملة وسلَّحْنَه سلاحًا مليحًا، ثم ساروا جميعًا؛ فوجدوا المجوسي قد ذبح جملًا وسلخه وهو يعاقب الشاب ويقول له: ادخل هذا الجلد. فجاء حسن من خلفه والمجوسي ما عنده علم به، ثم صاح عليه فأذهَلَه، ثم تقدَّمَ إليه وقال له: أمسِكْ يدك يا ملعون، يا عدو الله وعدو المسلمين، يا كلب يا غدَّار، يا عابد النار يا سالك طريق الفجَّار، أتعبد النار والنور وتقسم بالظل والحرور؟! فالتفَتَ المجوسي فرأى حَسَنًا، فقال له: يا ولدي، كيف تخلصتَ؟ ومَن أنزَلَك إلى الأرض؟ فقال له حسن: خلَّصَني الله الذي جعل قبض روحك على يد أعدائك، كما عذَّبْتَني طولَ الطريق يا كافر يا زنديق، قد وقعت في الضيق، وزغت عن الطريق، فلا أم تنفعك ولا أخ ولا صديق ولا عهد وثيق. إنك قلت: مَن يخون العيش والملح ينتقم الله منه. وأنت خنت الخبز والملح، فأوقَعَك الله في قبضتي وصار خلاصك مني بعيدًا. فقال له المجوسي: والله يا ولدي أنت أعز من روحي ومن نور عيني. فتقدَّمَ إليه حسن وعجل عليه بضربة على عاتقه، فخرج السيف يلمع من علائقه، وعجَّلَ الله بروحه إلى النار وبئس القرار.

ثم إن حسنًا أخذ الجراب الذي كان معه وفتحه، وأخرج الطبل منه والزخمة وضرب بها على الطبل، فجاءت النجائب مثل البرق إلى حسن، فحلَّ الشاب من وثاقه وأركَبَه نجيبًا، وحمل له الباقي زادًا وماءً وقال له: توجَّهْ إلى مقصدك. فتوجَّهَ بعد أن خلَّصَه الله من الضيق على يد حسن. ثم إن البنات لما رأين حسنًا ضرب رقبة المجوسي، فرحْنَ به فرحًا شديدًا، ودُرْنَ حوله وتعجَّبْنَ من شجاعته، ومن شدة بأسه، وشكرنه على ما فعل وهنَّأْنَه بالسلامة، وقلن له: يا حسن، لقد فعلتَ فعلًا أشفيتَ به الغليل، وأرضيتَ به الملك الجليل. وسار هو والبنات إلى القصر، وأقام معهن وهو في أكل وشرب ولعب وضحك، وطابت له الإقامة عندهن ونسي أمه.

فبينما هو معهن في ألذ عيش إذ قد طلعت عليهم غبرة عظيمة من صدر البرية أظلم لها الجو، فقالت له البنات: قُمْ يا حسن وادخلْ مقصورتك واختفِ وإنْ شئتَ فادخلِ البستانَ وتوارى بين الشجر والكروم فما عليك باس. ثم إنه قام ودخل واختفى في مقصورته وأغلَقَها عليه من داخل القصر، وبعد ساعة انكشف الغبار وبان من تحته عسكر جرَّار مثل البحر العجاج، مُقبِلًا من عند الملك أبي البنات، فلما وصل العسكر أنزلْنَهم أحسن منزل، وضيَّفْنَهم ثلاثة أيام، وبعد ذلك سألتهم البنات عن حالهم وعن خبرهم، فقالوا: إننا جئنا من عند الملك في طلبكن. فقلن لهم: وما يريد الملك منا؟ قال: إن بعض الملوك يعمل فرحًا، ويريد أن تحضرن ذلك الفرح لتتفرجن. فقالت لهم البنات: وكم نغيب عن موضعنا؟ فقالوا: مدة الرواح والمجيء وإقامة شهرين. فقامت البنات ودخلْنَ القصر على حسن وأعلمْنَه بالحال، وقلن له: إن هذا الموضع موضعك، وبيتنا بيتك، فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، ولا تخف ولا تحزن، فإنه لا أحدَ يقدر أن يجيء إلينا في هذا المكان، فكُنْ مطمئِنَّ القلب منشرح الخاطر حتى نحضر إليك، وهذه مفاتيح مقاصيرنا معك، ولكن يا أخانا نسألك بحق الأخوة أنك لا تفتح هذا الباب، فإنه ليس لك بفتحه حاجة. ثم إنهن ودَّعْنَه وانصرفْنَ صحبة العساكر، وقعد حسن في القصر وحده، ثم إنه ضاق صدره وفرغ صبره وزاد كربه، واستوحش وحزن لفراقهن حزنًا عظيمًا، وضاق عليه القصر مع اتساعه، فلما رأى نفسه وحيدًا متوحشًا تذكَّرهن وأنشَدَ هذه الأبيات:

ضَاقَ الْفَضَاءُ جَمِيعُهُ فِي نَاظِرِي ... وَتَكَدَّرَتْ مِنْهُ جَمِيعُ خَوَاطِرِي
مُذْ سَارَتِ الْأَحْبَابُ صَفْوِي بَعْدَهُمْ ... كَدَرٌ وَدَمْعِي فَائِضٌ بِمَحَاجِرِي

وَالنَّوْمُ فَارَقَ مُقْلَتِي لِفِرَاقِهِمْ وَتَكَدَّرَتْ مِنِّي جَمِيعُ سَرَائِرِي
أَتَرَى الزَّمَانَ يَعُودُ يَجْمَعُ شَمْلَنَا وَيَعُودُ لِي إِلْفِي بِهِمْ وَمُسَامِرِي

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا بعد ذهاب البنات من عنده، قعد في القصر وحده؛ فضاق صدره من أجل فراقهن، ثم إنه صار يذهب وحده إلى الصيد في البراري، فيأتي به ويذبحه ويأكل وحده، وزادت به الوحشة والقلق من انفراده، فقام ودار في القصر وفتَّشَ جميع جهاته، وفتح مقاصير البنات فرأى فيها من الأموال ما يُذهِب عقولَ الناظرين، وهو لا يلتذُّ بشيءٍ من ذلك بسبب غيبتهن، والتهبت في قلبه النار من أجل الباب الذي أوصَتْه أخته بعدم فتحه، وأمرته أنه لا يقربه ولا يفتحه أبدًا، فقال في نفسه: ما أوصتني أختي بعدم فتح هذا الباب إلا لكونه فيه شيء تريد ألَّا يطَّلِع عليه أحد، والله إني لأقوم وأفتحه وأنظر ما فيه ولو كان فيه المَنِيَّة. فأخذ المفتاح وفتحه، فلم يَرَ فيه شيئًا من المال، ولكنه رأى سُلَّمًا في صدر المكان معقودًا بحجر من جزع يماني، فرَقِي على ذلك السلَّم، وصعد إلى أن وصل إلى سطح القصر، فقال في نفسه: هذا الذي منعَتْني عنه! ودار فوقه، فأشرَفَ على مكان تحت القصر مملوء بالمزارع والبساتين والأشجار والأزهار والوحوش والطيور، وهي تغرِّد وتسبِّح الله الواحد القهار، وصار يتأمَّل في تلك المنتزهات، فرأى بحرًا عجاجًا متلاطمًا بالأمواج. ولم يزل دائرًا حول ذلك القصر يمينًا وشمالًا حتى انتهى إلى قصر على أربعة أعمدة، فرأى فيه مقعدًا منقوشًا بسائر الأحجار كالياقوت والزمرد والبلخش وأصناف الجواهر، وهو مبني طوبة من ذهب، وطوبة من فضة، وطوبة من ياقوت، وطوبة من زمرد أخضر، وفي وسط ذلك القصر بحيرة ملآنة بالماء، وعليها مكعب من الصندل وعود الند وهو مشبك بقضبان الذهب الأحمر والزمرد الأخضر، ومزركش بأنواع الجواهر واللؤلؤ التي كل حبة منه قدر بيضة الحمامة، وعلى جانب البحيرة تخت من العود الند مرصَّع بالدر والجوهر، مشبك بالذهب الأحمر، وفيه من سائر الفصوص الملونة والمعادن النفيسة، وهي في الترصيع يقابل بعضها بعضًا، وحوله الأطيار تغرِّد

بلغات مختلفة، وتسبِّح الله تعالى بحسن أصواتها واختلاف لغاتها، وهذا القصر لم يملك مثله كسرى ولا قيصر؛ فاندهش حسن لما رأى ذلك وجلس فيه ينظر ما حوله.

فبينما هو جالس فيه وهو يتعجب من حسن صنعته ومن بهجة ما حواه من الدر والياقوت، وما فيه من سائر الصناعات، ومتعجب أيضًا من تلك المزارع والأطيار التي تسبِّح اللهَ الواحد القهَّار، ويتأمَّل في آثار من قدرة الله تعالى على عمارة هذا القصر، فإنه عظيم الشأن، وإذا هو بعشرة طيور قد أقبلوا من جهة البر وهم يقصدون ذلك القصر وتلك البحيرة، فعرف حسن أنهم يقصدون البحيرة ليشربوا من مائها، فاستتر منهم خوفًا أن ينظروه فيفروا منه. ثم إنهم نزلوا على شجرة عظيمة مليحة وداروا حولها، ونظر منهم طيرًا عظيمًا مليحًا وهو أحسن ما فيهم، والبقية محتاطون به وهم في خدمته، فتعجَّبَ حسن من ذلك وصار ذلك الطير ينقر التسعة بمنقاره ويتعاظم عليهم وهم يهربون منه، وحسن واقف يتفرج عليهم من بعيد. ثم إنهم جلسوا على السرير وشقَّ كلُّ طير منهم جلده بمخالبه وخرج منه، فإذا هو ثوب من ريش، وقد خرج من الثياب عشر بنات أبكار يفضحن بحُسْنهن بهجةَ الأقمار، فلما تعرَّيْنَ من ثيابهن نزلْنَ كلهن في البحيرة واغتسلْنَ، وصرْنَ يلعبْنَ ويتمازحْنَ، وصارت الطيرة الفائقة عليهن ترميهن وتغطسهن فهربْنَ منها، ولم يقدرْنَ أن يمددن أيديهن إليها، فلما نظرها حسن غاب عن صوابه وسُلِب عقله، وعرف أن البنات ما نهَيْنَه عن فتح هذا الباب إلا لهذا السبب، فشُغِف حسن بها حبًّا لما رأى من حُسْنها وجمالها وقَدِّها واعتدالها، وهي في لعب ومزاح ومراشَّة بالماء، وحسن واقف ينظر إليهن ويتحسَّر؛ حيث لم يكن معهن، وقد حار عقله من حسن الجارية الصغيرة، وتعلَّقَ قلبه بشَرَك محبتها ووقع في شَرَك هواها، والعين ناظرة وفي القلب نار محرقة، والنفسُ أمَّارةٌ بالسوء، فبكى حسن شوقًا لحُسْنها وجمالها، وانطلقت في قلبه النيران من أجلها، وزاد به لهيب لا يُطفَأ شرره، وغرام لا يخفى أثره. ثم بعد ذلك طلعت البنات من تلك البحيرة، وحسن واقف ينظر إليهن وهُنَّ لا ينظرْنَه، وهو يتعجب من حُسْنهن وجمالهن ولطف معانيهن وظرف شمائلهن، فحانَتْ منه التفاتة فنظر حسن إلى الجارية الكبيرة وهي عريانة، فبانَ له ما بين فخذَيْها، وهو قبة عظيمة مدورة بأربعة أركان كأنه طاسة من فضة أو من بلور، يذكر قول الشاعر:

وَلَمَّا كَشَفْتُ الثَّوْبَ عَنْ سَطْحِ كُسِّهَا   وَجَدْتُ بِهِ ضِيقًا كَخَلْقِي وَأَرْزَاقِي
فَأَوْلَجْتُ فِيهَا نِصْفَهُ فَتَنَهَّدَتْ   فَقُلْتُ: لِمَ هَذَا؟ فَقَالَتْ: عَلَى الْبَاقِي

فلما خرجْنَ من الماء لبسَتْ كلٌّ واحدة ثيابَها وحليها، وأما الجارية الكبيرة فإنها لبست حلة خضراء، ففاقت بجمالها ملاح الآفاق، وزهت ببهجة وجهها على بدور الإشراق، وفاقت على الغصون بحُسْن التثنِّي، وأذهلَتِ العقولَ بوهم التجنِّي، وهي كما قال الشاعر:

وَجَـارِيَـة فِـي نَـشَـاطٍ بَـدَتْ　　تَرَى الشَّمْسَ مِنْ خَدِّهَا مُسْتَعَارَهْ
أَتَتْ فِـي قَمِيصٍ لَـهَا أَخْـضَرَ　　كَخُضْرِ الْغُصُونِ عَلَى جِلَّنَارَهْ
فَقُلْتُ لَهَا: مَا اسْمُ هَذَا اللِّبَاسِ؟　　فَـقَـالَـتْ كَلَامًا مَلِيحَ الْعِبَارَهْ
شَـقَـقْـنَـا مَـرَائِـرَ أَحْـبَـابِـنَـا　　فَـفَـاحَ نَـسِـيـمٌ يَـشُـقُّ الْـمَـرَارَهْ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما رأى البنات قد خرجن من البحيرة، والكبيرة فيهن أخذت عقله بحُسْنها وجمالها، أنشد تلك الأبيات. ثم إن البنات لما لبسن ثيابهن جلسْنَ يتحدثن ويتضاحكن وحسن واقف ينظر إليهن وهو غريق في بحر عشقه وتائه في فكره، وهو يقول في نفسه: والله ما قالت لي أختي لا تفتحْ هذا الباب إلا من شأن هؤلاء البنات، وخوفًا من أن أتعلق بإحداهن. ثم إنه صار ينظر في محاسن هذه الجارية وكانت أجمل ما خلق الله في وقتها، وقد فاقت بحُسْنها جميعَ البشر، لها فم كأنه خاتم سليمان، وشعر أسود من الليل الصدود على الكئيب الولهان، وغرَّة كهلال عيد رمضان، وعيون تحاكي عيون الغزلان، وأنف أقنى كثير اللمعان، وخدان كأنهما شقائق النعمان، وشفتان كأنهما مرجان، وأسنان كأنهما لؤلؤ منظوم في قلائد العقيان، وعُنُق كسبيكة فضة فوق قامة كغُصْن البان، وبطن طيات وأركان يبتهل فيه العاشق الولهان، وسُرَّة تَسَع أوقية مِسْك طيب الأردان، وأفخاذ غِلَاظ سِمَان كأنها عواميد رخام، أو مخدتين مَحْشوَّتين من ريش النعام، وبينهما شيء كأنه أعظم العقبان، وأرنب مقطوش الأذان وله سطوح وأركان، وهذه الصبية فاقت بحُسْنها وقَدِّها على غصون البان، وعلى قضيب الخيزران، وهي كما قال الشاعر الولهان:

وَخَوْدَاءَ أَضْحَى رِيقُهَا حَاكِيَ الشَّهْدِ ... لَهَا مُقْلَةٌ أَمْضَى مِنَ الصَّارِمِ الْهِنْدِي
وَتُخْجِلُ غُصْنَ الْبَانِ مِنْ حَرَكَاتِهَا ... إِذَا ابْتَسَمَتْ فَالْبَرْقُ مِنْ ثَغْرِهَا تُبْدِي
وَقَايَسْتُ بِالْوَرْدِ الْمُصَفَّفِ خَدَّهَا ... فَصَدَّتْ وَقَالَتْ مَنْ يُقَايِسُ بِالْوَرْدِ
وَشَبَّهَ بِالرُّمَّانِ نَهْدِي فَمَا اسْتَحَى ... وَمِنْ أَيْنَ لِلرُّمَّانِ غُصْنٌ حَوَى نَهْدِي

وَحَقِّ جَمَالِي وَالْعُيُونِ وُمُهْجَتِي وَجَنَّةِ وَصْلِي وَالتَّنَهُّدِ فِي الصَّدْرِ
لَئِنْ عَادَ لِلتَّشْبِيهِ حَقًّا حَرَمْتُهُ لَذِيذَ وِصَالِي ثُمَّ أَقْلِيهِ بِالصَّدِّ
يَقُولُونَ فِي الْبُسْتَانِ وَرْدٌ مُصَفَّفٌ وَمَا وَرْدُهُ خَدِّي وَلَا غُصْنُهُ قَدِّي
إِذَا كَانَ مِثْلِي فِي الْبَسَاتِينِ عِنْدَهُ فَمَاذَا الَّذِي قَدْ جَاءَ يَطْلُبُهُ عِنْدِي

ثم إن البنات لم يزلن في ضحك ولعب وهو واقف على قدمَيْه ينظر إليهن، ونسي الأكل والشرب إلى أن قَرُبَ العصر، فقالت الصبية لصواحبها: يا بنات الملوك، إن الوقت أمسى علينا وبلادنا بعيدة، ونحن قد سَئِمْنا المقام هنا، فقمْنَ لنروح محلنا. فقامت كل واحدة منهن ولبست ثوبها الريش، فلما اندرجْنَ في ثيابهن صِرْنَ طيورًا كما كنَّ أولًا، وطِرْنَ كلهن سوية، وتلك الصبية في وسطهن، فيئس حسن منهن وأراد أن يقوم وينزل، فلم يقدر أن يقوم، وصار دمعه يجري على خده، ثم اشتدَّ به الغرام فأنشد هذه الأبيات:

حُرِمْتُ وَفَاءَ الْعَهْدِ إِنْ كُنْتُ بَعْدَكُمْ عَرَفْتُ لَذِيذَ النَّوْمِ كَيْفَ يَكُونُ
وَلَا أُغْمِضَتْ عَيْنَايَ بَعْدَ فِرَاقِكُمْ وَلَا لَذَّ لِي بَعْدَ الرَّحِيلِ سُكُونُ
يُخَيَّلُ لِي فِي النَّوْمِ أَنِّي أَرَاكُمُ فَيَا لَيْتَ أَحْلَامَ الْمَنَامِ يَقِينُ
وَإِنِّي لَأَهْوَى النَّوْمَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ لَعَلَّ لِقَاكُمْ فِي الْمَنَامِ يَكُونُ

ثم إن حَسَنًا مشى قليلًا وهو لا يهتدي إلى الطريق حتى نزل إلى أسفل القصر، ولم يزل يزحف إلى أن وصل إلى باب المخدع، فدخل وأغلَقَه عليه واضطجع عليلًا لا يأكل ولا يشرب، وهو غريق في بحر أفكاره، فبكى وناح نفسه إلى الصباح. فلما أصبح الصباح أنشد هذه الأبيات:

فَطَارَتْ طُيُورٌ بِالْعِشَاءِ وَصَاحُوا وَمَنْ مَاتَ وَجْدًا مَا عَلَيْهِ جُنَاحُ
أُسِرُّ حَدِيثَ الْعِشْقِ مَا أَمْكَنَ الْبَقَا وَإِنْ غَلَبَ الشَّوْقُ الشَّدِيدُ يُبَاحُ
سَرَى طَيْفُ مَنْ يَحْكِي بِطَلْعَتِهِ الضُّحَى وَلَيْسَ لِلَيْلِي فِي الْغَرَامِ صَبَاحُ
أَنُوحُ عَلَيْهِمْ وَالْخَلِيُّونَ نُوَّمٌ وَقَدْ لَعِبَتْ بِي فِي الْغَرَامِ رِيَاحُ
سَمَحْتُ بِدَمْعِي ثُمَّ مَالِي وَمُهْجَتِي وَعَقْلِي وَرُوحِي وَالسَّمَاحُ رَبَاحُ
وَأَقْبَحُ أَنْوَاعِ الْمَكَارِهِ وَالْأَذَى إِذَا كَانَ مِنْ عِنْدِ الْمِلَاحِ كِفَاحُ

يَقُولُونَ وَصْلُ الْغَانِيَاتِ مُحَرَّمٌ وَسَفْكُ دِمَاءِ الْعَاشِقِينَ مُبَاحُ
وَمَا حِيلَةُ الْمُضْنَى سِوَى بَذْلِ نَفْسِهِ يَجُودُ بِهَا هَلْ فِي الْغَرَامِ مُزَاحُ
أَصِيحُ اشْتِيَاقًا لِلْحَبِيبِ وَلَوْعَةً وَغَايَةُ جَهْدِ الْمُسْتَهَامِ نُوَاحُ

فلما طلعت الشمس فتح باب المخدع، وطلع إلى المكان الذي كان فيه أولًا، وجلس في مكان قبال المنظرة إلى أن أقبَلَ الليل، فلم يحضر أحد من الطيور وهو جالس في انتظارهم، فبكى بكاءً شديدًا حتى غُشِي عليه، ووقع على الأرض مطروحًا، فلما أفاق من غشيته زحف ونزل إلى أسفل القصر، وقد أقبَلَ الليل وضاقت عليه الدنيا بأسرها، وما زال يبكي وينوح على نفسه طول ليله إلى أن أتى الصباح، وطلعت الشمس على الروابي والبطاح، وهو لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، ولا يقر له قرار، وفي نهاره حيران، وفي ليله سهران مدهوش سكران، من الفكر الذي هو فيه ومن شدة الغرام، وأنشَدَ قولَ الشاعر الولهان:

أَمُخْجِلَةَ الشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ فِي الضُّحَى وَفَاضِحَةَ الْأَغْصَانِ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي
تُرَى تَسْمَحُ الْأَيَّامُ مِنْكَ بِعَوْدَةٍ وَتَخْمُدُ نِيرَانٌ تُوَقَّدُ فِي صَدْرِي
وَيَجْمَعُنَا عِنْدَ اللِّقَاءِ تَعَانُقٌ وَخَدُّكِ فِي خَدِّي وَنَحْرُكِ فِي نَحْرِي
فَمَنْ قَالَ إِنَّ الْحُبَّ فِيهِ حَلَاوَةٌ فَفِي الْحُبِّ أَيَّامٌ أَمَرُّ مِنَ الصَّبْرِ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا الصائغ لما زاد عشقه أنشَدَ الأشعارَ وهو في القصر وحده، ولم يجد مَن يؤانسه، فبينما هو في شدة ولهه، وإذا هو بغبرة قد طلعت من البر، فقام يجري إلى أسفل واختفى، وعرف أن أصحاب القصر قد أتوا، فلم يكن غير ساعة إلا والعسكر قد نزلوا وداروا بالقصر، ونزلت السبع بنات ودخلْنَ القصر، فنزعْنَ سلاحهن وما كان عليهن من آلات الحرب. وأما البنت الصغيرة أخته فإنها لم تنزع ما عليها من آلة الحرب، بل جاءت إلى مقصورة حسن فلم تَرَه، ففتَّشَتْ عليه فوجدته في مخدع من المخادع وهو ضعيف نحيل، قد كَلَّ جسمه ورقَّ عظمه واصفرَّ لونه، وغابت عيناه في وجهه من قلة الأكل والشرب، ومن كثرة الدموع بسبب تعلُّقه بالصَّبِية وعشقه لها، فلما رأته أخته الجنية على هذه الحالة اندهشَتْ وغاب عنها عقلها، فسألته عن حاله وما هو فيه وأي شيء أصابه، وقالت له: أخبِرْني يا أخي حتى أتحيَّل لك في كشف ضرك، وأكون فداءك. فبكى بكاءً شديدًا، وأنشد يقول:

مُحِبٌّ إِذَا مَا بَانَ عَنْهُ حَبِيبُهُ فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْكَآبَةُ وَالضَّرُّ
فَبَاطِنُهُ سَقْمٌ وَظَاهِرُهُ جَوًى وَأَوَّلُـهُ ذِكْـرٌ وَآخِـرُهُ فِـكْـرُ

فلما سمعت أخته منه ذلك تعجَّبَتْ من فصاحته، ومن بلاغة قوله، ومن حُسْن لفظه، ومجاوَبَته لها بالشعر، فقالت له: يا أخي، متى وقعتَ في هذا الأمر الذي أنت فيه؟ ومتى حصل لك؟ فإني أراك تتكلم بالأشعار وتُرخِي الدموعَ الغِزَار، فبالله عليك يا أخي وحرمة الحب الذي بيننا أن تخبرني بحالك، وتُطلِعني على سرِّك، ولا تُخْفِ مني شيئًا ممَّا جرى لك في غيابنا، فإنه قد ضاق صدري، وتكدَّر عيشي بسببك. فتنهَّدَ وأرخى الدموع مثل

المطر، وقال: أخاف يا أختي إذا أخبرتُكِ أنك لم تساعديني على مطلوبي، وتتركينني أموت كَمَدًا بغُصَّتِي. فقالت: لا والله يا أخي ما أتخلَّى عنك، ولو كانت روحي تروح. فحدَّثَها بما جرى له، وما عايَنَه حين فتح الباب، وأخبَرَها أن سبب الضرر والبلاء عشقُ الصَّبية التي رآها ومحبته لها، وأن له عشرة أيام لم يستطعم بطعام ولا شراب. ثم إنه بكى بكاءً شديدًا وأنشَدَ هذين البيتين:

رُدُّوا الْفُؤَادَ وَالْهَنَاءَ إِلَى الْحَشَى ... وَالْمُقْلَتَيْنِ إِلَى الْكَرَى ثُمَّ اهْجُرُوا
أَزَعَمْتُمُ أَنَّ اللَّيَالِي غَيَّرَتْ ... عَهْدَ الْهَوَى لَا كَانَ مَنْ يَتَغَيَّرُ

فبَكَتْ أخته لبكائه ورقَّتْ لحاله ورحمت غربته، ثم قالت له: يا أخي، طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، فأنا أخاطِرُ بنفسي معك وأبذل روحي في رضائك، وأدبِّر لك حيلةً ولو كان فيها ذهاب نفائسي ونفسي، حتى أقضي غرضك إن شاء الله تعالى، ولكنْ أوصيك يا أخي بكتمان السر عن أخواتي، فلا تُظهِر حالك على واحدةٍ منهن لئلا تروح روحي وروحك، وإنْ سألْنَك عن فتح الباب، فقُلْ لهن: ما فتحتُه أبدًا، ولكن أنا مشغول القلب من أجل غيابكن عني، ووحشتي إليكن، وقعودي في القصر وحدي. فقال لها: نعم، هذا هو الصواب. ثم أنه قبَّلَ رأسها وطاب خاطره وانشرح صدره، وكان خائفًا من أخته بسبب فتح الباب، فردَّتْ إليه روحه بعد أن كان مُشرِفًا على الهلاك من شدة الخوف. ثم إنه طلب من أخته شيئًا يأكله، فقامت وخرجت من عنده، ثم دخلت على أخواتها وهي حزينة باكية عليه، فسألْنَها عن حالها فأخبرتهن أن خاطرها مشغول على أخيها، وأنه مريض وله عشرة أيام ما نزل في بطنه زادٌ أبدًا، فسألْنَها عن سبب مرضه، فقالت لهن: سببُه غيابنا عنه حيث أوحشناه، فإن هذه الأيام التي غبناها عنه كانت عليه أطول من ألف عام، وهو معذور لأنه غريب ووحيد ونحن تركناه وحده وليس عنده مَن يؤانسه ولا مَن يطيِّب خاطِرَه، وهو شاب صغير على كل حال، وربما تذكَّرَ أهله وأمه، وهي امرأة كبيرة، فظنَّ أنها تبكي عليه آناء الليل وأطراف النهار ولم تزل حزينة عليه، وكنَّا نُسْلِيه بصحبتنا له.

فلما سمع أخواتها كلامها بَكَيْنَ من شدة التأسُّف عليه، وقلْنَ لها: والله إنه معذور. ثم خرجْنَ إلى العسكر وصرفْنَهم، ودخلْنَ على حسن فسلَّمْنَ عليه ورأيْنَه قد تغيَّرَتْ محاسنه، واصفرَّ لونه، وانتحل جسمه، فبكَيْنَ شفقةً عليه وقعَدْنَ عنده وآنسْنَه وطيَّبْنَ قلبه بالحديث، وحكَيْنَ له جميع ما رأين من العجائب والغرائب، وما جرى للعريس مع العروسة. ثم إن البنات أقمْنَ عنده مدة شهر كامل وهنَّ يؤانِسْنَه ويلاطِفْنَه، وهو كل يوم

يزداد مرضًا على مرضه، وكلما رأيْنَه على هذه الحالة يبكين عليه بكاءً شديدًا وأكثرهن بكاءً البنت الصغيرة. ثم بعد الشهر اشتاقَتِ البنات إلى الركوب للصيد والقنص، فعزمْنَ على ذلك وسألْنَ أختهن الصغيرة أن تركب معهن، فقالت لهن: والله يا أخواتي ما أقدر أن أخرج معكن وأخي على هذه الحالة حتى يتعافى ويزول عنه ما هو فيه من الضرر، بل أجلس عنده لأعلِّله، فلما سمعْنَ كلامها شكرْنَها على مروءتها، وقلْنَ لها: كل ما تفعلينه مع هذا الغريب تُؤجَرِين عليه. ثم تركْنَها عنده في القصر، وركبن وأخذن معهن زادَ عشرين يومًا. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٨٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن البنات لما ركبْنَ ورُحْنَ إلى الصيد والقنص، تركْنَ أختهن الصغرى قاعدةً عند حسن في القصر، فلما بَعُدْنَ عن القصر عرفت أختهن أنهن قطعْنَ مسافة بعيدة، فأقبلت على أخيها وقالت له: يا أخي، قُمْ أَرِني هذا الموضع الذي رأيتَ فيه البنات. فقال: باسم الله على الرأس. وفرح بقولها وأيقَنَ ببلوغ مقصوده، ثم إنه أراد أن يقوم معها ويُرِيها المكان، فلم يقدر على المشي، فحملَتْه في حضنها وجاءت به إلى القصر، فلما صار فوقه أراها الموضع الذي رأى فيه البنات، وأراها المقعد وبِرْكة الماء، فقالت له أخته: صِفْ لي يا أخي حالَهن كيف جِئْنَ. فوصف لها ما رأى منهن، وخصوصًا البنت التي تعلَّقَ بها، فلما سمعت وصفَها عرفَتْها؛ فاصفرَّ وجهها وتغيَّرَ حالها، فقال لها: يا أختي، قد اصفرَّ وجهك، وتغيَّرَتْ حالتك. فقالت له: يا أخي، اعلم أن هذه الصَّبِية بنت ملك من ملوك الجان العِظَام الشأن، قد ملك أبوها إنسًا وجانًّا، وسَحَرة وكهَّانًا، وأرهاطًا وأعوانًا، وأقاليم وبلدانًا كثيرة، وأموالًا عظامًا، وأبونا نائب من جملة نوَّابه، فلا يقدر عليه أحد من كثرة عساكره، واتساع مملكته وكثرة ماله، وقد جعل لأولاده البنات اللاتي رأيتهن مسيرةَ سنة كاملة طولًا وعرضًا، وقد زاد على ذلك القُطْر نهرٌ عظيم محيط به، فلا يقدر أحد أن يصل إلى ذلك المكان لا من الإنس ولا من الجان، وله من البنات الضاربات بالسيوف الطاعنات بالرماح خمسةٌ وعشرون ألفًا، كلٌّ واحدة منهن إذا ركبَتْ جوادها ولبست آلة حربها تقاوم ألف فارس من الشجعان، وله سبع من البنات فيهن من الشجاعة والفروسية ما في أخواتهن وأزيد، وقد ولَّى على هذا القطر الذي عرفتك به ابنته الكبرى، وهي أكبر أخواتها، وفيها من الشجاعة والفروسية والخداع والمكر والسحر ما تغلب به جميع أهل مملكتها. وأما البنات اللاتي معها فهن أرباب دولتها وأعوانها وخواصها من ملكها، وهذه الجلود الريش التي يَطِرْنَ بها إنما هي صنعة سَحَرة الجان،

وإذا أردتَ أن تملك هذه الصَّبِية وتتزوَّج بها فاقعد هنا وانتظرها؛ لأنهن يحضرن على رأس كل شهر في هذا المكان، فإذا رأيتهن قد حضرْنَ فاختفِ، وإياك أن تظهر فتروح أرواحنا جميعًا، فاعرف الذي أقوله لك واحفظه في ذهنك، واقعد في مكان يكون قريبًا منهن، بحيث إنك تراهن وهن لا يَرَيْنَك، فإذا قلعْنَ ثيابَهن فأَلْقِ نظرك على الثوب الريش الذي هو للكبيرة التي في مرادك، وخذه ولا تأخذ شيئًا غيره، فإنه هو الذي يوصلها إلى بلادها، فإنك إذا ملكْتَه ملَكْتَها، وإياك أن تخدعك وتقول: يا مَن سرق ثوبي، ردَّه عليَّ وها أنا عندك وبين يديك وفي حوزتك. فإنك إنْ أعطيتَها إياه قتلَتْك وتخرب علينا القصور، وتقتل أبانا، فاعرف حالك كيف تكون. فإذا رأى أخواتها أن ثوبها قد سُرِق طِرْنَ وتركْنَها قاعدةً وحدها، فادخلْ عليها وامسكها من شعرها واجذبها، فإذا جذبتَها إليك فقد ملكتَها وصارت في حوزتك، فاحتفظ بعد هذا بالثوب الريش، فإنه ما دام عندك فهي في قبضتك وأَسْرِك؛ لأنها لا تقدر أن تطير إلى بلادها إلا به، فإذا أخذتَها فاحملها وانزل بها إلى مقصورتك، ولا تبيِّن لها أنك أخذتَ الثوب.

فلما سمع حسن كلام أخته، اطمأنَّ قلبه وسكن روعه وزال ما به من الألم، ثم انتصب قائمًا على قدمَيْه وقبَّلَ رأس أخته، وبعد ذلك قام ونزل من فوق القصر هو وأخته وناما ليلتهما وهو يعالج نفسه إلى أن أصبح الصباح. فلما طلعت الشمس قام وفتح الباب وطلع إلى فوق وقعد، ولم يزل قاعدًا إلى العشاء فطلعت له أخته بشيء من الأكل والشرب، وغيَّرَتْ ثيابه ونام، ولم تزل معه على هذه الحالة في كل يوم إلى أنْ هلَّ الشهر، فلما رأى الهلال صار يرتقبهم، فبينما هو كذلك وإذا بهن قد أقبلْنَ عليه مثل البرق، فلما رآهن اختفى في مكان بحيث يراهن وهن لا يَرَيْنَه، فنزلت الطيور وقعدت كل طيرة منهن في مكان وقطعن ثيابهن، وكذلك البنت التي يحبها، وكان ذلك في مكان قريب من حسن، ثم نزلت البحيرة مع أخواتها؛ فعند ذلك قام حسن ومشى قليلًا وهو مختفٍ وستر الله عليه، فأخذ الثوب ولم تنظره واحدة منهن، بل كنَّ يلعبْنَ مع بعضهن، فلما فرغْنَ طلعن ولبست كل واحدة منهن ثوبها الريش، فجاءت محبوبته لتلبس ثوبها فلم تجده، فصاحت ولطمت على وجهها وشقَّتْ ثيابها، فأقبل عليها أخواتها وسألْنَها عن حالها، فأخبرتهن أن ثوبها الريش قد فُقِد، فبكَيْنَ وصرخْنَ ولطَمْنَ على وجوههن، وحين أمسى عليهن الليل لم يقدرْنَ أن يقعدْنَ عندها، فتركنها فوق القصر. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما أخذ ثوب البنت طلبَتْه فلم تجده، وطار أخواتها وتركْنَها وحدها، فلما رآهن حسن طِرْنَ وغِبْنَ عنها أصغى إليها، فسمعها تقول: يا مَن أخذ ثوبي وأعراني، سألتُك أن تردَّه عليَّ وتستر عورتي، فلا أذاقك الله حسرتي. فلما سمع حسن هذا الكلام منها، سُلِب عقله في عشقها، وازدادت محبته لها، ولم يُطِقْ أن يصبر عنها، فقام من مكانه وصار يجري حتى هجم عليها وأمسَكَها، ثم جذبها إليه ونزل بها إلى أسفل القصر، وأدخَلَها مقصورته ورمى عليها عباءتَه وهي تبكي وتعضُّ على يدَيْها، فأغلق عليها الباب وراح لأخته وأعلَمَها أنه حصلها وظَفِر بها، ونزل بها إلى مقصورته، وقال لها: إنها الآن قاعدة تبكي وتعض على يديها. فلما سمعت أخته كلامَه قامت وتوجَّهَتْ إلى المقصورة ودخلت عليها، فرأتها تبكي وهي حزينة، فقبَّلَتِ الأرض بين يديها، ثم سلَّمَتْ عليها، فقالت لها الصَّبِية: يا بنت الملك، أهكذا تفعل الناس مثلكم هذه الفِعَال الرديئة مع بنات الملوك؟ وأنت تعرفين أن أبي مَلِك عظيم، وأن ملوك الجان تفزع منه وتخاف من سطوته، وعنده من السَّحَرة والحكماء والكهَّان والشياطين والمَرَدة مَن لا طاقةَ لأحد عليه، وتحت يده خلق لا يعلم عددَهم إلا الله، وكيف يصح لكم يا بنات الملوك أن تأوين رجالَ الإنس عندكن وتُطلِعْنَهم على أحوالنا وأحوالكن؟ وإلا فمن أين أن يصل هذا الرجل إلينا؟ فقالت لها أخت حسن: يا بنت الملك، إن هذا الإنسي كامل المروءة، وليس قصده أمرًا قبيحًا، وإنما هو يحبك، وما خُلِقت النساء إلا للرجال، ولولا أنه يحبك ما مرض لأجلك، وكادت روحه أن تزهق في هواك. وحكت لها جميعَ ما أخبرها به حسن من عشقه لها، وكيف عملت البنات في طيرهن واغتسالهن، وأنه لم يعجبه من جميعهن غيرها؛ لأن كلهن جوارٍ لها، وأنها كانت تغطسهن في البحيرة، وليست واحدة منهن تقدر أن تمدَّ يدها إليها.

فلما سمعت كلامها يئست من الخلاص، فعند ذلك قامت أخت حسن وخرجت من عندها وأحضرت لها بدلة فاخرة، فألبَسَتْها إياها وأحضرت لها شيئًا من الأكل والشرب، فأكلت هي وإياها، وطيَّبت قلبها وسكَّنت روعها، ولم تزل تلاطفها بلِينٍ ورفق وتقول لها: ارحمي مَن نَظَرَكِ نظرةً فأصبح قتيلًا في هواك. ولم تزل تلاطفها وترضيها وتُحسِن لها القولَ والعبارةَ وهي تبكي إلى أن طلع الفجر، فطابت نفسها وأمسكت عن بكائها لما علمت أنها وقعت ولم يمكن خلاصها، وقالت لأخت حسن: يا بنت الملك، بهذا حكم الله على ناصيتي من غربتي وانقطاعي عن بلدي وأهلي وإخوتي، فصبر جميل على ما قضاه ربي. ثم إن أخت حسن أخلَتْ لها مقصورة في القصر لم يكن هناك أحسن منها، ولم تزل عندها تُسْلِيها وتطيِّب خاطرها حتى رضيت وانشرح صدرها وضحكت، وزال ما عندها من الكدر وضيق الصدر من فراق الأهل والأوطان وفراق أخواتها وأبوَيْها وملكها. ثم إن أخت حسن خرجت إليه وقالت له: قُمِ ادخُلْ عليها في مقصورتها، وقبِّلْ يديها ورجليها. فدخل وفعل ذلك، ثم قبَّلَ ما بين عينَيْها، وقال لها: يا سيدة الملاح، وحياة الأرواح ونزهة الناظرين، كوني مطمئنةَ القلب، أنا ما أخذتُك إلا لأجل أن أكون عبدك إلى يوم القيامة، وأختي هذه جاريتك، وأنا يا سيدتي ما قصدي إلا أن أتزوَّجَك بسُنَّة الله ورسوله، وأسافر إلى بلادي وأكون أنا وأنت في مدينة بغداد، وأشتري لك الجواري والعبيد، ولي والدة من خيار النساء تكون في خدمتك، وليس هناك بلادٌ أحسن من بلادنا، وكل ما فيها أحسن مما في غيرها من سائر البلاد، وأهلها وناسها ناس طيبون بوجوه صِباح.

فبينما هو يخاطبها ويؤانسها وهي لا تخاطبه بحرف واحد، وإذا بداقٍّ يدقُّ بابَ القصر، فخرج حسن ينظر مَن بالباب، وإذا هن البنات قد حضرْنَ من الصيد والقنص، ففرح بهن وتلقَّاهن وحيَّاهن فدعَيْنَ له بالسلامة والعافية، ودعا لهن هو الآخَر. ثم نزلن عن خيولهن ودخلن القصر، ودخلت كل واحدة منهن في مقصورتها، ونزعت ما كان عليها من الثياب الرثة ولبست قماشًا مليحًا، وخرجن إلى الصيد والقنص، فاصطدن شيئًا كثيرًا من الغزلان وبقر الوحوش والأرانب والسباع والضباع وغير ذلك، وقدَّمْنَ منه شيئًا إلى الذبح، وتركن الباقي عندهن في القصر، وحسن واقف بينهن مشدود الوسط يذبح لهن، وهن يلعبن وينشرحن وقد فرحن بذلك فرحًا شديدًا. فلما فرغْنَ من الذبح قعَدْنَ يعملن شيئًا ليتغَدَّيْن به، فتقدَّمَ حسن إلى البنت الكبيرة وقبَّلَ رأسها، وصار يقبِّل رأسَهن واحدة بعد واحدة، فقُلْنَ له: لقد أكثرت التنازل إلينا يا أخانا، وعجبنا من فرط تودُّدك إلينا، وأنت رجل آدمي ونحن من الجن. فدمعت عيونه وبكى بكاءً شديدًا، فقلن: ما الخبر؟

وما يُبْكِيك؟ فقد كدرتَ عيشنا ببكائك في هذا اليوم! كأنك اشتقتَ إلى والدتك وإلى بلادك؛ فإنْ كان الأمر كذلك فنجهِّزك ونسافر بك إلى وطنك وأحبابك؟ فقال لهن: والله ما مرادي فراقكن. فقلن له: وحينئذٍ مَن شوَّشَ عليك منَّا حتى تكدَّرْتَ؟ فخجل أن يقول ما شوَّشَ عليَّ إلا عِشْق الصَّبِية خيفةَ أن يُنْكِرْنَ عليه، فسكت ولم يُعْلِمهن بشيء من حاله، فقامت أخته وقالت لهن: إنه اصطاد طيرة من الهواء، ويريد منكن أن تُعِنَّه على تأهيلها. فالتفتن إليه وقلن له: نحن كلنا بين يديك ومهما طلبتَه فعلناه، لكن قصَّ علينا خبرَك ولا تكتم عنَّا شيئًا من حالك. فقال لأخته: قصِّي خبري عليهن، فإني أستحي منهن ولا أقدر أن أقابلهن بهذا الكلام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا قال لأخته: قصِّي عليهن قصتي فإني أستحي، ولا أقدر أن أقابلهن بهذا الكلام. فقالت أخته لهن: يا أخواتي، إننا لما سافرنا وخلينا هذا المسكن وحده، ضاق عليه القصر وخاف أن يدخل عليه أحد، وأنتن تعرفن أن عقول بني آدم خفيفة، ففتح الباب الموصل إلى سطح القصر حين ضاق صدره وصار منفردًا وحده، وطلع فوقه وقعد هناك، وأشرف على الوادي وصار يطلُّ على جهة الباب خوفًا أن يقصد أحدٌ القصرَ، فبينما هو جالس يومًا من الأيام وإذا بالعشر طيور قد أقبلْنَ عليه قاصدات القصر، ولم يزلْنَ سائرات حتى جلسْنَ على البحيرة التي فوق المنظرة، فنظر إلى الطيرة التي هي أحسنهن، وهي تنقرهن وما فيهن واحدة تقدر أن تمدَّ يدها إليها، ثم جعلْنَ مخالبهن في أطواقهن، فشققْنَ الثيابَ الريش وخرجن منها، وصارت كل واحدة منهن صبيةً مثل البدر ليلةَ تمامه، ثم خلعْنَ ما عليهن وحسن واقف ينظر إليهن، ونزلن الماء وصرن يلعبن والصَّبِية الكبيرة تغطسهن وليس منهن واحدة تقدر أن تمد يدها إليها، وهي أحسنهن وجهًا وأعدلهن قدًّا وأنظفهن لباسًا، ولم يزلْنَ على هذه الحالة إلى أن قَرُب العصر، ثم طلعن من البحيرة ولبسن ثيابهن ودخلْنَ في القماش الريش والتففْنَ فيه وطِرْنَ، فاشتغل فؤاده واشتعل قلبه بالنار من أجل الطيرة الكبيرة، وندم لأنه لم يسرق قماشها الريش، فمرض وأقام فوق القصر ينتظرها، فامتنع من الأكل والشرب والنوم، ولم يزل كذلك حتى لاح الهلال، فبينما هو قاعد وإذا بهن قد أقبلْنَ على عادتهن، فقلعْنَ ثيابهن ونزلن البحيرة، فسرق ثوبَ الكبيرة، فلما عرف أنها لم تقدر أن تطير إلا به أخذه وأخفاه خيفةَ أن يطلعن عليه فيقتلْنَه، ثم صبر حتى طرن، فقام وقبضها ونزل بها من فوق القصر.

فقلْنَ لها أخواتها: وأين هي؟ قالت لهن: هي عنده في المخدع الفلاني. فقلن: صِفِيها لنا يا أختي. فقالت: هي أحسن من القمر ليلةَ تمامه، ووجهُها أضوأ من الشمس، وريقها أحلى من الشراب، وقَدُّها أرشق من القضيب، ذاتُ طرفٍ أحور، ووجهٍ أقمر، وجبينٍ أزهر، وصدرٍ كأنه جوهر، ونهدين كأنهما رمانتان، وخدين كأنهما تفاحتان، وبطنٍ مَطْوِيِّ الأعكان، وسرةٍ كأنها حُقُّ عاجٍ بالمسك ملآن، وساقين كأنهما من المرمر عمودان، تأخذ القلوب بطَرفٍ كحيل، ودِقَّةِ خُصْرٍ نحيل، ورِدْفٍ ثقيل، وكلام يشفي الغليل، مليحة القوام، حسنة الابتسام كأنها بدر التمام.

فلما سمعت البنات هذه الأوصاف الْتَفَتْنَ إلى حسن وقلن له: أَرِنا إياها. فقام معهن وهو ولهان إلى أنْ أتى بهن إلى المخدع الذي فيه بنت الملك، وفتحه ودخل وهنَّ خلفه، فلما رأينها وعايَنَّ جمالها، قبَّلْنَ الأرضَ بين يديها، وتعجَّبْنَ من حُسْن صورتها وظرْفِ معانيها، وسلَّمْنَ عليها وقلن لها: والله يا بنت الملك الأعظم إن هذا شيء عظيم، ولو سمعتي بوصف هذا الإنسي عند النساء لَكنتِ تتعجَّبِين منه طول دهرك، وهو متعلق بك غاية التعلُّق، إلا أنه يا بنت الملك لم يطلب فاحشةً، وما طلبك إلا في الحلال، ولو علمنا أن البنات تستغني عن الرجال لَكنَّا منعناه عن مطلوبه، مع أنه لم يرسل إليك رسولًا بل أتى إليك بنفسه، وأخبرنا أنه أحرق الثوب الريش، وإلا كنا أخذناه منه. ثم إن واحدة من البنات اتفقت هي وإياها وتوكَّلَتْ في العقد، وعقدت عقدها على حسن، وصافَحَها ووضع يده في يدها وزوَّجَتْها له بإذنها، وعملْنَ في فرحها ما يصلح لبنات الملوك، وأدخلَتْه عليها، فقام حسن وفتح الباب وكشف الحجاب وفضَّ ختمها، وتزايدت محبته فيها، وتعاظَمَ وَجْدُه شغفًا بها، وحيث حصل مطلوبه هنَّأ نفسه وأنشد هذه الأبيات:

قَـوَامُـكَ فَـتَّـانٌ وَطَـرْفُـكَ أَحْـوَرُ ... وَوَجْـهُـكَ مِـنْ مَـاءِ الْـمَـلَاحَـةِ يَـقْـطُـرُ
تَـصَـوَّرْتَ فِـي عَـيْـنِـي أَجَـلَّ تَـصَـوُّرٍ ... فَـنِـصْـفُـكَ يَـاقُـوتٌ وَثُـلْـثُـكَ جَـوْهَـرُ
وَخُمْسُكَ مِنْ مِسْكٍ وَسُدْسُكَ عَنْبَرُ ... وَأَنْـتَ شَـبِـيـهُ الـدُّرِّ بَـلْ أَنْـتَ أَزْهَـرُ
وَمَـا وَلَـدَتْ حَـوَّاءُ مِـثْـلَـكَ وَاحِـدًا ... وَلَا فِـي جِـنَـانِ الْـخُـلْـدِ مِـثْـلُـكَ آخَـرُ
فَإِنْ شِئْتَ تَعْذِيبِي فَمِنْ سُنَنِ الْهَوَى ... وَإِنْ شِـئْـتَ أَنْ تَـعْـفُـو فَـأَنْـتَ مُـخَـيَّـرُ
فَـيَـا زِيـنَـةَ الـدُّنْـيَـا وَيَـا غَـايَـةَ الْـمُـنَـى ... فَمَنْ ذَا الَّذِي عَنْ حُسْنِ وَجْهِكَ يَصْبِرُ

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما دخل على بنت الملك وأزال بكارتها، التذَّ بها لذةً عظيمة، وزادت محبته لها ووَجْده بها، فأنشَدَ فيها الأبيات المذكورة. وكانت البنات واقفات على الباب، فلما سمعْنَ الشعر قلْنَ لها: يا بنت الملك، أسمعتِ قولَ هذا الإنسي؟ كيف تلومیننا وقد أنشَدَ الشِّعْرَ في هواك؟ فلما سمعَتْ ذلك انبسطت وانشرحت وفرحت. ثم إن حسنًا أقام معها مدة أربعين يومًا في حظ وسرور ولذة وحبور، والبنات تجدِّد له كلَّ يوم فرحًا ونعمة وهدايا وتحفًا، وهو بينهن في سرور وانشراح، وطاب لبنت الملك القعود بينهن ونسيت أهلها. ثم بعد الأربعين يومًا كان حسن نائمًا، فرأى والدته حزينة عليه، وقد رقَّتْ عظامُها، وانتحل جسمها، واصفرَّ لونها، وتغيَّرَ حالها، وكان هو في حالة حسنة، فلما رأته على هذه الحالة قالت له: يا ولدي يا حسن، كيف تعيش في الدنيا منعمًا وتنساني؟ فانظر لحالي بعدك، وأنا ما أنساك، ولا لساني يترك ذِكْرك حتى أموت، وقد عملت لك قبرًا عندي في الدار حتى لا أنساك أبدًا، أترى أعيش يا ولدي وأنظرك عندي ويعود شملنا مجتمعًا كما كان؟ فانتَبَه حسن من نومه وهو يبكي وينوح، ودموعه تجري على خدَّيْه مثل المطر، وصار حزينًا كئيبًا لا ترتفع دموعه ولم يَجِئْه نوم، ولم يقرَّ له قرار، ولم يَبْقَ عنده اصطبار. فلما أصبح دخلت عليه البنات وصبَّحْنَ عليه، وانشرحْنَ معه على عادتهن، فلم يلتفت إليهن، فسألْنَ زوجته عن حاله، فقالت لهن: ما أدري. فقلن لها: اسأليه عن حاله. فتقدَّمَتْ إليه وقالت له: ما الخبر يا سيدي؟ فتنهَّدَ وتضجر وأخبرها بما رآه في منامه، ثم أنشد هذين البيتين:

قَدْ بَقِينَا مُوَسْوِسِينَ حَيَارَى ... نَطْلُبُ الْقُرْبَ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

فَدَوَاهِي الْهَوَى تَزِيدُ عَلَيْنَا ... وَمُقَامُ الْهَوَى عَلَيْنَا ثَقِيلُ

فأخبرتهن زوجته بما قاله لها، فلما سمعت البنات الشِّعْرَ رققْنَ لحاله، وقلن له: تفضَّلْ باسم الله، ما نقدر أن نمنعك من زيارتها، بل نساعدك على زيارتها بكل ما نقدر عليه، ولكن ينبغي أن تزورنا ولا تنقطع عنَّا، ولو في كل سنة مرة واحدة. فقال لهن: سمعًا وطاعة. فقامت البنات من وقتهن وعملْنَ له الزاد، وجهَّزْنَ له العروسةَ بالحلي والحلل وكل شيء غالٍ يعجز عنه الوصف، وهيَّأْنَ له تحفًا تعجز عن حصرها الأقلام. ثم إنهن ضربن الطبل فجاءت النجائب إليهن من كل مكان، فاخترْنَ منها ما يحمل جميع ما جهَّزْنَه، وأركبْنَ الجارية وحسنًا، وحملْنَ إليهما خمسة وعشرين تختًا من الذهب وخمسين من الفضة، ثم سِرْنَ معهما ثلاثة أيام، فقطعن فيها مسافة ثلاثة أشهر، ثم إنهن ودَّعْنَهما وأردْنَ الرجوع عنهما، فاعتنقَتْه أخته الصغيرة، وبكت حتى غُشِي عليها، فلما أفاقت أنشدت هذين البيتين:

لَا كَانَ يَوْمُ الْفِرَاقِ أَصْلًا ... لَمْ يُبْقِ فِي الْمُقْلَتَيْنِ نَوْمَا
شَتَّتَ مِنَّا وَمِنْكَ شَمْلًا ... وَهَدَّ مِنَّا قُوًى وَجِسْمَا

فلما فرغت من شعرها ودَّعته وأكَّدت عليه أنه إذا وصل إلى بلده واجتمع بأمه واطمأنَّ قلبه لا يقطعها من الزيارة في كل ستة أشهر مرة، وقالت له: إذا أَهَمَّك أمرًا وخفتَ مكروهًا، فدقَّ طبل المجوسي فتحضر لك النجائب واركب وارجع إلينا ولا تتخلَّف عنَّا. فحلف لها على ذلك، ثم أقسم عليهم أن يرجعن بعد أن ودَّعْنَه وحزنَّ على فراقه، وأكثرهن حزنًا أخته الصغيرة، فإنها لم يستقر لها قرار ولم يطاوعها اصطبار، وصارت تبكي ليلًا ونهارًا. هذا ما كان منهن، وأما ما كان من أمر حسن، فإنه سار طول الليل والنهار يقطع مع زوجته البراري والقفار، والأودية والأوعار، في الهواجر والأسحار، وكتب الله لهما السلامة، فسَلِما ووصلا إلى مدينة البصرة، ولم يزالا سائرين حتى أناخا على باب داره نجائبَهما، ثم صرَفَ النجائبَ وتقدَّمَ إلى الباب ليفتحه، فسمع والدته وهي تبكي بصوت رقيق من كبدٍ ذاقَتْ عذابَ الحريق، وهي تنشد هذه الأبيات:

وَكَيْفَ يَذُوقُ النَّوْمَ مَنْ عَدِمَ الْكَرَى ... وَيَسْهَرُ لَيْلًا وَالْأَنَامُ رُقُودُ
وَقَدْ كَانَ ذَا مَالٍ وَأَهْلٍ وَعِزَّةٍ ... فَأَضْحَى غَرِيبَ الدَّارِ وَهْوَ وَحِيدُ
لَهُ جَمْرَةٌ بَيْنَ الضُّلُوعِ وَأَنَّةٌ ... وَشَوْقٌ شَدِيدٌ مَا عَلَيْهِ مَزِيدُ

تَوَلَّى عَلَيْهِ الْوَجْدُ وَالْوَجْدُ حَاكِمٌ يَنُوحُ بِمَا يِلْقَاهُ وَهْوَ جَلِيدُ
وَحَالَتُهُ فِي الْحُبِّ تُخْبِرُ أَنَّهُ حَزِينٌ كَئِيبٌ وَالدُّمُوعُ شُهُودُ

فبكى حسن لما سمع والدته تبكي وتندب، ثم طرق الباب طرقةً مزعجةً، فقالت أمه: مَن بالباب؟ فقال لها: افتحي. ففتحت الباب ونظرت إليه، فلما عرفَتْه خرَّتْ مغشيًّا عليها، فما زال يلاطفها إلى أن أفاقت، فعانَقَها وعانَقَتْه وقبَّلته، ثم نقل حوائجَه ومتاعه إلى داخل الدار، والجاريةُ تنظر إلى حسن وأمه. ثم إن أم حسن لما اطمأنَّ قلبها وجمع الله شملها بولدها، أنشدت هذه الأبيات:

رَقَّ الزَّمَانُ لِحَالَتِي وَرَثَى لِطُولِ تَحَرُّقِي
وَأَنَالَنِي مَا أَشْتَهِي وَأَزَالَ خَصْمًا أَتَّقِي
فَلَأَصْفَحَنْ عَمَّا جَنَى مِنَ الذُّنُوبِ السُّبَّقِ
حَتَّى جِنَايَتُهُ بِمَا فَعَل الْمَشِيبُ بِمَفْرِقِي

وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن والدة حسن قعدت هي وإياه يتحدثان، وصارت تقول له: كيف حالك يا ولدي مع الأعجمي؟ فقال لها: يا أمي، ما كان أعجميًّا بل كان مجوسيًّا يعبد النار دون الملك الجبار. ثم إنه أخبرها بما فعل به من أنه سافَرَ به وحطَّه في جلد الجمل وخيَّطه عليه، وحملته الطيور وحطَّتْه فوق الجبل، وأخبَرَها بما رآه فوق الجبل من الخلائق الميتين الذين كان يحتال عليهم المجوسي ويتركهم فوق الجبل بعد أن يقضوا حاجته، وكيف رمى روحه في البحر من فوق الجبل وسلَّمَه الله تعالى وأوصَلَه إلى قصر البنات، ومؤاخاة البنت له وقعوده عند البنات، وكيف أوصَلَ الله المجوسيَّ إلى المكان الذي هو فيه، وأخبَرَها بعشق الصَّبِية وكيف اصطادها، وبقصتها كلها إلى أن جمع الله شملهما ببعضهما. فلما سمعت أمه حكايته تعجَّبَتْ وحمدت الله تعالى على عافيته وسلامته، ثم قامت إلى تلك الحمول فنظرَتْها وسألته عنها، فأخبرها بما فيها، ففرحت فرحًا عظيمًا، ثم تقدَّمَتْ إلى الجارية تحدِّثها وتؤانسها، فلما وقعت عينها عليها اندهَشَ عقلها من ملاحتها، وفرحت وتعجَّبَتْ من حُسْنها وجمالها وقدِّها واعتدالها، ثم قالت له: يا ولدي، الحمد لله على السلامة وعلى رجوعك سالمًا. ثم إن أمه قعدت جنب الصبية وآنستها وطيَّبَتْ خاطرها، ثم نزلت في بكرة النهار إلى السوق فاشترت عشر بدلات أفخر ما في المدينة من الثياب، وأحضرت لها الفرش العظيم، وألبسَتِ الصَّبِية وجمَّلَتْها بكل شيء مليح، ثم أقبلت على ولدها وقالت: يا ولدي، نحن بهذا المال لا نقدر أن نعيش في هذه المدينة، وأنت تعرف أننا ناس فقراء والناس يتهموننا بعمل الكيمياء، فقُمْ بنا نسافر إلى مدينة بغداد دار السلام لنقيم في حَرَم الخليفة، وتقعد أنت في دكان فتبيع وتشتري وتتَّقِي الله عز وجل، فيفتح عليك بهذا المال.

فلما سمع حسن كلامَها استصوبه، وقام من وقته وخرج من عندها وباع البيت، وأحضَرَ النجائبَ وحمل عليها جميعَ أمواله وأمتعته وأمه وزوجته وسار، ولم يزل سائرًا

إلى أن وصل إلى الدجلة، فاكترى مركبًا لبغداد ونقل فيها جميع ماله وحوائجه ووالدته وزوجته وكل ما كان عنده، ثم ركب المركب فسارت بهم المركب في ريح طيبة مدة عشرة أيام حتى أشرفوا على بغداد، فلما أشرفوا عليها فرحوا ودخلت بهم المركب المدينة، فطلع من وقته وساعته إلى المدينة واكترى مخزنًا في بعض الخانات، ثم نقل حوائجه من المركب إليه، وطلع وأقام ليلة في الخان. فلما أصبح غيَّرَ ما عليه من الثياب، فلما رآه الدلَّال سأله عن حاجته وعمَّا يريد، فقال: أريد دارًا تكون مليحة واسعة. فعرض عليه الدُّورَ التي عنده فأعجبته دارٌ كانت لبعض الوزراء، فاشتراها منه بمائة ألف دينار من الذهب وأعطاه الثمن، ثم عاد إلى الخان الذي نزل فيه ونقل جميع ماله وحوائجه إلى الدار، ثم خرج إلى السوق وأخذ ما تحتاج إليه الدار من آنية وفرش وغير ذلك، واشترى خَدَمًا، ومن جملتها عبدٌ صغيرٌ للدار، وأقام مطمئِنًّا مع زوجته في ألذِّ عيش وسرور مدةَ ثلاث سنين، وقد رُزِق منها بغلامين سمَّى أحدهما ناصرًا والآخر منصورًا.

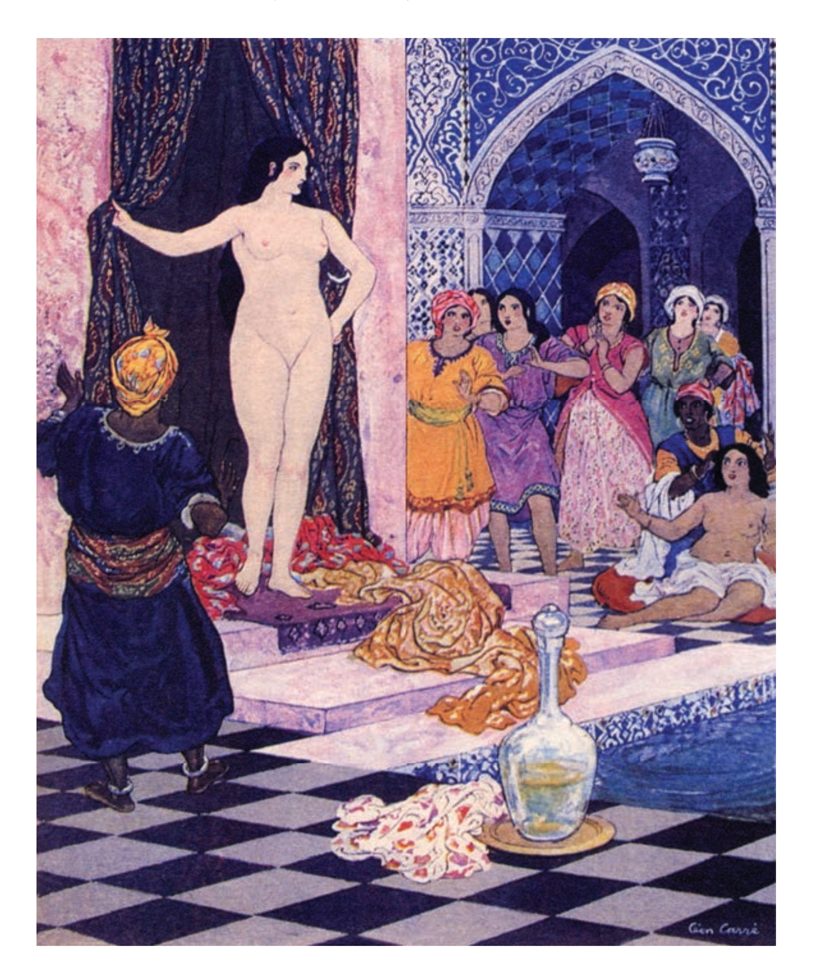
وبعد هذه المدة تذكَّرَ أخواته البنات وتذكَّرَ إحسانهن إليه، وكيف ساعَدْنَه على مقصوده؛ فاشتاق إليهن وخرج إلى أسواق المدينة فاشترى منها شيئًا من حلي وقماش نفيس ونقل ما رأَيْنَ مثله قط ولا يعرِفْنَه، فسألته أمه عن سبب اشتراء تلك التحف، فقال لها: إني عزمت على أن أسافر إلى أخواتي اللاتي فعلْنَ معي كل جميل، ورزقي الذي أنا فيه من خيرهن وإحسانهن إليَّ، فإني أريد أن أسافر إليهن وأنظرهن وأعود قريبًا إن شاء الله تعالى. فقالت له: يا ولدي، لا تَغِبْ عليَّ. فقال لها: اعلمي يا أمي كيف تكونين مع زوجتي، وهذا ثوبها الريش في صندوق مدفون في الأرض، فاحرصي عليه لئلا تقع عليه فتأخذه وتطير هي وأولادها ويروحون، وأبقى لا أقع لهم على خبر فأموت كمدًا من أجلهم، واعلمي يا أمي أني أحذِّرك من أن تذكري ذلك لها، واعلمي أنها بنت ملك الجان، وما في ملوك الجان أكبر من أبيها ولا أكثر منه جنودًا ولا مالًا، واعلمي أنها سيدةُ قَوْمِها وأعزُّ ما عند أبيها، فهي عزيزة النفس جدًّا؛ فاخدميها أنت بنفسك ولا تمكِّنيها من أن تخرج من الباب أو تطل من الطاقة أو من حائط، فإني أخاف عليها من الهواء إذا هبَّ، وإذا جرى عليها أمرٌ من أمور الدنيا، فأنا أقتل روحي من أجلها. فقالت أمه: أعوذ بالله من مخالفتك يا ولدي، هل أنا مجنونة حتى توصيني بهذه الوصية وأخالفك فيها؟ سافِرْ يا ولدي وطِبْ نفسًا، وسوف تحضر في خير وتنظرها إن شاء الله تعالى وتُخبِرك بما جرى لها مني، ولكن يا ولدي لا تقعد غير مسافة الطريق. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما أراد السفر إلى البنات، وصَّى أمه على زوجته حسب ما ذكرنا، وكانت زوجته بالأمر المقدَّر تسمع كلامَه لأمه، وهما لا يعرفان ذلك. ثم إن حسنًا قام وخرج إلى خارج المدينة ودقَّ الطبل، فحضرت له النجائب فحمل عشرين من تحف العراق وودَّع والدته وزوجته وأولاده، وكان عُمْر واحدٍ من ولدَيْه سنةً، وعُمْر الآخَر سنتين. ثم إنه رجع إلى والدته وأوصاها ثانيًا، ثم إنه ركب وسافر إلى أخواته، ولم يزل مسافرًا ليلًا ونهارًا في أودية وجبال وسهول وأوعار مدةَ عشرة أيام، وفي اليوم الحادي عشر وصل إلى القصر ودخل على أخواته ومعه الذي أحضَرَه إليهن، فلما رأَيْنَه فرحْنَ به وهنَّأْنَه بالسلامة، وأما أخته فإنها زيَّنت القصر ظاهره وباطنه. ثم إنهن أخذن الهدية وأنزلنه في مقصورة مثل العادة، وسألْنَه عن والدته وعن زوجته، فأخبرهن أنها ولدَتْ منه ولدين. ثم إن أخته الصغيرة لما رأته طيبًا بخير فرحت فرحًا شديدًا وأنشدت هذا البيت:

وَأَسْأَلُ الرِّيحَ عَنْكُمْ كُلَّمَا خَطَرَتْ ... وَغَيْرُكُمْ فِي فُؤَادِي قَطُّ مَا خَطَرَ

ثم إنه أقام عندهن في الضيافة والكرامة مدةَ ثلاثة أَشْهُر، وهو في فرح وسرور وغِبْطة وحبور وصيد وقنص. هذا ما كان من حديثه، وأما ما كان من حديث أمه وزوجته، فإنه لما سافَرَ حسن أقامت زوجته يومًا وثانيًا مع أمه، وقالت لها في اليوم الثالث: سبحان الله، هل أقعد معه ثلاث سنين ما أدخل الحمام؟ وبكَتْ، فرَّقت أمه لحالها وقالت لها: يا بنتي، نحن هنا غرباء وزوجك ما هو في البلد، فلو كان حاضرًا كان يقوم بخدمتك، أما أنا فلا أعرف أحدًا، ولكن يا بنتي أسخن لك الماء وأغسل رأسك في حمام البيت. فقالت لها: يا سيدتي، لو قلتِ هذا القولَ لبعض الجواري كانت طلبت البيع في السوق وما كانت



فلما قلعت ثيابَها صار النساءُ جميعًا يَنظُرْنَ إليها ويُسبِّحنَ الله.

تقعد عندكم، ولكن يا سيدتي إن الرجال معذورون، فإن عندهم غيرة وعقولهم تقول لهم: إن المرأة إذا خرجَتْ من بيتها ربما تعمل فاحشةً، والنساء يا سيدتي ما كلهن سواء، وأنتِ تعرفين أن المرأة إذا كان لها غرض في شيءٍ، ما يغلبها أحدٌ ولا يقدر أن يحرص عليها ولا يصونها ولا يمنعها من الحمام ولا غيره، ولا من أن تعمل كل ما تختاره. ثم إنها بكت ودعت على نفسها، وصارت تعدِّد على نفسها وغربتها، فرقَّتْ لحالها أمُّ زوجها

وعلمت أن كل ما قالته لا بد منه، فقامت وهيَّأَتْ حوائج الحمام التي يحتاجان إليها، وأخذتها وراحت إلى الحمام.

فلما دخلتا الحمام قلعتا ثيابهما، فصار النساء جميعًا ينظرْنَ إليها ويسبِّحْنَ الله عز وجل، ويتأمَّلْنَ فيما خلق من الصورة البهية، وصار كلُّ مَن جاز من النساء على الحمام يدخل ويتفرَّج عليها، وشاع في البلد ذِكْرها وازدحم النساء عليها، وصار الحمام لا ينشق من كثرة النساء اللاتي فيه؛ فاتفق بسبب ذلك الأمر العجيب أنه حضر إلى الحمام في ذلك اليوم جاريةٌ من جواري أمير المؤمنين هارون الرشيد يقال لها تحفة العوادة، فرأت النساء في زحمة والحمام لا ينشق من كثرة النساء والبنات، فسألت عن الخبر فأخبرْنَها بالصَّبِية، فجاءت عندها ونظرت إليها وتأمَّلت فيها، فتحيَّرَ عقلها من حُسْنها وجمالها، وسبَّحت الله جل جلاله على ما خلق من الصور المِلَاح، ولم تدخل ولم تغتسل وإنما صارت قاعدةً وباهتةً في الصَّبِية إلى أن فرغت الصَّبِية من الغسل وخرجت لبست ثيابها، فزادت حُسْنًا على حُسْنها. فلما خرجت من الحرارة قعدت على البساط والمساند، وصارت النساء ناظرات إليها، فالتفتَتْ إليهن وخرجت، فقامت تحفة العوادة جارية الخليفة وخرجت معها حتى عرفت بيتها وودَّعتها ورجعت إلى قصر الخليفة، وما زالت سائرة حتى وصلت بين أيادي السيدة زبيدة وقبَّلت الأرض بين يديها، فقالت السيدة زبيدة: يا تحفة، ما سبب إبطائك في الحمام؟ فقالت: يا سيدتي، رأيتُ أعجوبة ما رأيتُ مثلها في الرجال ولا في النساء، وهي التي شغلتني وأدهشت عقلي وحيَّرتني، حتى إنني ما غسلت رأسي. فقالت: وما هي يا تحفة؟ قالت: يا سيدتي، رأيت جاريةً في الحمام معها ولدان صغيران كأنهما قمران ما رأى أحد مثلها، لا قبلها ولا بعدها، وليس مثل صورتها في الدنيا بأسرها، وحقِّ نعمتك يا سيدتي إنْ عرَّفتِ بها أمير المؤمنين قتل زوجها وأخذها منه؛ لأنه لا يوجد مثلها واحدة من النساء، وقد سألتُ عن زوجها فقالوا إن زوجها رجل تاجر اسمه حسن البصري، وتبعتُها من الحمام إلى أن دخلت بيتها، فرأيته بيت الوزير الذي له بابان؛ باب من جهة البحر وباب من جهة البر، وأنا أخاف يا سيدتي أن يسمع بها أمير المؤمنين فيخالف الشرع ويقتل زوجها ويتزوَّج بها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن جارية أمير المؤمنين لما رأت زوجة حسن البصري ووصفت حُسْنها للسيدة زبيدة، قالت: يا سيدتي، إني أخاف أن يسمع بها أمير المؤمنين فيخالف الشرع ويقتل زوجها ويتزوَّج بها. فقالت السيدة زبيدة: ويلك يا تحفة، هل بلغَتْ هذه الجارية من الحُسْن والجمال أن أمير المؤمنين يبيع دينه بدنياه ويخالف الشَّرْعَ لأجلها؟ والله لا بد لي من النظر إلى هذه الصبية، فإن لم تكن كما ذكرتِ أمرتُ بضرب عنقك يا فاجرة، إن في سراية أمير المؤمنين ثلاثمائة وستين جاريةً بعدد أيام السنة، ما فيهن واحدة بالصفات التي تذكرينها. فقالت: يا سيدتي، لا والله ولا في بغداد بأسرها مثلها، بل ولا في العجم، ولا في العرب، ولا خلَقَ الله عزَّ وجل مثلَها. فعند ذلك دعَتِ السيدة زبيدة بمسرور، فحضر وقبَّلَ الأرض بين يدَيْها، فقالت له: يا مسرور، اذهبْ إلى دار الوزير التي ببابين؛ باب على البحر وباب على البر، وَائْتِ بالصبية التي هناك هي وأولادها والعجوز التي عندها بسرعة ولا تُبطِئْ. فقال مسرور: السمع والطاعة.

ثم خرج من بين يدَيْها وسار حتى وصل إلى باب الدار، فطرق الباب فخرجَتْ له العجوز أم حسن، وقالت: مَنْ بالباب؟ فقال لها: مسرور خادم أمير المؤمنين. ففتحَتِ الباب ودخل، فسلَّمَ عليها وسلَّمت عليه وسألته عن حاجته، فقال لها: إن السيدة زبيدة بنت القاسم زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد السادس من بني العباس عمِّ النبي ﷺ تدعوكِ إليها أنتِ وزوجة ابنكِ وأولادها، فإن النساء أخبَرْنَها عنها وعن حُسْنها. فقالت أم حسن: يا مسرور، نحن ناس غرباء، وزوج البنت ولدي وما هو في البلد، ولم يأمرني بالخروج أنا ولا هي لأحدٍ من خلق الله تعالى، وأنا أخاف أن يجري أمر ويحضر ولدي فيقتل روحه، فمن إحسانك يا مسرور ألَّا تكلِّفنا ما لا نطيق. فقال مسرور: يا سيدتي، لو علمتُ أن في هذا خوفًا عليكم ما كلَّفْتُكم الرواح، وإنما مرادُ السيدة أن تنظرها وترجع، فلا

تخالفي تندمي، وكما آخذكم أردكم إلى هنا سالمين إنْ شاء الله تعالى. فما قدرت أم حسن أن تخالفه، فدخلت وهيَّأت الصَّبِية وأخرجتها هي وأولادها، وساروا خلف مسرور وهو قدامهم إلى قصر الخليفة، فطلع بهم حتى أوقَفَهم قدام السيدة زبيدة؛ فقبَّلوا الأرض بين يديها ودَعَوْا لها، والصَّبِيةُ مستورة الوجه، فقالت لها السيدة زبيدة: أَمَا تكشفين عن وجهك لأنظره؟ فقبَّلَتِ الصَّبِية الأرضَ بين يديها وأسفرَتْ عن وجهٍ يُخجِل البدر في أفق السماء، فلما نظرتها السيدة زبيدة شخصت إليها وسرحت فيها البصر، وأضاء القصر من نورها وضوء وجهها، واندهشَتْ زبيدة من حُسْنها، وكذلك كلُّ مَن في القصر، وصار كلُّ مَن رآها مجنونًا لا يقدر أن يكلِّمَ أحدًا.

ثم إن السيدة زبيدة قامت وأوقفت الصبية وضمَّتْها إلى صدرها وأجلستها معها على السرير، وأمرت أن يزيِّنوا القصر، ثم أمرت بأن يحضروا لها بدلةً من أفخر الملبوس، وعقدًا من أنفس الجواهر، وألبسَتِ الصبية إياهما وقالت لها: يا سيدة الملاح، إنك أعجبتِني وملأت عيني، أيُّ شيء عندك من الذخائر؟ فقالت الصبية: يا سيدتي، لي ثوب ريش لو لبستُه بين يديك لَرأيتِ من أحسن الصنائع ما تتعجبين منه، ويتحدث بحُسْنه كلُّ مَن يراه جيلًا بعد جيل. فقالت: وأين ثوبك هذا؟ قالت: هو عند أم زوجي فاطلبيه لي منها. فقالت السيدة زبيدة: يا أمي، بحياتي عندك أن تنزلي وتأتي لها بثوبها الريش حتى تفرِّجنا على الذي تعمله وخذيه ثانيًا. فقالت العجوز: يا سيدتي، هذه كذَّابة، هل رأينا أحدًا من النساء له ثوب من الريش؟ فهذا لا يكون إلا للطيور. فقالت الصَّبِية للسيدة زبيدة: وحياتك يا سيدتي، لي عندها ثوب ريش وهو في صندوق مدفون في الخزانة التي في الدار. فقلعَتِ السيدة زبيدة من عنقها عقدَ جوهر يساوي خزائنَ كسرى وقيصر، وقالت لها: يا أمي، خذي هذا العقد. وناولتها إياه وقالت لها: بحياتي أن تنزلي وتأتي بذلك الثوب لنتفرَّج عليه، وخذيه بعد ذلك. فحلفت لها أنها ما رأت هذا الثوب ولا تعرف له طريقًا، فصرخت السيدة زبيدة على العجوز وأخذت منها المفتاح، ونادت مسرورًا فحضر فقالت له: خُذْ هذا المفتاح واذهب إلى الدار، وافتحها وادخل الخزانة التي بابها كذا وكذا، وفي وسطها صندوق فأطلعه واكسره، وهات الثوب الريش الذي فيه، وأَحْضِره بين يدي. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة زبيدة لما أخذت المفتاح من أم حسن وأعطته لمسرور، وقالت له: خذ هذا المفتاح وافتح الخزانة الفلانية، وأطلع منها الصندوق واكسره، وأطلع منه الثوب الريش الذي فيه وأَحْضِره بين يدي. قال: سمعًا وطاعة. ثم إنه تناول المفتاح من يد السيدة زبيدة وسار، فقامت معه العجوز أم حسن وهي باكية العين ندمانة على مطاوعة الجارية ورواحها الحمام معها، ولم تكن الصَّبِية طلبت الحمام إلا مكيدةً. ثم إن العجوز دخلت هي ومسرور وفتحت باب الخزانة، فدخل وأخرَجَ الصندوق وأخرَجَ منه القميص الريش ولفَّه معه في فوطة، وأتى به إلى السيدة زبيدة، فأخذته وقلَّبَتْه وقد تعجَّبَتْ من حُسْن صناعته، ثم ناولَتْه لها وقالت لها: هل هذا ثوبك الريش؟ قالت: نعم يا سيدتي. ومدت الصَّبِية يدَها إليه وأخذته منها وهي فرحانة. ثم إن الصبية تفقَّدَتْه فرأته صحيحًا كما كان عليها، ولم يَضِعْ منه ريشة، ففرحت به وقامت من جنب السيدة زبيدة وأخذت القميص وفتحته، وأخذت أولادها في حضنها واندرجت فيه، وصارت طيرة بقدرة الله عز وجل؛ فتعجَّبَتِ السيدة زبيدة من ذلك، وكذلك كلُّ مَن حضر، وصار الجميع يتعجبون من فعلها. ثم إن الصبية تمايلت وتمشَّتْ ورقصت ولعبت، وقد شخص لها الحاضرون وتعجَّبوا من فعلها، ثم قالت لهم بلسان فصيح: يا سادتي، هل هذا مليح؟ فقال لها الحاضرون: نعم يا سيدة المِلَاح، كل ما فعلتِه مليح. ثم قالت لهم: وهذا الذي أعمله أحسن منه يا سادتي. وفتحت أجنحتها وطارت بأولادها وصارت فوق القبة، ووقفت على سطح القاعة فنظروا إليها بالأحداق، وقالوا لها: والله إن هذه صنعة غريبة مليحة ما رأيناها قطُّ. ثم إن الصبية

لما أرادَتْ أن تطير إلى بلادها تذكَّرَتْ حَسَنًا، وقالت: اسمعوا يا ساداتي. وأنشدت هذه الأبيات:

يَا مَنْ خَلَا عَنْ ذِي الدِّيَارِ وَسَارَ   نَحْوَ الْحَبَائِبِ مُسْرِعًا فَرَّارَا
أَتَظُنُّ أَنِّي فِي نَعِيمٍ بَيْنَكُمْ   وَالْعَيْشُ مِنْكُمْ لَمْ يَكُنْ أَكْدَارَا
لَمَّا أُسِرْتُ وَصِرْتُ فِي شَرَكِ الْهَوَى   جَعَلَ الْهَوَى سِجْنِي وَشَطَّ مَزَارَا
لَمَّا اخْتَفَى ثَوْبِي تَيَقَّنَ أَنَّنِي   لَمْ أَدْعُ فِيهِ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَا
قَدْ صَارَ يُوصِي أُمَّهُ بِحِفَاظِهِ   فِي مَخْدَعٍ وَعَدَا عَلَيَّ وَجَارَ
فَسَمِعْتُ مَا قَالُوهُ ثُمَّ حَفِظْتُهُ   وَرَجَوْتُ خَيْرًا زَائِدًا مِدْرَارَا
فَرَوَاحِيَ الْحَمَّامَ كَانَ وَسِيلَةً   حَتَّى غَدَتْ فِيَّ الْعُقُولُ حَيَارَى
وَتَعَجَّبَتْ عِرْسُ الرَّشِيدِ لِبَهْجَتِي   إِذْ شَاهَدَتْنِي يَمْنَةً وَيَسَارَا
نَادَيْتُ يَا امْرَأَةَ الْخَلِيفَةِ إِنَّ لِي   ثَوْبًا مِنَ الرِّيشِ الْعَلِيِّ فَخَارَا
لَوْ كَانَ فَوْقِي تَنْظُرِينَ عَجَائِبًا   تَمْحُو الْعَنَا وَتُبَدِّدُ الْأَكْدَارَا
فَاسْتَفْسَرَتْ عِرْسُ الْخَلِيفَةِ أَيْنَ ذَا   فَأَجَبْتُ فِي دَارِ الَّذِي قَدْ دَارَى
فَانْقَضَّ مَسْرُورٌ وَحَضَّرَهُ لَهَا   وَإِذَا بِهِ قَدْ أَشْرَقَ الْأَنْوَارَا
فَأَخَذْتُهُ مِنْ كَفِّهِ وَفَتَحْتُهُ   وَرَأَيْتُ مِنْهُ الْجَيْبَ وَالْأَزْرَارَا
فَدَخَلْتُ فِيهِ ثُمَّ أَوْلَادِي مَعِي   وَفَرَدْتُ أَجْنِحَتِي وَطِرْتُ فِرَارَا
يَا أُمَّ زَوْجِي أَخْبِرِيهِ إِذَا أَتَى   إِنْ حَبَّ وَصْلِي فَلْيُفَارِقْ دَارَا

فلما فرغَتْ من شعرها قالت لها السيدة زبيدة: أَمَا تنزلين عندنا حتى نتملَّى بحُسْنك يا سيدة المِلَاح؟ فسبحان مَن أعطاك الفصاحة والصباحة! قالت: هيهات أن يرجع ما فات. ثم قالت لأم حسن الحزين المسكين: والله يا سيدتي يا أم حسن، إنك توحشينني، فإذا جاء ولدك وطالت عليه أيام الفراق، واشتهى القُرْبَ والتلاق، وهزَّتْه أرياح المحبة والأشواق، فَلْيَجِئْني إلى جزائر واق. ثم طارت هي وأولادها وطلبت بلادها، فلما رأت أم حسن ذلك بكت ولطمت وجهها وانتحبت حتى غُشِي عليها، فلما أفاقت قالت لها السيدة زبيدة: يا سيدتي الحاجة، ما كنتُ أعرف أن هذا يجري، ولو كنتِ أخبرتِني به ما كنتُ أتعرَّض لكِ، وما عرفتُ أنها من الجن الطيَّارة إلا في هذا الوقت، ولو عرفتُ أنها على هذه الصفة ما كنتُ مكَّنْتُها من لبس الثوب، ولا كنتُ أخليها تأخذ أولادها، ولكن يا سيدتي اجعليني في حِلٍّ. فقالت العجوز، وما وجدَتْ في يدها حيلةً: أنتِ في حِلٍّ. ثم خرجت من قصر الخلافة،

ولم تَزَلْ سائرة حتى دخلت بيتها، وصارت تلطم على وجهها حتى غُشِي عليها، فلما أفاقت من غشيتها استوحشت إلى الصَّبِية وإلى أولادها وإلى رؤية ولدها، فأنشدت هذه الأبيات:

يَوْمَ الْفِرَاقِ بِعَادُكُمْ أَبْكَانِي ... أَسَفًا لِبُعْدِكُمُ عَنِ الْأَوْطَانِ
نَادَيْتُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ بِحُرْقَةٍ ... وَالدَّمْعُ قَرَّحَ بِالْبُكَا أَجْفَانِي
هَذَا الْفِرَاقُ فَهَلْ لَنَا مِنْ عَوْدَةٍ ... فَلَقَدْ أَزَالَ فِرَاقُكُمْ كِتْمَانِي
يَا لَيْتَهُمْ عَادُوا إِلَى حُسْنِ الْوَفَا ... فَلَعَلَّ إِنْ عَادُوا يَعُودُ زَمَانِي

ثم قامت وحفرت في البيت ثلاثة قبور، وأقبلت عليها بالبكاء آناءَ الليل وأطراف النهار، وحين طالت غيبة ولدها وزاد بها القلق والشوق والحزن، أنشدت هذه الأبيات:

خَيَالُكَ بَيْنَ طَابِقَةِ الْجُفُونِ ... وَذِكْرُكَ فِي الْخَوَافِقِ وَالسُّكُونِ
وَحُبُّكَ قَدْ جَرَى فِي الْعَظْمِ مِنِّي ... كَجَرْيِ الْمَاءِ فِي ثَمَرِ الْغُصُونِ
وَيَوْمٌ لَا أَرَاكَ يَضِيقُ صَدْرِي ... وَتَعْذِرُنِي الْعَوَاذِلُ فِي شُجُونِي
أَيَا مَنْ قَدْ تَمَلَّكَنِي هَوَاهُ ... وَزَادَ عَلَى مَحَبَّتِهِ جُنُونِي
خَفِ الرَّحْمَنَ فِيَّ وَكُنْ رَحِيمًا ... هَوَاكَ أَذَاقَنِي رَيْبَ الْمَنُونِ

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أم حسن صارت تبكي آناء الليل وأطراف النهار لفراق ولدها وزوجته وأولاده. هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر ولدها حسن، فإنه لما وصل إلى البنات حلفن عليه أن يقيم عندهن ثلاثة أشهر، ثم بعد ذلك جهَّزْنَ له المال وهيَّأْنَ له عشرة أحمال؛ خمسة من الذهب، وخمسة من الفضة، وهيَّأْنَ له من الزاد حملًا واحدًا، وسفَّرْنَه وخرجْنَ معه، فحلف عليهن أن يرجعْنَ، فأقبلْنَ على عناقه من أجل التوديع، فتقدَّمت إليه البنت الصغيرة وعانَقَتْه وبكَتْ حتى غُشِيَ عليها، وأنشدت هذين البيتين:

مَتَى تَنْطَفِي نَارُ الْفِرَاقِ بِقُرْبِكُمْ وَنَقْضِي عَلَى الْفِرْقَةِ وَنَبْقَى كَمَا كُنَّا
لَقَدْ رَاعَنِي يَوْمَ الْفِرَاقِ وَضَرَّنِي وَقَدْ زَادَنِي التَّوْدِيعُ يَا سَادَتِي وَهْنَا

ثم تقدَّمت البنت الثانية وعانقته، وأنشدت هذين البيتين:

وَدَاعُكَ مِثْلُ وَدَاعِ الْحَيَاةِ وَفَقْدُكَ يُشْبِهُ فَقْدَ النَّدِيمِ
وَبُعْدُكَ نَارٌ كَوَتْ مُهْجَتِي وَقُرْبُكَ عِنْدِي أَرْضُ النَّعِيمِ

ثم تقدَّمت الثالثة وعانقته، وأنشدت هذين البيتين:

مَا تَرَكْنَا الْوَدَاعَ يَوْمَ افْتَرَقْنَا عَنْ مَلَالٍ وَلَا لِوَجْهٍ قَبِيحِ
أَنْتَ رُوحِي عَلَى الْحَقِيقَةِ قَطْعًا كَيْفَ أَخْتَارُ أَنْ أُوَدِّعَ رُوحِي

ثم تقدَّمت البنت الرابعة وعانقته، وأنشدت هذين البيتين:

لَمْ يُبْكِنِي إِلَّا حَدِيثُ فِرَاقِهِ ... لَمَّا أَسَرَّ بِهِ إِلَيَّ مُوَدِّعِي
هُوَ ذَلِكَ الْقَوْلُ الَّذِي أَوْدَعْتَهُ ... فِي مَسْمَعِي أَجْرَيْتَهُ مِنْ مَدْمَعِي

ثم تقدَّمت البنت الخامسة وعانقته، وأنشدت هذين البيتين:

لَا تَرْحَلَنَّ فَعَنْكُمْ لَيْسَ لِي جَلَدٌ ... كَيْمَا أُوَدِّعَكُمْ تَوْدِيعَ مُرْتَحِلِ
وَلَا مِنَ الصَّبْرِ مَا أَلْقَى الْفِرَاقَ بِهِ ... وَلَا مِنَ الدَّمْعِ مَا أُذْرِي عَلَى طَلَلِ

ثم تقدَّمت البنت السادسة وعانقته، وأنشدت هذين البيتين:

قَدْ قُلْتُ مُذْ سَارَ السَّفِينُ بِهِمْ ... وَالشَّوْقُ يَنْهَبُ مُهْجَتِي نَهْبَا
لَوْ كَانَ لِي مُلْكٌ أَصُولُ بِهِ ... لَأَخَذْتُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبَا

ثم تقدَّمت البنت السابعة وعانقته، وأنشدت هذين البيتين:

إِذَا رَأَيْتَ الْوَدَاعَ فَاصْبِرْ ... وَلَا يَهُولَنَّكَ الْبِعَادُ
تَرَقَّبِ الْعَوْدَ عَنْ قَرِيبٍ ... فَإِنْ هَجَرْتَ الْوَدَاعَ عَادُوا

ثم إن حسنًا ودَّعهن وبكى إلى أن غُشِي عليه بسبب فراقهم، وأنشَدَ هذه الأبيات:

وَلَقَدْ جَرَتْ يَوْمَ الْفِرَاقِ سَوَاجِمِي ... دُرَرًا نَظَمْتُ عُقُودَهَا مِنْ أَدْمُعِي
وَحَدَا بِهِمْ حَادِي الرِّكَابِ فَلَمْ أَجِدْ ... جَلَدًا وَلَا صَبْرًا وَلَا قَلْبِي مَعِي
وَدَّعْتُهُمْ ثُمَّ انْثَنَيْتُ بِحَسْرَةٍ ... وَتَرَكْتُ أُنْسَ مَعَاهِدِي وَالْأَرْبُعِ
فَرَجَعْتُ لَا دَرَّ الطَّرِيقُ وَلَمْ تَطِبْ ... نَفْسِي سِوَى أَنِّي أَرَاكَ بِمَرْجِعِي
يَا صَاحِبِي أَنْصِتْ لِأَخْبَارِ الْهَوَى ... حَاشَى لِقَلْبِكَ أَنْ أَقُولَ وَلَا يَعِي
يَا نَفْسُ مُذْ فَارَقْتِهِنَّ فَفَارِقِي ... طِيبَ الْحَيَاةِ وَفِي الْبَقَا لَا تَطْمَعِي

ثم إنه جَدَّ في المسير ليلًا ونهارًا حتى وصل إلى بغداد دار السلام وحرم الخلافة العباسية، ولم يَدْرِ بالذي جرى بعد سفره، فدخل الدار على والدته ليسلِّم عليها، فرآها قد انتحل جسمها ورقَّ عظمها من كثرة النوح والسهر والبكاء والعويل، حتى صارت

مثل الخلال، ولم تقدر أن تردَّ الكلام، فصرف النجائب وتقدَّمَ إليها، فلما رآها على تلك الحالة قام في الدار وفتَّش على زوجته وعلى أولاده، فلم يجد لهم أثرًا، ثم إنه نظر في الخزانة فوجدها مفتوحة والصندوق مفتوحًا، ولم يجد فيه الثوب؛ فعند ذلك عرف أنها تمكَّنت من الثوب الريش وأخذته وطارت، وأخذت أولادها معها، فرجع إلى أمه فرآها قد أفاقت من غشيتها، فسألها عن زوجته وعن أولاده، فبكت وقالت: يا ولدي، عظَّمَ الله أجرك فيهم، وهذه قبورهم الثلاثة. فلما سمع كلام أمه صرخ صرخةً عظيمة، وخرَّ مَغْشِيًّا عليه، واستمر كذلك من أول النهار إلى الظهر، فازدادت أمه غمًّا على غمها، وقد يئست من حياته، فلما أفاق بكى ولطم على وجهه، وشقَّ ثيابه وصار دائرًا في الدار متحيِّرًا، ثم إنه أنشد هذين البيتين:

شَكَا أَلَمَ الْفِرَاقِ النَّاسُ قَبْلِي وَرُوِّعَ بِالنَّوَى حَيٌّ وَمَيْتُ
وَأَمَّا مِثْلُ مَا ضَمَّتْ ضُلُوعِي فَإِنِّي لَا سَمِعْتُ وَلَا رَأَيْتُ

فلما فرغ من شعره أخذ سيفه وسَلَّه، وجاء إلى أمه وقال لها: إنْ لم تُعلِميني بحقيقة الحال ضربتُ عنقكِ وقتلتُ روحي. فقالت له: يا ولدي، لا تفعل ذلك وأنا أخبرك. ثم قالت له: أغمِدْ سيفك واقعدْ حتى أحدِّثك بالذي جرى. فلما أغمَدَ سيفه وجلس إلى جانبها أعادت عليه القصة من أولها إلى آخِرها، وقالت له: يا ولدي، لولا أني رأيتها بكَتْ على طلب الحمَّام، وخفتُ منك أن تجيء وتشكو إليك فتغضب عليَّ، ما كنتُ ذهبت بها إليه، ولولا أن السيدة زبيدة غضبت عليَّ وأخذت مني المفتاح قهرًا ما كنتُ أخرجت الثوب، ولو كنتُ أموت. ويا ولدي، أنت تعرف أن يد الخلافة لا تطاولها يد، فلما أحضروا لها الثوب أخذته وقلَّبته وكانت تظن أنه فُقِد منه شيء، فوجدته لم يُصِبْه شيءٌ، ففرحت وأخذت أولادها وشدَّتْهم في وسطها، ولبست الثوب الريش بعدما قلعت لها السيدة زبيدة كلَّ ما عليها إكرامًا لها ولجمالها، فلما لبست الثوب الريش انتفضت وصارت طيرة، ومشت في القصر وهم ينظرون إليها ويتعجبون من حُسْنها وجمالها، ثم طارت وصارت فوق القصر، وبعد ذلك نظرت إليَّ وقالت لي: إذا جاء ولدك وطالت عليه ليالي الفراق، واشتهى القُرْبَ مني والتلاق، وهزَّتْه أرياح المحبة والأشواق، فَلْيفارِقْ وطنه ويذهب إلى جزائر واق. هذا ما كان من حديثها في غيبتك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حسنًا لما سمع كلام أمه حين حكَتْ له جميع ما فعلَتْ زوجته وقتما طارت، صرخ صرخة عظيمة ووقع مَغْشِيًّا عليه، ولم يزل كذلك إلى آخِر النهار، فلما أفاق لطم على وجهه وصار يتقلَّب على الأرض مثل الحية، فقعدت أمه تبكي عند رأسه إلى نصف الليل، فلما أفاق من غشيته بكى بكاءً عظيمًا وأنشد هذه الأبيات:

قِفُوا وَانْظُرُوا حَالَ الَّذِي تَهْجُرُونَهُ   لَعَلَّكُمُ بَعْدَ الْجَفَا تَرْحَمُونَهُ
فَإِنْ تَنْظُرُوهُ تُنْكِرُوهُ لِسَقْمِهِ   كَأَنَّكُمُ وَاللهِ لَا تَعْرِفُونَهُ
وَمَا هُوَ إِلَّا مَيِّتٌ فِي هَوَاكُمُ   يُعَدُّ مِنَ الْأَمْوَاتِ إِلَّا أَنِينَهُ
وَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ التَّفَرُّقَ هَيِّنٌ   يَعِزُّ عَلَى الْمُشْتَاقِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ

فلما فرغ من شعره قام وجعل يدور في البيت، وينوح ويبكي وينتحب مدة خمسة أيام، ولم يَذُقْ فيها طعامًا ولا شرابًا، فقامت إليه أمه وحلَّفته وأقسمت عليه أن يسكت من البكاء، وهو لا يقبل كلامها، وما زال يبكي وينتحب وأمه تُسْلِيه وهو لا يسمع منها شيئًا، ثم أنشد هذه الأبيات:

أَكَذَا يُجَازَى وُدُّ كُلِّ قَرِينِ   أَمْ هَذِهِ شِيَمُ الظِّبَاءِ الْعِينِ
أَفَمَا بُيُوتُ النَّحْلِ بَيْنَ شِفَاهِهِمْ   مَنْضُوضَةٌ أَوْ حَانَةُ الزَّرْجُونِ
قُصُّوا عَلَيَّ حَدِيثَ مَنْ قَتَلَ الْهَوَى   إِنَّ التَّأَسِّي رُوحُ كُلِّ حَزِينِ
وَوَرَاءَ ذَيَّاكِ الْمُصَلَّى مَوْرِدٌ   حَصَبَاؤُهُ مِنْ لُؤْلُؤٍ مَكْنُونِ

لَوْ كُنْتُ زَرْقَاءَ الْيَمَامَةِ مَا رَأَتْ ... مِنْ بَارِقٍ حَيًّا عَلَى جَيْرُونِ
تَرْمِي بِعَيْنَيْكَ الْفُجَاجَ مُقَلِّبًا ... ذَاتَ الشِّمَالِ بِهَا وَذَاتَ يَمِينِ

وما زال حسن على هذه الحالة يبكي إلى الصباح، ثم إنه أغفَتْ عيناه فرأى زوجته حزينةً وهي تبكي، فقام من نومه وهو صارخ وأنشد هذين البيتين:

خَيَالُكِ عِنْدِي لَيْسَ يَبْرَحُ سَاعَةً ... جَعَلْتُ لَهُ فِي الْقَلْبِ أَشْرَفَ مَوْضِعِ
وَلَوْلَا رَجَاءُ الْوَصْلِ مَا عِشْتُ لَحْظَةً ... وَلَوْلَا خَيَالُ الطَّيْفِ لَمْ أَتَهَجَّعِ

فلما أصبح الصباح زاد نحيبه وبكاؤه، ولم يزل باكيَ العين، حزينَ القلب، ساهر الليل، قليل الأكل، واستمر على هذه الحالة مدة شهر كامل، فلما مضى ذلك الشهر خطر بباله أنه يسافر إلى أخواته لأجل أن يساعِدْنَه على قصده من حصولها، فأحضَرَ النجائب ثم حمَّلَ هجينةً من تحف العراق وركب واحدة منها، ثم أوصى والدته على البيت وأودَعَ جميع حوائجه إلا قليلًا أبقاه في الدار، ثم سار متوجِّهًا إلى أخواته لعله أن يجد عندهن مساعدة على اجتماع زوجته. ولم يزل سائرًا حتى وصل إلى قصر البنات في جبل السحاب، فلما دخل عليهن قدَّمَ إليهن الهدايا، ففَرِحْنَ بها وهنَّأْنَه بالسلامة، وقلن له: يا أخانا، ما سبب مجيئك بسرعة، وما لك غير شهرين؟ فبكى وأنشَدَ هذه الأبيات:

أَرَى النَّفْسَ فِي فِكْرٍ لِفَقْدِ حَبِيبِهَا ... فَلَا تَتَهَنَّى بِالْحَيَاةِ وَطِيبِهَا
سَقَامِيَ دَاءٌ لَيْسَ يُعْرَفُ طِبُّهِ ... وَهَلْ يُبْرِئُ الْأَسْقَامَ غَيْرُ طَبِيبِهَا
فَيَا مَانِعِي طِيبَ الْمَنَامِ تَرَكْتَنِي ... أُسَائِلُ عَنْكَ الرِّيحَ عِنْدَ هُبُوبِهَا
قَرِيبَةُ عَهْدٍ مِنْ حَبِيبِي وَقَدْ حَوَى ... مَحَاسِنَ تَدْعُو مُقْلَتِي لِصَبِيبِهَا
فَيَا أَيُّهَا الشَّخْصُ الْمُلِمُّ بِأَرْضِهِ ... عَسَى نَفْحَةٌ تُحْيِي الْقُلُوبَ بِطِيبِهَا

فلما فرغ من شعره صرخ صرخة عظيمة وخرَّ مَغْشِيًّا عليه، وقعدت البنات حوله يبكين عليه حتى أفاق من غشيته، فلما أفاق أنشد هذين البيتين:

عَسَى وَلَعَلَّ الدَّهْرَ يَلْوِي عِنَانَهُ ... وَيَأْتِي بِحِبِّي وَالزَّمَانُ غَيُورُ
وَيُسْعِدُنِي دَهْرِي فَتُقْضَى حَوَائِجِي ... وَتَحْصُلُ مِنْ بَعْدِ الْأُمُورِ أُمُورُ

فلما فرغ من شعره بكى حتى غُشِي عليه، فلما أفاق أنشد هذين البيتين:

بِاللهِ يَا مُنْتَهَى سَقْمِي وَأَمْرَاضِي هَلْ أَنْتَ رَاضٍ فَإِنِّي فِي الْهَوَى رَاضِ
أَتَهْجُرِينَ بِلَا ذَنْبٍ وَلَا سَبَبٍ فَوَاصِلِي وَارْحَمِي مِنْ هَجْرِكِ الْمَاضِي

فلما فرغ من شعره بكى حتى غُشِي عليه، فلما أفاق أنشد هذه الأبيات:

هَجَرَ الْمَنَامَ وَوَاصَلَ التَّسْهِيدَ وَالْعَيْنُ بِالدَّمْعِ الْمَصُونِ تَجُودُ
تَبْكِي بِدَمْعٍ كَالْعَقِيقِ صَبَابَةً يَرْبُو عَلَى طُولِ الْمَدَى وَيَزِيدُ
أَهْدَى إِلَيَّ الشَّوْقُ يَا أَهْلَ الْهَوَى نَارًا لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ وَقُودُ
وَإِذَا ذَكَرْتُكِ لَمْ تَفِضْ لِي دَمْعَةٌ إِلَّا وَفِيهَا بَارِقٌ وَرُعُودُ

فلما فرغ من شعره بكى حتى غُشِي عليه، فلما أفاق من غشيته أنشد هذه الأبيات:

أَفِي الْعِشْقِ وَالتَّبْرِيحِ دُنْتُمْ كَمَا دُنَّا وَهَلْ وُدُّنَا مِنْكُمْ كَمَا وُدُّكُمْ مِنَّا
أَلَا قَاتَلَ اللهُ الْهَوَى مَا أَمَرَّهُ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي مَا يُرِيدُ الْهَوَى مِنَّا
وُجُوهُكُمُ الْحَسْنَاءُ إِنْ شَطَّتِ النَّوَى تَمَثَّلُ فِي أَبْصَارِنَا أَيْنَمَا كُنَّا
فَقَلْبِيَ مَشْغُولٌ بِتَذْكَارِ حَيِّكُمْ وَيُطْرِبُنِي صَوْتُ الْحَمَامِ إِذَا غَنَّى
أَلَا يَا حَمَامًا بَاتَ يَدْعُو أَلِيفَهُ لَقَدْ زِدْتَنِي شَوْقًا وَأَصْحَبْتَنِي حُزْنَا
تَرَكْتَ جُفُونِي لَا تَمَلُّ مِنَ الْبُكَا عَلَى سَادَةٍ غَابُوا بِرُؤْيَتِهِمْ عَنَّا
أَحِنُّ إِلَيْهِمْ كُلَّ وَقْتٍ وَسَاعَةٍ وَأَشْتَاقُهُمْ فِي اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ قَدْ جَنَّ

فلما سمعَتْ كلامَه أختُه، خرجَتْ إليه فرأته راقدًا مَغْشِيًّا عليه، فصرخت ولطمت وجهها، فسمعها أخواتها فخرجْنَ إليها، فرأيْنَ حسنًا راقدًا مَغْشِيًّا عليه، فاحتطْنَ به وبكين عليه، ولم يَخْفَ عليهن حين رأينه ما حلَّ به من الوَجْد والهيام والشوق والغرام، فسألنه عن حاله، فبكى وأخبرهن بما جرى له في غيابه حيث طارت زوجته وأخذت أولادها معها، فحَزِنَّ عليها وسألْنَه عن الذي قالت عندما راحت، قال: يا أخواتي إنها قالت لوالدتي: قولي لولدك إذا جاء وطالت عليه ليالي الفراق، واشتهى القُربَ مني والتلاق، وهزَّتْه أرياح المحبة والأشواق، فَلْيَجِئني إلى جزائر واق. فلما سمعن كلامه تغامزْنَ وتذكَّرْنَ، وصارت

كل واحدة تنظر إلى أختها وحسن ينظرهن، ثم أطرقْنَ برءوسهن إلى الأرض ساعة، وبعد ذلك رفعْنَها وقلن: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ثم قلن له: امدُدْ يدَكَ إلى السماء، فإنْ وصلت إلى السماء تصل إلى زوجتك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٧٩٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن البنات لما قلنَ لحسن: امدُدْ يدك إلى السماء، فإنْ وصلَتْ إليها تصل إلى زوجتك وأولادك. جرَتْ دموعه على خديه مثل المطر حتى بلت ثيابه، وأنشَدَ هذه الأبيات:

قَدْ هَيَّجَتْنِي الْخُدُودُ الْحُمْرُ وَالْحَدَقُ ... وَفَارَقَ الصَّبْرُ لَمَّا أَقْبَلَ الْأَرَقُ
بِيضٌ نَوَاعِمُ أَضنَتْ بِالْجَفَا جَسَدِي ... لَمْ يَبْقَ مِنْهُ لِأَبْصَارِ الْوَرَى رَمَقُ
حُورٌ تَمِيسُ كَغِزْلَانِ النَّقَا سَفَرَتْ ... عَنْ بَهْجَةٍ لَوْ رَآهَا الْأَوْلِيَا عَلِقُوا
يَمْشِينَ مِثْلَ نَسِيمِ الرَّوْضِ فِي سَمَرٍ ... بِعِشْقِهِنَّ عَرَانِي الْهَمُّ وَالْقَلَقُ
عَلَّقْتُ مِنْهُنَّ آمَالِي بِغَانِيَةٍ ... قَلْبِي لَهَا بِلَظَى النِّيرَانِ يَحْتَرِقُ
خَوْدَاءُ نَاعِمَةُ الْأَطْرَافِ مَايِسَةٌ ... فِي وَجْهِهَا الصُّبْحُ بَلْ فِي شَعْرِهَا الْغَسَقُ
قَدْ هَيَّجَتْنِي وَكَمْ فِي الْحُبِّ مِنْ بَطَلٍ ... قَدْ هَيَّجَتْهُ جُفُونُ الْبِيضِ وَالْحَدَقُ

فلما فرغ من شعره بكى وبكت البنات لبكائه، وأخذتهن الشفقة والغيرة عليه، وصِرْنَ يتلطَّفْنَ به ويصبِّرْنَه ويدعِينَ له بجمع الشمل، فأقبلَتْ عليه أخته وقالت له: يا أخي، طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، واصبر تبلغ مرادك، فمَنْ صبَرَ وتأنَّى نالَ ما تمنَّى، والصبر مفتاح الفرج؛ فقد قال الشاعر:

دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعِنَّتِهَا ... وَلَا تَبِيتَنَّ إِلَّا خَالِيَ الْبَالِ
مَا بَيْنَ غَمْضَةِ عَيْنٍ وَانْتِبَاهَتِهَا ... يُغَيِّرُ اللهُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالِ

ثم قالت له: قوِّ قلبك واشدُدْ عزمك، فإن ابن عشرة لا يموت وهو في تسعة، والبكاء والغم والحزن تمرض وتسقم، واقعد عندنا حتى تستريح، وأنا أتحيَّلُ لك في الوصول إلى زوجتك وأولادك إنْ شاء الله تعالى. فبكى بكاءً شديدًا وأنشَدَ هذين البيتين:

لَئِنْ عُوفِيتُ مِنْ مَرَضٍ بِجِسْمِي فَمَا عُوفِيتُ مِنْ مَرَضٍ بِقَلْبِي
وَلَيْسَ دَوَاءُ أَمْرَاضِ التَّصَابِي سِوَى وَصْلِ الْحَبِيبِ مَعَ الْمُحِبِّ

ثم جلس إلى جانب أخته وصارت تحدِّثه وتسليه وتسأله عن الذي كان سببًا في رواحها، فأخبرها عن سبب ذلك، فقالت له: والله يا أخي إني أردتُ أن أقول لك أحرق الثوبَ الريش، فأنساني الشيطان ذلك. وصارت تحدِّثه وتلاطفه، فلما طال عليه الأمر وزاد به القلق، أنشد هذه الأبيات:

تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِي حَبِيبٌ أَلِفْتُهُ وَلَيْسَ لِمَا قَدْ قَدَّرَ اللهُ مَدْفَعُ
مِنَ الْعُرْبِ قَدْ حَازَ الْمَلَاحَةَ كُلَّهَا غَزَالٌ وَلَكِنْ فِي فُؤَادِيَ يَرْتَعُ
لَئِنْ عَزَّ صَبْرِي فِي هَوَاهُ وَحِيلَتِي بَكَيْتُ عَلَى أَنَّ الْبُكَا لَيْسَ يَنْفَعُ
مَلِيحٌ لَهُ سَبْعٌ وَسَبْعٌ كَأَنَّهُ هِلَالٌ لَهُ خَمْسٌ وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُ

فلما نظرت أخته إلى ما هو فيه من الوَجْد والهيام، وتباريح الهوى والغرام، قامت إلى أخواتها وهي باكية العين حزينة القلب، وبكت بين أيديهن ورمَتْ نفسها عليهن، وقبَّلت أقدامهن وسألتهن مساعدةَ أخيها على قضاء حاجته، واجتماعه بأولاده وزوجته، وعاهدتهن على أن يدبِّرْنَ أمرًا يوصله إلى جزائر واق. وما زالت تبكي بين يدي أخواتها حتى أبكتهن وقلن لها: طيبي قلبك، فإننا مجتهدات في اجتماعه بأهله إن شاء الله. ثم إنه أقام عندهن سنةً كاملة وعينه لم تُمسِك عن الدموع، وكان لأخواته عمٌّ أخو والدهن شقيقه، وكان اسمه عبد القدوس، وكان يحب البنت الكبيرة محبةً كثيرة، وكان في كل سنة يزورها مرة واحدة ويقضي حوائجها، وكانت البنات قد حدَّثْنَه بحديث حسن وما وقع له مع المجوسي، وكيف قدر على قتله، ففرح عمهن بذلك ودفع للبنت الكبيرة صرَّةً فيها بخور، وقال لها: يا بنت أخي، إذا أَهَمَّكِ أمرٌ ونالَكِ مكروهٌ، أو عرضَتْ لكِ حاجة، فألْقِي هذا البخورَ في النار واذكريني فإني أحضر لك بسرعةٍ وأقضي حاجتك. وكان هذا الكلام في أول يوم من السنة، فقالت تلك البنت لبعض أخواتها: إن السنة مضَتْ بتمامها

وعمي لم يحضر، قومي اقدحي الزناد وائتيني بعلبة البخور. فقامت البنت وهي فرحانة وأحضرت علبة البخور وفتحَتْها وأخذت منها شيئًا يسيرًا وناوَلَتْه لأختها، فأخذته ورَمَتْه في النار وذكرت عمها، فما فرغ البخور إلا وغبرة قد ظهرت من صدر الوادي، ثم بعد ساعة انكشف الغبار فبانَ من تحته شيخ راكب على فيل وهو يصيح من تحته، فلما نظرَتْه البنات صار يشير إليهن بيدَيْه ورجلَيْه، ثم بعد ساعة وصل إليهن فنزل عن الفيل ودخل عليهن، فعانقْنَه وقبَّلْنَ يديه وسلَّمْنَ عليه، ثم إنه جلس وصارت البنات يتحدَّثن معه ويسألنه عن غيابه، فقال: إني كنتُ في هذا الوقت جالسًا أنا وزوجة عمكن فشممتُ البخور، فحضرتُ إليكن على هذا الفيل، فما تريدين يا بنت أخي؟ فقالت: يا عم، إننا اشتقنا إليكَ وقد مضَتِ السنةُ، وما عادتك أن تغيب عنَّا أكثرَ من سنة. فقال لهن: إني كنتُ مشغولًا وكنتُ عزمت على أن أحضر إليكن غدًا. فشكرَنْه ودعَوْنَ له وقعَدْنَ يتحدَّثن معه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن البنات لما قعدن يتحدَّثن مع عمهن، قالت له البنت الكبيرة: يا عمي، إننا كنَّا حدَّثناك بحديث حسن البصري الذي جاء به بهرام المجوسي، وكيف قتله، وحدَّثناك بالصَّبِيَّة بنت الملك الأكبر التي أخذها، وما قاسَى من الأمور الصعاب والأهوال، وكيف اصطاد بنت الملك وتزوَّجَ بها، وكيف سافَرَ بها إلى بلاده. قال: نعم، فما حدث له بعد هذا؟ قالت له: إنها غدرَتْ به وقد رُزِق منها بولدَيْن، فأخذتهما وسافرت بهما إلى بلادها وهو غائب، وقالت لأمه: إذا حضر ولدك وطالت عليه ليالي الفراق، وأراد مني القرب والتلاق، وهزَّتْهُ أرياحُ المحبة والاشتياق، فَلْيَجِئْني إلى جزائر واق. فحرَّكَ رأسه وعضَّ على إصبعه، ثم أطرق رأسه إلى الأرض، وصار ينكت في الأرض بإصبعه، ثم التفَتَ يمينًا وشمالًا وحرَّكَ رأسه، وحسن ينظره وهو متوارٍ عنه، فقالت البنات لعمهن: رُدَّ علينا الجواب، فقد تفتَّتَتْ منَّا الأكباد. فهزَّ رأسه إليهن وقال لهن: يا بناتي، لقد أتعَبَ هذا الرجلُ نفسَه، ورمى روحه في هول عظيم وخطر جسيم، فإنه لا يقدر أن يُقبِلَ على جزائر واق. فعند ذلك نادت البنات حسنًا، فخرج إليهن وتقدَّمَ إلى الشيخ عبد القدوس وقبَّلَ يده وسلَّمَ عليه، ففرح به وأجلَسَه بجانبه، فقالت البنات لعمهن: يا عم، بيِّنْ لأخينا حقيقةَ ما قلْتَه. فقال له: يا ولدي، اترك عنك هذا العذاب الشديد، فإنك لا تقدر أن تصل إلى جزائر واق، ولو كان معك الجن الطيارة والنجوم السيارة؛ لأن بينك وبين الجزائر سبعة أودية، وسبعة بحار، وسبعة جبال عظام، وكيف تقدر أن تصل إلى هذا المكان؟ ومَن يوصلك إليه؟ بالله عليك أن ترجع من قريب ولا تتعب سرك.

فلما سمع حسن كلام الشيخ عبد القدوس بكى حتى غُشِيَ عليه، وقعدت البنات حوله يبكين لبكائه، وأما البنت الصغيرة فإنها شقَّتْ ثيابَها ولطمت على وجهها حتى غُشِيَ عليها؛ فلما رآهم الشيخ عبد القدوس على هذه الحالة من الهم والوَجْد والحزن، رَقَّ لهم

وأخذته الرأفة عليهم، فقال: اسكتوا. ثم قال لحسن: طيِّبْ قلبك وأبشِرْ بقضاء حاجتك إن شاء الله تعالى. ثم قال: يا ولدي، قُمْ وشِدَّ حيلك واتبعني. فقام حسن على حيله بعد أن ودَّعَ البنات وتبعه، وقد فرح بقضاء حاجته. ثم إن الشيخ عبد القدوس استدعى الفيل فحضر، فركبه وأردَفَ حسنًا خلفه وسار به مدة ثلاثة أيام بلياليها مثل البرق الخاطف، حتى وصل إلى جبل عظيم أزرق، وحجارته كلها زرق، وفي ذلك الجبل مغارة وعليها باب من الحديد الصيني، فأخذ الشيخ بيد حسن وأنزَلَه، ثم نزل الشيخ وأطلَقَ الفيل، ثم تقدَّمَ إلى باب المغارة وطرَقَه فانفتح الباب وخرج إليه عبد أسود أجرود كأنه عفريت، وبيده اليمنى سيف والأخرى ترس من بولاد، فلما نظَرَ الشيخَ عبد القدوس رَمَى السيف والترس من يده وتقدَّمَ إلى الشيخ عبد القدوس وقبَّلَ يده، ثم أخذ الشيخ بيد حسن ودخل هو وإياه وقفل العبد الباب خلفهما، فرأى حسن المغارة كبيرة واسعة جدًّا ولها دهليز معقود، ولم يزالوا سائرين مقدار ميل، ثم انتهى بهم السير إلى فلاة عظيمة، وتوجَّهوا إلى ركنٍ فيه بابان عظيمان مسبوكان من النحاس الأصفر، ففتح الشيخ عبد القدوس بابًا منهما ودخل ورَدَّه، وقال لحسن: اقعدْ على هذا الباب واحذَرْ أن تفتحه وتدخل حتى أدخل وأرجع إليك عاجلًا.

فلما دخل الشيخ غاب مدة ساعة فلكية، ثم خرج ومعه حصان مسرَّج ملجَّم، إنْ سارَ طارَ، وإنْ طارَ لم يلحقه غبار، فقدَّمَه الشيخُ لحسن وقال: اركب. ثم إن الشيخ فتح الباب الثاني فبانَ منه برية واسعة، فركب حسن الحصان وخرج الاثنان من الباب وسارَا في تلك البرية، فقال الشيخ لحسن: يا ولدي، خذ هذا الكتاب وسِرْ على هذا الحصان إلى الموضع الذي يوصلك إليه، فإذا نظرَتْه وقَفَ على باب مغارة مثل هذه، فانزلْ عن ظهره واجعلْ عِنانه في قربوص السرج وأطلِقْه، فإنه يدخل المغارة فلا تدخل معه وقِفْ على باب المغارة مدة خمسة أيام ولا تضجر، فإنه في اليوم السادس يخرج إليك شيخ أسود، عليه لباس أسود، وذقنه بيضاء طويلة نازلة إلى سرته، فإذا رأيته فقبِّلْ يدَيْه وأمسِكْ ذيله واجعله على رأسك وَابْكِ بين يدَيْه حتى يرحمك، فإنه يسألك عن حاجتك، فإذا قال لك: ما حاجتك؟ فادفع إليه هذا الكتاب، فإنه يأخذه منك ولا يكلِّمك ويدخل ويخليك، فقِفْ مكانك خمسة أيام أُخَر ولا تضجر، وفي اليوم السادس انتظره فإنه يخرج إليك، فإنْ خرج إليك بنفسه فاعلم أن حاجتك تُقضَى، وإنْ خرج إليك أحدٌ من غلمانه، فاعلم أن الذي خرج إليك يريد قتلك والسلام. واعلم يا ولدي أن كلَّ مَن خاطَرَ بنفسه أهلَكَ نفسَه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الشيخ عبد القدوس لما أعطى حسنًا الكتابَ أعلَمَه بما يتحصل له وقال له: إنَّ كل مَن خاطَرَ بنفسه أهلَكَ نفسَه، فإن كنتَ تخاف على نفسك فلا تُلْقِ بها إلى الهلاك، وإن كنتَ لا تخاف فدونك وما تريد، فقد بيَّنْتُ لك الأمورَ، وإنْ شئتَ الرواح لصواحبك فهذا الفيل حاضر، فإنه يسير بك إلى بنات أخي وهنَّ يوصلْنَك إلى بلادك ويردُدْنَك إلى وطنك، ويرزقك الله خيرًا من هذه البنت التي تعلَّقتَ بها. فقال حسن للشيخ: وكيف تطيب لي الحياة من غير أن أبلغ مرادي؟ والله إني لا أرجع أبدًا حتى أبلغ حبيبتي أو تدركني منيتي. ثم بكى وأنشد هذه الأبيات:

عَلَى فَقْدِ حُبِّي مَعْ تَزَايُدِ صَبْوَتِي وَقَفْتُ أُنَادِي بِانْكِسَارِي وَذِلَّتِي

وَقَبَّلْتُ تُرْبَ الرَّبْعِ شَوْقًا لِأَجْلِهِ وَلَمْ يُجْدِنِي إِلَّا تَزَايُدُ حَسْرَتِي

رَعَى اللهُ مَنْ بَانُوا وَفِي الْقَلْبِ ذِكْرُهُمْ فَوَاصَلْتُ آلَامِي وَفَارَقْتُ لَذَّتِي

يَقُولُونَ لِي صَبْرًا وَقَدْ رَحَلُوا بِهِ وَقَدْ أَضْرَمُوا يَوْمَ التَّرَحُّلِ زَفْرَتِي

وَمَا رَاعَنِي إِلَّا الْوَدَاعُ وَقَوْلُهُ إِذَا غِبْتَ فَاذْكُرْنِي وَلَا تَنْسَ صُحْبَتِي

لِمَنْ أَلْتَجِي مَنْ أَرْتَجِي بَعْدَ فَقْدِهِمْ وَكَانُوا رَجَائِي فِي رَخَائِي وَشِدَّتِي

فَوَا حَسْرَتِي لَمَّا رَجَعْتُ مُوَدِّعًا وَسُرَّ عِدَاكَ الْمُبْغِضُونَ بِرَجْعَتِي

فَوَا أَسَفًا هَذَا الَّذِي كُنْتُ حَاذِرًا وَيَا لَوْعَتِي زِيدِي لَهِيبًا بِمُهْجَتِي

فَإِنْ غَابَ أَحْبَابِي فَلَا عَيْشَ بَعْدَهُمْ وَإِنْ رَجَعُوا يَا فَرْحَتِي وَمَسَرَّتِي

فَوَاللهِ لَمْ يَنْفَضَّ دَمْعِي مِنَ الْبُكَا عَلَى فَقْدِهِمْ بَلْ عَبْرَةٌ بَعْدَ عَبْرَةِ

فلما سمع الشيخ عبد القدوس إنشادَه وكلامه، علِمَ أنه لا يرجع عن مراده، وأن الكلام لا يؤثِّر فيه، وتيقَّنَ أنه لا بد أن يخاطِرَ بنفسه ولو تَلِفَتْ مهجته، فقال: اعلم يا ولدي أن جزائر واق سبعُ جزائر، فيها عسكر عظيم، وذلك العسكر كله بنات أبكار،

وسكان الجزائر الجوانية شياطين ومَرَدَة وسَحَرَة وأرهاط مختلفة، وكل مَن دخل أرضهم لا يرجع، وما وصل إليهم أحد قطُّ ورجع، فبالله عليك أن ترجع إلى أهلك من قريب، واعلم أن البنت التي قصدتَها بنتُ مَلِكِ هذه الجزائر كلها، وكيف تقدر أن تصل إليها؟ فاسمع مني يا ولدي، ولعل الله يعوِّضك خيرًا منها. فقال حسن: والله يا سيدي، لو قُطِّعتُ في هواها إربًا إربًا، ما ازددتُ إلا حبًّا وطربًا، ولا بد من رؤية زوجتي وأولادي، والدخول في جزائر واق، وإن شاء الله تعالى ما أرجع إلا بها وبأولادي. فقال له الشيخ عبد القدوس: حينئذٍ لا بد لك من السفر؟ فقال: نعم، وإنما أريد منك الدعاء بالإسعاف والإعانة، لعل الله يجمع شملي بزوجتي وأولادي عن قريب. ثم بكى من عِظَم شوقه، وأنشد هذه الأبيات:

أَنَتْمُ مُرَادِي وَأَنْتُمْ أَحْسَنُ الْبَشَرِ ... أُحِلُّكُمْ فِي مَحَلِّ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
مَلَكْتُمُ الْقَلْبَ مِنِّي وَهْوَ مَنْزِلُكُمْ ... وَبَعْدَكُمْ سَادَتِي أَصْبَحْتُ فِي كَدَرِ
فَلَا تَظُنُّوا انْتِقَالِي عَنْ مَحَبَّتِكُمْ ... فَحُبُّكُمْ صَيَّرَ الْمِسْكِينَ فِي حَذَرِ
غِبْتُمْ فَغَابَ سُرُورِي بَعْدَ غَيْبَتِكُمْ ... وَأَصْبَحَ الصَّفْوُ عِنْدِي غَايَةَ الْكَدَرِ
تَرَكْتُمُونِي أُرَاعِي النَّجْمَ مِنْ أَلَمٍ ... أَبْكِي بِدَمْعٍ يُحَاكِي هَاطِلَ الْمَطَرِ
يَا لَيْلُ طُلْتَ عَلَى مَنْ بَاتَ فِي قَلَقٍ ... مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ يَرْعَى طَلْعَةَ الْقَمَرِ
إِنْ جُزْتَ يَا رِيحُ حَيًّا فِيهِ قَدْ نَزَلُوا ... بَلِّغْ سَلَامِي لَهُمْ فَالْعُمْرُ فِي قِصَرِ
وَقُلْ لَهُمْ بَعْضَ مَا لَاقَيْتُ مِنْ أَلَمٍ ... إِنَّ الْأَحِبَّةَ لَا يَدْرُونَ عَنْ خَبَرِي

فلما فرغ حسن من شعره بكى بكاءً شديدًا حتى غُشِيَ عليه، فلما أفاق قال له الشيخ عبد القدوس: يا ولدي، إن لك والدةً فلا تُذِقْها ألمَ فقْدِكَ. فقال حسن للشيخ: والله يا سيدي ما بقيت أرجع إلا بزوجتي أو تدركني منيتي. ثم بكى وناح، وأنشد هذه الأبيات:

وَحَقُّ الْهَوَى مَا غَيَّرَ الْبُعْدُ عَهْدَكُمْ ... وَمَا أَنَا مِمَّنْ لِلْعُهُودِ يَخُونُ
وَعِنْدِي مِنَ الْأَشْوَاقِ مَا لَوْ شَرَحْتُهُ ... إِلَى النَّاسِ قَالُوا قَدْ عَرَاهُ جُنُونُ
فَوَجْدٌ وَحُزْنٌ وَانْتِحَابٌ وَلَوْعَةٌ ... وَمَنْ حَالُهُ هَذَا فَكَيْفَ يَكُونُ

فلما فرغ من شعره علم الشيخ أنه لا يرجع عمَّا هو فيه، ولو ذهبَتْ روحه، فناوَلَه الكتاب ودَعَا له وأوصاه بالذي يفعله، وقال له: إني قد أكَّدتُ لك في الكتاب على أبي الرويش بن بلقيس بنت معين، فهو شيخي ومعلمي، وجميع الإنس والجن يخضعون

له ويخافون منه. ثم قال له: توجَّهْ على بركة الله. فتوجَّهَ وأرخى عِنان الحصان، فطار به أسرع من البرق، ولم يزل حسنٌ مسرعًا بالحصان مدة عشرة أيام، حتى نظر أمامه شبحًا عظيمًا أسود من الليل قد سدَّ ما بين المشرق والمغرب، فلما قَرُب حسنٌ منه صهل الحصان تحته، فاجتمعَتْ خيول كثيرة مثل المطر لا يُحصَى لها عدد، ولا يُعرَف لها مدد، وصارت تتمسح في الحصان، فخاف حسن منها وفَزِع، ولم يزل سائرًا والخيول حوله إلى أن وصل إلى المغارة التي وصَفَها له الشيخ عبد القدوس، فوقف الحصان على بابها، فنزل حسن من فوقه ووضع عِنانه في سرجه، فدخل الحصان المغارةَ ووقف حسنٌ على الباب كما أمره الشيخ عبد القدوس، وصار متفكِّرًا في عاقبة أمره كيف تكون، حيران وَلْهان لا يعلم الذي يجري له. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حسنًا لما نزل من فوق ظهر الحصان، وقف على باب المغارة متفكِّرًا في عاقبة أمره كيف يكون، لا يعلم الذي يجري له، ولم يزل واقفًا على باب المغارة خمسة أيام بلياليها وهو سهران حزنان متفكِّر حيث فارَقَ الأهلَ والأوطان والأصحاب والخلَّانَ، باكي العين حزين القلب، ثم إنه تذكَّرَ والدته وتفكَّرَ فيما يجري له، وفي فراق زوجته وأولاده وفيما قاساه، فأنشد هذه الأبيات:

لَدَيْكُمْ دَوَاءُ الْقَلْبِ وَالْقُلْبُ ذَاهِبُ   وَمِنْ سَفْحِ أَجْفَانِي دُمُوعٌ سَوَاكِبُ
فِـرَاقٌ وَحُـزْنٌ وَاشْـتِيَـاقٌ وَغُـرْبَـةٌ   وَبُعْدٌ عَنِ الْأَوْطَانِ وَالشَّوْقُ غَالِبُ
وَمَـا أَنَـا إِلَّا عَـاشِـقٌ ذُو صَـبَـابَـةٍ   بِبُعْدِ الَّذِي يَهْوَى دَهَتْهُ الْمَصَائِبُ
فَإِنْ كَانَ عِشْقِي قَدْ رَمَانِي بِنَكْبَةٍ   فَـأَيُّ كَرِيـمٍ لَـمْ تُـصِبْـهُ الـنَّـوَائِبُ

فلم يفرغ حسن من شعره إلا والشيخ أبو الرويش قد خرج له، وهو أسود وعليه لباس أسود، فلما نظره حسن عَرَفه بالصفات التي أخبره بها الشيخ عبد القدوس، فرمى نفسه عليه ومرَّغَ خدَيْه على قدمَيْه، ومسك رجله وحطَّها على رأسه وبكى قدامه، فقال الشيخ أبو الرويش: ما حاجتك يا ولدي؟ فمَدَّ يده بالكتاب وناوَلَه للشيخ أبي الرويش، فأخذه منه ودخل المغارة ولم يردَّ عليه جوابًا، فقعد حسن في موضعه على الباب مثلما قال له الشيخ عبد القدوس، وهو يبكي، وما زال قاعدًا مكانه مدةَ خمسة أيام وقد ازداد به القلق، واشتد به الخوف ولازَمَه الأرق، فصار يبكي ويتضجر من ألم البعاد وكثرة السهاد، ثم أنشد هذه الأبيات:

سُبْحَانَ جَبَّارِ السَّمَاءِ   إِنَّ الْمُحَبَّ لَفِي عَنَاءِ
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَعْمَ الْهَوَى   لَمْ يَدْرِ مَا جَهْدُ الْبَلَاءِ

لَوْ كُنْتُ أَحْبِسُ عَبْرَتِي ... لَوَجَدْتُ أَنْهَارَ الدِّمَاءِ
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ قَدْ قَسَا ... قَلْبًا وَأَوْلَعَ بِالشَّقَاءِ
فَإِذَا تَعَطَّفَ لَامَنِي ... فَأَقُولُ مَا بِي مِنْ بُكَاءِ
لَكَ قَدْ ذَهَبْتُ لِأَرْتَدِي ... فَأَصَابَ عَيْنَيَّ رِدَائِي
بَكَتِ الْوُحُوشُ لِوَحْشَتِي ... وَكَذَاكَ سُكَّانُ الْهَوَاءِ

ولم يزل حسن يبكي إلى أن لاح الفجر، وإذا بالشيخ أبي الرويش قد خرج إليه وهو لابس لباسًا أبيض، وأومأَ إليه بيده أنْ يدخل، فدخل حسن فأخذه الشيخ من يده ودخل به المغارة، ففَرِح وأيقَنَ أن حاجته قد قُضِيت. ولم يزل الشيخ سائرًا وحسن معه مقدار نصف نهار، ثم وصَلَا إلى بابٍ مقنطرٍ عليه باب من البولاد، ففتح البابَ ودخل هو وحسن في دهليز معقود بحجارة من المجزع المنقوش بالذهب، ولم يزالَا سائرين حتى وصَلَا إلى قاعة كبيرة مرخمة واسعة، وفي وسطها بستان فيه من سائر الأشجار والأزهار والأثمار، والأطيار على الأشجار تناغي وتسبِّح الله الملك القهَّار، وفي القاعة أربعة لواوين يقابل بعضها بعضًا، وفي كل ليوان مجلس فيه فسقية، وعلى كل ركن من أركان كل فسقية صورة سَبْع من الذهب، وفي كل مجلس كرسيٌّ وعليه شخص جالس وبين يدَيْه كتب كثيرة جدًّا، وبين أيديهم مجامر من ذهب فيها نار وبخور، وكل شيخ منهم بين يدَيْه طلَبَة يقرءون عليه الكتب. فلما دخَلَا عليهم قاموا إليهما وعظَّموهما، فأقبَلَ عليهم وأشار لهم أن يَصْرِفوا الحاضرين فصَرَفوهم، وقام الأربعة مشايخ وجلسوا بين يدَيِ الشيخ أبي الرويش وسألوه عن حال حسن، فعند ذلك أشار الشيخ أبو الرويش إلى حسن وقال له: حدِّثِ الجماعةَ بحديثك وبجميع ما جرى لك من أول الأمر إلى آخِره. فعند ذلك بكى حسن بكاءً شديدًا وحدَّثهم بحديثه، فلما فرغ حسن من حديثه صاحت المشايخ كلهم، وقالوا: هل هذا هو الذي أطلَعَه المجوسي إلى جبل السحاب بالنسور وهو في جِلْد الجمل؟ فقال لهم حسن: نعم. فأقبَلُوا على الشيخ أبي الرويش وقالوا له: يا شيخنا، إن بهرام تحيَّلَ في طلوعه على الجبل، وكيف نزل؟ وما الذي رآه فوق الجبل من العجائب؟ فقال الشيخ أبو الرويش: يا حسن، حدِّثْهم كيف نزلتَ، وأخبِرْهم بالذي رأيتَه من العجائب. فأعاد عليهم ما جرى له من أوله إلى آخِره، وكيف ظفر به وقتله، وكيف غدرَتْ به زوجته وأخذت أولاده وطارت، وبجميع ما قاساه من الأهوال والشدائد؛ فتعجَّبَ الحاضرون مما جرى له، ثم أقبلوا على الشيخ أبي الرويش وقالوا له: يا شيخ الشيوخ، والله إنَّ هذا الشاب مسكين، فعساك أن تساعده على خلاص زوجته وأولاده. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما حكى للمشايخ قصته قالوا للشيخ أبي الرويش: هذا الشاب مسكين، فعساك أن تساعده على خلاص زوجته وأولاده. فقال الشيخ أبو الرويش: يا إخواني، إن هذا أمر عظيم خطر، وما رأيتُ أحدًا يكره الحياةَ غير هذا الشاب، وأنتم تعرفون أن جزائرَ واق صعبةُ الوصول، ما وصل إليها أحد إلا خاطَرَ بنفسه، وتعرفون قوتهم وأعوانهم، وأنا حالِفٌ إني ما أدوس لهم أرضًا ولا أتعرَّضُ لهم في شيء، وكيف يصل هذا إلى بنت الملك الأكبر؟ ومَن يقدر أن يوصله إليها أو يساعده على هذا الأمر؟ فقالوا: يا شيخ الشيوخ، إن هذا الرجل أتلَفَه الغرام، وقد خاطَرَ بنفسه وحضر إليك بكتاب أخيك الشيخ عبد القدوس، فحينئذٍ يجب عليك مساعدته. فقام حسن وقبَّلَ قدمَ أبي الرويش، ورفع ذيله ووضعه على رأسه وبكى، وقال له: سألتُكَ بالله أن تجمع بيني وبين أولادي وزوجتي، ولو كان في ذلك ذهاب روحي ومهجتي. فبكى الحاضرون لبكائه، وقالوا للشيخ أبي الرويش: اغتَنِمْ أجرَ هذا المسكين وافعلْ معه جميلًا لأجل أخيك الشيخ عبد القدوس. فقال: إن هذا الشاب مسكين ما يعرف الذي هو قادم عليه، ولكنْ نساعده على قدر الطاقة. ففرح حسن لما سمع كلامه، وقبَّلَ يدَيْه وقبَّلَ أيادي الحاضرين واحدًا بعد واحد، وسألهم المساعدة، فعند ذلك أخذ أبو الرويش ورقةً ودواةً وكتَبَ كتابًا وختمه وأعطاه لحسن، ودفع له خريطة من الأدم، فيها بخور وآلات نار من زناد وغيره، وقال له: احتفظ بهذه الخريطة، ومتى وقعْتَ في شدة فبخِّرْ بقليلٍ منه واذكرني، فإني أحضر عندك وأخلِّصُك منها.

ثم أمر بعض الحاضرين أن يحضر له عفريتًا من الجن الطيَّارة في ذلك الوقت فحضر، فقال له الشيخ: ما اسمك؟ قال: عبدك دهنش بن فقطش. فقال له أبو الرويش: ادنُ مني. فدَنَا منه، فوضع الشيخ أبو الرويش فاهُ على أذن العفريت وقال له كلامًا،

فحرَّكَ العفريت رأسه، ثم قال الشيخ لحسن: يا ولدي، قُمِ اركَبْ على كتف هذا العفريت دهنش الطيَّار، فإذا رفعك إلى السماء وسمعت تسبيحَ الملائكة في الجو، فلا تسبِّحْ فتهلك أنت وهو. فقال حسن: لا أتكلم أبدًا. ثم قال له الشيخ: يا حسن، إذا سار بك فإنه يضعك ثاني يوم في وقت السَّحَر على أرضٍ بيضاء نقية مثل الكافور، فإذا وضَعَك هناك فامْشِ عشرةَ أيامٍ وحدك حتى تصل إلى باب المدينة، فإذا وصلْتَ إليها فادخُلْ واسألْ عن مَلِكها، فإذا اجتمعْتَ به فسلِّمْ عليه وقبِّلْ يده وأَعْطِه هذا الكتابَ، ومهما أشار به إليك فافهمْه. فقال حسن: سمعًا وطاعة. وقام مع العفريت، وقام المشايخ ودعوا له ووصَّوا العفريت عليه.

فلما حمله العفريت على عاتقه ارتفع به إلى عَنان السماء، ومشى به يومًا وليلة حتى سمع تسبيحَ الملائكة في السماء، فلما كان الصبح وضعه في أرضٍ بيضاء مثل الكافور وتركه وانصرف، فلما أدرَكَ حسن أنه على الأرض، ولم يكن عنده أحد، سار في الليل والنهار مدة عشرة أيام إلى أن وصل إلى باب المدينة، فدخَلَها وسأل عن الملك فدلوه عليه، وقالوا: إن اسمه الملك حسون ملك أرض الكافور، وعنده من العساكر والجنود ما يملأ الأرض في طولها والعرض. فاستأذن فأُذِنَ له، فلما دخل عليه وجده مَلِكًا عظيمًا، فقبَّلَ الأرض بين يديه، فقال له الملك: ما حاجتك؟ فقبَّلَ حسن الكتابَ وناوَلَه إياه، فأخذه وقرأه ثم حرَّكَ رأسه ساعة، ثم قال لبعض خواصه: خذ هذا الشاب وأنزِلْه في دار الضيافة. فأخذه وسار حتى أنزله هناك، فأقام بها مدة ثلاثة أيام في أكل وشرب، وليس عنده إلا الخادم الذي معه، فصار ذلك الخادم يحدِّثه ويؤانسه ويسأله عن خبره، وكيف وصل إلى هذه الديار، فأخبره بجميع ما حصل له وكل ما هو فيه.

وفي اليوم الرابع أخذه الغلام وأحضَرَه بين يدَيِ الملك، فقال له: يا حسن، أنت قد حضرتَ عندي تريد أن تدخل جزائر واق كما ذكر لنا شيخ الشيوخ، يا ولدي أنا أرسلك في هذه الأيام، إلا أنَّ في طريقك مهالكَ كثيرةً وبراريَّ معطِشةً كثيرةَ المخاوف، ولكنِ اصبرْ ولا يكون إلا خيرًا، فلا بد أن أتحيَّلَ وأوصلك إلى ما تريد إن شاء الله تعالى. واعلم يا ولدي أن هنا عسكرًا من الديلم يريدون الدخول في جزائر واق، مهيَّئِين بالسلاح والخيل والعدد، وما قدروا على الدخول، ولكن يا ولدي لأجل شيخ الشيوخ أبي الرويش ابن بنت اللعين إبليس ما أقدر أن أردَّك إليه إلا مقضيَّ الحاجة، وعن قريبٍ تأتي إلينا مراكبُ من جزائر واق، وما بقي لها إلا القليل، فإذا حضرَتْ واحدة منها أنزلتُكَ فيها وأُوصِي البحرية عليك ليحفظوك ويرسلوك إلى جزائر واق، وكل مَن سألك عن حالك وخبرك فقُلْ له: أنا صهر

الملك حسون صاحب أرض الكافور. وإذا رَسَتِ المركبُ على جزائر واق، وقال لك الريس: اطلع البر. فاطلعْ ترى دككًا كثيرة في جميع جهات البر، فاختَرْ لك دكةً واقعدْ تحتها ولا تتحرك، فإذا جنَّ الليلُ ورأيتَ عسكرَ النساء قد أحاط بالبضائع، فمُدَّ يدَكَ وامسكْ صاحبة هذه الدكة التي أنت تحتها واستَجِرْ بها، واعلم يا ولدي أنها إذا جارَتْكَ قُضِيَتْ حاجتُكَ فتصل إلى زوجتك وأولادك، وإنْ لم تُجِرْكَ فاحزنْ على نفسك وايئَسْ من الحياة، وتيقَّنْ بهلاك نفسك. واعلم يا ولدي أنك مُخاطِرٌ بنفسك، ولا أقدر لك على شيء غير هذا والسلام. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حسنًا لما قال له الملك حسون هذا الكلامَ وأوصاه بالذي ذكرناه، وقال له: أنا لا أقدر لك على شيء غير هذا. قال له بعد ذلك: واعلم أنه لولا حصلَتْ لك عنايةٌ من رب السماء ما وصلْتَ إلى هنا. فلما سمع حسن كلامَ الملك حسون بكى حتى غُشِيَ عليه، فلما أفاق أنشد هذين البيتين:

لَا بُدَّ لِي مِنْ مُدَّةٍ مَحْتُومَةٍ　　فَإِذَا انْقَضَتْ أَيَّامُهَا مُتُّ
لَوْ صَارَعَتْنِي الْأُسْدُ فِي غَابَاتِهَا　　لَقَهَرْتُهَا مَا دَامَ لِي وَقْتُ

فلما فرغ حسن من شعره قبَّلَ الأرض بين يدي الملك وقال له: أيها الملك العظيم، وكم بقي من الأيام حتى تأتي المراكب؟ قال: مدة شهر، ويمكثون هنا لبيع ما فيها مدة شهرين، ثم يرجعون إلى بلادهم، فلا تترجَّ سفرك فيها إلا بعد ستة أشهر كاملة. ثم إن الملك أمَرَ حسنًا أن يذهب إلى دار الضيافة، وأمر أن يُحمَل إليه كلُّ ما يحتاج إليه من مأكول ومشروب وملبوس من الذي يناسب الملوك، فأقام في دار الضيافة شهرًا، وبعد الشهر حضرت المراكب، فخرج الملك والتجار وأخذ حسنًا معه إلى المراكب، فرأى مركبًا فيها خلق كثير مثل الحصى ما يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، وتلك المركب في وسط البحر، ولها زوارق صغار تنقل ما فيها من البضائع إلى البر، فأقام حسن عندهم حتى نزع أهلها البضائع منها إلى البر، وباعوا واشتروا، وما بقي للسفر إلا ثلاثة أيام، فأحضَرَ الملكُ حسنًا بين يدَيْه وجهَّزَ له ما يحتاج إليه، وأنعَمَ عليه إنعامًا عظيمًا، ثم بعد ذلك استدعى ريس

تلك المركب وقال له: خذ هذا الشاب معك في المركب، ولا تُعلِم به أحدًا، وأوصله إلى جزائر واق، واتركْه هناك ولا تأتِ به. فقال الريس: سمعًا وطاعة.

ثم إن الملك أوصى حسنًا وقال له: لا تُعلِمْ أحدًا من الذين معك في المركب بشيء من حالك، ولا تُطلِعْ أحدًا على قصتك فتهلك. قال: سمعًا وطاعة. ثم ودَّعَه بعد أن دَعَا له بطول البقاء والدوام، والنصر على جميع الحساد والأعداء، وشكره الملك على ذلك ودَعَا له بالسلامة وقضاء حاجته، ثم سلَّمَه للريس، فأخذه وحطَّه في صندوق وأنزَلَه في قارب، ولم يطلعه في المركب إلا والناس مشغولون في نقل البضائع، وبعد ذلك سافَرَتِ المراكب، ولم تزل مسافرة مدة عشرة أيام، فلما كان اليوم الحادي عشر وصلوا إلى البر، فطلَّعه الريس من المركب، فلما طلع من المركب إلى البر رأى فيه دككًا لا يعلم عددها إلا الله، فمشى حتى وصل إلى دكةٍ ليس لها نظير واختفى تحتها، فلما أقبَلَ الليلُ جاء خلق كثير من النساء كالجراد المنتشر، وهنَّ ماشيات على أقدامهن وسيوفهن مشهورة في أيديهن، ولكنهن غائصات في الزرد، فلما رأت النساء البضائعَ اشتغلن بها، ثم بعد ذلك جلسْنَ لأجل الاستراحة، فجلست واحدة منهن على الدكة التي تحتها حسن، فأخذ حسن طرفَ ذيلها وحطَّه فوق رأسه، ورمى نفسه عليها وصار يقبِّل يدَيْها وقدمَيْها وهو يبكي، فقالت له: يا هذا، قُمْ واقفًا قبل أن يراك أحد فيقتلك. فعند ذلك خرج حسن من تحت الدكة ونهض قائمًا على قدمَيْه وقبَّلَ يدَيْها وقال لها: يا سيدتي، أنا في جيرتك. ثم بكى وقال لها: ارحمي مَن فارَقَ أهله وزوجته وأولاده، وبادَرَ إلى الاجتماع بهم، وخاطَرَ بروحه ومهجته، فارحميني وأيقني أنك تُؤجَرين على ذلك بالجنة، وإنْ لم تقبليني فأسألك بالله العظيم الستَّار أن تستري عليَّ. فصارت التاجرة شاخصةً له وهو يكلِّمها، فلما سمعت كلامه ونظرَتْ تضرُّعَه رحمَتْه ورقَّ قلبها إليه، وعلمت أنه ما خاطَرَ بنفسه وجاء إلى هذا المكان إلا لأمر عظيم، فعند ذلك قالت لحسن: يا ولدي، طِبْ نفسًا، وقرَّ عينًا، وطيِّب قلبك وخاطرك، وارجع إلى مكانك واختفِ تحت الدكة كما كنتَ أولًا إلى الليلة التالية؛ يفعل الله ما يريده. ثم ودَّعَتْه ودخل حسن تحت الدكة كما كان.

ثم إن العساكر بتْنَ يوقدن الشموعَ المزوجة بالعود الند والعنبر الخام إلى الصباح، فلما طلع النهار رجعت المراكب إلى البر، واشتغل التجار بنقل البضائع والأمتعة إلى أن أقبل الليل وحسن مختفٍ تحت الدكة باكي العين حزين القلب، ولم يعلم بالذي قُدِّرَ له في الغيب، فبينما هو كذلك إذا أقبلت عليه المرأة التاجرة التي كان استجار بها وناولَتْه زردية وسيفًا وحياصة مذهَّبة ورمحًا، ثم انصرفت عنه خوفًا من العسكر، فلما رأى ذلك علم أن

التاجرة ما أحضرَتْ له هذه العدة إلا ليلبسها، فقام حسن ولبس الزردية، وشدَّ الحياصة على وسطه، وتقلَّدَ بالسيف تحت إبطه، وأخذ الرمح بيده وجلس على تلك الدكة ولسانه لم يغفل عن ذكر الله تعالى، بل يطلب منه الستر. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حسنًا لما أخذ السلاح الذي أعطته إياه الصبية التاجرة التي استجارَ بها وقالت له: اجلس تحت الدكة ولا تخل أحدًا يفهم حالك. تقلَّدَ به، ثم جلس فوق الدكة ولسانه لم يغفل عن ذكر الله، وصار يطلب من الله الستر، فبينما هو جالس إذا أقبلت المشاعل والفوانيس والشموع، وأقبلت عساكر النساء، فقام حسن واختلط بالعسكر وصار كواحدة منهن، فلما قرب طلوع الفجر توجَّهَتِ العساكر وحسن معهن حتى وصلن إلى خيامهن، ودخلت كل واحدة خيمتها، فدخل حسن خيمة واحدة منهن، وإذا هي خيمة صاحبته التي كان استجار بها، فلما دخلت خيمتها ألقَتْ سلاحها وقلعت الزردية والنقاب، وألقى حسن سلاحه فنظر إلى صاحبته فوجدها زرقاء العينين كبيرة الأنف، وهي داهية من الدواهي، أقبح ما يكون في الخلق، بوجه أجدر، وحاجب أمعط، وأسنان مكسرة، وخدود معجرة، وشعر شائب، وفم بالريالة سائل، وهي كما قال في مثلها الشاعر:

لَهَا فِي زَوَايَا الْوَجْهِ تِسْعُ مَصَائِبَ فَوَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ تُبْدِي جَهَنَّمَا
بِوَجْهٍ بَشِيعٍ ثُمَّ ذَاتِ قَبِيحَةٍ كَصُورَةِ خِنْزِيرٍ تَرَاهُ مُرَمْرِمَا

وهي بذات معطاء كحية رقطاء، فلما نظرَتِ العجوزُ إلى حسن تعجَّبَتْ وقالت: كيف وصل هذا إلى هذه الديار؟ وفي أي المراكب حضر؟ وكيف سَلِمَ؟ وصارت تسأله عن حاله وتتعجَّب من وصوله، فعند ذلك وقع حسن على قدمَيْها، ومرَّغَ وجهه على رجلَيْها، وبكى حتى غُشِيَ عليه، فلما أفاق أنشد هذه الأبيات:

مَتَى الْأَيَّامُ تَسْمَحُ بِالتَّلَاقِي وَتَجْمَعُ شَمْلَنَا بَعْدَ الْفِرَاقِ
وَأَحْظَى بِالَّذِي أَرْضَاهُ مِنْهُمْ عِتَابًا يَنْقَضِي وَالْوُدُّ بَاقِ

لَو انَّ النِّيلَ يَجْرِي مِثْلَ دَمْعِي ... لَمَا خَلَّى عَلَى الدُّنْيَا شَرَاقِي
وَفَاضَ عَلَى الْحِجَازِ وَأَرْضِ مِصْرَ ... كَذَاكَ الشَّامُ مَعْ أَرْضِ الْعِرَاقِ
وَذَاكَ لِأَجْلِ صَدِّكَ يَا حَبِيبِي ... تَرَفَّقْ بِي وَوَاعِدْ بِالتَّلَاقِي

فلما فرغ من شعره أخذ ذيل العجوز ووضعه فوق رأسه وصار يبكي ويستجير بها، فلما رأت العجوز احتراقه ولوعته وتوجُّعه وكربته، حنَّ قلبها إليه وأجارته وقالت له: لا تَخَفْ أبدًا. ثم سألته عن حاله، فحكى لها جميع ما جرى له من المبتدأ إلى المنتهى، فتعجبت العجوز من حكايته وقالت له: طيِّبْ قلبك وطيِّبْ خاطرك، ما بقي عليك خوف، وقد وصلتَ إلى مطلوبك وقضاء حاجتك إن شاء الله تعالى. ففرح حسن بذلك فرحًا شديدًا، ثم إن العجوز أرسلت إلى قوَّاد العسكر أن يحضرْنَ، وكان ذلك آخِر يوم من الشهر، فلما حضرْنَ بين يدَيْها قالت لهن: اخرجن ونادين في جميع العسكر أن يخرجن في غدٍ بكرة النهار ولا تتخلف واحدة منهن، فإنْ تخلَّفَتْ واحدة راحَتْ روحها، فقلْنَ لها: سمعًا وطاعةً. ثم خرجْنَ ونادَيْنَ في جميع العسكر بالرحيل في غدٍ بكرة النهار، ثم عدن وأخبرْنَها بذلك، فعلم حسن أنها هي رئيسة العسكر وصاحبة الرأي فيه، وهي المقدَّمة عليه.

ثم إن حسنًا لم يقلع السلاح من فوق بدنه في ذلك النهار، وكان اسم تلك العجوز التي هو عندها شواهي وتُكنَّى بأم الدواهي، فما فرغت العجوز من أمرها ونهيها إلا وقد طلع الفجر، فخرج العسكر جميعه من أماكنه ولم تخرج العجوز معهن، فلما سار العسكر وخلت منه الأماكن، قالت شواهي لحسن: ادنُ مني يا ولدي. فدنا منها ووقف بين يدَيْها، فأقبلت عليه وقالت له: ما السبب في مخاطرتك بنفسك ودخولك إلى هذه البلاد؟ وكيف رضيتَ نفسك بالهلاك؟ فأخبِرْني بالصحيح عن جميع شأنك ولا تُخْفِ عني منه شيئًا، ولا تَخَفْ فإنك قد صرتَ في عهدي، وقد أَجَرْتُك ورحمتك ورثيت لحالك، فإن أخبرتَني بالصدق أعنْتُكَ على قضاء حاجتك، ولو كان فيها رواح الأرواح وهلاك الأشياخ، وحيث وصلتَ إليَّ ما بقي عليك بأس، ولا أخلي أحدًا يصل إليك بسوء أبدًا من كل ما في جزائر واق.

فحكى لها قصته من أولها إلى آخِرها، وعرَّفها بشأن زوجته وبالطيور، وكيف اصطادها من بين العشرة، وكيف تزوَّجَ بها، ثم أقام معها حتى رُزِق منها بولدَيْن، وكيف أخذت أولادها وطارت حين عرفت طريق الثوب الريش، ولم يُخْفِ من حديثه شيئًا من أوله إلى يومه الذي هو فيه. فلما سمعت العجوز كلامه حرَّكَتْ رأسها وقالت له: سبحان الله الذي سلَّمَك وأوصلك إلى هنا وأوقعك عندي، ولو كنتَ وقعتَ عند غيري كانت روحك

راحت، ولم تُقْضَ لك حاجة، ولكنَّ صِدْقَ نيتك ومحبتك وفرط شوقك إلى زوجتك وأولادك هو الذي أوصَلَك إلى حصول بغيتك، ولولا أنك لها مُحِبٌّ وبها ولهان، ما كنتَ خاطرْتَ بنفسك هذه المخاطرة، والحمد لله على السلامة. وحينئذٍ يجب علينا أن نقضي لك حاجتك ونساعدك على مطلوبك، حتى تنال بغيتك عن قريب إن شاء الله تعالى، ولكن اعلم يا ولدي أن زوجتك في الجزيرة السابعة من جزائر واق، ومسافة ما بيننا وبينها سبعة أشهر ليلًا ونهارًا، فإننا نسير من هنا حتى نصل إلى أرضٍ يقال لها أرض الطيور، فمن شدة صياح الطيور وخفقان أجنحتها لا يسمع بعضنا كلام بعض. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز قالت لحسن: إن زوجتك في الجزيرة السابعة، وهي الجزيرة الكبيرة من جزائر واق، ومسافة ما بيننا وبينها سبعة أشهر، فإننا نسير من هنا إلى أرض الطيور، ومن شدة طيرانها وخفقان أجنحتها لا يسمع بعضنا كلام بعض، ثم نسير في تلك الأرض مدة أحد عشر يومًا ليلًا ونهارًا، ثم بعد ذلك نخرج منها إلى أرضٍ يقال لها أرض الوحوش، فمن شدة صياح السباع والضباع والوحوش وعيِّ الذئاب وزئير الأسود، لا نسمع شيئًا، فنسير في تلك الأرض مدة عشرين يومًا، ثم نخرج منها إلى أرضٍ يقال لها أرض الجن، فمن شدة صياح وصعود النيران، وتطاير الشرار والدخان من أفواههم، وتصاعُد زفراتهم وتمرُّدهم؛ يسدون الطريق قدامنا، وتُصَمُّ آذانُنا وتُغشَى أبصارنا، حتى لا نسمع ولا نرى، ولا يمكن أن يلتفت منَّا أحد إلى خلفه فيهلك، ويضع الفارس في ذلك المكان رأسه على قربوص سرجه ولا يرفعها مدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك يقابلنا جبل عظيم ونهر جارٍ متصلان بجزائر واق، واعلم يا ولدي أن جميع هذا العسكر بنات أبكار، والحاكم علينا من الملوك امرأة من جزائر واق السبع، ومسيرة تلك السبع جزائر سنة كاملة للراكب المُجِدِّ في السير، وعلى شاطئ هذا النهر جبل يُسمَّى جبل واق، وهذا الاسم علم على شجرة أغصانها تُشبِه رءوس بني آدم، فإذا طلعت عليها الشمس تصيح تلك الرءوس جميعًا وتقول في صياحها: واق واق سبحان الملك الخلَّاق. فإذا سمعنا صياحها نعلم أن الشمس قد طلعت، وكذلك إذا غربت الشمس تصيح تلك الرءوس وتقول في صياحها أيضًا: واق واق سبحان الملك الخلَّاق. فنعلم أن الشمس قد غربت، ولا يقدر أحد من الرجال أن يقيم عندنا ولا يصل إلينا ولا يطأ أرضنا، وبيننا وبين الملكة التي تحكم على هذه الأرض مسافة شهر من هذا البر، وجميع الرعية التي في ذلك البر تحت يد تلك الملكة، وتحت يدها أيضًا قبائل الجان المَرَدَة والشياطين، وتحت يدها من السَّحَرَة ما

لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، فإنْ كنتَ تخاف أرسلتُ معك مَن يوصلك إلى الساحل، وأجيء بالذي يحملك معه في مركب ويوصلك إلى بلادك، وإنْ كان يطيب على قلبك الإقامة معنا فلا أمنعك، وأنت عندي في عيني حتى تقضي حاجتك إنْ شاء الله تعالى. فقال لها: يا سيدتي، ما بقيت أفارقك حتى أجتمع بزوجتي أو تذهب روحي. فقالت له: هذا أمر يسير، فطيِّب قلبك وسوف تصل إلى مطلوبك إن شاء الله تعالى، ولا بد أن أُطلِع الملكة عليك حتى تكون مُساعِدةً لك على بلوغ قصدك. فدَعَا لها حسن وقبَّلَ يدَيْها ورأسها، وشكَرَها على فعلها وفرط مروءتها، وسار معها وهو متفكِّر في عاقبة أمره وأهوال غربته، فصار يبكي وينتحب وجعل ينشد هذه الأبيات:

مِنْ مَكَانِ الْحَبِيبِ هَبَّ نَسِيمُ	فَتَرَانِي مِنْ فَرْطِ وَجْدِي أَهِيمُ
إِنَّ لَيْلَ الْوِصَالِ صُبْحٌ مُضِيءٌ	وَنَهَارُ الْفِرَاقِ لَيْلٌ بَهِيمُ
وَوَدَاعُ الْحَبِيبِ صَعْبٌ شَدِيدٌ	وَفِرَاقُ الْأَنِيسِ خَطْبٌ جَسِيمُ
لَسْتُ أَشْكُو جَفَاهُ إِلَّا إِلَيْهِ	لَمْ يَكُنْ فِي الْوَرَى صَدِيقٌ حَمِيمُ
وَسُلُوِّي عَنْكُمْ مُحَالٌ فَإِنِّي	لَيْسَ يَسْلِي قَلْبِي عَذُولٌ ذَمِيمُ
يَا وَحِيدَ الْجَمَالِ عِشْقِي وَحِيدٌ	يَا عَدِيمَ الْمِثَالِ قَلْبِي عَدِيمُ
كُلُّ مَنْ يَدَّعِي الْمَحَبَّةَ فِيكُمْ	وَيَهَابُ الْمَلَامَ فَهْوَ مَلُومُ

ثم إن العجوز أمرَتْ بدق طبل الرحيل، وسار العسكر وسار حسن صحبةَ العجوز وهو من الغرق في بحر الأفكار يتضجر وينشد الأشعار، والعجوز تصبِّره وتسليه، وهو لا يفيق ولا يعي ما إليه تُلقِيه، ولم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا إلى أول جزيرة من الجزائر السبع وهي جزيرة الطيور، فلما دخلوها ظنَّ حسن أن الدنيا قد انقلبَتْ من شدة الصياح، وأوجعَتْه رأسه، وطاش عقله، وعمي بصره، وانسدَّتْ أُذُنَاه، وخاف خوفًا شديدًا وأيقن بالموت، وقال في نفسه: إذا كانت هذه أرض الطيور، فكيف تكون أرض الوحوش؟ فلما رأَتْه العجوز المسمَّاة بشواهي على هذه الحالة، ضحكت عليه وقالت له: يا ولدي، إذا كان هذا حالك من أول جزيرة، فكيف بك إذا وصلتَ إلى بقية الجزائر؟ فسأل الله وتضرَّعَ إليه، وطلب منه أن يُعِينه على ما بلاه به، وأن يبلغه مناه.

ولم يزالوا سائرين حتى قطعوا أرض الطيور، وخرجوا منها ودخلوا في أرض الجان، فلما رآها حسن خاف وندم على دخوله فيها معهم، ثم استعان بالله تعالى وسار معهم، فعند ذلك خلصوا من أرض الجان ووصلوا إلى النهر، فنزلوا تحت جبل عظيم شاهق

ونصبوا خيامهم على شاطئ النهر، ووضعت العجوز لحسن دكةً من المرمر، مرصَّعةً بالدرر والجوهر، وسبائك الذهب الأحمر، على جنب النهر فجلس عليها، وتقدَّمت العساكر فعرضتهم عليه، ثم بعد ذلك نصبوا خيامهم حوله واستراحوا ساعة، ثم أكلوا وشربوا وناموا مطمئنين؛ لأنهم وصلوا إلى بلادهم، وكان حسن واضعًا على وجهه لثامًا بحيث لا يظهر منه غير عينيه، وإذا بجماعة من البنات مشَيْنَ إلى قرب خيمة حسن، ثم قلعن ثيابهن ونزلن في النهر، فصار حسن ينظر إليهن وهن يغتسلن، فصرن يلعبن وينشرحن ولا يعلمن أنه ناظرٌ إليهن؛ لأنهن ظنَنَّ أنه من بنات الملوك؛ فاشتدَّ على حسن وتره حيث كان ينظر إليهن وهن مجرَّدات من ثيابهن، وقد رأى ما بين أفخاذهن أنواعًا مختلفة، ما بين ناعم مقبقب وسمين مربرب، وغليظ المشافر وكامل وبسيط ووافر، ووجوههن كالأقمار، وشعورهن كلَيْلٍ على نهار؛ لأنهن من بنات الملوك. ثم إن العجوز نصبت له سريرًا وأجلسَتْه فوقه، فلما خلصن طلعن من النهر وهن متجردات كالقمر ليلة البدر، وقد اجتمع جميع العسكر قدام حسن؛ لأن العجوز أمرَتْ أن يُنادَى في جميع العسكر أن يجتمعن قدام خيمته ويتجرَّدْنَ من ثيابهن، وينزلن في النهر ويغتسلن فيه، لعل زوجته أن تكون فيهن فيعرفها، وصارت العجوز تسأله عنهن طائفة بعد طائفة فيقول: ما هي في هؤلاء يا سيدتي. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز كانت تسأل حسنًا عن البنات طائفةً بعد طائفةٍ، لعله يعرف زوجته من بينهن، وكلما سألته عن طائفة يقول: ما هي في هؤلاء يا سيدتي. ثم بعد ذلك تقدَّمَتْ جارية في آخِر الناس، وفي خدمتها ثلاثون خادمة كلهن نواهد أبكار، فنزعْنَ ثيابهن ونزلن معها في النهر، فصارت تتدلل عليهن وترميهن في البحر وتغطسهن، ولم تزل معهن على هذا الحال ساعة زمانية، ثم طلعن من النهر وقعدن، فقدَّمْنَ إليها مناشف من حرير مزركشة بالذهب، فأخذتها وتنشفت بها، ثم قدَّمْنَ إليها ثيابًا وحللًا وحليًّا من عمل الجن، فأخذتها ولبستها وقامت تخطر بين العسكر هي وجواريها، فلما رآها حسن طار قلبه وقال: هذه أشبه الناس بالطيرة التي رأيتُها في البحيرة في قصر أخواتي البنات، وكانت تتدلل على أتباعها مثلها. فقالت العجوز: يا حسن، هل هذه زوجتك؟ فقال: لا وحياتك يا سيدتي ما هذه زوجتي، ولا عمري رأيتها، وما في جميع البنات التي رأيتهن في هذه الجزيرة مثل زوجتي، ولا مثل قدِّها واعتدالها وحُسْنها وجمالها. فقالت: صِفْها لي وعرِّفني بجميع أوصافها حتى تكون في ذهني، فإني أعرف كل بنت في جزائر واق؛ لأني نقيبة عسكر البنات والحاكمة عليهن، وإنْ وصفتَها لي عرفتُها وتحيَّلت لك في أخذها. فقال لها حسن: إن زوجتي صاحبة وجه مليح وقَدٍّ رجيح، أسيلة الخد قائمة النهد، دعجاء العينين ضخمة الساقين، بيضاء الأسنان حلوة اللسان، ظريفة الشمائل كأنها غصن مائل، بديعة الصفة حمراء الشفة، بعيون كحال وشفايف رقاق، على خدها الأيمن شامة، وعلى بطنها من تحت سرتها علامة، وجهها منير كقمر مستدير، وخصرها نحيل وردفها ثقيل، وريقها يشفي العليل كأنه الكوثر أو السلسبيل. فقالت العجوز: زِدْني في أوصافها بيانًا زادَكَ الله فيها افتتانًا. فقال لها حسن: إن زوجتي ذات وجه جميل، وخد أسيل، وعنق طويل، وطرف كحيل، وخدود

كالشقيق، وفم كخاتم عقيق، وثغر لامع البريق، يُغنِي عن الكأس والإبريق، قد ركبت في هيكل اللطافة، وبين فخذيها تخت الخلافة، ما مثل حرمه بين المشاعر، كما قال في حقه الشاعر:

اسِمُ الَّذِي حَيَّرَنِي حُرُوفُهُ مُشْتَهِرَةْ
أَرْبَعَةٌ فِي خَمْسَةٍ وَسِتَّةٌ فِي عَشَرَةْ

ثم بكى حسن وغنَّى بهذا الموال:

وَجْدِي بِكُمْ وَجْدُ هِنْدِيٍّ ضَيَّعَ الْقَصْعَةْ أَوْ وَجْدُ سَاعٍ وَفِي رِجْلِهِ الْيُمْنَى قَصْعَةْ
أَوْ وَجْدُ مُضْنًى عَلِيلٍ بِجُرُوحٍ مُتَّسِعَةْ أَوْ وَجْدُ مَنْ حَرَّرَ السَّبْعَةَ عَلَى الْعِشْرِينْ
وَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى مَنْ يَتْبَعِ التِّسْعَةْ

فأطرقت العجوز برأسها إلى الأرض ساعةً من الزمان، ثم رفعت رأسها إلى حسن وقالت: سبحان الله العظيم الشأن، إني بُلِيت بك يا حسن، فيا ليتني ما كنتُ عرفتُك؛ لأن المرأة التي وصفتَها لي هي زوجتك بعينها، فإني قد عرفتُها بصفاتها، وهي بنت الملك الأكبر الكبيرة التي تحكم على جزائر واق بأسرها، فافتحْ عينك وتدبَّرْ أمرك، وإنْ كنتَ نائمًا فانتبه، فإنه لا يمكنك الوصول إليها أبدًا، وإنْ وصلتَ إليها لا تقدر على تحصيلها؛ لأن بينك وبينها مثل ما بين السماء والأرض، فارجع يا ولدي من قريب ولا ترمِ نفسك في الهلاك وترميني معك، فإني أظن أنه ليس لك فيها نصيب، وارجعْ من حيث أتيتَ لئلا تروح أرواحنا. وخافت على نفسها وعليه. فلما سمع حسن كلامَ العجوز بكى بكاءً شديدًا حتى غُشِيَ عليه، فما زالَتِ العجوز ترش على وجهه الماء حتى أفاق من غشيته، وصار يبكي حتى بلَّ ثيابه بالدموع من عِظَم ما لحقه من الهم والغم من كلام العجوز، وقد يئس من الحياة، ثم قال للعجوز: يا سيدتي، وكيف أرجع بعد أن وصلتُ إلى هنا؟ وما كنتُ أظن في نفسي أنكِ تعجزين عن تحصيل غرضي، خصوصًا وأنت نقيبة عسكر البنات والحاكمة عليهن؟ فقالت: بالله عليك يا ولدي أن تختار لك بنتًا من هؤلاء البنات، وأنا أعطيك إياها عوضًا عن زوجتك لئلا تقع في يد الملوك، فلا يبقى لي في خلاصك حيلة، فبالله عليك أن تسمع مني وتختار لك واحدة من هؤلاء البنات غير تلك البنت، وترجع إلى بلادك من قريب سالمًا، ولا تجرعني غصتك، والله لقد رميتَ نفسك في بلاء عظيم وخطر جسيم

لا يقدر أحد أن يخلِّصَك منه. فعند ذلك أطرَقَ حسن رأسه وبكى بكاءً شديدًا، وأنشد هذه الأبيات:

فَقُلْتُ لِعُذَّلِي لَا تَعْذِلُونِي ... لِغَيْرِ الدَّمْعِ مَا خُلِقَتْ جُفُونِي
مَدَامِعُ مُقْلَتِي طَفَحَتْ فَفَاضَتْ ... عَلَى خَدِّي وَأَحْبَابِي جَفَوْنِي
دَعُونِي فِي الْهَوَى قَدْ رَقَّ جِسْمِي ... لِأَنِّي فِي الْهَوَى أَهْوَى جُنُونِي
وَيَا أَحْبَابُ قَدْ زَادَ اشْتِيَاقِي ... إِلَيْكُمْ مَا لَكُمْ لَا تَرْحَمُونِي
جَفَوْتُمْ بَعْدَ مِيثَاقٍ وَعَهْدٍ ... وَخُنْتُمْ صُحْبَتِي وَتَرَكْتُمُونِي
وَيَوْمَ الْبَيْنِ لَمَّا قَدْ رَحَلْتُمْ ... سُقِيتُ مِنَ الصُّدُودِ شَرَابَ هُونِ
فَيَا قَلْبِي عَلَيْهِمْ ذُبْ غَرَامًا ... وَجُودِي بِالْمَدَامِعِ يَا عُيُونِي

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن العجوز لما قالت لحسن: بالله عليك يا ولدي أن تسمع مني كلامي، وتختار لك واحدة من هؤلاء البنات غير زوجتك وترجع إلى بلادك من قريبٍ سالمًا. فأطرق رأسه وبكى بكاءً شديدًا، وأنشد الأبيات المذكورة، فلما فرغ من شعره بكى حتى غُشِيَ عليه، فما زالت العجوز ترشُّ الماءَ على وجهه حتى أفاق من غشيته، ثم أقبلَتْ عليه وقالت: يا سيدي، ارجع إلى بلادك، فإني متى سافرتُ بكَ إلى المدينة راحت روحك وروحي؛ لأن الملكة إذا علمَتْ بذلك تلومني على دخولي بك إلى بلادها وجزائرها التي لم يصلها أحدٌ من أولاد بني آدم، وتقتلني حيث حملتُكَ معي، وأطلعتُكَ على هؤلاء الأبكار اللاتي رأيتَهن في البحر، مع أنه لم يمسهنَّ فَحْل ولم يقربهن بَعْل. فحلف حسن أنه ما نظر إليهن نظر سوء قطُّ، فقالت له: يا ولدي، ارجع إلى بلادك وأنا أعطيك من المال والذخائر والتحف ما تستغني به عن جميع النساء، فاسمع كلامي وارجع من قريب ولا تخاطر بنفسك فقد نصحتك. فلما سمع حسن كلامها بكى ومرَّغ خدَيْه على قدميها وقال: يا سيدتي ومولاتي وقرة عيني، كيف أرجع بعدما وصلتُ إلى هذا المكان ولم أنظر مَن أريد؟ وقد قربت من دار الحبيب، وترجيت اللقاءَ عن قريب، ولعله أن يكون لي في الاجتماع نصيب. ثم أنشد هذه الأبيات:

يَا مُلُوكَ الْجَمَالِ رِفْقًا بِأَسْرَى ... لِجُفُونٍ تَمَلَّكَتْ مُلْكَ كِسْرَى
قَدْ غَلَبْتُمْ رَوَائِحَ الْمِسْكِ طِيبًا ... وَبَهَرْتُمْ مَحَاسِنَ الْوَرْدِ زَهْرَا
وَنَسِيمُ النَّعِيمِ حَيْثُ حَلَلْتُمْ ... فَالصَّبَا مِنْ هُنَاكَ تَعْبَقُ نَشْرَا
عَاذِلِي كُفَّ عَنْ مَلَامِي وَنُصْحِي ... إِنَّمَا جِئْتَ بِالنَّصِيحَةِ نُكْرَا

مَا عَلَى صَبْوَتِي مِنَ الْعَذْلِ وَاللَّوْ م إِذَا لَمْ تُحِطْ بِذَلِكَ خُبْرَا
أَسَرَتْنِي الْعُيُونُ وَهْيَ مِرَاضٌ وَرَمَتْنِي فِي الْحُبِّ عُنْفًا وَقَهْرَا
أَنْثُرُ الدَّمْعَ حِينَ أَنْظُمُ شِعْرِي هَاكَ مِنِّي الْحَدِيثَ نَظْمًا وَنَثْرَا
حُمْرَةُ الْخَدِّ قَدْ أَذَابَتْ فُؤَادِي فَتَلَظَّتْ مِنِّي الْجَوَارِحُ جَمْرَا
خَبِّرَانِي مَتَى تَرَكْتُ حَدِيثِي فَبِأَيِّ الْحَدِيثِ أَشْرَحُ صَدْرَا
طُولُ عُمْرِي فِي هَوَى الْغِيدِ وَلَكِنْ يُحْدِثُ اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرَا

فلما فرغ حسن من شعره، رقَّتْ له العجوز ورحمته، وأقبلت عليه وطيَّبَتْ خاطره، وقالت له: طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، وأخل فكرك من الهم، والله لَأخاطِرَنَّ معك بروحي حتى تبلغ مقصودك أو تدركني منيتي. فطاب قلب حسن وانشرح صدره، وجلس يتحدَّث مع العجوز إلى آخِر النهار، فلما أقبَلَ الليل تفرَّقت البنات كلهن؛ فمنهن مَن دخلت قصرها في البلد، ومنهن مَن باتت في الخيام. ثم إن العجوز أخذت حسنًا معها ودخلت به البلد، فأخلَتْ له مكانًا وحده لئلا يطَّلِع عليه أحدٌ فيُعلِم الملكة به فتقتله وتقتل مَن أتى به، ثم صارت تخدمه بنفسها وتخوِّفه من سطوة الملك الأكبر أبي زوجته، وهو يبكي بين يديها ويقول: يا سيدتي، قد اخترتُ الموتَ لنفسي وكرهت الدنيا، إنْ لم أجتمع بزوجتي وأولادي، فأنا أخاطِرُ بروحي، إما أن أبلغ مرادي وإما أن أموت.

فصارت العجوز تتفكَّر في كيفية وصاله واجتماعه بزوجته، وكيف تكون الحيلة في أمر هذا المسكين الذي رمى روحه في الهلاك، ولم ينزجر عن قصده بخوف ولا غيره، وقد سلا نفسه، وصاحِبُ المثل يقول: العاشق لا يسمع كلام خليٍّ. وكانت تلك البنت ملكة الجزيرة التي هم نازلون فيها، وكان اسمها نور الهدى، وكان لهذه الملكة سبع أخوات بنات أبكار مُقِيمات عند أبيهن الملك الأكبر، الذي هو حاكم على السبع جزائر وأقطار واق، وكان تخت ذلك الملك في المدينة التي هي أكبر مدن ذلك البر، وكانت بنته الكبيرة وهي نور الهدى هي الحاكمة على تلك المدينة التي فيها حسن وعلى سائر أقطارها. ثم إن العجوز لما رأت حسنًا محترقًا على الاجتماع بزوجته وأولاده، قامت وتوجَّهَتْ إلى قصر الملكة نور الهدى، فدخلَتْ عليها وقبَّلَتِ الأرضَ بين يدَيْها، وكان للعجوز فضل عليها؛ لأنها ربَّتْ بناتَ المَلِك جميعهن، ولها على الجميع سلطنة، وهي مكرَّمة عندهن عزيزة عند الملك.

فلما دخلت العجوز على الملكة نور الهدى، قامت لها وعانقَتْها وأجلَسَتْها جنبها، وسألتها عن سفرتها، فقالت لها: والله يا سيدتي إنها كانت سفرة مباركة، وقد استصحبتُ لكِ معي هدية سأحضِرُها بين يديك. ثم قالت لها: يا بنتي، يا ملكة العصر والزمان، إني

قد أتيتُ معي بشيء عجيب وأريد أن أُطلِعَكِ عليه لأجل أن تساعديني على قضاء حاجته. فقالت لها: وما هو؟ فأخبرَتْها بحكاية حسن من أولها إلى آخِرها وهي ترتعد كالقصبة في مهبِّ الريح العاصف، حتى وقعَتْ بين يدي بنت الملك، وقالت لها: يا سيدتي، قد استجارَ بي شخصٌ على الساحل كان مختفيًا تحت الدكة فأجرْتُه، وأتيتُ به معي بين عسكر البنات وهو حامل السلاح بحيث لا يعرفه أحدٌ، وأدخلته البلد. ثم قالت لها: وقد خوَّفْتُه من سطوتكِ وعرَّفْتُه ببأسك وقوتك، وكلما أخوِّفه يبكي وينشد الأشعار ويقول لي: لا بد من رؤية زوجتي وأولادي، أو أموت ولا أرجع إلى بلادي من غيرهم. وقد خاطَرَ بنفسه وجاء إلى جزائر واق، ولم أَرَ عمري آدميًّا أقوى قلبًا منه، ولا أشد بأسًا، إلا أن الهوى قد تمكَّنَ منه غاية التمكُّن. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٠٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما حكَتْ للملكة نور الهدى حكايةَ حسن، قالت لها: وما رأيتُ أقوى قلبًا منه، إلا أن الهوى قد تمكَّنَ منه غاية التمكُّن. فلما سمعتِ الملكةُ كلامها وفهمت قصة حسن، غضبت غضبًا شديدًا وأطرقَتْ رأسها إلى الأرض ساعةً، ثم رفعت رأسها ونظرت إلى العجوز وقالت لها: يا عجوزَ النحس، هل بلغ من خبثك أنك تحملين الذكورَ وتأتين بهم معك إلى جزائر واق، وتدخلين بهم عليَّ ولم تخافي من سطوتي؟ وحق رأس الملك لولا ما لكِ عليَّ من التربية لَقتلتُكِ أنت وإياه في هذه الساعة أقبحَ قتلة، حتى يعتبر المسافرون بك يا ملعونة؛ لئلا يفعل أحد مثل ما فعلتِ من هذه الفعلة العظيمة التي لم يقدر أحدٌ عليها، ولكن اخرجي وأحضريه في هذه الساعة حتى أنظره. فخرجت العجوز من بين يدَيْها وهي مدهوشة لا تدري أين تذهب وتقول: كل هذه المصيبة ساقَهَا الله لي من هذه الملكة على يد حسن. ومضَتْ إلى أن دخلت على حسن فقالت له: قُمْ كلِّمِ الملكةَ يا مَن آخِرُ عمره قد دَنَا. فقام معها ولسانه لا يفتر عن ذِكْر الله تعالى ويقول: اللهم الطُفْ بي في قضائك، وخلِّصْني من بلائك. فسارت به حتى أوقفَتْه بين يدي الملكة نور الهدى، وأوصَتْه العجوز في الطريق بما يتكلَّم به معها، فلما تمثَّلَ بين يدَيْ نور الهدى رآها ضاربةً لثامًا، فقبَّلَ الأرضَ بين يديها وسلَّمَ عليها، وأنشد هذين البيتين:

أَدَامَ اللهُ عِزَّكِ فِي سُرُورٍ وَخَوَّلَكِ الْإِلَهُ بِمَا حَبَاكِ
وَزَادَكِ رَبُّنَا عِزًّا وَمَجْدًا وَأَيَّدَكِ الْقَدِيرُ عَلَى عِدَاكِ

فلما فرغ من شعره أشارت الملكة إلى العجوز أن تخاطبه قدامها لتسمع مجاوَبتَه، فقالت العجوز: إن الملكة تردُّ عليك السلام وتقول لك: ما اسمك؟ ومن أيِّ البلاد أنتَ؟ وما اسم زوجتك وأولادك الذين جئتَ من أجلهم؟ وما اسم بلادك؟ فقال لها وقد ثبت جنانه

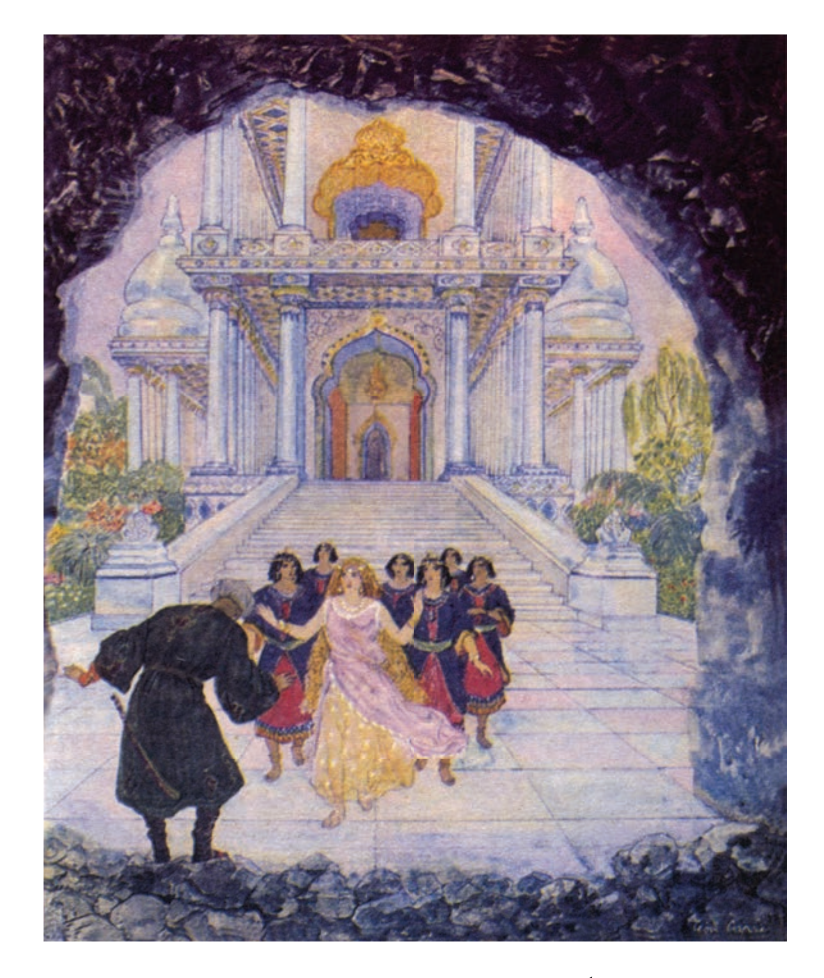
وساعدته المقادير: يا ملكة العصر والأوان، ووحيدة الدهر والزمان، أمَّا أنا فاسمي حسن الكثير الحزن، وبلدي البصرة، وأما زوجتي فلا أعرف لها اسمًا، وأما اسم أولادي فواحد اسمه ناصر، والآخَر منصور. فلما سمعت الملكة كلامه وحديثه قالت: فمن أين أخذت أولادها؟ فقال لها: يا ملكة، من مدينة بغداد من قصر الخلافة. فقالت له: وهل قالت لكم شيئًا عندما طارت؟ قال: إنها قالت لوالدتي: إذا جاء ولدكِ وطالَتْ عليه أيام الفراقِ، واشتهى القُرْبَ والتلاق، وهَزَّتْه رياح الاشتياق، فَلْيجئني إلى جزائر واق. فحرَّكَتِ الملكة نور الهدى رأسها، ثم قالت له: إنها لو كانت ما تريدك ما قالت لأمك هذا الكلام، ولولا أنها تريدك وتشتهي قُرْبك ما كانت أعلمَتْكَ بمكانها ولا طلبتك إلى بلادها. فقال حسن: يا سيدة الملوك، والحاكمة على كل ملك وصعلوك، الذي جرى أخبرتُكِ به وما أخفيتُ منه شيئًا، وأنا أستجير بالله وبكِ ألَّا تظلميني، فارحميني واربحي أَجْرِي وثوابي، وساعديني على الاجتماع بزوجتي وأولادي، وردِّي لهفتي وقرِّي عيني بأولادي، وأسعِفيني برؤيتهم. ثم بكى وحنَّ واشتكى، وأنشد هذين البيتين:

لَأَشْـكُـرَنَّـكِ مَـا نَـاحَـتْ مُـطَـوَّقَـةٌ	جَهْدِي وَإِنْ كُنْتُ لَا أَقْضِي الَّذِي وَجَبَ
فَـمَـا تَـقَـلَّـبْتُ فِـي نَـعْـمَـاءَ سَـابِـقَـةٍ	إِلَّا وَجَدْتُكِ فِـيـهَـا الْأَصْـلَ وَالـسَّـبَـبَ

فأطرقت الملكة نور الهدى رأسها إلى الأرض وحرَّكته زمانًا طويلًا، ثم رفعته وقالت له: قد رحمتُكَ ورثيتُ لك، وقد عزمتُ على أن أعرض عليك كلَّ بنت في المدينة وفي بلاد جزيرتي، فإنْ عرفْتَ زوجتك سلَّمْتُها إليك، وإنْ لم تعرفها قتلْتُكَ وصلبْتُكَ على باب دار العجوز. فقال لها حسن: قبلتُ ذلك منكِ يا ملكة الزمان. ثم أنشد هذه الأبيات:

أَقَمْتُمْ غَرَامِي فِي الْهَوَى وَقَعَدْتُمُ	وَأَسْهَرْتُمُ جَفْنِي الْقَرِيحَ وَنِمْتُمُ
وَعَاهَدْتُمُونِي أَنَّكُمْ لَنْ تُمَاطِلُوا	فَـلَـمَّـا أَخَـذْتُـمْ بِـالْـقِـيَـادِ غَـدَرْتُـمُ
عَشِقْتُكُمُ طِفْلًا وَلَمْ أَدْرِ مَا الْهَوَى	فَـلَا تَـقْـتُـلُـونِـي إِنَّـنِـي مُـتَـظَـلِّـمُ
أَمَا تَتَّقُونَ اللهَ فِي قَتْلِ عَاشِقٍ	يَبِيتُ يُرَاعِي النَّجْمَ وَالنَّاسُ نُوَّمُ
فَبِاللهِ يَا قَوْمِي إِذَا مِتُّ فَاكْتُبُوا	عَلَى لَوْحِ قَبْرِي: إِنَّ هَذَا مُتَيَّمُ
لَعَلَّ فَتًى مِثْلِي أَضَرَّ بِهِ الْهَوَى	إِذَا مَـا رَأَى قَبْرِي عَلَـيَّ يُسَلِّـمُ

فلما فرغ من شعره قال: رضيتُ بالشرط الذي شرطتِه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم. فعند ذلك أمرَتِ الملكةُ نور الهدى ألَّا تبقى بنت في المدينة حتى تطلع القصر



أمرَت المِلكة ألَّا تَبقى بنتٌ في المدينة حتى تطلع القصرَ وتمرُّ أمامَه.

وتمر أمامه، ثم إن الملكة أمرَتِ العجوزَ شواهي أن تنزل بنفسها إلى المدينة، وتحضر كل بنت كانت في المدينة إلى الملكة في قصرها، وصارت الملكة تُدخِل البنات على حسن مائة بعد مائة، حتى لم يَبْقَ في المدينة بنت إلا وقد عرضَتْها على حسن، فلم يَرَ زوجته فيهن، فسألَتْه الملكة وقالت له: هل رأيتَها في هؤلاء؟ فقال لها: وحياتك يا ملكة ما هي فيهن. فاشتدَّ غضب الملكة عليه وقالت للعجوز: ادخلي وأَخْرِجي كلَّ مَن كنَّ في القصر واعرضيهن عليه.

فلما عرضت عليه كلَّ مَن في القصر، لم يَرَ زوجته فيهن وقال للملكة: وحياة رأسك يا ملكة ما هي فيهن. فغضبت وصرخت على مَن حولها وقالت: خذْنَه واسحبْنَه على وجهه فوق الأرض، واضربْنَ عنقه؛ لئلا يخاطرَ بنفسه أحد بعده ويطَّلِع على حالنا، ويجوز علينا في بلادنا، ويطأ أرضنا وجزائرنا. فسحبْنَه على وجهه وطرحْنَ ذيله فوقه وغمَّضْنَ عينَيْه، ووقفْنَ بالسيوف على رأسه ينتظرْنَ الإذن، فعند ذلك تقدَّمَتْ شواهي إلى الملكة وقبَّلَتِ الأرضَ بين يديها، ومسكت ذيلها ورفعَتْه فوق رأسها وقالت لها: يا ملكة، بحق التربية لا تعجلي عليه، خصوصًا وأنت تعرفين أن هذا المسكين غريب قد خاطَرَ بنفسه، وقاسَى أمورًا ما قاسَاها أحد قبله، ونجَّاه الله تعالى عز وجل من الموت لطول عمره، وقد سمع بعَدْلِكِ فدخل بلادك وحِمَاك، فإنْ قتلتِه تنتشر الأخبار عنكِ مع المسافرين بأنك تبغضين الأغرابَ وتقتلينهم، وهو على كل حال تحت قهرك، ومقتول سيفك إنْ لم تظهر زوجته في بلدك، وأي وقت تشتهين حضوره فأنا قادرة على ردِّه إليك، وأيضًا فأنا ما أَجَرْتُه إلا طمعًا في كرمك بسبب ما لي عليك من التربية، حتى ضمنتُ له أنك توصلينه إلى بغيته؛ لعلمي بعدلك وشفقتك، ولولا أني أعلم منك هذا ما كنتُ أدخلْتُه بلدك، وقلتُ في نفسي: إن الملكة تتفرَّج عليه وعلى ما يقوله من الأشعار والكلام المليح الفصيح الذي يشبه الدر المنظوم، وهذا قد دخل بلادنا وأكل زادنا، فوجَبَ حقُّه علينا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة نور الهدى لما أمرت غلمانها بأخذ حسن وضرب عنقه، صارت العجوز تأخذ بخاطرها وتقول لها: إنه دخل بلادنا وأكل زادنا، فوجب حقه علينا، خصوصًا وقد وعدته بالاجتماع بك، وأنت تعرفين أن الفراق صعب، وتعرفين أن الفراق قتَّال، خصوصًا فراق الأولاد، وما بقي علينا من النساء واحدة إلا أنتِ، فأَرِيه وجهك. فتبسَّمَتِ الملكة وقالت: من أين له أن يكون زوجي وخلَّفَ مني أولادًا حتى أُرِيه وجهي. ثم أمرت بحضوره، فأدخلوه عليها وأوقفوه بين يدَيْها، فكشفت وجهها، فلما رآه حسن صرَخَ صرخةً عظيمةً وخرَّ مغشيًّا عليه، فلم تَزَلِ العجوزُ تلاطِفه حتى أفاق، فلما أفاق من غشيته أنشد هذه الأبيات:

يَا نَسِيمًا هَبَّ مِنْ أَرْضِ الْعِرَاقْ	فِي زَوَايَا أَرْضِ مَنْ قَدْ قَالَ وَاقْ
بَـلِّـغِ الْأَحْـبَـابَ عَـنِّـي أَنَّـنِـي	مِتُّ مِنْ طَعْمِ الْهَوَى الْمُرِّ الْمَذَاقْ
يَا أُهَيْلَ الْحُبِّ مِنُّوا وَاعْطِفُوا	ذَابَ قَلْبِي مِنْ تَبَارِيحِ الْفِرَاقْ

فلما فرغ من شعره قام ونظر الملكةَ وصاح صيحة عظيمة كاد منها القصر أن يسقط على مَن فيه، ثم وقع مغشيًّا عليه، فما زالت العجوز تلاطفه حتى أفاق وسألته عن حاله، فقال: إن هذه الملكة إما زوجتي، وإما أشبه الناس بزوجتي. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما سألته عن حاله قال لها: إن هذه الملكة إما زوجتي، وإما أشبه الناس بزوجتي. فقالت الملكة للعجوز: ويلكِ يا داية، إن هذا الغريب مجنون أو مختل؛ لأنه ينظر في وجهي ويحملق عينيه. فقالت لها العجوز: يا ملكة، إن هذا معذور فلا تؤاخذيه، فإنه يقال في المثل: مريض الهوى ما له دواء، وهو والمجنون سواء. ثم إن حسنًا بكى بكاءً شديدًا، وأنشد هذين البيتين:

أَرَى آثَارَهُمْ فَأَذُوبُ شَوْقًا وَأَسْكُبُ فِي مَوَاطِنِهِمْ دُمُوعِي
وَأَسْأَلُ مَنْ بِفُرْقَتِهِمْ بَلَانِي يَمُنُّ عَلَيَّ مِنْهُمُ بِالرُّجُوعِ

ثم إن حسنًا قال للملكة: والله ما أنت زوجتي، ولكنك أشبه الناس بها. فضحكَتِ الملكة نور الهدى حتى استلقت على قفاها ومالت على جنبها، ثم قالت: يا حبيبي، تمهَّلْ على روحك وميِّزني وجاوبني عن الذي أسألك عنه، ودَعْ عنك الجنونَ والحيرةَ والذهولَ، فإنه قد قرب لك الفرج. فقال حسن: يا سيدة الملوك، وملجأ كل غني وصعلوك، إني حين نظرتُكِ جننتُ؛ لأنك إما زوجتي وإما أشبه الناس بزوجتي، فاسأليني الآن عمَّا تريدين. فقالت: أي شيء في زوجتكِ يشبهني؟ فقال: يا سيدتي، جميع ما فيكِ من الحُسْن والجمال والظرف والدلال، كاعتدال قوامك وعذوبة كلامك، وحمرة خدودك وبروز نهودك، وغير ذلك يشبهها. ثم إن الملكة التفتَتْ إلى شواهي أم الدواهي وقالت لها: يا أمي، أَرْجِعيه إلى موضعه الذي كان فيه عندك، واخدميه أنتِ بنفسك حتى أتفحَّصَ عن أمره، فإنْ كان هذا الرجل صاحب مروءة بحيث يحفظ الرفق الصحبة والود، وجَبَ علينا مساعدته على قضاء حاجته، خصوصًا وقد نزل أرضنا وأكل طعامنا، مع ما تحمَّلَه من مشقَّاتِ الأسفار

ومكابدة أهوال الأخطار، ولكن إذا أوصلتِه إلى بيتكِ، فأوصي عليه أتباعك وارجعي إليَّ بسرعة، وإن شاء الله تعالى لا يكون إلا خيرًا. فعند ذلك خرجت العجوز وأخذت حسنًا ومضَتْ به إلى منزلها، وأمرت جواريها وخَدَمها وحشمها بخدمته، وأمرتهم أن يحضروا له جميع ما يحتاج إليه، وألَّا يقصِّروا في حقه، ثم عادت إلى الملكة بسرعة، فأمرتها أن تحمل سلاحها وتأخذ معها ألف فارس من الشجعان، فامتثلت العجوز شواهي أمرها، ولبست دروعها وأحضرت الألف فارس، ولما وقفَتْ بين يدَيْها وأخبرتها بإحضار الألف فارس، أمرتها أن تسير إلى مدينة الملك الأكبر أبيها، وتنزل عند بنته منار السنا أختها، وتقول لها: أَلْبِسِي ولَدَيْكِ الدرعين اللذين عملتهما لهما، وأرسليهما إلى خالتهما فإنها مشتاقة إليهما. وقالت لها: أوصيك يا أمي بكتمان أمر حسن، فإذا أخذتِهما فقولي لها: إن أختك تستدعيك إلى زيارتها. فإذا أعطتْكِ ولدَيْها وخرجت بهما قاصدة الزيارة، فاحضري بهما سريعًا وخلِّيها تحضر على مهلها، وتعالي من طريق غير الطريق التي تجيء منها، ويكون سفرك ليلًا ونهارًا، واحذري أن يطَّلِع على هذا الأمر أحدٌ أبدًا، ثم إني أحلف بجميع الأقسام إنْ طلعَتْ أختي زوجتَه، وظهر أن وَلَدَيْها ولدَاه، لا أمنعه من أخذها ولا من سفرها معه بأولادها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة قالت: إني أحلف بالله، وأقسم جميع الأقسام أنها إنْ طلعت زوجته لا أمنعه من أخذها، بل أساعده على أخذها وعلى سفرها معه إلى بلاده. فوَثِقت العجوز بكلامها، ولم تعلم بما أَضمرَتْه في نفسها، وقد أضمرت العاهرةُ في نفسها أنها إنْ لم تكن زوجته ولا أولادها يشبهونه تقتله. ثم إن الملكة قالت للعجوز: يا أمي، إن صدق حزري تكون زوجته أختي منار السنا، والله أعلم، فإن هذه الصفات صفاتها، وجميع الأوصاف التي ذكرها من الجمال البارع والحسن الباهر لا توجد في أحدٍ غير أخواتي، خصوصًا الصغيرة. ثم إن العجوز قبَّلَتْ يدها ورجعت إلى حسن وأعلَمَتْه بما قالته الملكة، فطار عقله من الفرح وقام إلى العجوز وقبَّلَ رأسها، فقالت له: يا ولدي، لا تقبِّلْ رأسي وقبِّلني في فمي، واجعل هذه القبلة حلاوةَ السلامة، وطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، ولا يكن صدرك إلا منشرحًا، ولا تستكره تقبيلي في فمي؛ فإني أنا السبب في اجتماعك بها، فطيِّبْ قلبك وخاطرك ولا تكن إلا منشرح الصدر، قرير العين، مطمئن النفس. ثم ودَّعته وانصرفت، فأنشد حسن هذين البيتين:

لِـي فِـي مَـحَـبَّـتِـكُـمْ شُـهُـودٌ أَرْبَـعٌ ... وَشُـهُـودُ كُـلِّ قَـضِـيَّـةٍ اثْـنَـانِ
خَفَقَانُ قَلْبِي وَاضْطِرَابُ جَوَارِحِي ... وَنُحُولُ جِسْمِي وَانْعِقَادُ لِسَانِي

ثم أنشد أيضًا هذين البيتين:

شَيْئَانِ لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءَ عَلَيْهِمَا ... عَيْنَايَ حَتَّى تُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ يَقْضِيَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقَّيْهِمَا ... شَرْخُ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ

ثم إن العجوز حملت سلاحها وأخذت معها ألفَ فارس حاملين السلاح، وتوجَّهت إلى تلك الجزيرة التي فيها أخت الملكة، وسارت إلى أن وصلت إلى أخت الملكة، وكان بين مدينة نور الهدى وبين مدينة أختها ثلاثة أيام، فلما وصلت شواهي إلى المدينة وطلعت إلى أخت الملكة منار السنا، سلَّمَتْ عليها وبلَّغتها السلام من أختها نور الهدى، وأخبرتها باشتياقها إليها وإلى أولادها، وعرَّفَتْها أن الملكة نور الهدى تعتب عليها بسبب عدم زيارتها إياها، فقالت لها الملكة منار السنا: الحقُّ عليَّ لأختي، وأنا مقصِّرة بعدم زيارتي لها ولكن أزورها الآن. ثم أمرت بتبريز خيامها إلى خارج المدينة، وأخذت لأختها معها ما يصلح لها من الهدايا والتحف. ثم إن الملك أباها نظر من طيقان القصر فرأى الخيام منصوبةً، فسأل عن ذلك، فقالوا له: إن الملكة منار السنا نصبت خيامها بتلك الطريق؛ لأنها تريد زيارة أختها نور الهدى. فلما سمع الملك بذلك جهَّزَ لها عسكرًا يوصلها إلى أختها، وأخرَجَ من خزائنه من الأموال ومن المأكل والمشرب ومن التحف والجواهر، ما يعجز عنه الوصف، وكانت بنات الملك السبع أشِقَّاء من أب واحد وأم واحدة إلا الصغيرة، وكان اسم الكبيرة نور الهدى، والثانية نجم الصباح، والثالثة شمس الضحى، والرابعة شجرة الدر، والخامسة قوت القلوب، والسادسة شرف البنات، والسابعة منار السنا، وهي الصغيرة فيهن وهي زوجة حسن، وكانت أختهن من أبيهن فقط. ثم إن العجوز تقدَّمت وقبَّلت الأرض بين يدَيْ منار السنا، فقالت لها منار السنا: هل لكِ حاجة يا أمي؟ فقالت لها: إن الملكة نور الهدى أختكِ تأمرك أن تغيِّري لولَدَيْكِ وتُلبِسيهما الدرعَيْن اللذين فصَّلتهما لهما، وأن تُرسِليهما معي إليها، فآخذهما وأسبق بهما وأكون المبشِّرة بقدومك عليها. فلما سمعت منار السنا كلامَ العجوز أطرقت رأسها إلى الأرض وقد تغيَّرَ لونها، ولم تَزَلْ مُطرِقةً زمانًا طويلًا، ثم حرَّكَتْ رأسها ورفعتها إلى العجوز وقالت لها: يا أمي، قد ارتجَفَ فؤادي وخفق قلبي عندما ذكرتِ ولَدَيَّ، فإنهما من حين ولادتهما لم ينظر أحدٌ وجهَيْهما من الجن والبشر، لا أنثى ولا ذكر، وأنا أغارُ عليهما من النسيم إذا سرى. فقالت لها العجوز: أي شيء هذا الكلام يا سيدتي؟! أتخافين عليهما من أختك؟ وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز لما قالت للسيدة منار السنا: أيُّ شيء هذا الكلام يا سيدتي؟ أتخافين عليهما من أختك؟ سلامة عقلك، وإنْ خالفتِ الملكةَ في هذا الأمر لا يمكنكِ المخالفة، فإنها تعتب عليك، ولكن يا سيدتي ولداك صغيران، وأنتِ معذورة في الخوف عليهما، والمحب مُولَع بسوء الظن، ولكن يا بنتي أنت تعلمين شفقتي ومحبتي لك ولولديكِ، وقد ربيتكن قبلهما، وأنا أتسلَّمهما وآخذهما وأفرش لهما خدي، وأفتح قلبي وأجعلهما في داخله، ولا أحتاج إلى الوصية عليهما في هذا الأمر، فطيبي نفسًا وقرِّي عينًا، وأرسِليهما لها، وأكثر ما أسبقك به يوم واحد أو يومان. ولم تزل تلحُّ عليها حتى لانَ جانبها وخافت من غيظ أختها، ولم تَدْرِ ما هو مخبَّأ لها في الغيب، فسمحَتْ بإرسالهما مع العجوز، ثم إنها دعَتْ بهما وحمَّتْهما وهيَّأَتْهما وغيَّرَتْ لهما وألبستهما الدرعين وسلَّمتهما للعجوز، فأخذتهما وسارت بهما مثل الطير على غير الطريق التي تسير فيها أمهما، مثل ما أوصتها الملكة نور الهدى، ولم تَزَلْ تجِدُّ في السير وهي خائفة عليهما إلى أن وصلت بهما إلى مدينة الملكة نور الهدى، فعدَّتْ بهما البحر ودخلت المدينة وتوجَّهَتْ بهما إلى الملكة نور الهدى خالتهما، فلما رأتهما فرحَتْ بهما وعانَقَتْهما وضمتهما إلى صدرها، وأجلست واحدًا على فخذها الأيمن والثاني على فخذها الأيسر، ثم التفتَتْ إلى العجوز وقالت لها: أحضِرِي الآن حسنًا، فأنا قد أعطيتُه أماني وأجَرْتُه من حسامي، وقد تحصَّنَ بداري ونزل في جِوَاري، بعد أن قاسى الأهوال والشدائد، وتعدَّى أسبابَ الموت التي همُّها متزايد، مع أنه إلى الآن لم يسلم من شرب كأسه وقطع أنفاسه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة نور الهدى لما أمرَتِ العجوز بإحضار حسن، قالت لها: إنه قاسَى الأهوال والشدائد، وتعدَّى أسباب الموت التي همُّها متزايد، مع أنه إلى الآن لم يسلم من شرب كأسه وقطع أنفاسه. فقالت لها العجوز: إذا أحضرتُه بين يديك، فهل تجمعين بينه وبينهما؟ وإنْ لم يظهر أنهما ولداه تعفي عنه وتردِّيه إلى بلاده؟ فلما سمعت الملكة كلامها غضبت غضبًا شديدًا وقالت: ويلك يا عجوز النحس! إلى متى هذه المخادعة في شأن هذا الرجل الغريب الذي تجاسَرَ علينا، وكشَفَ سترنا، واطَّلَع على أحوالنا؟ هل يظن أنه يجيء أرضنا، وينظر وجوهنا، ويوسِّخ أعراضنا، ويرجع إلى بلاده سالمًا؟ فيفضح أحوالنا في بلاده وبين أهله، وتبلغ أخبارنا سائرَ الملوك في أقطار الأرض، وتسافر التجار بأخبارنا في جميع الجهات، ويقولون: إِنْسِيٌّ دخل جزائر واق، وعدَّى بلاد السَّحَرَة والكَهَنَة، وتخطَّى أرض الجان وأرض الوحوش والطيور ورجع سالمًا؟ فهذا لا يكون أبدًا، وأنا أقسم بخالق السماء وبانيها، وساطح الأرض وداحيها، وخالق الخلق ومُحصِيها، إنْ لم يكونا ولدَيْه لَأقتلَنَّه، وأنا التي أضرب عنقه بيدي. ثم إنها صرخت على العجوز فوقعت من الخوف، وأغرَتْ عليها الحاجب وعشرين مملوكًا وقالت لهم: امضوا مع هذه العجوز وائتوني بالصبي الذي عندها في بيتها بسرعة. فخرجت العجوز مجرورة مع الحاجب والمماليك، وقد اصفرَّ لونها وارتعدَتْ فرائصها، ثم سارت إلى منزلها ودخلت على حسن، فلما دخلت عليه قام إليها وقبَّلَ يدَيْها وسلَّمَ عليها، فلم تسلِّم عليه وقالت له: قُمْ كلِّم الملكَةَ، أَمَا قلتُ لكَ ارجع إلى بلادك ونهيتُكَ عن هذا كله فما سمعتَ قولي؟ وقلتُ لك أَعطيك شيئًا لا يقدر عليه أحد وارجع إلى بلادك من قريب، فما أطعتَني ولا سمعتَ مني، بل خالَفْتَني واخترت الهلاك لي ولك، فدونك وما اخترت، فإن الموت قريب، قُمْ كلِّمْ هذه الفاجرة العاهرة الظالمة الغاشمة. فقام حسن وهو مكسور الخاطر، حزين

القلب خائف ويقول: يا سلام سلِّم، اللهم الطُفْ بي فيما قدَّرْتَه عليَّ من بلائك، واسترني يا أرحم الراحمين. وقد يَئِسَ من الحياة وتوجَّهَ مع العشرين مملوكًا والحاجب والعجوز، فدخلوا على الملكة بحسن، فوجد ولدَيْه ناصرًا ومنصورًا جالسَيْن في حجرها وهي تلاعبهما وتؤنسهما، فلما وقع نظره عليهما عرفهما، وصرخ صرخة عظيمة ووقع على الأرض مغشيًّا عليه من شدة الفرح بولدَيْه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما وقع نظره على ولدَيْه عرفهما، وصرخ صرخة عظيمة ووقع على الأرض مغشيًّا عليه، فلما أفاق عرف ولدَيْه وعرفاه، فحركتهما المحبةُ الغريزيةُ فتخلَّصَا من حِجْر الملكة ووقَفَا عند حسن، وأنطقهما الله عز وجل بقولهما: يا أبانا. فبكت العجوز والحاضرون رحمةً لهما وشفقةً عليهما، وقالوا: الحمد لله الذي جمع شملكما بأبيكما. فلما أفاق حسن من غشيته عانَقَ ولدَيْه، ثم بكى حتى غُشِي عليه، فلما أفاق من غشيته أنشد هذه الأبيات:

وَحَقِّكُمْ إِنَّ قَلْبِي لَمْ يُطِقْ جَلَدًا	عَلَى الْفِرَاقِ وَلَوْ كَانَ الْوِصَالُ رَدَى
يَقُولُ لِي طَيْفُكُمْ إِنَّ اللِّقَاءَ غَدًا	وَهَلْ أَعِيشُ عَلَى رَغْمِ الْعُدَاةِ غَدَا
وَحَقِّكُمْ سَادَتِي مِنْ يَوْمِ فُرْقَتِكُمْ	مَا لَذَّ لِي طِيبُ عَيْشٍ بَعْدَكُمْ أَبَدَا
وَإِنْ قَضَى اللهُ نَحْبِي فِي مَحَبَّتِكُمْ	أَمُوتُ فِي حُبِّكُمْ مِنْ أَعْظَمِ الشُّهَدَا
وَظَبْيَةٍ فِي زَوَايَا الْقَلْبِ مَرْتَعُهَا	وَشَخْصُهَا كَالْكَرَى عَنْ مُقْلَتِي شَرَدَا
إِنْ أَنْكَرَتْ فِي مَجَالِ الشَّرْعِ سَفْكَ دَمِي	فَإِنَّهُ فَوْقَ خَدَّيْهَا لَقَدْ شَهِدَا

فلما تحققت الملكة أن الصغيرين ولدا حسن، وأن أختها السيدة منار السنا زوجته التي جاء في طلبها، غضبَتْ عليها غضبًا شديدًا ما عليه من مزيدٍ. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة نور الهدى لما تحقَّقَتْ أن الصغيرين ولدا حسن، وأن أختها منار السنا زوجته التي جاء في طلبها، غضبَتْ عليها غضبًا شديدًا ما عليه من مزيدٍ، وصرخت في وجه حسنٍ فغُشِي عليه، فلما أفاق من غشيته أنشد هذه الأبيات:

بَعُدْتُمْ وَأَنْتُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ فِي الْحَشَا　　وَغِبْتُمْ وَأَنْتُمْ فِي الْفُؤَادِ حُضُورُ
فَوَاللهِ مَا قَدْ مِلْتُ عَنْكُمْ لِغَيْرِكُمْ　　وَإِنِّي عَلَى جَوْرِ الزَّمَانِ صَبُورُ
تَمُرُّ اللَّيَالِي فِي هَوَاكُمْ وَتَنْقَضِي　　وَفِي الْقَلْبِ مِنِّي زَفْرَةٌ وَسَعِيرُ
وَكُنْتُ فَتًى لَا أَرْتَضِي الْبُعْدَ سَاعَةً　　فَكَيْفَ وَقَدْ مَرَّتْ عَلَيَّ شُهُورُ
أَغَارُ إِذَا هَبَّتْ عَلَيْكِ نُسَيْمَةٌ　　وَإِنِّي عَلَى الْغِيدِ الْمِلَاحِ غَيُورُ

فلما فرغ حسن من شعره خرَّ مغشيًّا عليه، فلما أفاق رآهم قد أخرجوه مسحوبًا على وجهه، فقام يمشي ويتعثَّر في أذياله، وهو لا يصدِّق بالنجاة ممَّا قاساه منها، فعزَّ ذلك على العجوز شواهي ولم تقدر أن تخاطِبَ الملكة في شأنه من قوة غضبها، فلما خرج حسن من القصر صار متحيِّرًا لا يعرف أين يروح ولا أين يجيء ولا أين يذهب، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم يجد مَن يحدِّثه ويؤانِسُه، ولا مَن يسلِّيه ولا مَن يستشيره، ولا مَن يقصده ويلجأ إليه، فأيقَنَ بالهلاك؛ لأنه لا يقدر على السفر، ولا يعرف مَن يسافر معه، ولا يعرف الطريقَ ولا يقدر أن يجوز على وادي الجان وأرض الوحوش وجزائر الطيور؛ فيَئِسَ من الحياة، ثم بكى على نفسه حتى غُشِي عليه، فلما أفاق تفكَّرَ أولادَه وزوجتَه وقدومها على أختها، وتفكَّرَ فيما يجري لها مع الملكة

أختها، ثم ندم على حضوره في هذه الديار، وعلى كونه لم يسمع كلامَ أحدٍ، فأنشد هذه الأبيات:

دَعُوا مُقْلَتِي تَبْكِي عَلَى فَقْدِ مَنْ أَهْوَى ... فَقَدْ عَزَّ سُلْوَانِي وَزَادَتْ بِيَ الْبَلْوَى
فَكَأْسَ صُرُوفِ الْبَيْنِ صِرْفًا شَرِبْتُهَا ... فَمَنْ ذَا عَلَى فَقْدِ الْأَحِبَّةِ قَدْ يَقْوَى
بَسَطْتُمْ بِسَاطَ الْعَتْبِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ... أَلَا يَا بِسَاطَ الْعَتْبِ عَنَّا مَتَى تُطْوَى
سَهِرْتُ وَنِمْتُمْ إِذْ زَعَمْتُمْ بِأَنَّنِي ... سَلَوْتُ هَوَاكُمْ إِذْ سَلَوْتُ عَنِ السَّلْوَى
أَلَا إِنَّ قَلْبِي مُولَعٌ بِوِصَالِكُمْ ... وَأَنْتُمْ أَطِبَّائِي حُفِظْتُمْ مِنَ الْأَدْوَا
أَلَمْ تَنْظُرُوا مَا حَلَّ بِي مِنْ صُدُودِكُمْ ... ذَلَلْتُ لِمَنْ يَسْوَى وَمَنْ لَمْ يَكُنْ يَسْوَى
كَتَمْتُ هَوَاكُمْ وَالْغَرَامُ يُذِيعُهُ ... وَقَلْبِي بِنِيرَانِ الْهَوَى أَبَدًا يُكْوَى
فَرِقُّوا لِحَالِي وَارْحَمُونِي لِأَنَّنِي ... أَقَمْتُ عَلَى الْمِيثَاقِ فِي السِّرِّ وَالنَّجْوَى
فَيَا هَلْ تُرَى الْأَيَّامُ تَجْمَعُنِي بِكُمْ ... فَأَنْتُمْ مُنَى قَلْبِي وَرُوحِي لَكُمْ تَهْوَى
فُؤَادِي جَرِيحٌ بِالْفِرَاقِ فَلَيْتَكُمْ ... تُفِيدُونَنَا عَنْ حُبِّكُمْ خَبَرًا يُرْوَى

ثم إنه لما فرغ من شعره لم يزل ذاهبًا إلى أن خرج إلى ظاهر المدينة، فوجَدَ النهرَ فسار على جانبه وهو لا يعلم أين يتوجَّهُ.

هذا ما كان من أمر حسن، وأما ما كان من أمر زوجته منار السنا، فإنها أرادَتِ الرحيلَ في اليوم الثاني بعد اليوم الذي رحلت فيه العجوز، فبينما هي عازمة على الرحيل، إذ دخل عليها حاجب الملك أبيها وقبَّلَ الأرضَ بين يدَيْها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن منار السنا بينما هي عازمة على الرحيل، إذ دخل عليها حاجب الملك أبيها وقبَّلَ الأرض بين يدَيْها وقال لها: يا ملكة، إن أباكِ الملك الأكبر يسلِّم عليك ويدعوك إليه. فنهضَتْ متوجِّهةً مع الحاجب إلى أبيها تنظر حاجته، فلما رآها أبوها أجلَسَها إلى جانبه فوق السرير، وقال لها: يا بنتي، اعلمي أني رأيتُ في هذه الليلة رؤيَا وأنا خائفٌ عليك منها، وخائفٌ أن يصل لك من سفرك هذا همٌّ طويل. فقالت له: لأي شيء يا أبتي؟ وأي شيء رأيتَ في المنام؟ قال: رأيتُ كأني دخلتُ كنزًا، فرأيتُ فيه أموالًا عظيمة وجواهر ويواقيت كثيرة، وكأنه لم يعجبني من ذلك الكنز جميعه ولا من تلك الجواهر جميعها إلا سبع حبَّاتٍ، وهي أحسن ما فيه، فاخترتُ من السبع جواهر واحدةً وهي أصغرها وأحسنها وأعظمها نورًا، وكأني أخذتُها في كفي لما أعجبني حُسْنَها وخرجتُ بها من الكنز، فلما خرجتُ من بابه فتحتُ يدي وأنا فرحان وقبَّلْتُ الجوهرةَ، وإذا بطائر غريب قد أقبَلَ من بلاد بعيدة ليس من طيور بلادنا قد انقضَّ عليَّ من السماء، وخطف الجوهرة من يدي ورجع بها إلى المكان الذي أتيتُ بها منه، فلحقني الهمُّ والحزنُ والضيقُ، وفزعت فزعًا عظيمًا أيقظني من المنام، فانتبهْتُ وأنا حزين متأسِّف على تلك الجوهرة، فلما انتبهت من النوم دعوْتُ بالمعبِّرين والمفسِّرين وقصَصْتُ عليهم منامي، فقالوا لي: إن لك سبعَ بناتٍ تفقدُ الصغيرةَ منهن، وتُؤخَذ منك قهرًا بغير رضاك. وأنتِ يا بنتي أصغر بناتي وأعزهن عندي وأكرمهن عليَّ، وها أنت مسافرة إلى أختك، ولا أعلم ما يجري عليك منها، فلا تروحي وارجعي إلى قصرك. فلما سمعت منار السنا كلامَ أبيها خفَقَ قلبها وخافت على ولدَيْها، وأطرقت برأسها إلى الأرض ساعةً، ثم رفعَتْه إلى أبيها وقالت له: أيها الملك، إن الملكة نور الهدى قد هيَّأَتْ لي ضيافةً، وهي في انتظار قدومي عليها ساعة بعد ساعة، ولها أربع سنين ما رأتني، وإنْ قعدتُ عن زيارتها تغضب عليَّ،

ومعظم قعودي عندها شهر زمان وأحضر عندك، ومَن هذا الذي يطرق بلادنا ويصل إلى جزائر واق؟ ومَن يقدر أن يصل إلى الأرض البيضاء والجبل الأسود ويصل إلى جزيرة الكافور وقلعة الطيور؟ وكيف يقطع وادي الطيور، ثم وادي الوحوش، ثم وادي الجان، ثم يدخل جزائرنا؟ ولو دخل إليها غريب لَغرق في بحار الهلكات، فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا من شأن سفري، فإنه لا قدرةَ لأحدٍ على أن يدوس أرضنا. ولم تزل تستعطفه حتى أنعَمَ عليها بالإذن في المسير. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنها لم تزل تستعطفه حتى أنعَمَ عليها بالإذن في المسير، ثم إنه أمَرَ ألفَ فارس أن يسافروا معها ليوصلوها إلى النهر، ثم يُقِيموا مكانهم حتى تصل إلى مدينة أختها فتدخل قصر أختها، وأمرهم أن يُقِيموا عندها حتى يأخذوها ويحضروا بها إلى أبيها، وأوصاها أبوها أن تقعد عند أختها يومين ثم تعود بسرعة، فقالت: سمعًا وطاعة. ثم إنها نهضت وخرجت وخرج معها أبوها وودَّعَها، وقد أثَّرَ كلامُ أبيها في قلبها، فخافت على أولادها، ولا ينفع التحصُّن بالحذر من هجوم القدر، فجَدَّتْ في السير ثلاثةَ أيام بلياليها حتى وصلت إلى النهر وضربَتْ خيامَها على ساحله، ثم عدَّتِ النهرَ ومعها بعض غلمانها وحاشيتها ووزرائها، ولما وصلت إلى مدينة الملكة نور الهدى طلعت القصر ودخلت عليها، فرأَتْ ولدَيْها يبكون عندها ويصيحون: يا أبانا. فجرَتِ الدموع من عيونها وبكَتْ، ثم ضمَّتْ ولدَيْها إلى صدرها وقالت لهما: هل رأيتما أباكما؟ فلا كانت الساعة التي فارقته فيها، ولو عرفتُ أنه في دار الدنيا لَكنتُ وصلتكما إليه. ثم ناحَتْ على نفسها وعلى زوجها وعلى بكاء ولدَيْها، وأنشدت هذه الأبيات:

أَأَحْبَابَنَا إِنِّي عَلَى الْبُعْدِ وَالْجَفَا ... أَحِنُّ إِلَيْكُمْ حَيْثُ كُنْتُمْ وَأَعْطِفُ
وَطَرْفِي إِلَى أَوْطَانِكُمْ مُتَلَفِّتٌ ... وَقَلْبِي عَلَى أَيَّامِكُمْ مُتَلَهِّفُ
وَكَمْ لَيْلَةٍ بِتْنَا عَلَى غَيْرِ رِيبَةٍ ... مُحِبَّيْنِ يُهْنِينَا الْوَفَى وَالتَّلَطُّفُ

فلما رأتها أختها قد ضمَّتْ ولدَيْها وقالت: أنا التي فعلْتُ بنفسي وبولديَّ هكذا وأخربت بيتي. فلم تسلِّم عليها أختها نور الهدى، بل قالت لها: يا عاهرة، من أين لكِ

هذان الولدان؟ هل تزوَّجْتِ بغير علم أبيك أو زَنَيْتِ؟ فإنْ كنتِ زَنَيْتِ وجَبَ تنكيلُكِ، وإنْ كنتِ تزوَّجْتِ من غير علمنا، فلأي شيء فارقْتِ زوجَكِ وأخذتِ ولدَيْكِ وفرَّقْتِ بينهما وبين أبيهما وجئت بلادنا؟ وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨١٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة نور الهدى قالَتْ لأختها منار السنا: وإنْ كنتِ تزوَّجْتِ من غير علمنا، فلأي شيء فارقْتِ زوجَكِ وأخذْتِ ولدَيْكِ وفرَّقْتِ بينهما وبين أبيهما، وجئتِ بلادنا وقد أخفيت ولدَيْكِ عنَّا؟ أتظنين أننا لا ندري بذلك، والله تعالى علَّام الغيوب قد أظهَرَ لنا أمرَكِ، وكشف حالَكِ وبيَّنَ عوراتِكِ. ثم بعد ذلك أمرَتْ أعوانها أن يمسكوها فقبضوا عليها، فكتَّفَتْها وقيَّدَتْها بالقيود الحديد وضربَتْها ضربًا وجيعًا، حتى شرَّحَتْ جسدها وصلَبَتْها من شعرها ووضعتها في سجن، وكتبت كتابًا إلى الملك الأكبر أبيها تخبره بخبرها وتقول له: إنه قد ظهر في بلادنا رجل من الإنس، وأختي منار السنا تدَّعِي أنها تزوَّجَتْه في الحلال، وجاءت منه بولدَيْن وقد أخفَتْهما عنَّا وعنكَ، ولم تُظهِر على نفسها شيئًا إلى أن أتانا ذلك الرجل الذي من الإنس، وهو يُسمَّى حسنًا، وأخبرنا أنه تزوَّجَ بها وقعدَتْ عنده مدة طويلة من الزمان، ثم أخذت ولدَيْها وراحت من غير علمه، وأخبرت والدته عند رواحها وقالت لها: قولي لولدك إذا حصل له اشتياق أن يجيئني إلى جزائر واق. فقبضنا على ذلك الرجل عندنا، وأرسلتُ إليها العجوز شواهي تحضرها عندي هي وولدَيْها، فجهَّزَتْ نفسها وحضرت، وقد كنتُ أمرتُ العجوزَ أن تحضر لي ولدَيْها أولًا، فتسبق بهما إليَّ قبل حضورها، فجاءت العجوز بالولدين قبل حضورها، فأرسلتُ إلى الرجل الذي ادَّعَى أنها زوجته، فلما دخل عليَّ ورأى الولدين عرفهما، فتحقَّقْتُ أن الولدين ولداه وأنها زوجته، وعلمت أن كلام الرجل صحيح ولم يكن عنده عيب، ورأيتُ أن القبحَ والعيب عند أختي، فخفت من هَتْكِ عرضنا عند أهل جزائرنا، فلما دخلَتْ عليَّ هذه الفاجرة الخائنة، غضبتُ عليها وضربتُها ضربًا وجيعًا وصلبْتُها من شعرها، وقد أعلمْتُكَ بخبرها والأمر أمرك، فالذي تأمرنا به نفعله، وأنت تعلم أن هذا الأمر فيه هتيكة

لنا وعيب في حقنا وحقك، وربما يسمع أهل الجزائر بذلك فنصير بينهم مُثْلَةً، فينبغي أن تردَّ لنا جوابًا سريعًا.

ثم أعطَتِ المكتوبَ للرسول، وسار به إلى الملك، فقرأه الملك الأكبر واغتاظ غيظًا شديدًا على ابنته منار السنا، وكتب إلى ابنته نور الهدى مكتوبًا يقول لها فيه: أنا قد فوَّضْتُ أمرها إليكِ وحكَّمْتُكِ في دمها، فإن كان الأمر كما ذكرْتِ فاقتليها ولا تشاوريني في أمرها. فلما وصل إليها كتاب أبيها وقرأته، أرسلت إلى منار السنا وأحضرتها بين يديها وهي غريقة في دمها، مكتَّفَة بشعرها، مقيَّدَة بقيد ثقيل من حديد وعليها اللباس الشعر، ثم أوقفوها بين يدَيِ الملكة، فوقفَتْ حقيرة ذليلة، فلما رأت نفسها في هذه المذلة العظيمة والهوان الشديد، تفكَّرَتْ ما كانت فيه من العز وبكَتْ بكاءً شديدًا وأنشدت هذين البيتين:

يَا رَبِّ إِنَّ الْعِدَى يَسْعَوْنَ فِي تَلَفِي وَيَزْعُمُونَ بِأَنِّي لَسْتُ بِالنَّاجِي
وَقَدْ رَجَوْتُكَ فِي إِبْطَالِ مَا صَنَعُوا يَا رَبِّ أَنْتَ مَلَاذُ الْخَائِفِ الرَّاجِي

ثم بكَتْ بكاءً شديدًا حتى وقعَتْ مغشيًّا عليها، فلما أفاقَتْ أنشدت هذين البيتين:

أَلِفَ الْحَوَادِثَ مُهْجَتِي وَأَلِفْتُهَا بَعْدَ التَّنَافُرِ وَالْكَرِيمُ أَلُوفُ
لَيْسَ الْهُمُومُ عَلَيَّ صِنْفًا وَاحِدًا عِنْدِي بِحَمْدِ اللهِ مِنْهُ أُلُوفُ

ثم أنشدت أيضًا هذين البيتين:

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى ذَرْعًا وَعِنْدَ اللهِ مِنْهَا الْمَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا فُرِجَتْ وَكُنْتُ أَظُنُّهَا لَا تُفْرَجُ

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الملكة نور الهدى لما أمرت بإحضار أختها الملكة منار السنا، أوقفوها بين يدَيْها وهي مكتَّفة، فأنشدت الأشعار السابقة، ثم إن أختها أحضَرَتْ لها سلمًا من خشب ومدتها عليه، وأمرت أن يربطوها على ظهرها فوق السلم، ومدت سواعدها وربطتها في الحبال، ثم كشفَتْ رأسها ولفَّتْ شعرها على السلم الخشب وقد انتُزِعت الشفقةُ عليها من قلبها، فلما رأت منار السنا نفسها في هذه الحالة من الذل والهوان، صاحَتْ وبكَتْ فلم يُغِثْها أحد، فقالت لها: يا أختي، كيف قسا قلبك عليَّ، فما ترحمينني ولا ترحمين هذين الطفلين الصغيرين؟ فلما سمعت هذا الكلام ازدادت قسوتها وشتمَتْها وقالت لها: يا عاشقة، يا عاهرة، لا رَحِمَ الله مَن يرحمك، كيف أشفق عليك يا خائنة؟ فقالت لها منار السنا وهي مشبوحة: احتسبتُ عليك برب السماء فيما تَسُبِّينني به وأنا بريئة منه، والله ما زنَيْتُ وإنما تزوَّجته في الحلال، وربي يعلم هل قولي صحيح أم لا، وقلبي قد غضب عليك من شدة قسوة قلبك عليَّ، فكيف ترمينني بالزنا من غير علم؟ ولكن ربي يخلِّصني منك، وإنْ كان الذي قد قذفتِني به من الزنا حقًّا فسيعاقبني الله عليه. فتفكَّرَتْ أختها في نفسها حين سمعت كلامها، وقالت لها: كيف تخاطبينني بهذا الكلام؟ ثم قامَتْ لها وضربتها حتى غُشِي عليها، فرشُّوا على وجهها الماءَ حتى أفاقَتْ وقد تغيَّرَتْ محاسنها من شدة الضرب، ومن قوة الرباط ومن فرط ما حصل لها من الإهانة، ثم أنشدت هذين البيتين:

وَإِذَا جَنَيْتُ جِنَايَةً وَأَتَيْتُ شَيْئًا مُنْكَرَا
أَنَا تَائِبٌ عَمَّا مَضَى وَأَتَيْتُكُمْ مُسْتَغْفِرَا

فلما سمعَتْ شعرَها نورُ الهدى غضبت غضبًا شديدًا وقالت لها: أتتكلمين يا عاهرة قدامي بالشعر، وتستعذرين من الذي فعلتِه من الكبائر؟ وكان مرادي أن ترجعي لزوجك حتى أشاهد فجورك وقوة عينك؛ لأنك تفتخرين بالذي وقع منك من الفجور والفحش والكبائر. ثم إنها أمرت الغلمان أن يحضروا لها الجريدَ فأحضروه، فقامت وشمرت عن ساعدَيْها ونزلت عليها بالضرب من رأسها إلى قدمَيْها، ثم دعت بسوط مضفور، لو ضُرِب به الفيل لهروَلَ مُسرِعًا، فنزلت بذلك السوط على ظهرها وبطنها وجميع أعضائها حتى غُشِي عليها، فلما رأَتِ العجوز شواهي ذلك من الملكة، خرجَتْ هاربةً من بين يدَيْها وهي تبكي وتدعو عليها، فصاحت على الخدم وقالت لهم: ائتوني بها. فتجاروا عليها ومسكوها وأحضروها بين يدَيْها، فأمرت برميها على الأرض وقالت للجواري: اسحبوها على وجهها وأخرجوها. فسحبوها وأخرجوها من بين يدَيْها.

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر حسن، فإنه قام متجلدًا ومشى في شاطئ النهر واستقبل البرية وهو حيران مهموم، وقد يَئِس من الحياة وصار مدهوشًا لا يعرف الليل من النهار لشدة ما أصابه، وما زال يمشي إلى أن قرب من شجرة فوجَدَ عليها ورقة معلَّقة، فتناوَلَها حسن بيده ونظرها، فإذا مكتوب فيها هذه الأبيات:

دَبَّـرْتَ أَمْـرَكَ عِـنْـدَمَـا ... كُنْتَ الْجَنِينَ بِبَطْنِ أُمِّكْ
وَعَـلَـيْكَ قَـدْ حَـنَّـنْـتَـهَـا ... حَتَّى لَقَدْ جَادَتْ بِضَمِّكْ
وَأَنَـا لَـكَـافِـؤُكَ الَّـذِي ... يَأْتِي بِهَمِّكَ أَوْ بِغَمِّكْ
فَـاضْـرَعْ إِلَيْنَا نَـاهِضًـا ... نَأْخُذْ بِكَفِّكَ فِي مُهِمِّكْ

فلما فرغ من قراءة الورقة أيقَنَ بالنجاة من الشدة، وظفره بجمع الشمل، ثم مشى خطوتين فوجد نفسه وحيدًا في موضعٍ قفرٍ ذي خطر لا يجد فيه أحدًا يستأنس به، فطار قلبه من الوحدة والخوف، وارتعدَتْ فرائصه من هذا المكان المخوف، وأنشد هذه الأبيات:

نَسِيمَ الصَّبَا إِنْ جُزْتَ أَرْضَ أَحِبَّتِي ... فَبَلِّـغْـهُـمُ عَنِّـي جَزِيـلَ سَلَامِـي
وَقُـلْ لَـهُـمُ إِنِّـي رَهِـينُ صَـبَـابَـةٍ ... وَإِنَّ غَـرَامِـي فَـوْقَ كُـلِّ غَـرَامِ
عَسَى عَطْفَةٌ مِنْهُمْ يَهُبُّ نَسِيمُهَا ... فَيَـحْـيَا بِـهَا صَبٌّ رَمِيـمُ عِظَـامِ

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حسنًا لما قرأ الورقة أيقَنَ بالنجاة من الشدة، وتحقَّقَ الظفر بجمع الشمل، ثم قام ومشى خطوتين فوجد نفسه وحيدًا في موضعٍ ذي خطر، ولم يكن عنده أحد يؤانسه، فبكى بكاءً شديدًا، وأنشد الأشعار التي ذكرناها، ثم مشى على جانب النهر خطوتين، فوجد ولدَيْن صغيرين من أولاد السَّحَرَة والكهان، وبين أيديهما قضيب من النحاس منقوش بالطلاسم، وبجانب القضيب طاقية من الأدم بثلاثة تروك منقوش عليها بالبولاد أسماء وخواتم، والقضيب والطاقية مرميان على الأرض والولدان يختصمان ويتضاربان عليهما حتى سال الدم بينهما، وهذا يقول: ما يأخذ القضيب إلا أنا. والآخَر يقول: ما يأخذ القضيب إلا أنا. فدخل حسن بينهما وخلَّصهما من بعضهما وقال لهما: ما سبب هذه المخاصمة؟ فقالَا له: يا عم احكمْ بيننا، فإن الله تعالى ساقَكَ إلينا لتقضي بيننا بالحق. فقال: قُصَّا عليَّ حكايتكما وأنا أحكم بينكما. فقالَا له: نحن الاثنان أخوان شقيقان، وكان أبونا من السَّحَرة الكبار، وكان مُقِيمًا في مغارة في هذا الجبل، ثم مات وخلَّفَ لنا هذه الطاقية وهذا القضيب، وأخي يقول: ما يأخذ القضيب إلا أنا. وأنا أقول: ما يأخذه إلا أنا. فاحكمْ بيننا وخلِّصنا من بعضنا. فلما سمع حسن كلامهما قال لهما: ما الفرق بين القضيب والطاقية؟ وما مقدارهما؟ فإن القضيبَ بحسب الظاهر يساوي ستةَ جدد، والطاقية تساوي ثلاثةَ جدد. فقالَا له: أنت ما تعرف فضلهما. فقال لهما: أي شيء فضلهما؟ قالَا له: في كلٍّ منهما سرٌّ عجيب، وهو أن القضيب يساوي خراجَ جزائر واق بأقطارها، والطاقية كذلك. فقال لهما حسن: يا ولديَّ، بالله اكشفَا لي عن سرهما. فقالَا له: يا عم إن سرهما عظيم؛ لأن أبانا عاش مائة وخمسًا وثلاثين سنة يعالج تدبيرهما حتى أحكمهما غايةَ الإحكام، وركَّبَ فيهما السرَّ المكنون، واستخدمهما الاستخدامات الغريبة ونقشهما على مثل الفلك الدائر، وحلَّ بهما جميعَ الطلسمات، وعندما

فرغ من تدبيرهما أدركه الموت الذي لا بد لكلِّ أحدٍ منه؛ فأما الطاقية فإن سرها أن كلَّ مَن وضعها على رأسه اختفى عن أعين الناس جميعًا، فلا ينظره أحد ما دامت على رأسه، وأما القضيب فإن سرَّه أن كلَّ مَن ملكه يحكم على سبع طوائف من الجن، والجميع يخدمون ذلك القضيب، فكلهم تحت أمره وحكمه، وكلُّ مَن ملكه وصار في يده إذا ضرب به الأرض خضعت له ملوكها، وتكون جميع الجن في خدمته.

فلما سمع حسنٌ هذا الكلام أطرَقَ برأسه إلى الأرض ساعةً، ثم قال في نفسه: والله إنني لَمنصور بهذا القضيب وبهذه الطاقية إن شاء الله تعالى، فإنا أحقُّ بهما منهما، ففي هذه الساعة أتحيَّل على أخذهما منهما لأستعينَ بهما على خلاصي وخلاص زوجتي وأولادي من هذه الملكة الظالمة، ونسافر من هذا المكان المُظلِم الذي ما لأحد من الإنس خلاص منه ولا مفر، ولعل الله ما ساقني لهذين الغلامين إلا لأستخلص منهما القضيبَ والطاقية.

ثم رفع رأسه إلى الغلامين وقال لهما: إنْ شئتمَا فَصْلَ القضية فأنا امتحنكما، فمَن غلب رفيقه يأخذ القضيب ومَن عجز يأخذ الطاقية، فإن امتحنتكما وميَّزْتُ بينكما عرفتُ ما يستحقُّه كلٌّ منكما. فقالَا له: يا عم، وكَّلْنَاكَ في امتحاننا، والحكم بيننا بما تختار. فقال لهما حسن: هل تسمعان مني وترجعان إلى قولي؟ فقالَا له: نعم. فقال لهما حسن: أنا آخذ حجرًا وأرميه فمَن سبق منكما إليه وأخذه قبل رفيقه يأخذ القضيب، ومَن تأخَّرَ ولم يلحقه يأخذ الطاقية. فقالَا: قبلنا منكَ هذا الكلام ورضينا به. ثم إن حسنًا أخذ حجرًا ورماه بعزمه فغاب عن العيون، فتسارَعَ الغلامان نحوه، فلما بَعُدَا أَخَذَ حسن الطاقية ولبسها، وأخذ القضيب في يده وانتقل من موضعه لينظر صحة قولهما في شأن سرِّ أبيهما، فسبق الولد الصغير إلى الحجر وأخذه ورجع به إلى المكان الذي فيه حسن، فلم يَرَ له أثرًا، فصاح على أخيه وقال له: أين الرجل الحاكم بيننا؟ فقال: لا أراه ولم أعرف هل طلع إلى السماء العليا أو نزل إلى الأرض السفلى. ثم إنهما فتَّشَا عليه فلم ينظراه وحسن واقف في مكانه، فشتما بعضهما وقالَا: قد راح القضيب والطاقية لا لي ولا لك، وكان أبونا قال لنا هذا الكلام بعينه، ولكنَّا نسينا ما أخبرَنا به. ثم إنهما رجعَا على أعقابهما، ودخل حسن المدينة وهو لابس الطاقية وفي يده القضيب، فلم يَرَه أحد من الناس، ثم دخل القصر وطلع إلى الموضع الذي فيه شواهي ذات الدواهي، فدخل عليها وهو لابس الطاقية فلم تَرَه، ومشى حتى تقرَّبَ من رفٍّ كان فوق رأسها وعليه زجاج وصيني، فحرَّكَه بيده فوقع الذي فوقه على الأرض، فصاحت شواهي ذات الدواهي ولطمت على وجهها، ثم قامت وأرجعت الذي وقع إلى مكانه وقالت في نفسها: والله ما أظن إلا أن الملكة نور الهدى

أرسلَتْ إليَّ شيطانًا فعمل معي هذه العملة، فأنا أسأل اللهَ أن يخلِّصَني منها ويسلِّمني من غضبها، فيا رب إذا كان هذا فعلها القبيح من الضرب مع أختها وهي عزيزة عند أبيها، فكيف يكون فعلها مع الغريب مثلي إذا غضبَتْ عليه؟ وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن العجوز ذات الدواهي لما قالت: إذا كانت الملكة نور الهدى تفعل هذه الفعال مع أختها، فكيف يكون حال الغريب معها إذا غضبَتْ عليه؟ ثم قالت: أقسمتُ عليك أيها الشيطان بالحنَّان المنَّان، العظيم الشأن القوي السلطان، خالق الإنس والجان، وبالنقش الذي على خاتم سليمان بن داود عليهما السلام، أن تكلِّمَني وتُجِيبَني. فأجابها حسن وقال لها: ما أنا شيطان، أنا حسن الولهان الهائم ثم الحيران. ثم قلع الطاقية من فوق رأسه فظهر للعجوز وعرفته، فأخذته واختلَتْ به وقالت له: أي شيء حصل لك في عقلك حتى عبرت إلى هنا؟ رُحِ اختَفِ، فإن هذه الفاجرة صنعَتْ بزوجتك ما صنعَتْ من العذاب وهي أختها، فكيف إذا وقعت بك؟ ثم حكَتْ له جميعَ ما وقع لزوجته، وما هي فيه من الضيق والعقوبة والعذاب، وكذلك حكَتْ له ما وقع لها من العذاب، ثم قالت له: إن الملكة ندمت حيث أطلقَتْكَ، وقد أرسلَتْ إليك مَن يحضرك لها وتعطيه من الذهب قنطارًا، وتجلُّه في رتبتي عندها، وحلفَتْ إنْ أرجَعُوكَ قتلَتْكَ وتقتل زوجتك وولدَيْك. ثم إن العجوز بكَتْ وأظهرَتْ لحسن ما فعلَتْه الملكة بها، فبكى حسن وقال: يا سيدتي، كيف الخلاص من هذه الديار ومن هذه الملكة الظالمة؟ وما الحيلة التي توصِّلني إلى أن أخلِّص زوجتي وولدَيَّ، ثم أرجع بهم إلى بلادي؟ فقالت له العجوز: ويلكَ انجُ بنفسك. فقال: لا بد لي من خلاصها وخلاص ولادَيَّ منها قهرًا عنها. فقالت له العجوز: وكيف تخلِّصهم قهرًا عنها؟ رُحْ واختَفِ يا ولدي حتى يأذن الله تعالى. ثم إن حسنًا أراها القضيبَ النحاس والطاقية، فلما رأتهما العجوز فرحَتْ بهما فرحًا شديدًا وقالت له: سبحان مَن يُحيِي العظام وهي رميم، والله يا ولدي ما كنتَ أنت وزوجتك إلا من الهالكين، والآن يا ولدي قد نجوتَ أنت وزوجتك وولداك؛ لأني أعرف القضيب وأعرف صاحبه، فإنه كان شيخي الذي علَّمَني السحر، وكان ساحرًا عظيمًا مكث مائةً وخمسًا وثلاثين سنة حتى

أتقَنَ هذا القضيب وهذه الطاقية، فلما انتهى من إتقانهما أدرَكَه الموت الذي لا بد منه، وسمعْتُه يقول لولدَيْه: يا ولديَّ، هذان ما هما من نصيبكما، وإنما يأتي شخص غريب الديار يأخذهما منكما قهرًا ولا تعرفان كيف يأخذهما. فقالَا: يا أبانا، عرِّفنا كيف يصل إلى أخذهما؟ فقال: لا أعرف ذلك. فكيف وصلتَ يا ولدي لأخذهما؟ فحكى لها كيف أخذهما من الولدَيْن. فلما حكى لها فرحَتْ بذلك وقالت له: يا ولدي، كما ملكت زوجتك وولديك، اسمعْ مني ما أقول لك عليه؛ أنا ما بقي لي عند هذه الفاجرة إقامة بعدما تجاسرَتْ عليَّ ونكَّلَتْني، وأنا راحلة من عندها إلى مغارة السَّحَرة لأقيم عندهم وأعيش معهم إلى أن أموت، وأنت يا ولدي البس الطاقية وخُذِ القضيبَ في يدك وادخل على زوجتك وولدَيْك في المكان الذي هم فيه، واضرب الأرضَ بالقضيب وقُلْ: يا خدَّامَ هذه الأسماءِ. تطلع إليك خدَّامه، فإن طلع لك أحد من رءوس القبائل فَأْمُره بما تريد وتختار. ثم إنه ودَّعها وخرج ولبس الطاقية وأخذ القضيب معه ودخل المكان الذي فيه زوجته، فرآها في حالة العدم مصلوبة على السلم، وشعرها مربوط فيه، وهي باكية العين حزينة القلب في أسوأ حالٍ، لا تدري طريقةً لخلاصها، وولداها تحت السلم يلعبان، وهي تنظرهما وتبكي عليهما وعلى نفسها بسببِ ما جرى لها ممَّا أصابها، وهي تقاسي من العذاب والضرب المؤلم أشد النكال، فلما رآها في أسوأ الحالات سمعها تنشد هذه الأبيات:

لَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفَسٌ هَافِتٌ   وَمُقْلَةٌ إِنْسَانُهَا بَاهِتُ
وَمُغْرَمٌ تُضْرَمُ أَحْشَاؤُهُ   بِالنَّارِ إِلَّا أَنَّهُ سَاكِتُ
يَرْثِي لَهُ الشَّامِتُ مِمَّا رَأَى   يَا وَيْحَ مَنْ يَرْثِي لَهُ الشَّامِتُ

ثم إن حسنًا لما رأى ما هي فيه من العذاب والذلِّ والهوان، بكى حتى غُشِي عليه، فلما أفاق ورأى ولدَيْه وهما يلعبان وقد غُشِيَ على أمهما من كثرة التألُّمِ، كشف الطاقية عن رأسه فصاحا: يا أبانا. فغطَّى رأسه، واستفاقت أمهما من غشيتها على صياحهما، فلم تنظر زوجها، وإنما نظرَتْ ولدَيْها وهما يبكيان ويصيحان: يا أبانا. فبَكَتْ لما سمعتهما يذكران أباهما ويبكيان، وانكسر قلبها وتقطَّعَتْ أحشاؤها، ونادَتْ من كبدٍ قد تصدَّعَ وقلبٍ مُوجَع: أين أنتما وأين أبوكما؟ ثم تذكَّرَتْ أوقاتَ اجتماع شملهم، وتذكَّرَتْ ما جرى عليها بعد فراقه، فبكَتْ بكاءً شديدًا حتى جرحت دموعُها خدَّيْها وبلَّتِ الأرضَ، وصارت خدودها غريقة في دموعها من كثرة البكاء، وليس لها يد مطلوقة حتى تمسح دموعَها بها

عن خدودها، وشبع الذباب من جلدها، ولم تجد لها مساعدًا غير البكاء والتسلِّي بإنشاد الأشعار، فأنشدت هذه الأبيات:

وَذَكَرْتُ يَوْمَ الْبَيْنِ بَعْدَ مُوَدِّعِي   فَجَرَتْ دُمُوعِي أَنْهُرًا فِي مَرْجِعِي
وَحَدَا بِهِمْ حَادِي الرِّكَابِ فَلَمْ أَجِدْ   صَبْرًا وَلَا جَلَدًا وَلَا قَلْبِي مَعِي
وَرَجَعْتُ لَا أَدْرِي الطَّرِيقَ وَلَمْ أَفِقْ   مِنْ لَوْعَتِي وَتَوَلُّعِي وَتَوَجُّعِي
وَأَضَرَّ مَا بِي فِي رُجُوعِي شَامِتٌ   قَدْ جَاءَنِي فِي صُورَةِ الْمُتَخَشِّعِ
يَا نَفْسُ إِذْ بَعُدَ الْحَبِيبُ فَفَارِقِي   طِيبَ الْحَيَاةِ وَفِي الْبَقَا لَا تَطْمَعِي
يَا صَاحِبِي أَنْصِتْ لِأَخْبَارِ الْهَوَى   حَاشَا لِقَلْبِكَ أَنْ أَقُولَ وَلَا يَعِي
أَرْوِي الْغَرَامَ مُسَلْسَلًا بِعَجَائِبٍ   وَغَرَائِبٍ حَتَّى كَأَنِّي الْأَصْمَعِي

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما دخل على زوجته رأى ولدَيْه وسمعها تنشد الأبيات التي ذكرناها، وقد التفتَتْ يمينًا وشمالًا لترى سببَ صياح ولدَيْها وندائهما لأبيهما، فلم تَرَ أحدًا، ولما لم تَرَ أحدًا تعجَّبَتْ من ذِكْر ولدَيْها لأبيهما في هذا الوقت. هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر حسن فإنه لما سمع شِعْرها بكى حتى غُشِي عليه، وجرَتْ دموعه على خدَّيْه مثل المطر، ودَنَا من الولدَيْن وكشف الطاقية، فلما رأياه عرفاه وصاحا بقولهما: يا أبانا. فبكَتْ أمهما حين سمعتهما يذكران أباهما وقالت: لا حيلةَ في قَدَر الله. وقالت في نفسها: يا للعجب! ما سبب ذِكْرهما لأبيهما في هذا الوقت وندائهما له؟ ثم بكَتْ وأنشدت هذه الأبيات:

خَلَتِ الدِّيَارُ مِنَ السِّرَاجِ الطَّالِعِ ... يَا مُقْلَتِي جُودِي بِفَيْضِ الْأَدْمُعِ
رَحَلُوا فَكَيْفَ تَصَبُّرِي مِنْ بَعْدِهِمْ ... أَقْسَمْتُ مَا قَلْبِي وَلَا صَبْرِي مَعِي
يَا رَاحِلِينَ وَفِي الْفُؤَادِ مَحَلُّهُمْ ... هَلْ بَعْدَ ذَا يَا سَادَتِي مِنْ مَرْجِعِ
مَا ضَرَّ لَوْ رَجَعُوا وَفُزْتُ بِأُنْسِهِمْ ... وَرَثَوْا لِفَيْضِ مَدَامِعِي وَتَوَجُّعِي
أَجْرَوْا سَحَائِبَ مُقْلَتِي يَوْمَ النَّوَى ... عَجَبًا وَلَمْ يُطْفَأْ تَضَرُّمُ أَضْلُعِي
وَطَمِعْتُ أَنْ يَبْقَوْا فَعَانَدَنِي الْبَقَا ... فِيهِمْ وَخَيَّبَ بِالتَّفَرُّقِ مَطْمَعِي
بِاللهِ يَا أَحْبَابَنَا عُودُوا لَنَا ... فَلَقَدْ كَفَى مَا قَدْ جَرَى مِنْ أَدْمُعِي

فلم يُطِقْ حسنٌ الصبرَ دون أن يكشف الطاقية عن رأسه، فنظرَتْه زوجته، فلما عرفَتْه زعقت زعقة أزعجَتْ جميع مَن في القصر، ثم قالت له: كيف وصلتَ إلى هنا؟ هل من السماء نزلتَ أو من الأرض طلعتَ؟ ثم تغرغرت عيونها بالدموع، فبكى حسن، فقالت

له: يا رجل، ما هذا وقت بكاء ولا وقت عتاب، قد نفذ القضاء وعمي البصر وجرى القلم بما حكم الله في القدم، فبالله عليك، من أي مكانٍ جئتَ رُحْ واختَفِ لئلا ينظرك أحدٌ فيُعلِم أختي بذلك فتذبحني وتذبحك. فقال لها حسن: يا سيدتي وسيدة كل ملكة، أنا خاطرتُ بروحي وجئتُ إلى هنا، فإما أن أموت، وإما أن أخلِّصَكِ من الذي أنتِ فيه وأسافر أنا وأنتِ وولدَيَّ إلى بلادي على رغم أنف هذه الفاجرة أختك. فلما سمعت كلامه تبسَّمَتْ وضحكَتْ وصارت تحرِّك رأسها زمانًا طويلًا وقالت له: هيهات يا روحي أن يخلِّصني أحد مما أنا فيه إلا الله تعالى، ففُزْ بنفسك وارحلْ ولا تَرْمِ روحك في الهلاك، فإن لها عسكرًا جرارًا ما قدر أحد أن يقابله، وهَبْ أنك أخذتَني وخرجتَ، فكيف تصل إلى بلادك وتخلص من هذه الجزائر وصعوبة هذه الأماكن؟ وقد رأيت في الطريق الذي نظرته من العجائب والغرائب والأهوال والشدائد ما لا يخلص منه أحد من الجن المتمردة؛ فَرُحْ من قريب ولا تزدني همًّا على همي، ولا غمًّا على غمي، ولا تدَّعِي أنك تخلِّصني من هذا، فمَن يوصلني إلى بلادك في هذه الأودية والأرض المعطشة والأماكن المهلكة؟ فقال لها حسن: وحياتك يا نور عيني ما أخرج من هنا ولا أسافر إلا بك. فقالت له: يا رجل، كيف تقدر على هذا الأمر؟ أي شيء جنسك؟ فإنك لا تعرف الذي تقوله، ولو كنتَ تحكم على جان وعفاريت وسَحَرة وأرهاط وأعوان، فإنه لا يقدر أحد أن يتخلَّص من هذه الأماكن؛ ففُزْ أنت بنفسك سالمًا، وخلني لعل الله يُحدِث بعد الأمور أمورًا. فقال لها حسن: يا سيدة الملاح، أنا ما جئتُ إلا لأخلِّصكِ بهذا القضيب وبهذه الطاقية.

ثم حكى لها حكايته مع الولدين، فبينما هو في الحديث وإذا بالملكة دخلَتْ عليهما فسمعت حديثهما، فلما رأى الملكة لبس الطاقية، فقالت لأختها: يا فاجرة، مَن الذي كنتِ تتحدثين معه؟ فقالت لها: ومَن عندي يكلِّمني غير هذين الطفلين؟ فأخذت السوط وصارت تضربها به وحسن واقف ينظر، ولم تَزَلْ تضربها حتى غُشِيَ عليها، ثم أمرت بنقلها من ذلك المحل إلى محل آخَر، فحلوها وخرجوا بها إلى محل غيره، وخرج حسن معهم إلى المكان الذي أوصلوها إليه، ثم ألقوها مغشيًّا عليها ووقفوا ينظرون إليها، فلما أفاقت من غشيتها أنشدت هذه الأبيات:

وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى تَفَرُّقِ شَمْلِنَا ... نَدَمًا أَفَاضَ الدَّمْعَ مِنْ أَجْفَانِي
وَنَذَرْتُ إِنْ عَادَ الزَّمَانُ يَلُمُّنَا ... مَا عُدْتُ أَذْكُرُ فُرْقَةً بِلِسَانِي
وَأَقُولُ لِلْحُسَّادِ مُوتُوا حَسْرَةً ... وَاللهِ إِنِّي قَدْ بَلَغْتُ أَمَانِي

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ مِنْ فَرْطِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي
يَا عَيْنُ مَا بَالُ الْبُكَا لَكِ عَادَةٌ تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانِ

فلما فرغت من شعرها خرج من عندها الجواري، فعند ذلك قلع حسن الطاقية فقالَتْ له زوجته: انظر يا رجل ما حلَّ بي، هذا كله إلا لكوني عصيتُكَ وخالفتُ أمرك وخرجت من غير إذنك، فبالله عليك يا رجل لا تؤاخذني بذنبي، واعلم أن المرأة ما تعرف قيمة الرجل حتى تفارقه، وأنا أذنبت وأخطأت، ولكن أستغفر الله العظيم ممَّا وقع مني، وإنْ جمَعَ الله شملنا لا أعصي لك أمرًا بعد ذلك أبدًا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوجة حسن اعتذرت إليه وقالت له: لا تؤاخذني بذنبي، وأنا أستغفر الله العظيم. فقال لها حسن وقد أوجعه قلبه عليها: أنتِ ما أخطأتِ وما أخطأ إلا أنا؛ لأني سافرتُ وخليتك عند مَن لا يعرف قدرك ولا يعرف لك قيمةً ولا مقدارًا، واعلمي يا حبيبة قلبي وثمرة فؤادي ونور عيني أن الله سبحانه أقدرني على تخليصك، فهل تحبين أن أوصلك إلى ديار أبيك وتستوفي عنده ما قدَّره الله عليكِ، أم تسافرين إلى بلادنا عن قريب حيث حصل لك الفرج؟ فقالت له: ومَن يقدر على تخليصي إلا رب السماء؟ فرُحْ بلادك وخلِّ عنك الطمع، فإنك لا تعرف أخطارَ هذه الديار، وإن لم تُطِعني فسوف تنظر. ثم إنها أنشدت هذه الأبيات:

عَلَيَّ وَعِنْدِي مَا تُرِيدُ مِنَ الرِّضَا ... فَمَا لَكَ غَضْبَانًا عَلَيَّ وَمُعْرِضَا
وَمَا قَدْ جَرَى حَاشَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ... مِنَ الْوُدِّ أَنْ يُنْسَى قَدِيمًا وَيُنْقَضَ
وَمَا بَرِحَ الْوَاشِي لَنَا مُتَجَنِّبًا ... فَلَمَّا رَأَى الْإِعْرَاضَ مِنَّا تَعَرَّضَ
فَإِنِّي بِحُسْنِ الظَّنِّ مِنْكَ لَوَاثِقٌ ... وَإِنْ جَهِلَ الْوَاشِي وَقَالَ وَحَرَّضَ
عَلَيْنَا فَسِرُّ الْحُبِّ سَوْفَ نَصُونُهُ ... وَلَوْ كَانَ سَيْفُ الْعَذْلِ بِاللَّوْمِ مُنْتَضَى
أَظَلُّ نَهَارِي كُلَّهُ مُتَشَوِّقًا ... لَعَلَّ بَشِيرًا مِنْكَ يُقْبِلُ بِالرِّضَا

ثم بكت هي وولداها، فسمع الجواري بكاءهم فدخلْنَ عليهم فوجدْنَ الملكة منار السنا تبكي هي وولداها، ولم ينظرن حسنًا عندهم، فبكَتِ الجواري رحمةً لهم ودعوْنَ على الملكة نور الهدى، فصبر حسن إلى أن أقبلَ الليل وذهب الحرس الموكلون بها إلى مراقدهم، ثم بعد ذلك قام وشدَّ وسطه وجاء إلى زوجته وحلَّها وقبَّلَ رأسها وضمَّها إلى صدره، وقبَّل

ما بين عينَيْها وقال لها: ما أطول شوقنا إلى ديارنا واجتماع شملنا هناك! فهل اجتماعنا هذا في المنام أم في اليقظة؟ ثم إنه حمل ولده الكبير وحملَتْ هي الولد الصغير وخرجَا من القصر وقد أسبَلَ الله عليهما السترَ وسارَا، فلما وصلَا إلى خارج القصر وقفَا عند الباب الذي يقفل على سراية الملكة، فلما صارَا هناك رأيَاه مقفولًا، فقال حسن: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون. ثم إنهما يَئِسَا من الخلاص، فقال حسن: يا مفرِّج الكروب. ودقَّ يدًا على يد وقال: كل شيء حسبتُه ونظرتُ في عاقبته إلا هذا، فإنه إذا طلع علينا النهار يأخذوننا، وكيف تكون الحيلة في هذا الأمر؟ ثم إن حسنًا أنشد هذين البيتين:

حَسَّنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ... وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِي فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ... وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

ثم بكى حسن وبكَتْ زوجته لبكائه ولما هي فيه من الإهانة وآلام الزمان، فالتفَتْ حسن إلى زوجته وأنشد هذين البيتين:

يُعَانِدُنِي دَهْرِي كَأَنِّي عَدُوُّهُ ... وَفِي كُلِّ يَوْمٍ بِالْكَرِيهَةِ يَلْقَانِي
وَإِنْ رُمْتُ خَيْرًا جَاءَ دَهْرِي بِضِدِّهِ ... إِذَا مَا صَفَا يَوْمًا تَكَدَّرَنِي الثَّانِي

وأنشد أيضًا هذين البيتين:

تَنَكَّرَ لِي دَهْرِي وَلَمْ يَدْرِ أَنَّنِي ... أَعِزُّ وَأَنَّ النَّائِبَاتِ تَهُونُ
وَبَاتَ يُرِينِي الْخَطْبَ كَيْفَ اعْتِدَاؤُهُ ... وَبِتُّ أُرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ

فقالت له زوجته: والله ما لنا فرج إلا أن نقتل أرواحنا ونستريح من هذا التعب العظيم، وإلا نصبح نقاسي العذابَ الأليم. فبينما هما في الكلام وإذا بقائلٍ يقول من خارج الباب: والله ما أفتح لكِ يا سيدتي منار السنا وزوجك حسن، إلا إن تطاوعاني فيما أقوله لكما. فلما سمعَا هذا الكلام منه سكتَا وأرادَا الرجوع إلى المكان الذي كانَا فيه، وإذا بقائل يقول: ما لكما سكتما ولم تردَّا على الجواب؟ فعرفَا صاحبَ القول، وهي العجوز شواهي ذات الدواهي، فقالَا لها: مهما تأمرينا به نعمله، ولكن افتحي لنا الباب، فإن أولًا هذا الوقت ما هو وقت كلام. فقالت لهما: والله ما أفتح لكما حتى تحلفَا لي أنكما

تأخذاني معكما ولا تتركاني عند هذه العاهرة، ومهما أصابكما أصابني، وإن سلمتما سلمتُ، وإن عطبتما عطبتُ، فإن هذه الفاجرة المساحقة تحتقرني، وفي كل ساعة تنكلني من أجلكما، وأنتِ يا بنتي تعرفين مقداري. فلما عرفاها اطمأنَا بها وحلفَا لها بالأيمان التي تثق بها، فلما حلفَا لها بما تثق فتحَتْ لهما الباب وخرجَا، فلما خرجَا وجدَاها راكبة على زير رومي من فخار أحمر، وفي حلق الزير حبل من ليف وهو يتقلَّب من تحتها، ويجري جريًا أقوى من جري المُهْر النجدي، فتقدَّمَتْ قدامهما وقالت لهما: اتبعاني ولا تفزعَا من شيء، فإني أحفظ أربعين بابًا من السِّحْر، أقل باب منها أجعل به هذه المدينة بحرًا عجاجًا متلاطمًا بالأمواج، وأسحر كل بنت فيها فتصير سمكة، وكل ذلك أعمله قبل الصبح، ولكني كنتُ لا أقدر أن أفعل شيئًا من ذلك الشر خوفًا من الملك أبيها ورعايةً لأخوتها؛ لأنهم مستعزُّون بكثرة الأعوان والأرهاط والخدم، ولكن سوف أريكما عجائب سحري، فسيرَا بنا على بركة الله تعالى وعونه. فعند ذلك فرح حسن هو وزوجته وأيقنَا الخلاص. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حسنًا وزوجته والعجوز شواهي لما طلعوا من القصر وأيقنوا بالخلاص، خرجوا إلى ظاهر المدينة فأخذ حسن القضيبَ بيده وضرب به الأرض وقوَّى جنانه، وقال: يا خدم هذه الأسماء، احضروا لي وأطلعوني على إخوانكم. وإذا بالأرض قد انشقَّتْ وخرج منها عشرة عفاريت، كل عفريت منهم رجلاه في تخوم الأرض ورأسه في السحاب، فقبَّلوا الأرضَ بين يدَيْ حسن ثلاثَ مرات، وقالوا كلهم بلسان واحد: لبيك يا سيدنا والحاكم علينا، بأي شيء تأمرنا؟ فنحن لأمرك سامعون ومُطِيعون، إنْ شئتَ نيبس لك البحار، وننقل لك الجبال من أماكنها. ففرح حسن بكلامهم وبسرعة جوابهم، فشجَّعَ قلبه وقوَّى جنانه وعزمه وقال لهم: مَن أنتم؟ وما اسمكم؟ ولِمَن تُنسَبون من القبائل؟ ومن أي طائفة أنتم؟ ومن أي قبيلة؟ ومن أي رهط؟ فقبَّلوا الأرض ثانيًا وقالوا بلسان واحد: نحن سبعة ملوك، كل ملك منَّا يحكم على سبع قبائل من الجن والشياطين والمَرَدة، فنحن سبعة ملوك نحكم على تسع وأربعين قبيلة من سائر طوائف الجن والشياطين والمَرَدة والأرهاط والأعوان الطيَّارة والغوَّاصة، وسكَّان الجبال والبراري والقفار وعمَّار البحار، فَأْمُرنا بما تريد فنحن لك خدَّام وعبيد، وكلُّ مَن ملك هذا القضيب ملك رقابنا جميعًا ونصير تحت طاعته. فلما سمع حسن كلامهم فرح فرحًا عظيمًا، وكذلك زوجته والعجوز، فعند ذلك قال حسن للجان: أريد منكم أن تُطلِعوني على رهطكم وجنودكم وأعوانكم. فقالوا: يا سيدنا، إذا أَطْلَعناك على رهطنا نخاف عليك وعلى مَن معك؛ لأنهم جند كثيرة مختلفة الصور والخَلْق والألوان والوجوه والأبدان، فمنَّا رءوس بلا أبدان، ومنَّا أبدان بلا رءوس، ومنَّا مَن هو على صفة الوحوش، ومنَّا مَن هو على صفة السباع، ولكن إنْ شئتَ ذلك فلا بد لنا من أن نعرض عليك أولًا مَن هو على صفة الوحوش، ولكن يا سيدي ما تريد منَّا في هذا الوقت؟ فقال لهم حسن: أريد منكم أن تحملوني أنا وزوجتي

وهذه المرأة الصالحة في هذه الساعة إلى مدينة بغداد. فلما سمعوا كلامه أطرقوا رءوسهم، فقال لهم حسن: لِمَ لا تجيبون؟ فقالوا بلسان واحد: أيها السيد الحاكم علينا، إننا من عهد السيد سليمان بن داود عليهما السلام، وكان حلَّفنا أننا لا نحمل أحدًا من بني آدم على ظهورنا، فنحن من ذلك الوقت ما حملنا أحدًا من بني آدم على أكتافنا ولا على ظهورنا، ولكن نحن في هذه الساعة نشدُّ لكَ من خيول الجن ما يبلغك بلادك أنت ومَن معك. فقال لهم حسن: وكم بيننا وبين بغداد؟ فقالوا له: مسافة سبع سنين للفارس المُجِدِّ. فتعجَّبَ حسن من ذلك وقال لهم: كيف جئتُ أنا إلى هنا فيما دون السنة؟ فقالوا له: أنت قد حنَّنَ الله عليك قلوبَ عباده الصالحين، ولولا ذلك ما كنتَ تصل إلى هذه الديار والبلاد ولا تراها بعينك أبدًا؛ لأن الشيخ عبد القدوس الذي أركَبَك الفيلَ وأركَبَك الجَوَادَ الميمون، قطع بك في الثلاثة أيام ثلاث سنين للفارس المُجِدِّ في السير، وأما الشيخ أبو الرويش الذي أعطاك لدهنش، فإنه قد قطع بك في اليوم والليلة مسافة ثلاثة سنين، وهذا من بركة الله العظيم؛ لأن الشيخ أبا الرويش من ذرية آصف بن برخيا، وهو يحفظ اسمَ الله الأعظم، ومن بغداد إلى قصر البنات سنة؛ فهذه هي السبع سنين. فلما سمع حسن كلامه تعجَّبَ عجبًا عظيمًا وقال: سبحان الله مهوِّن العسير، وجابر الكسير، ومقرِّب البعيد، ومذلِّ كلِّ جبارٍ عنيد، الذي هوَّنَ عليَّ كلَّ أمرٍ، وأوصلني إلى هذه الديار، وسخَّرَ لي هؤلاء العالَم وجمع شملي بزوجتي وولديَّ، فما أدري هل أنا نائم أم يقظان؟ وهل أنا صاحٍ أم سكران؟ ثم التفَتَ إليهم وقال لهم: إذا أركبتموني خيولكم ففي كم يوم تصل بنا إلى بغداد؟ فقالوا: تصل بك فيما دون السنة، بعد أن تقاسي الأمور الصعاب والشدائد والأهوال، وتقطع أودية معطشة وقفارًا موحشة وبراري ومهالك كثيرة، ولا نأمن عليك يا سيدي من أهل هذه الجزائر. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن الجان قالوا لحسن: لا نأمن عليك يا سيدي من أهل هذه الجزائر، ولا من شر الملك الأكبر، ولا من هذه السَّحَرة والكهنة، فربما يقهروننا ويأخذونكم منَّا ونُبتَلَى بهم، وكلُّ مَن بلغه الخبر بعد ذلك يقول لنا: أنتم الظالمون، كيف قَدِمتم على الملك الأكبر وحملتم الإنس من بلاده، وحملتم أيضًا ابنته معكم؟ ولو كنتَ معنا وحدكَ لَهَان علينا الأمر، ولكن الذي أوصَلَك إلى هذه الجزائر قادرٌ أن يوصلك إلى بلادك، ويجمع شملك بأمك قريبًا غير بعيد، فاعزمْ وتوكَّلْ على الله، ولا تَخَفْ فنحن بين يدَيْكَ حتى نوصلك إلى بلادك. فشكرهم حسن على ذلك وقال لهم: جزاكم الله خيرًا. ثم قال لهم: عجِّلوا بالخيل. فقالوا: سمعًا وطاعة. ثم دقعوا الأرض بأرجلهم فانشقَّتْ فغابوا فيها ساعة، ثم حضروا وإذا بهم قد طلعوا ومعهم ثلاث أفراس مسرجة ملجمة، وفي مقدم كل سرج خرج في إحدى عينَيْه ركوة ملآنة ماء، والعين الأخرى ملآنة زادًا، ثم قدَّموا الخيل فركب حسن جوادًا وأخذ ولدًا قدامه، وركبت زوجته الجواد الثاني وأخذَتْ ولدًا قدامها، ثم نزلت العجوز من فوق الزير وركبت الجواد الثالث وساروا، ولم يزالوا سائرين طول الليل حتى أصبح الصباح، فعرجوا عن الطريق وقصدوا الجبل وألسنتهم لا تفتر عن ذكر الله، وساروا النهار كله تحت الجبل، فبينما هم سائرون إذ نظر حسن إلى جبل قدامه مثل العامود، وهو طويل كالدخان المتصاعد إلى السماء، فقرأَ شيئًا من القرآن وتعوَّذَ بالله من الشيطان الرجيم، فصار ذلك السواد يظهر كلَّما تقرَّبوا منه، فلما دَنَوْا منه وجدوه عفريتًا رأسه كالقبة العظيمة، وأنيابه كالكلاليب، ومنخراه كالإبريق، وأذناه كالأدراق، وفمه كالمغارة، وأسنانه كعواميد الحجارة، ويداه كالمداري، ورجلاه كالصواري، ورأسه في السحاب، وقدمه في تخوم الأرض تحت التراب؛ فلما نظر حسن إلى العفريت انحنى وقبَّلَ الأرض بين يدَيْه، فقال له: يا حسن، لا تخَفْ مني، أنا رئيس عمَّار هذه الأرض،

وهذه أول جزيرة من جزائر واق، وأنا مسلم موحِّد بالله، وسمعت بكم وعرفت قدومكم، ولما اطَّلَعْتُ على حالكم اشتهيتُ أن أرحل من بلاد السَّحَرة إلى أرضٍ غيرها تكون خالية من السكان، بعيدة من الإنس والجان، أعيش فيها منفردًا وحدي، وأعبدُ الله حتى يدركني أجلي، فأردتُ أن أرافِقَكم وأكون دليلكم حتى تخرجوا من هذه الجزائر، وأنا ما أظهر إلا بالليل، فطيِّبوا قلوبكم من جهتي، فإنني مسلم مثلما أنتم مسلمون. فلما سمع حسن كلامَ العفريت فرح فرحًا شديدًا وأيقَنَ بالنجاة، ثم التفَتَ إليه وقال له: جزاكَ الله خيرًا، فسِرْ معنا على بركة الله. فسار العفريت قدامهم وصاروا يتحدثون ويلعبون، وقد طابت قلوبهم وانشرحت صدورهم، وصار حسن يحكي لزوجته جميعَ ما جرى له وما قاساه، ولم يزالوا سائرين طول الليل. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنهم لم يزالوا سائرين طول الليل إلى الصباح، والخيل تسير بهم كالبرق الخاطف، فلما طلع النهار مدَّ كلٌّ واحدٍ يدَه في خرجه وأخرَجَ منه شيئًا وأكله، وأخرَجَ ماءً وشربه، ثم جدُّوا في السير، ولم يزالوا سائرين والعفريت أمامهم وقد عرَّج بهم عن الطريق إلى طريق أخرى غير مسلوكة على شاطئ البحر، وما زالوا يقطعون الأوديةَ والقفار مدةَ شهر كامل، وفي اليوم الحادي والثلاثين طلعت عليهم غبرة سدَّتِ الأقطارَ وأظلَمَ منها النهار، فلما نظرها حسن لحقه الاصفرار، وقد سمعوا ضجات مزعجة، فالتفتَتِ العجوز إلى حسن وقالت له: يا ولدي، هذه عساكر جزائر واق قد لحقونا، وفي هذه الساعة يأخذوننا قبضًا باليد. فقال لها حسن: ما أصنع يا أمي؟ فقالت له: اضرب الأرض بالقضيب. ففعل فطلع إليه السبعة ملوك وسلَّموا عليه وقبَّلوا الأرض بين يدَيْه وقالوا له: لا تخَفْ ولا تحزن. ففرح حسن بكلامهم وقال: أحسنتم يا سادة الجن والعفاريت، هذا وقتكم. فقالوا له: اطلع أنت وزوجتك وولداك ومَن معك فوق الجبل وخلونا نحن وإياهم؛ لأننا نعرف أنكم على الحق وهم على الباطل، وينصرنا الله عليهم. فنزل حسن هو وزوجته وولداه والعجوز عن ظهور الخيل، وصرفوا الخيل وطلعوا على طرف الجبل. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حسنًا صعد هو وزوجته وولداه والعجوز على طرف الجبل بعد أن صرفوا الخيل، ثم بعد ذلك أقبلَتِ الملكة نور الهدى بعساكر ميمنة وميسرة، ودارت عليهم النقباء وصفُّوهم جملةً جملةً، وقد التقى العسكران، وتصادم الجمعان، والتهبَتِ النيران، وأقدمت الشجعان، وفرَّ الجبان، ورمَتِ الجن من أفواهها لهيبَ الشرر إلى أن أقبل الليل المعتكر، فافترق الجمعان وانفصل الفريقان، ولما نزلوا عن خيولهم واستقروا على الأرض أشعلوا النيران، وطلع السبعة ملوك إلى حسن وقبَّلوا الأرض بين يدَيْه، فأقبَلَ عليهم وشكرهم ودعَا لهم بالنصر، وسألهم عن حالهم مع عسكر الملكة نور الهدى، فقالوا له: إنهم لا يثبتون معنا غير ثلاثة أيام، فنحن كنَّا اليومَ ظافرين بهم، وقد قبضنا منهم مقدارَ ألفَيْن، وقتلنا منهم خلقًا كثيرًا لا يُحصَى عددهم، فطِبْ نفسًا وانشرِحْ صدرًا. ثم إنهم ودَّعوه ونزلوا إلى عسكرهم يحرسونه، وما زالوا يشعلون النيران إلى أن طلع الصباح، وأضاء بنوره ولاح، فركبت الفرسان الخيلَ القراح، وتضاربوا بمرهفات الصفاح، وتطاعنوا بسُمْر الرماح، وباتوا على ظهور الخيل وهم يلتطمون التطامَ البحار، واستعَرَ بينهم في الحرب لهيبُ النار، ولم يزالوا في نضال وسباق حتى انهزمت عساكر واق، وانكسرت شوكتهم وانحطت همتهم، وزلَّتْ أقدامهم وأينما هربوا فالهزيمة قدامهم، فولَّوا الأدبار وركبوا إلى الفرار، وقُتِل أكثرهم وأُسِرت الملكة نور الهدى، هي وكبار مملكتها وخواصها.

فلما أصبح الصباح حضر الملوك السبعة بين يدَيْ حسن ونصبوا له سريرًا من المرمر مصفَّحًا بالدر والجوهر، فجلس فوقه ونصبوا عنده سريرًا آخَر للسيدة منار السنا زوجته، وذلك السرير من العاج المصفح بالذهب الوهَّاج، ونصبوا جنبَه سريرًا آخَر للعجوز شواهي ذات الدواهي، ثم إنهم قدَّموا الأسارى بين يدَيْ حسن ومِن جملتهم الملكة نور الهدى، وهي

مكتَّفة اليدَيْن مقيَّدة الرجلين، فلما رأتها العجوز قالت لها: ما جزاؤك يا فاجرة يا ظالمة إلا من يُجوِّع كلبتين ويربطهما معك في أذناب الخيل، ويسوقهما إلى البحر حتى يتمزَّق جلدك، وبعد ذلك يقطع من لحمك ويُطعِمك؛ كيف فعلتِ بأختك هذه الفعالَ يا فاجرة؟ مع أنها تزوَّجَتْ في الحلال بسُنَّة الله ورسوله؛ لأنه لا رهبانية في الإسلام، والزواج من سنن المرسلين عليهم السلام، وما خُلِقت النساء إلا للرجال. فعند ذلك أمر حسن بقتل الأسارى جميعهم، فصاحَتِ العجوز وقالت: اقتلوهم ولا تبقوا منهم أحدًا. فلما رأت الملكة منار السنا أختها في هذه الحالة وهي مقيَّدة مأسورة، بكَتْ عليها وقالت لها: يا أختي، ومَن هذا الذي أسرنا في بلادنا وغلبنا؟ فقالت لها: هذا أمر عظيم، إن هذا الرجل الذي اسمه حسن قد ملكنا وحكَّمَه الله فينا، وفي سائر ملكنا، وتغلَّب علينا وعلى ملوك الجن. فقالت لها أختها: ما نصره الله عليكم ولا قهركم ولا أسركم إلا بهذه الطاقية والقضيب. فتحقَّقَتْ أختها ذلك، وعرفت أنه خلَّصها بهذا السبب، فتضرَّعَتْ لأختها حتى حنَّ قلبها عليها، ثم قالت لزوجها حسن: ما تريد أن تفعل بأختي؟ فها هي بين يديكَ، وهي ما فعلتَ مكروهًا حتى تؤاخذها به. فقال لها: كفى تعذيبها إياكِ مكروهًا. فقالت له: كل مكروه فعلَتْه معي كانت معذورةً فيه، وأمَّا أنت فإنك قد أحرقَتْ قلبَ أبي بفقدي، فكيف يكون حاله بعد أختي؟ فقال لها حسن: الرأي رأيك مهما أردْتِه فافعليه. فعند ذلك أمرَتِ الملكة منار السنا بحلِّ الأسارى جميعهم، فحلُّوهم لأجل أختها، وكذلك أختها، وبعد ذلك أقبلَتْ على أختها وعانقَتْها وصارت تبكي هي وإياها، ولم يزالَا كذلك ساعة زمانية، ثم قالت الملكة نور الهدى لأختها: يا أختي، لا تؤاخذيني بما فعلته معكِ. فقالت لها السيدة منار السنا: يا أختي، إن هذا كان مقدرًا عليَّ. ثم جلست هي وأختها على السرير يتحدثان، وبعد ذلك أصلحَتْ منار السنا بين العجوز وبين أختها على أحسن ما يكون وطابَتْ قلوبهما، ثم إن حسنًا صرف العسكر الذين كانوا في خدمة القضيب، وشكرهم على ما فعلوه من نصره على أعدائه.

ثم إن السيدة منار السنا حكَتْ لأختها جميعَ ما جرى لها مع زوجها حسن، وجميع ما جرى له وما قاساه من أجلها، وقالت لها: يا أختي، مَن كانت هذه الفعالُ فعالَه، وهذه القوةُ قوتَه، وقد أيَّدَه الله تعالى بشدة البأس حتى دخل بلادنا وأخذكِ وأسرَكِ وهزم عسكركِ، وقهر أباكِ الملك الأكبر الذي يحكم على ملوك الجن، يجب ألَّا يفرط في حقِّه. فقالت لها أختها: والله يا أختي لقد صدقتِ فيما أخبرتِني به من العجائب التي قاساها هذا الرجل، وهل كل هذا من أجلكِ يا أختي؟ وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٢٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن السيدة منار السنا لما أخبرَتْ أختها بأوصاف حسن قالت لها: والله إن هذا الرجل ما يُفرَّط فيه، خصوصًا بسبب مروءته، وهل كل هذا من أجلكِ؟ قالت: نعم. ثم إنهم باتوا يتحدثون إلى الصباح، فلما طلعت الشمس أرادوا الرحيل، فودَّعَ بعضهم بعضًا، وودَّعَتْ منار السنا العجوزَ بعدما أصلحَتْ بينها وبين أختها نور الهدى؛ فعند ذلك ضرب حسن الأرض بالقضيب، فطلع له خدَّامه وسلَّموا عليه وقالوا له: الحمد لله على هدوء سرِّكَ، فَأْمُرنا بما تريد حتى نعمله لك في أسرع من لمح البصر. فشكرهم على قولهم وقال لهم: جزاكم الله خيرًا. ثم إنه قال لهم: شدُّوا لنا جوادين من أحسن الخيل. ففعلوا ما أمرهم به في الوقت وقدَّموا له جوادين مسرَّجين، فركب حسن جوادًا منهما وأخذ ولده الكبير قدامه، وركبت زوجته الجوادَ الآخَر وأخذت ولدها الصغير قدامها، وركبت الملكة نور الهدى هي والعجوز، وتوجَّهَ الجميع إلى بلادهم، فسار حسن هو وزوجته يمينًا، وسارت الملكة نور الهدى هي والعجوز شمالًا، ولم يَزَلْ حسن سائرًا هو وزوجته وولداه مدةَ شهر كامل، وبعد الشهر أشرفوا على مدينةٍ فوجدوا حولها أثمارًا وأنهارًا، فلما وصلوا إلى تلك الأشجار نزلوا عن ظهور الخيل وأرادوا الراحة، ثم جلسوا يتحدَّثون، وإذا هم بخيول كثيرة قد أقبلَتْ عليهم، فلما رآهم حسن قام على رجلَيْه وتلقَّاهم، وإذا هم الملك حسون صاحب أرض الكافور وقلعة الطيور، فعند ذلك تقدَّمَ حسن إلى الملك وقبَّلَ يدَيْه وسلَّم عليه، ولما رآه الملك ترجَّلَ عن ظهر جواده، وجلس هو وحسن على الفرش تحت الأشجار، بعد أن سلَّمَ على حسن وهنَّأه بالسلامة، وفرح به فرحًا شديدًا، وقال له: يا حسن، أخبرني بما جرى لك من أوله إلى آخِره. فأخبره حسن بجميع ذلك، فتعجَّبَ منه الملك حسون وقال له: يا ولدي، ما وصل أحد إلى جزائر واق ورجع منها أبدًا إلا أنت، فأمرك عجيب، ولكن الحمد لله على السلامة.

ثم بعد ذلك قام الملك وركب وأمر حسنًا أن يركب ويسير معه ففعل، ولم يزالوا سائرين إلى أن أتوا إلى المدينة، فدخلوا دار الملك، فنزل الملك حسون ونزل حسن هو وزوجته وولداه في دار الضيافة، فلما نزلوا أقاموا عنده ثلاثة أيام في أكل وشرب وطرب، ثم بعد ذلك استأذَنَ حسنٌ الملكَ حسون في السفر إلى بلاده، فأذِنَ له فركب هو وزوجته وولداه، وركب الملك معهم وساروا عشرة أيام، فلما أراد الملك الرجوع ودَّعَ حسنًا، وسار حسن هو وزوجته وولداه، ولم يزالوا سائرين مدة شهر كامل، فلما كان بعد الشهر أشرفوا على مغارة كبيرة أرضها من النحاس الأصفر، فقال حسن لزوجته: انظري هذه المغارة هل تعرفينها؟ قالت: نعم. قال: إن فيها شيخًا يُسمَّى أبا الرويش، وله عليَّ فضل كبير؛ لأنه هو الذي كان سببًا في المعرفة بيني وبين الملك حسون. وصار يحدِّث زوجته بخبر أبي الرويش، وإذا بالشيخ أبي الرويش قد خرج من باب المغارة، فلما رآه حسن نزل عن جواده وقبَّلَ يدَيْه، فسلَّمَ عليه الشيخ أبو الرويش وهنَّأه بالسلامة، وفرح به وأخذه ودخل به المغارة وجلس هو وإياه، وصار يحدِّث الشيخَ أبا الرويش بما جرى له في جزائر واق، فتعجَّبَ الشيخ أبو الرويش غايةَ العجب، وقال: يا حسن، كيف خلَّصْتَ زوجتك وولدَيْك؟ فحكى له حكايةَ القضيب والطاقية، فلما سمع الشيخ أبو الرويش تلك الحكاية تعجَّبَ وقال: يا حسن يا ولدي، لولا هذا القضيب وهذه الطاقية ما كنتَ خلَّصْتَ زوجتك وولدَيْك. فقال له حسن: نعم يا سيدي. فبينما هما في الكلام، وإذا بطارق يطرق باب المغارة، فخرج الشيخ أبو الرويش وفتح الباب، فوجد الشيخ عبد القدوس قد أتى وهو راكب فوق الفيل، فتقدَّمَ الشيخ أبو الرويش وسلَّمَ عليه واعتنقه، وفرح به فرحًا عظيمًا وهنَّأَه بالسلامة، وبعد ذلك قال الشيخ أبو الرويش لحسن: احكِ للشيخ عبد القدوس جميعَ ما جرى لك يا حسن. فشرع حسن يحكي للشيخ جميعَ ما جرى له من أوله إلى آخِره، إلى أن وصل إلى حكاية القضيب. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن حسنًا شرع يحكي للشيخ عبد القدوس والشيخ أبي الرويش — وهم في المغارة يتحدثون — جميعَ ما جرى له من أوله إلى آخِره، إلى أن وصل إلى حكاية القضيب والطاقية، فقال الشيخ عبد القدوس لحسن: يا ولدي، أما أنت فقد خلَّصتَ زوجتك وولدَيْك، ولم يَبْقَ لك حاجة بهما، وأما نحن فإننا كنَّا السببَ في وصولك إلى جزائر واق، وقد عملت معك الجميل لأجل بنات أخي، وأنا أسألك من فضلك وإحسانك أن تعطيني القضيب، وتعطي الشيخ أبا الرويش الطاقية. فلما سمع حسن كلام الشيخ عبد القدوس أطرَقَ رأسَه إلى الأرض واستحى أن يقول ما أعطيهما لكما، ثم قال في نفسه: إن هذين الشيخين قد فعلَا معي جميلًا عظيمًا، وهما اللذان كانَا السببَ في وصولي إلى جزائر واق، ولولاهما ما وصلتُ إلى هذه الأماكن ولا خلَّصْتُ زوجتي وولديَّ، ولا حصلت على هذا القضيب وهذه الطاقية. ثم رفع رأسه وقال: نعم أنا أعطيهما لكما، ولكنْ يا سادتي إني أخاف من الملك الأكبر والد زوجتي أن يأتيني بعساكر إلى بلادنا، فيقاتلوني ولا أقدر على دفعهم إلا بالقضيب والطاقية. فقال الشيخ عبد القدوس لحسن: يا ولدي، لا تَخَفْ، فنحن نبقى لك جاسوسًا وردًّا في هذا الموضع، وكل مَن أتى إليك من عند والد زوجتك ندفعه عنك، ولا تَخَفْ من شيء أصلًا جملة كافية، فطِبْ نفسًا وقرَّ عينًا وانشرِحْ صدرًا ما عليك بأس. فلما سمع حسن كلامَ الشيخ، أخذه الحياء وأعطى الطاقية للشيخ أبي الرويش، وقال للشيخ عبد القدوس: اصحبني إلى بلادي وأنا أعطيك القضيب. ففرح الشيخان بذلك فرحًا شديدًا، وجهَّزَا لحسن من الأموال والذخائر ما يعجز عنه الوصف، ثم أقام عندهما ثلاثة أيام، وبعد ذلك طلب السفر، فتجهَّزَ الشيخ عبد القدوس للسفر معه، فلما ركب حسن دابةً وأركَبَ زوجته دابةً، صفَّرَ الشيخ عبد القدوس، وإذا بفيل عظيم قد أقبَلَ يهرول بيدَيْه ورجلَيْه من صدر البرية، فأخذه الشيخ عبد القدوس وركبه وسار هو وحسن

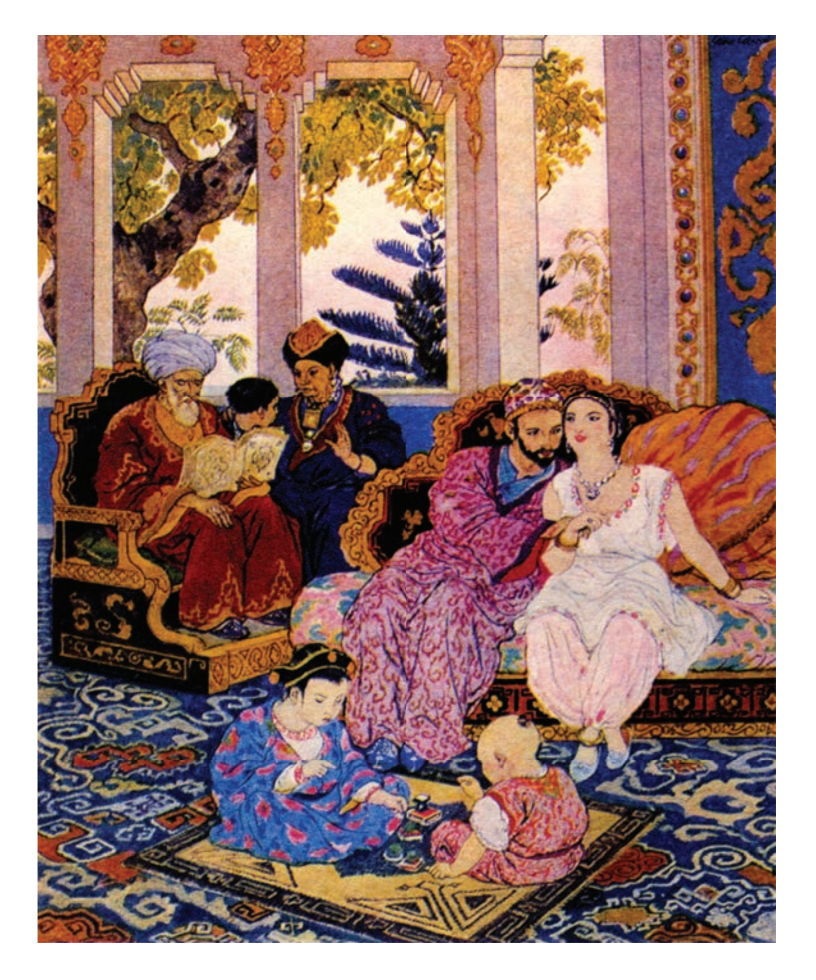
وزوجته وولداه، وأما الشيخ أبو الرويش فإنه دخل المغارة. وما زال حسن وزوجته وولداه والشيخ عبد القدوس سائرين يقطعون الأرض بالطول والعرض، والشيخ عبد القدوس يدلُّهم على الطريق السهلة والمنافذ القريبة حتى قربوا من الديار، وفرح حسن بقُرْبه من ديار والدته ورجوع زوجته وولدَيْه إليه، وحين وصل حسن إلى تلك الديار بعد هذه الأهوال الصعبة، حمِدَ الله تعالى على ذلك، وشكره على نعمته وفضله، وأنشد هذه الأبيات:

لَعَلَّ اللهَ يَجْمَعُنَا قَرِيبًا فَنُصْبِحَ فِي مُكَانَفَةِ الْعِنَاقِ
وَأُخْبِرَكُمْ بِأَعْجَبِ مَا جَرَى لِي وَمَا لَاقَيْتُ مِنْ أَلَمِ الْفِرَاقِ
وَأَشْفِي مُقْلَتِي نَظَرًا إِلَيْكُمْ فَإِنَّ الْقَلْبَ أَصْبَحَ فِي اشْتِيَاقِ
خَبَأْتُ لَكُمْ حَدِيثًا فِي فُؤَادِي لِأُخْبِرَكُمْ بِهِ عِنْدَ التَّلَاقِي
أُعَاتِبُكُمْ عَلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ عِتَابًا يَنْقَضِي وَالْوُدُّ بَاقِ

فلما فرغ حسن من شعره نظر، وإذا هم قد لاحَتْ لهم القبة الخضراء والفسقية والقصر الأخضر، ولاح لهم جبل السحاب من بعيد، فقال لهم الشيخ عبد القدوس: يا حسن، أبشِرْ بالخير، فأنت الليلة ضيف عن بنات أخي. ففرح حسن بذلك فرحًا شديدًا وكذلك زوجته، ثم إنهم نزلوا عند القبة واستراحوا وأكلوا وشربوا، ثم ركبوا وساروا حتى قربوا من القصر، فلما أشرفوا عليه خرجت لهم بناتُ أخي الشيخ عبد القدوس وتلقَّيْنَهم وسلَّمْنَ عليهم وعلى عمِّهم، وسلَّمَ عليهم عمُّهم، وقال لهم: يا بنات أخي، ها أنا قد قضيتُ حاجةَ أخيكم حسن، وساعدتُه على خلاص زوجته وولدَيْه. فتقدَّمَ إليه البنات وعانَقْنَه وفرحْنَ به وهنَّأْنَه بالسلامة والعافية وجَمْع الشمل بزوجته وولدَيْه، وكان عندهن يوم عيد. ثم تقدَّمت أخت حسن الصغيرة وعانقَتْه وبكَتْ بكاءً شديدًا، وكذلك حسن بكى معها على طول الوحشة، ثم شكَتْ له ما تجده من ألم الفراق وتعب سرها، وما قاسته من فراقه، وأنشدت هذين البيتين:

وَمَا نَظَرَتْ مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ مُقْلَتِي إِلَى أَحَدٍ إِلَّا وَشَخْصُكَ مَاثِلُ
وَمَا غَمَضَتْ إِلَّا رَأَيْتُكَ فِي الْكَرَى كَأَنَّكَ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْعَيْنِ نَازِلُ

فلما فرغت من شِعْرها فرحت فرحًا شديدًا، فقال لها حسن: يا أُختي، أنا ما أشكر أحدًا في هذا الأمر إلا أنتِ من دون سائر الأخوات، فالله تعالى يكون لكِ بالعون والعناية. ثم إنه حدَّثَها بجميع ما جرى له في سفره من أوله إلى آخِره، وما قاساه وما اتفق له



وجمع حسن بزوجته وأولاده، وكان عندهم يومَ عيدٍ.

مع أخت زوجته، وكيف خلَّصَ زوجته وولدَيْه، وحدَّثها بما رآه من العجائب والأهوال الصعاب، حتى إن أختها كانت أرادَتْ أن تذبحه وتذبحها وتذبح ولدَيْهما، وما سلَّمَهم منها إلا الله تعالى. ثم حكى لها حكاية القضيب والطاقية، وأن الشيخ أبا الرويش والشيخ عبد القدوس طلباهما منه، وأنه ما أعطاهما لهما إلا من شأنها؛ فشكرَتْه على ذلك ودَعَتْ له بطولِ البقاء، فقال: والله ما أنسى كلَّ ما فعلتِه معي من الخير من أول الأمر إلى آخِره.
وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن حسنًا لما اجتمع بالبنات حكى لأخته جميع ما قاساه وقال لها: أنا ما أنسى الذي فعلتِه معي من أول الزمان إلى آخِره. فالتفتَتْ أخته إلى زوجته منار السنا وعانقَتْها وضمَّتْ ولدَيْها إلى صدرها، ثم قالت لها: يا بنت الملك الأكبر، أَمَا في قلبك رحمة حتى فرَّقْتِ بينه وبين ولدَيْه وحرقتِ قلبه عليهما؟ فهل كنتِ تريدين بهذا الفعل أن يموت؟ فضحكت وقالت: بهذا حكَمَ الله سبحانه وتعالى، ومَن خادَعَ الناس خدَعَه الله. ثم أحضروا شيئًا من الأكل والشرب وأكلوا جميعًا وشربوا وانشرحوا، ثم إنه أقام عندهم عشرة أيام في أكل وشرب وفرح وسرور، ثم بعد العشرة أيام تجهَّزَ حسن للسفر، فقامت أخته وجهَّزَتْ له من المال والتحف ما يعجز عنه الوصف، ثم ضمَّتْه إلى صدرها لأجل الوداع وعانقَتْه، فأشار إليها حسن وأنشد هذه الأبيات:

مَا سَلْوَةُ الْعُشَّاقِ إِلَّا بَعِيدْ وَمَا فِرَاقُ الْحُبِّ إِلَّا شَدِيدْ
وَمَا الْجَفَا وَالْبُعْدُ إِلَّا عَنَاءْ وَمَا قَتِيلُ الْحُبِّ إِلَّا شَهِيدْ
مَا أَطْوَلَ اللَّيْلَ عَلَى عَاشِقٍ قَد فَارَقَ الْخِلَّ وَأَمْسَى فَرِيدْ
دُمُوعُهُ تَجْرِي عَلَى خَدِّهِ يَقُولُ يَا لَلدَّمْعِ هَلْ مِنْ مَزِيدْ

ثم إن حسنًا أعطى الشيخ عبد القدوس القضيب، ففرح به فرحًا شديدًا وشكر حسنًا على ذلك، وبعد أن أخذه منه ركب ورجع إلى محله، ثم ركب حسن هو وزوجته وأولاده من قصر البنات، ثم خرجوا معه يودِّعْنَه، وبعد ذلك رجعْنَ، ثم توجَّهَ حسن إلى بلاده فسار في البر الأقفر مدة شهرين وعشرة أيام حتى وصل إلى مدينة بغداد دار السلام، فجاء إلى

داره من باب السر الذي يفتح إلى جهة الصحراء والبرية، وطَرَقَ الباب، وكانت والدته من طول غيبته قد هجرت المنام ولزمت الحزن والبكاء والعويل حتى مرضت وصارت لا تأكل طعامًا ولا تلتذُّ بمنام، بل تبكي في الليل والنهار، ولا تفتر عن ذِكْر ولدها وقد يئست من رجوعه إليها، فلما وقف على الباب وسمعها تبكي وتنشد هذه الأبيات:

بِاللهِ يَا سَادَتِي طُبُّوا مَرِيضَكُمُ فَجِسْمُهُ نَاحِلٌ وَالْقَلْبُ مَكْسُورُ
فَإِنْ سَمَحْتُمْ بِوَصْلٍ مِنْكُمُ كَرَمًا فَالصَّبُّ مِنْ نِعَمِ الْأَحْبَابِ مَغْمُورُ
لَا بَأْسَ مِنْ قُرْبِكُمْ فَاللهُ مُقْتَدِرٌ أَنْ يَجْمَعَ الشَّمْلَ فَالْإِحْسَانُ تَقْدِيرُ

فلما فرغت من شِعْرها سمعت ولدها حسنًا ينادي على الباب: يا أماه، إن الأيام قد سمحت بجمع الشمل. فلما سمعت كلامه عرفته، فجاءت إلى الباب وهي ما بين مصدِّق ومكذِّب، فلما فتحت الباب رأَتْ ولدها واقفًا هو وزوجته وولداه معه، فصاحَتْ من شدة الفرح ووقعت في الأرض مغشيًّا عليها، فما زال حسن يلاطفها حتى أفاقَتْ وعانقته ثم بكَتْ، وبعد ذلك نادت غلمانه وعبيده وأمرتهم أن يُدخِلوا جميعَ ما معه في الدار، فأدخلوا الأحمالَ في الدار، ثم دخلت زوجته وولداه فقامَتْ لها أمه وعانقَتْها وقبَّلَتْ رأسها وقبَّلَتْ قدمَيْها، وقالت لها: يا ابنة الملك الأكبر، إنْ كنتُ أخطأتُ في حقكِ، فها أنا أستغفر الله العظيم. ثم التفتَتْ إلى ابنها وقالت له: يا ولدي، ما سبب هذه الغيبة الطويلة؟ فلما سألته عن ذلك أخبَرَها بجميع ما جرى له من أوله إلى آخِره، فلما سمعَتْ كلامه صرخَتْ صرخةً عظيمة ووقعَتْ في الأرض مغشيًّا عليها من ذِكْر ما جرى لولدها، فلم يزل يلاطفها حتى أفاقت وقالت له: يا ولدي، والله لقد فرَّطْتَ في القضيب والطاقية، فلو كنتَ احتفظتَ عليهما وأبقيتهما لَكنتَ ملكتَ الأرضَ بطولها والعرض، ولكن الحمد لله يا ولدي على سلامتك أنت وزوجتك وولدَيْك. وباتوا في أهنأ ليلة وأطيبها، فلما أصبح الصباح غيَّرَ ما عليه من الثياب، ولبس بدلة من أحسن القماش، ثم خرج إلى السوق وصار يشتري العبيد والجواري والقماش والشيء النفيس من الحلي والحلل والفراش، ومن الأواني المثمنة التي لا يوجد مثلها إلا عند الملوك، ثم اشترى الدور والبساتين والعقارات وغير ذلك، ثم أقام هو وولداه وزوجته ووالدته في أكل وشرب ولذَّة، ولم يزالوا في أرغد عيش وأهنأه حتى أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات، فسبحان ذي الملك والملكوت، وهو الحي الباقي الذي لا يموت.

خليفة الصياد

ومما يُحكَى أيضًا أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، بمدينة بغداد رجلٌ صياد يُسمَّى خليفة، وكان ذلك الرجل فقيرَ الحال صعلوكًا لم يتزوَّج في عمره قطُّ، فاتفق له يومًا من الأيام أنه أخذ شبكته ومضى بها إلى البحر مثل عادته ليصطاد قبل الصيَّادين، فلما وصل إلى البحر تحزَّمَ وتشمَّرَ، ثم تقدَّم إلى البحر ونشر شبكته ورماها أول مرة وثاني مرة، فلم يطلع فيها شيء، ولم يَزَل يرميها إلى أن رماها عشر مرات فلم يطلع فيها شيء أبدًا، فضاقَ صدره وتحيَّرَ فكره في أمره وقال: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو، الحي القيوم، وأتوب إليه، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، الرزق على الله عز وجل، وإذا أعطى الله عبدًا لا يمنعه أحد، وإذا منع عبدًا لا يعطيه أحد. ثم إنه من كثرة ما حصل له من الغم أنشد هذين البيتين:

إِذَا رَمَاكَ الدَّهْرُ يَوْمًا بِنَكْبَةٍ فَهِيِّئْ لَهَا صَبْرًا وَأَوْسِعْ لَهَا صَدْرَا
فَإِنَّ إِلَهَ الْعَالَمِينَ بِجُودِهِ سَيُعْقِبُ بَعْدَ الْعُسْرِ مِنْ فَضْلِهِ يُسْرَا

ثم جلس ساعة يتفكَّر في أمره وهو مطرق برأسه إلى الأرض، وبعد ذلك أنشد هذه الأبيات:

اصْبِرْ عَلَى حُلْوِ الزَّمَانِ وَمُرِّهِ وَاعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ
فَلَرُبَّ لَيْلٍ فِي الْهُمُومِ كَدُمَّلٍ عَالَجْتَهُ حَتَّى ظَفِرْتَ بِفَجْرِهِ
وَلَقَدْ تَمُرُّ الْحَادِثَاتُ عَلَى الْفَتَى وَتَزُولُ حَتَّى لَا تَعُودَ لِفِكْرِهِ

ثم قال في نفسه: أرمي هذه المرة الأخرى وأتوكَّلُ على الله لعله لا يخيِّب رجائي. ثم إنه تقدَّمَ ورمى الشبكة على طول باعه في البحر، وطوى حبلها وصبر عليها ساعة زمانية، ثم بعد ذلك سحبها فوجدها ثقيلة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خليفة الصياد لما رمى شبكته في البحر مرارًا ولم يطلع له فيها شيء، تفكَّرَ في نفسه وأنشد الأبيات السابقة ثم قال في نفسه: أرمي هذه المرة الأخرى وأتوكَّل على الله، لعله لا يخيِّب رجائي. فقام ورمى الشبكة وصبر عليها ساعة زمانية ثم سحبها فوجدها ثقيلة، فلما عرف أنها ثقيلة مارسها بلطف وسحبها حتى طلعت إلى البر، وإذا فيها قرد أعور أعرج، فلما رآه خليفة قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، أي شيء هذا النحس المنجوس والطالع المنحوس؟ ما الذي حصل لي في هذا النهار المبارك؟ ولكن هذا كله بتقادير الله تعالى. ثم إنه أخذ القرد وربطه في حبل وتقدَّمَ إلى شجرة طالعة على ساحل البحر وربَطَ فيها القرد، وكان معه سوط فأخذه في يده ورفعه في الهواء وأرادَ أن ينزل به على القرد، فأنطَقَ الله هذا القردَ بلسان فصيح، وقال له: يا خليفة، أمسِكْ يدكَ ولا تضربني، وخلني مربوطًا في هذه الشجرة، ورُحْ إلى البحر وارمِ شبكتك وتوكَّلْ على الله، فإنه يأتيكَ برزقك. فلما سمع خليفة كلامَ القرد أخذ الشبكة وتقدَّمَ إلى البحر ورماها، وأرخى لها الحبل ثم سحبها فوجدها أثقل من المرة الأولى، فلم يزل يعالج فيها حتى طلعت إلى البر، وإذا فيها قرد آخَر مفلج الثنايا، مكحل العينين، مخضب اليدين، وهو يضحك وفي وسطه ثوبٌ خَلَق، فقال خليفة: الحمد لله الذي أبدَلَ بسمك البحر القرود. ثم أتى إلى ذلك القرد المربوط في الشجرة وقال له: انظر يا مشئوم، ما أقبح ما أشرتَ به عليَّ! فما أوقَعَني في القرد الثاني إلا أنت، فإنك لما صبَّحتني بعرجك وعورك أصبحتُ غلبان تعبان لا أملك درهمًا ولا دينارًا. ثم إنه أخذ مسوقة في يده ولفَّها في الهواء ثلاث مرات، وأراد أن ينزل بها على القرد، فاستغاث منه وقال له: سألتُكَ بالله أن تعفو عني لأجل صاحبي هذا، واطلب منه حاجتك فإنه يدلُّكَ على ما تريد. فرمى خليفة المسوقة وعفا عنه.

ثم أتى إلى القرد الثاني ووقف عنده، فقال له القرد: يا خليفة، هذا الكلام ما يفيدك شيئًا إلا إذا سمعتَ مني ما أقوله لك، فإنْ سمعتَ مني وطاوعتَني ولم تخالفني كنتُ أنا السبب في غناك. فقال له خليفة: ما الذي تقوله لي حتى أطيعك فيه؟ فقال له: خلِّني مربوطًا مكاني ورُحْ إلى البحر وارمِ شبكتك حتى أقول لك أي شيء تفعله بعد هذا. فأخذ خليفة الشبكة ومضى إلى البحر ورماها وصبر عليها ساعة، ثم سحبها فوجدها ثقيلة، فما زال يعالج فيها حتى طلَّعها إلى البر، وإذا فيها قرد آخَر، إلا أن هذا القرد أحمر، وفي وسطه ثياب زرق، وهو مخضب اليدين والرجلين، مكحل العينين؛ فلما نظره خليفة قال: سبحان الله العظيم، سبحان مالك الملك، إن هذا اليوم مبارك من أوله إلى آخِره؛ لأن طالعه سعيد بوجه القرد الأول، والصحيفة تظهر من عنوانها، فهذا اليوم يوم قرود، ولم يَبْقَ في البحر ولا سمكة، ونحن ما خرجنا اليوم إلا لنصطاد القرود، والحمد لله الذي بدَّلَ بالسمك القرود.

ثم التفَتَ إلى القرد الثالث وقال له: أي شيء تكون أنت الآخَر يا مشئوم؟ فقال له: هل أنت لا تعرفني يا خليفة؟ قال: لا. قال: أنا قرد أبي السعادات اليهودي الصيرفي. فقال له خليفة: وأي شيء تصنع له؟ فقال له: أصبِّحه من أول النهار فيكسب خمسة دنانير، وأمسِّيه في آخِر النهار فيكتسب خمسةَ دنانير. فالتفَتَ خليفة إلى القرد الأول وقال له: انظر يا مشئوم، ما أحسن قرود الناس! وأما أنت فتصبِّحني بعرجك وعورك وشؤم طلعتك، فأصير فقيرًا مُفلِسًا جائعًا. ثم إنه أخذ المسوقة ولفَّها في الهواء ثلاث مرات وأراد أن ينزل بها عليه، فقال له قرد أبي السعادات: اتركْه يا خليفة وارفعْ يدك وتعالَ عندي حتى أقول لك أي شيء تعمل. فرمى خليفة المسوقة من يده وتقدَّمَ إليه وقال له: على أي شيء تقول لي يا سيد القرود كلها؟ فقال له: خذِ الشبكةَ وارْمِها في البحر، وخلني أنا وهؤلاء القرود قاعدين عندك، ومهما طلع لك فيها فهاتِهِ وتعالَ عندي وأنا أخبرك بما يسرُّكَ. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٣

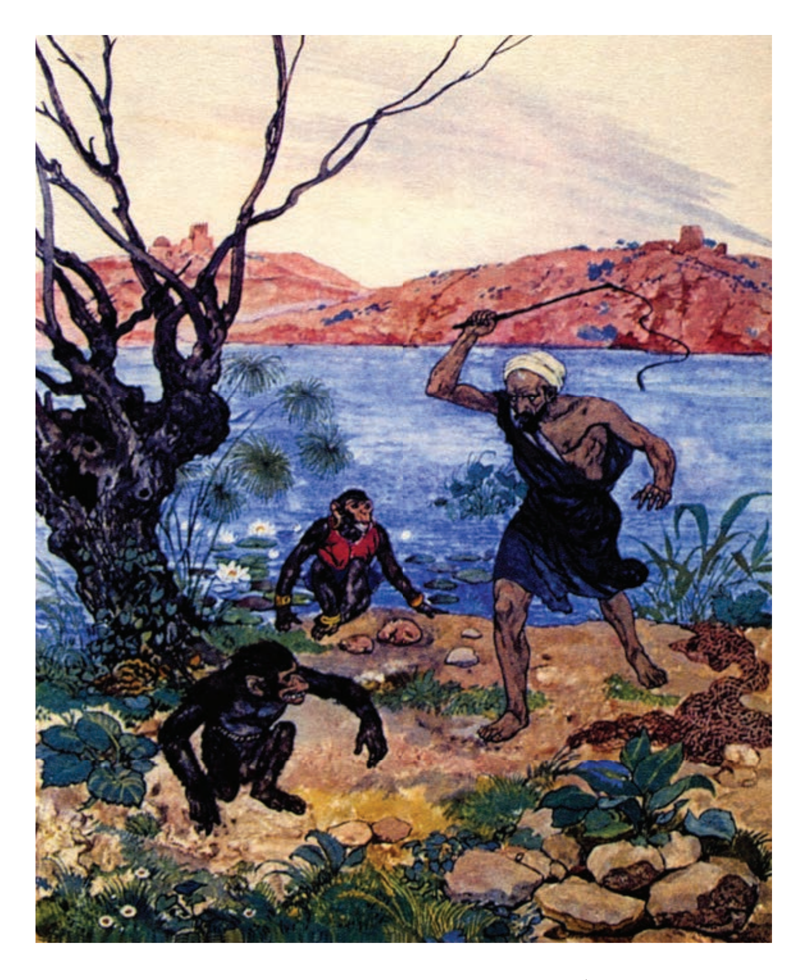
قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن قرد أبي السعادات لما قال لخليفة: خُذِ شبكتك وارمها في البحر، وكل شيء طلع لك فيها هاته وتعال عندي حتى أخبرك بما يسرُّكَ. قال له خليفة: سمعًا وطاعة. ثم إنه إخذ الشبكة وطواها على كتفه وأنشَدَ هذه الأبيات:

إِذَا ضَاقَ صَدْرِي أَسْتَعِينُ بِخَالِقِي ... قَدِيرٌ عَلَى تَيْسِيرِ كُلِّ عَسِيرِ
فَقَبْلَ ارْتِدَادِ الطَّرْفِ مِنْ لُطْفِ رَبِّنَا ... فِكَاكُ أَسِيرٍ وَانْجِبَارُ كَسِيرِ
فَسَلِّمْ إِلَى اللهِ الْأُمُورَ جَمْيعَهَا ... فَإِفْضَالُهُ يَدْرِيهِ كُلُّ بَصِيرِ

ثم أنشد أيضًا هذين البيتين:

أَنْتَ الَّذِي قَدْ رَمَيْتَ النَّاسَ فِي تَعَبٍ ... تَنْفِي الْهُمُومَ وَأَسْبَابَ الْبَلِيَّاتِ
لَا تُطْمِعَنِّي بِشَيْءٍ لَسْتُ أُدْرِكُهُ ... كَمْ طَامِعٍ فَاتَ تَحْصِيلَ الْإِرَادَاتِ

فلما فرغ خليفة من شعره تقدَّم إلى البحر ورمى فيه الشبكة وصبر عليها ساعة ثم سحبها، وإذا فيها حوت سمك كبير الرأس، وذنبه كأنه مغرفة، وعيناه كأنهما ديناران، فلما رآه خليفة فَرِح به؛ لأنه ما اصطاد نظيرَه في عمره، فأخذه وهو متعجِّب منه وأتى به إلى قرد أبي السعادات اليهودي، وهو كأنه قد ملك الدنيا بحذافيرها، فقال له: ما تريد أن تصنع بهذا يا خليفة؟ وأي شيء تعمل في قردك؟ فقال له خليفة: أنا أخبرك يا سيد القرود كلها بما أفعله؛ اعلم أني قبل كل شيء أتدبَّر في هلاك هذا الملعون قردي وأتَّخِذُكَ عوضًا عنه، وأُطعِمك في كل يوم ما تشتهيه. فقال له القرد: حيث إنك قد اخترتَني فأنا أقول لك



ثم إنه أَخَذَ مِسْوَقةً وأراد أن ينزل بها على القرد، فاستغاث منه وطلَبَ العفو.

كيف تفعل أنت، ويكون فيه صلاح حالك إن شاء الله تعالى، فافهم ما أقوله لك، وهو أنك تهيِّئ لي أنا الآخَر حبلًا وتربطني به في شجرة، ثم تتركني وتذهب إلى وسط الرصيف وتطرح شبكتك في بحر الدجلة، وإذا طرحتَها فاصبر عليها قليلًا واسحبها، فإنك تجد فيها سمكةً ما رأيتَ أظرف منها طول عمرك، فهاتها وتعال عندي وأنا أقول لك كيف تفعل بعد ذلك.

فعند ذلك قام خليفة من وقته وساعته وطرح الشبكة في بحر الدجلة وسحبها، فرأى فيها سمكة بيضاء قدر الخروف، ما رأى مثلها في طول عمره، وهي أكبر من الحوت الأول، فأخذها وذهب بها إلى القرد. فقال له القرد: هاتِ لك قدرًا من الحشيش الأخضر واجعل نصفه في قفة، وحط السمكة عليها وغطِّها بالنصف الآخَر واتركنا مربوطَيْن، ثم احمل القفة على كتفك وادخل بها في مدينة بغداد، وكل مَن كلَّمَك أو سألك فلا تردَّ عليه جوابًا حتى تدخل سوق الصيارف، فتجد في صدر السوق دكَّان المعلم أبي السعادات اليهودي شيخ الصيارف، وتراه قاعدًا على مرتبة ووراءه مخدة وبين يدَيْه صندوقان؛ واحد للذهب والآخر للفضة، وعنده مماليك وعبيد وغلمان، فتقدَّمْ إليه وحطَّ القفة قدَّامه وقُلْ له: يا أبا السعادات، إني قد خرجتُ اليومَ إلى الصيد وطرحتُ الشبكة على اسمك، فبعث الله تعالى هذه السمكة. فيقول: هل أَرَيْتَها لغيري؟ فقُلْ له: لا والله. فيأخذها منك ويعطيك دينارًا فردَّه عليه، فيعطيك دينارين فردَّهما عليه، وكلما يعطيك شيئًا ردَّه عليه ولو أعطاك وزنها ذهبًا فلا تأخذ منه شيئًا؛ فيقول لك: قُلْ لي ما تريد؟ فقُلْ له: والله ما أبيعها إلا بكلمتين. فإذا قال لك: وما هما الكلمتان؟ فقُلْ له: قُمْ على رجلَيْكَ وقُلْ: اشهدوا يا مَن حضر في السوق أني أبدلْتُ قردَ خليفة الصياد بقردي، وأبدلْتُ قسمه بقسمي، وبخته ببختي، وهذا ثمنها وما لي حاجة بالذهب. فإذا فعَلَ معك ذلك، فأنا كل يوم أصبِّحك وأمسِّيك، وتبقى كل يوم تكسب عشرة دنانير ذهبًا، ويصير أبو السعادات اليهودي يصبِّحه قرده هذا الأعور الأعرج، فيبليه الله كلَّ يوم بغرامة يغرمها، ولا يزال كذلك حتى يفتقر ويصير لا يملك شيئًا أبدًا؛ فاسمع مني ما أقوله لك تسعد وترشد.

فلما سمع خليفة الصياد كلامَ القرد قال له: قبلتُ ما أشرتَ به عليَّ يا ملك القرود كلها، وأما هذا المشئوم لا بارَكَ الله فيه، فإني لا أدري أي شيء أعمل معه. فقال له: سيبه في الماء وسيبني أنا الآخَر. فقال: سمعًا وطاعة. ثم تقدَّمَ إلى القرود وحلَّها وتركها، فنزلت في البحر، وتقدَّمَ خليفة إلى السمكة وأخذها وغسلها، وجعل تحتها حشيشًا أخضر في المقطف وغطَّاها بحشيش أيضًا، وحملها على كتفه وسار يغنِّي بهذا الموال:

سَلِّمْ أُمُورَكْ إِلَى رَبِّ السَّمَا تَسْلَمْ   وَافْعَلْ جَمِيلًا يَطُلْ عُمْرُكْ وَلَا تَنْدَمْ
وَلَا تُعَاشِرْ لِأَرْبَابِ التُّهَمْ تُتْهَمْ   وَصُنْ لِسَانَكَ لَا تَشْتُمْ بِهِ تُشْتَمْ

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خليفة الصياد لما فرغ من مغانيه، حمل القفة على كتفه وسار، ولم يزل سائرًا إلى أن دخل مدينة بغداد، فلما دخلها عرفه الناس فصاروا يصبِّحون عليه ويقولون: أي شيء معك يا خليفة؟ وهو لا يلتفت إلى أحدٍ منهم حتى وصل إلى سوق الصيارف، وفات الدكاكين كما أوصاه القرد، ثم نظر إلى ذلك اليهودي فرآه جالسًا في الدكان والغلمان في خدمته، وهو كأنه ملك من ملوك خراسان؛ فلما رآه خليفة عرفه، فمشى حتى وقف بين يدَيْه، فرفع اليهودي إليه رأسه فعرفه وقال له: أهلًا بك يا خليفة، ما حاجتك؟ وما الذي تريد؟ فإنْ كان أحد كلَّمَك أو خاصَمَك فقُلْ لي حتى أروح معك إلى الوالي، فيأخذ لك حقك منه. فقال: لا وحياة رأسك يا قيِّمَ اليهود، ما كلَّمني أحد، وإنما أنا سرحت اليوم من بيتي على بختك، ومضيتُ إلى البحر ورميتُ شبكتي في الدجلة فطلعت هذه السمكة. ثم فتح المقطف ورمى السمكة قدام اليهودي، فلما رآها اليهودي استحسنها وقال: وحقِّ التوراة والشعر والكلمات إني كنتُ نائمًا البارحة، فرأيتُ في المنام كأني بين يدَيِ العذراء وهي تقول لي: اعلم يا أبا السعادات أني قد أرسلتُ إليك هديةً مليحةً. فلعل الهدية هذه السمكة من غير شكٍّ.

ثم إنه التفت إلى خليفة وقال له: بحقِّ دينكَ هل رآها أحد غيري؟ فقال له خليفة: لا والله، وحقِّ أبي بكر الصديق يا قيِّمَ اليهود ما رآها أحد غيرك. فالتفَتَ اليهودي إلى أحد غلمانه وقال له: تعالَ خُذْ هذه السمكة ورُحْ بها إلى البيت، وخل سعادة تجهِّزها وتقلي وتشوي إلى حين أقضي شغلي وأجيء. فقال له خليفة أيضًا: رُحْ يا غلام خل امرأة المعلم تقلي منها وتشوي منها. فقال الغلام: سمعًا وطاعة يا سيدي. ثم إنه أخذ السمكة وذهب بها إلى البيت، وأما اليهودي فإنه مدَّ يده بدينار وناوَلَه لخليفة الصياد وقال له: خذ هذا لك يا خليفة واصرفه على عيالك. فلما نظره خليفة في كفه قال: سبحان مالك الملك. وكأنه

ما نظر شيئًا من الذهب في عمره، وأخذ الدينار ومشى قليلًا، ثم إنه تذكَّرَ وصيةَ القرد، فرجع ورمى له الدينار وقال له: خُذْ ذهبك وهاتِ سمك الناس، هل أنت عندك الناس سخرية؟ فلما سمع اليهودي كلامه ظنَّ أنه يلعب معه، فناوَلَه دينارين على الدينار الأول، فقال له خليفة: هات السمكة بلا لعب، هل أنت تعرف أني أبيع السمك بهذا الثمن؟ فمَدَّ اليهودي يده إلى اثنين آخَرين وقال له: خذ هذه الخمسة دنانير حق السمكة واترك الطمع. فأخذها خليفة في يده وتوجَّهَ بها وهو فرحان، وصار ينظر إلى الذهب ويتعجَّب منه ويقول: سبحان الله، ليس مع خليفة بغداد مثل ما معي في هذا اليوم.

ولم يزل سائرًا حتى وصل إلى رأس السوق، ثم تذكَّرَ كلامَ القرد والوصية التي أوصاه بها، فرجع إلى اليهودي ورمى له الذهب؛ فقال له: ما لك يا خليفة؟ أي شيء تطلب؟ أتأخذ صرف دنانيرك دراهم؟ فقال له: لا أريد دراهم ولا دنانير، وإنما أريد أن تعطيني سمك الناس. فغضب اليهودي وصرخ عليه وقال له: يا صياد، أتجيء لي بسمكة لا تساوي دينارًا وأعطيك فيها خمسة دنانير فلا ترضى؟ هل أنت مجنون؟ قُلْ لي: بكَمْ تبيعها؟ فقال له خليفة: أنا لا أبيعها بفضة ولا بذهب، وما أبيعها إلا بكلمتين تقولهما لي. فلما سمع اليهودي قوله كلمتين، قامت عيناه في أم رأسه وضاقت أنفاسه، وقرط على أضراسه وقال له: يا فظاعة المسلمين، هل تريد أن أفارق ديني لأجل سمكتك، وتُفسِد عليَّ ملتي وعقيدتي التي وجدتُ عليها آبائي من قبلي؟ وصاح على غلمانه فحضروا بين يدَيْه، فقال لهم: ويلكم، دونكم هذا النحس، قطعوا بالصك قفاه، وأكثروا من الضرب أذاه. فنزلوا عليه بالضرب، وما زالوا يضربونه حتى وقع تحت الدكان، فقال لهم اليهودي: خلوا عنه حتى يقوم. فقام خليفة على حيله كأنه لم يكن به شيء، فقال له اليهودي: قُلْ لي أي شيء تريده في ثمن هذه السمكة وأنا أعطيك إياه؟ فإنك ما نلتَ منَّا خيرًا في هذه الساعة. فقال خليفة: لا تخف عليَّ يا معلم من الضرب؛ لأني آكل ضربًا قدر عشرة حمير. فضحك اليهودي من كلامه وقال له: بالله عليك قُلْ لي أي شيء تريد وأنا وحقِّ ديني أعطيك إياه. فقال له: لا يرضيني منك في ثمن هذه السمكة إلا كلمتان. فقال له اليهودي: أظنُّ أنك تطلب مني أن أُسلِمَ. فقال له خليفة: والله يا يهودي، إن أسلمْتَ فإسلامك لا ينفع المسلمين ولا يضرُّ اليهود، وإنْ بقيتَ على كفرك فكفرك لا يضرُّ المسلمين ولا ينفع اليهود، ولكن الذي أطلبه منك أن تقوم على قدمَيْكَ وتقول: اشهدوا عليَّ يا أهل السوق أني قد أبدلْتُ بقردي قردَ خليفة الصياد، وبحظي في الدنيا حظَّه، وببختي بختَه. فقال اليهودي: إن كان هذا الأمر مرادُكَ فهو عليَّ هيِّن. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن اليهودي قال لخليفة الصياد: إن كان هذا الأمر مرادك فهو عليَّ هيِّنٌ. ثم قام اليهودي من وقته وساعته ووقف على قدمَيْه وقال مثل ما قال له خليفة الصياد، وبعد ذلك التفَتَ إليه وقال له: هل بقي لك عندي شيء؟ فقال الصياد: لا. فقال له اليهودي: مع السلامة. فنهض خليفة من وقته وساعته، وأخذ قفَّتَه وشبكته وجاء إلى بحر الدجلة ورمى الشبكة، ثم سحبها فوجدها ثقيلة، فما طلَّعها إلا بعد جهدٍ، فلما طلَّعَها رآها ملآنة بالسمك من جميع الأصناف، فجاءَتْ له امرأةٌ ومعها طبق، فأعطته دينارًا فأعطاها به سمكًا، وجاء إليه خادم آخَر وأخذ بدينار، وهكذا حتى باع سمكًا بعشرة دنانير، ولم يزل يبيع في كل يوم بعشرة دنانير إلى نهاية عشرة أيام حتى جمع مائة دينار ذهبًا.

وكان لذلك الصياد بيت من داخل ممر التجار، فبينما هو نائم في بيته ليلةً من الليالي، إذ قال في نفسه: يا خليفة، إن الناس كلهم يعرفون أنك رجل فقير صيَّاد، وقد حصل معك مائة دينار من الذهب، فلا بد أن أمير المؤمنين هارون الرشيد يسمع بخبرك من أحد الناس، فربما يحتاج إلى مالٍ فيرسل إليك، ويقول لك: إني محتاج إلى مبلغ من الدنانير، وقد بلغني أن عندك مائةَ دينارٍ فأَقرِضْني إياها. فأقول: يا أمير المؤمنين، أنا رجل فقير، والذي أَخبَرَك أن عندي مائةَ دينارٍ كذب عليَّ، وليس معي ولا عندي شيء من ذلك. فيسلِّمني إلى الوالي ويقول له: جرِّده من ثيابه وعاقِبْه بالضرب حتى يُقِرَّ ويأتي بالمائة دينار التي عنده. فالرأي الصواب الذي يخلِّصني من هذه الورطة أني أقوم في هذه الساعة وأعاقب نفسي بالسوط لأكون قد تمرَّنْتُ على الضرب. وقال له حشيشه: قُمْ تجرَّدْ من ثيابك. فقام من وقته وساعته وتجرَّدَ من ثيابه، وأخذ في يده سوطًا كان عنده، وكان عنده مخدة من جلد، فصار يضرب على تلك المخدة ضربة وعلى جلده ضربة ويقول: آه

آه، والله إن هذا كلامٌ باطل يا سيدي، وإنهم يكذبون عليَّ، وأنا رجل فقير صيَّاد وليس معي شيء من حطام الدنيا.

فسمع الناس خليفةَ الصياد وهو يعاقب نفسه ويضرب فوق المخدة بالسوط، ولوَقْعِ الضرب على جسده وعلى المخدة دويٌّ في الليل، ومن جملة مَن سمعه التجار، فقالوا: يا تُرَى ما لهذا المسكين يصيح ونسمع وَقْعَ الضرب نازلًا عليه؟ فكأنَّ اللصوص قد نزلوا عليه وهم الذين يعاقبونه؛ فعند ذلك قاموا كلهم على حسِّ الضرب والصياح، وخرجوا من منازلهم وجاءوا إلى بيت خليفة فرأوه مقفولًا، فقالوا لبعضهم: ربما يكون اللصوص نزلوا عليه من وراء القاعة، فينبغي أن نطلع من السطوح. فطلعوا السطوح ونزلوا من الممرق فرأوه عريانًا وهو يعاقب نفسه، فقالوا له: ما لك يا خليفة؟ أي شيء خبرك؟ فقال: اعلموا يا جماعة أني حصَّلْتُ بعضَ دنانير، وأنا خائف أن يُرفَع أمري إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد، فيُحضِرني بين يدَيْه ويطلب مني تلك الدنانير، وإذا أنكرتُ أخاف أن يعاقبني؛ فها أنا أعاقب نفسي وأجعل ذلك تمرينًا لنفسي على ما يأتي. فضحك عليه التجار وقالوا له: اتركْ هذه الفعال لا بارَكَ الله فيك ولا في الدنانير التي جاءتْكَ، فقد أقلقْتَنا في هذه الليلة وأزعجْتَ قلوبنا. فبطل خليفة الضرب عن نفسه ونام إلى الصباح، فلما قام من النوم وأراد أن يذهب إلى شغله، تفكَّرَ في أمر المائة دينار التي حصلتْ معه، وقال في نفسه: إذا تركتُها في البيت يسرقها اللصوص، وإنْ وضعتُها في كمر على وسطي، فربما ينظرها أحد فيترصَّدني حتى أنفرد في مكان خالٍ عن الناس فيقتلني ويأخذهم مني، ولكن أنا أفعل شيئًا من الحِيَل وهو مليح نافع جدًّا. ثم إنه نهض من وقته وساعته وخيَّطَ له جيبًا في طوق جبَّتِه، وربط المائة دينار في صرة ووضعها في ذلك الجيب الذي عمله، ثم قام وأخذ شبكته وقفَّتَه وعصاه وسار حتى وصل إلى بحر الدجلة. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خليفة الصياد لما وضع المائة دينار في جيبه، أخذ قفَّته وعصاه وشبكته وذهَبَ إلى بحر الدجلة ورمى شبكته فيه، ثم سحبها فلم يطلع له شيء، فانتقل من ذلك الموضع إلى موضعٍ غيره ورمى شبكته فيه، فلم يطلع له شيء، ولم يزل ينتقل من مكان إلى مكان حتى بَعُدَ عن المدينة مسافة نصف يوم وهو يرمي الشبكة ولا يطلع له شيء؛ فقال في نفسه: والله إني ما بقيتُ أرمي شبكتي في الماء إلا هذه المرة، فإما عليها وإما بها. فطرح الشبكة بقوة عزمه لشدة غيظه، فطارت الصرة التي فيها المائة دينار من طوقه ووقعَتْ في وسط البحر وراحت في قوة التيار، فرمى الشبكة من يده وتجرَّدَ من ثيابه وتركها على البر ونزل في البحر وغطس خلف الصرة، ولم يَزَلْ يغطس ويطلع نحو مائة مرة حتى ضعفت قوَّته، فلم يقع بتلك الصرة. فلما يَئِسَ منها طلع إلى البر، فلم يجد سوى العصا والشبكة والقفة، وطلب ثيابه فلم يقع لها على أثر؛ فقال في نفسه أهجن ما يُضرَب به المَثَل: «لا تكمل الحجة إلا بنيك الجمل.» ثم إنه فرد الشبكة والتفَّ فيها، وأخذ العصا في يده والقفة على كتفه وسار يهرول مثل الجمل الهائم، يجري يمينًا وشمالًا وخلفًا وأمامًا، أشعَثَ أغبر كالعفريت المتمرِّد إذا انطلق من السجن السليماني.

هذا ما كان من أمر خليفة الصياد، وأما ما كان من أمر الخليفة هارون الرشيد فإنه كان له صاحب جوهري يقال له ابن القرناص، وقد كان جميع الناس والتجار والدلالين والسماسرة يعرفون أن ابن القرناص تاجر الخليفة، وجميع ما يباع في مدينة بغداد من التحف وغيرها من الأمور المثمنة لا يباع حتى يُعرَض عليه، ومن جملة ذلك المماليك والجواري. فبينما ذلك التاجر— الذي هو ابن القرناص — جالس في دكانه يومًا من الأيام، وإذا بشيخ الدلالين قد أقبَلَ عليه ومعه جارية ما رأى الراءون مثلها، وهي

في غايةٍ من الحسن والجمال والقدِّ والاعتدال، ومن جملة محاسنها أنها تعرف في جميع العلوم والفنون، وتنظم الأشعار وتضرب على جميع آلات الطرب؛ فاشتراها ابن القرناص الجوهري بخمسة آلاف دينار ذهبًا، وكساها بألف دينار، وأتى بها إلى أمير المؤمنين، فباتَتْ عنده تلك الليلة واختبرها الخليفة في كلِّ فنٍّ، فرآها عارفة بجميع العلوم والصنائع، ليس لها في عصرها نظير، وكان اسمها قوت القلوب، وهي كما قال الشاعر:

أُرَدِّدُ الطَّرْفَ فِيهَا كُلَّمَا سَفَرَتْ   وَفِي تَمَنُّعِهَا لِلطَّرْفِ رَدَّاتُ
تَحْكِي الْغَزَالَ بِجِيدٍ كُلَّمَا الْتَفَتَتْ   وَلِلْغَزَالِ كَمَا قَدْ قِيلَ لَفْتَاتُ

وأين هذا من قول الآخَر:

مَنْ لِي بِأَسْمَرَ تَرْوِي عَنْ مَعَاطِفِهِ السُّـ   ـمْرِ الرِّشَاقِ عَوَالٍ سَمْهَرِيَّاتُ
سَاجِي الْجُفُونِ حَرِيرِيُّ الْعِذَارِ لَهُ   فِي قَلْبِ عَاشِقِهِ الْمُضْنَى مَقَامَاتُ

فلما أصبح الصباح أرسَلَ الخليفة هارون الرشيد إلى ابن القرناص الجوهري، فلما حضَرَ رسم له بعشرة آلاف دينار ثمن تلك الجارية، ثم إن الخليفة اشتغَلَ قلبُه بتلك الجارية المسمَّاة بقوت القلوب، وترك السيدة زبيدة بنت القاسم وهي بنت عمه، وترك جميع المحاظي وقعد شهرًا كاملًا لم يخرج من عند تلك الجارية إلا لصلاة الجمعة، ثم يعود إليها على الفور؛ فعَظُمَ ذلك على أرباب الدولة، فشَكَوْا هذا الأمر إلى الوزير جعفر البرمكي، فصبر الوزير على أمير المؤمنين حتى كان يوم الجمعة، فدخل الجامع واجتمَعَ بأمير المؤمنين وحكَى له جميع ما وقع له من القصص التي تتعلَّق بالعشق الغريبة؛ لأجل أن يستخرج ما عنده، فقال له الخليفة: يا جعفر، والله إن ذلك الأمر ليس باختياري، ولكن قلبي تعلَّقَ في شَرَكِ الهوى، وما أدري كيف يكون العمل. فقال له الوزير جعفر: اعلم يا أمير المؤمنين أن هذه المحظية قوت القلوب قد صارت تحت أمرك ومن جملة خدمك، وما تملكه اليد تزهده النفس، وأنا أخبرك بشيء آخَر، وهو أن أحسن ما تفتخر به الملوك وأبناء الملوك هو الصيد والقنص واغتنام اللهو والفرص، فإذا فعلتَ ذلك ربما تشتغل به عنها وربما تنساها. فقال له الخليفة: نِعْمَ ما قلتَه يا جعفر، فامضِ بنا على الفور في هذه الساعة إلى الصيد. فلما انقضَتْ صلاةُ الجمعة خرَجَا من الجامع وركبَا من وقتهما وساعتهما وسارَا إلى الصيد والقنص. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة هارون الرشيد طلع هو وجعفر إلى الصيد والقنص، وسارَا حتى وصَلَا إلى البرية، وقد كان أمير المؤمنين هو والوزير جعفر راكبَيْن على بلغتين، فتشاغَلَا في الحديث مع بعضهما وسبقهما العسكر، وقد حما عليهما الحر فقال الرشيد: يا جعفر، إني قد لحقني العطش الشديد. ثم إن الرشيد مدَّ نظره فرأى زوالًا على كوم عالٍ، فقال للوزير: هل أنت ناظِرٌ ما أنا ناظره؟ فقال له الوزير: نعم يا أمير المؤمنين، أنظر زوالًا على كوم عالٍ، وهو إما حارس بستان أو حارس مقات، وعلى كلِّ حالٍ فلا تخلو جهته من الماء. ثم قال الوزير: أنا أمضي إليه وآتيك بالماء من عنده. فقال الرشيد: إنَّ بغلتي أسرع من بغلتك، فقِفْ أنت هنا من أجل العسكر، وأنا أروح بنفسي وأشرب من عند هذا الشخص وأعود. ثم إن الرشيد ساقَ بغلتَه، فخرجَتْ مثل الريح في المسير أو مثل الماء في الغدير، ولم تَزَلْ منطلقة به حتى وصل إلى ذلك الزوال في مقدار لمح البصر، فلم يجد ذلك الزوال إلا خليفة الصياد؛ فرآه الرشيد وهو عريان ملتَفٌّ بالشبكة وعيناه من غاية الاحمرار كأنهما مشاعل النار، بصورة هائلة وقامة مائلة، وهو أشعث أغبر كأنه عفريت أو غضنفر، فسلَّمَ عليه الرشيد، فردَّ عليه السلام وهو غضبان، ومن نفسه تلتهب النيران. فقال له الرشيد: يا رجل، هل عندك شيء من الماء؟ فقال له خليفة: يا هذا، هل أنت أعمى أو مجنون؟ فدونك بحر الدجلة، فإنه وراء هذا الكوم. فدار الرشيد من خلف الكوم ونزل إلى بحر الدجلة وشرب وسقى بغلته، ثم طلع من وقته وساعته ورجع إلى خليفة الصياد. فقال له: ما شأنك يا رجل واقفًا هنا؟ وما صنعَتُكَ؟ فقال له خليفة: إن هذا السؤال أعجب وأغرب من سؤالك عن الماء، أَمَا تَرَى آلَةَ صنعتي على كتفي؟ فقال له الرشيد: كأنك صيَّاد. فقال له: نعم. فقال له الرشيد: فأين جبتك؟ وأين شملتك؟ وأين حرامك؟ وأين ثيابك؟ وقد كانت الحوائج التي راحَتْ من خليفة مثل التي ذكرها له

سواء بسواء؛ فلما سمع خليفة ذلك الكلام من الخليفة، ظنَّ في نفسه أنه هو الذي أخذ ثيابه من على شاطئ البحر، فنزل خليفة من وقته وساعته من فوق الكوم أسرع من البرق الخاطف، وقبض على لِجَام بغلة الخليفة وقال له: يا رجل، هاتِ لي حوائجي وخلِّ عنك اللعب والمزاح. فقال له الخليفة: أنا والله ما رأيتُ ثيابك ولا أعرفها. وقد كان الرشيد له خدود كبار وفم صغير، فقال له خليفة: لعل صنعتك أنك مغنٍّ أو زمَّار، ولكن هات لي ثيابي بالتي هي أحسن وإلا أضربك بهذه العصا حتى تبول على نفسك وتلوث ثيابك.

ثم إن الخليفة لَمَّا عايَنَ العصا مع خليفة قال في نفسه: والله أنا ما أحمل من هذا الصعلوك نصف ضربة بهذه العصا. وكان على الرشيد قباء من أطلس فقلعه، وقال لخليفة: يا رجل، خُذْ هذا القباء عوضًا عن ثيابك. فأخذه خليفة وقلَّبه وقال: إن ثيابي تساوي عشرة مثل هذه العباءة المزوَّقة. فقال الرشيد: البسه حتى أجيء لك بثيابك. فأخذه خليفة ولبسه فرآه طويلًا عليه، وقد كان مع خليفة سكين مربوطة في أذن القفة، فأخذها وقطع بها ذيل القباء مقدار ثلثه حتى صار لتحت ركبته، ثم إنه التفت إلى الرشيد وقال له: بحق الله عليك يا زمَّار أن تخبرني عن قدر جامكيتك في كل شهر عند أستاذك في صنعة المزمار. فقال له الخليفة: جامكيتي في كل شهر عشرة دنانير ذهبًا. فقال له خليفة: والله يا مسكين لقد حمَّلتني همَّكَ، والله إن العشرة دنانير أكتسِبُها في كل يوم؛ فهل تريد أن تكون معي في خدمتي وأنا أعلِّمك صنعة الصيد وأشاركك في المكسب؟ فتعمل في كل يوم بخمسة دنانير، وتكون غلامي وأحميك من أستاذك بهذه العصا؟ فقال له الرشيد: رضيتُ بذلك. فقال له: انزل الآن من فوق ظهر الحمارة واربطها حتى تبقى تنفعنا في حمل السمك، وتعالَ حتى أعلِّمَكَ الصيد في هذه الساعة. فعند ذلك نزل الرشيد عن ظهر بغلته وربطها وشمَّرَ أذياله في دور منطقته؛ فقال له خليفة: يا زامر، امسك هذه الشبكة كذا، واعملها على ذراعك كذا، وارميها في بحر الدجلة كذا. فقوَّى الرشيد قلبه وفعل مثل ما أراه خليفة ورمى الشبكة في البحر وسحبها، فما قدر أن يطلعها، فجاء إليه خليفة وسحبها معه فلم يقدر على تطليعها. فقال له خليفة: يا زامر النحس، إن كنتُ أخذتُ عباءتَكَ عوضًا عن ثيابي في المرة الأولى، ففي هذه المرة آخذ حمارتك في شبكتي إن رأيتها تقطَّعَتْ، وأضربك حتى تنساب على روحك. فقال له الرشيد: أسحب أنا وأنت معًا. فسحبها الاثنان معًا، فما قدرَا أن يطلعَا تلك الشبكة إلا بالمشقة، فلما أطلعاها نظرَاها، فإذا هي ملآنة من جميع أنواع السمك ومن سائر ألوانه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خليفة الصياد لما طلع الشبكة هو والخليفة، رأياها ملآنة من جميع أصناف السمك، فقال له خليفة: والله يا زمار إنك قبيح، ولكن إذا عانيتَ الصيد تكون صيَّادًا عظيمًا، فالرأي الصواب أنك تركب حمارتك وتروح إلى السوق وتأتي بفردين، وأنا أحفظ هذا السمك حتى تحضر ونحمله أنا وأنت على ظهر حمارتك، وعندي الميزان والأرطال وجميع ما نحتاج إليه، فنأخذ الجميع معنا، وليس عليك إلا أن تمسك الميزان وتقبض الأثمان، فإن معنا سمكًا يساوي عشرين دينارًا، فأسرِعْ بمجيء الفردين ولا تُبطِئ. فقال له الخليفة: سمعًا وطاعة. ثم تركه وترك السمك وساق بغلته وهو في غاية الفرح، ولم يزل يضحك على ما جرى له مع الصياد حتى وصل إلى جعفر، فلما رآه جعفر قال له: يا أمير المؤمنين، لعلك لما رحتَ إلى الشرب وجدتَ بستانًا طيبًا، فدخلته وتفرَّجت فيه وحدك. فلما سمع الرشيد كلام جعفر ضحك.

ثم إن جميع البرامكة قاموا وقبَّلوا الأرض بين يدَيْه وقالوا له: يا أمير المؤمنين، أدام الله عليك الأفراح وأذهَبَ عنك الأقراحَ، ما سبب تأخيرك حين ذهبتَ إلى الشرب؟ وما الذي جرى لك؟ فقال لهم الخليفة: لقد جرى لي حديث غريب، وأمر مطرب عجيب. ثم أعاد عليهم حديثَ خليفة الصياد وما جرى له معه من قوله أنت سرقت ثيابي، ومن كونه أعطاه قباءه، ومن كون الصياد قطع القباء لما رآه طويلًا. فقال جعفر: والله يا أمير المؤمنين، لقد كان في خاطري أني أطلب القباء منك، ولكن أروح في هذه الساعة إلى الصياد وأشتريها منه. فقال له الخليفة: والله لقد قطع ثلثها من جهة ذيلها وأتلَفَها، ولكن يا جعفر قد كللْتُ من صيدي في البحر؛ لأني قد اصطدتُ سمكًا كثيرًا، وهو على شاطئ البحر عند معلمي خليفة، فإنه واقف هناك ينتظرني حتى أرجع إليه وآخذ له فردين، ثم أروح أنا وإياه إلى السوق فنبيعه ونقسم ثمنه. فقال له: يا أمير المؤمنين، وأنا أجيء

إليكم بالذي يشتري منكم. فقال له الخليفة: يا جعفر، وحق آبائي الطاهرين إن كلَّ مَن جاء لي بسمكة من السمك الذي قدام خليفة الذي علَّمني الصيد أعطيه فيها دينارًا ذهبًا. فنادَى المنادي في العسكر أن اطلعوا واشتروا سمكًا لأمير المؤمنين؛ فطلع المماليك وقصدوا شاطئ البحر. فبينما خليفة ينتظر أمير المؤمنين حتى يحضر له فردين، وإذا بالمماليك قد انقضَّتْ عليه مثل العقبان، وأخذوا السمك ووضعوه في مناديل مزركشة من الذهب، وصاروا يتضاربون عليه. فقال خليفة: لا شك أن هذا السمك من سمك الجنَّة. ثم أخذ سمكتين بيده اليمنى وسمكتين بيده اليسرى ونزل في الماء لحلقه وصار يقول: يا الله، بحق هذا السمك، إن عبدك الزمَّار شريكي يجيء في هذه الساعة. وإذا بعبدٍ قد أقبَلَ عليه، وكان ذلك العبد مقدَّمًا على جميع العبيد الذين كانوا عند الخليفة، وكان سبب تأخيره عن المماليك أن جواده وقف يبول في الطريق، فلما وصل عند خليفة وجد السمك لم يَبْقَ منه شيء قليل ولا كثير؛ فنظر يمينًا وشمالًا، فرأى خليفة الصياد واقفًا في الماء ومعه السمك، فعند ذلك قال له: يا صياد تعالَ. فقال له الصياد: رُحْ بلا فضول. فتقدَّمَ إليه الخادم وقال له: هاتِ هذا السمك وأنا أعطيك الثمن. قال خليفة الصياد للخادم: هل أنت قليل العقل، أنا لا أبيعه. فسحب عليه الدبوس، فقال له خليفة: لا تضرب يا شقي، فالأنعام خير من الدبوس. ثم إنه رمى إليه السمك، فأخذه الخادم وجعله في منديله وحطَّ يده في جيبه، فلم يجد ولا درهمًا واحدًا. فقال: يا صياد، إن بختك مشئوم، وأنا والله ما معي شيء من الدراهم، ولكن في غدٍ تعالَ في دار الخلافة وقُلْ دلُّوني على الطواشي صندل، فيدلُّكَ الخدَّام عليَّ، فإذا جئتَني هناك يحصل لك الذي فيه النصيب، فتأخذه وتروح إلى حال سبيلك. فعند ذلك قال خليفة: إن هذا اليوم مبارك، وبركته ظاهرة من أوله.

ثم إنه أخذ شبكته على كتفه ومشى حتى دخل بغداد، ومشى في الأسواق فرأى الناس خلعة الخليفة عليه، وصاروا ينظرون إليه حتى دخل الحارة، وكان دكان خياط أمير المؤمنين على باب الحارة، فنظر الخياط خليفةَ الصياد وعليه خلعة تساوي ألفَ دينار من ملابس الخليفة، فقال: يا خليفة، من أين لك هذه الفرجية؟ فقال له خليفة: وأي شيء لك في الفضول؟ أنا أخذتُها من الذي علَّمْتُه الصيدَ وصار غلامي، وعفوت عنه في قطع يده؛ لأنه سرق ثيابي، وأعطاني هذه العباءة عوضًا عنها. فعلم الخياط أن الخليفة قد عبر عليه وهو يصطاد، ومزح معه وأعطاه الفرجية. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٣٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخياط علم أن الخليفة قد عبر على خليفة الصياد وهو يصطاد، وقد مزح معه وأعطاه الفرجية، ثم توجَّهَ الصياد إلى بيته. هذا ما كان من أمره، وأما ما كان من أمر الخليفة هارون الرشيد، فإنه ما طلع إلى الصيد والقنص إلا لأجل ما يشتغل عن الجارية قوت القلوب، وكانت زبيدة لما سمعت بالجارية واشتغال الخليفة بها أخذها ما يأخذ النساء من الغيرة، حتى امتنعت عن الطعام والشراب وهجرت لذيذ المنام، وصارت تنتظر غياب الخليفة أو سفره حتى تنصب لقوت القلوب شَرَكَ المكائد، فلما علمت أن الخليفة خرج إلى الصيد والقنص، أمرَتِ الجواري أن يفرشْنَ الدار، وأكثرت من الزينة والافتخار، ووضعت الأطعمة والحلويات، وعملت من جملة ذلك طبقًا صينيًّا فيه حلاوة من ألطف ما يكون، ووضعَتْ فيه البنج وبنَّجته، ثم إنها أمرَتْ بعض الخدَّام أن يمضي إلى الجارية قوت القلوب، ويدعوها إلى زاد السيدة زبيدة بنت القاسم زوجة أمير المؤمنين ويقول لها: إن زوجة أمير المؤمنين قد شربت اليوم دواءً، وقد سمعت بطيب نغمك، فاشتهَتْ أن تتفرج على شيء من صناعتك. فقالت: سمعًا وطاعة لله وللسيدة زبيدة. ثم إنها نهضَتْ قائمةً من وقتها وساعتها، ولم تعلم بما هو مخبوء لها في الغيب، وأخذت معها ما تحتاج من الآلات وسارت مع الخادم، ولم تزل سائرة حتى دخلت على السيدة زبيدة. فلما دخلَتْ عليها قبَّلَتِ الأرضَ بين يدَيْها مرارًا عديدة، ثم نهضت قائمةً على قدمَيْها وقالت: السلام على الستر الرفيع والجناب المنيع، والسلالة العباسية والبضعة النبوية، بلَّغَكِ اللهُ الإقبالَ والسلام في الأيام والأعوام. ثم وقفت من جملة الجواري والخدام، فعند ذلك رفعَتْ إليها السيدة زبيدة رأسَها ونظرت إلى حُسْنها وجمالها، فرأت جاريةً أسيلةَ الخدود، رمانيةَ النهود، بوجهٍ أقمر، وجبينٍ أزهر، وطرفٍ أحور، قد سكنَتْ جفونها فتورًا، وابتهج وجهها نورًا، كأن الشمس تطلع من غرتها، وظلام الليل من طرتها، والمسك

يفوح من نكهتها، والأزهار تزهو من بهجتها، والقمر يبدو من جبينها، والغصن يميل من قدِّها، كأنها البدر التام قد أشرق في جنح الظلام، وقد تغزلت عيناها، وتقوَّس حاجباها، وصِيغَتْ من المرجان شفتاها، تذهل بحُسْنها كلَّ مَن نظَرَها، وتَسْحَر بطَرْفها كلَّ مَنْ رآها، جلَّ مَن خلَقَها وكمَّلَها وسوَّاها؛ وهي كما قال الشاعر فيمَن ضاهاها:

إِذَا غَضِبَتْ رَأَيْتَ النَّاسَ قَتْلَى وَإِنْ رَضِيَتْ فَأَرْوَاحٌ تَعُودُ
لَهَا مِنْ طَرْفِهَا لَحَظَاتُ سِحْرٍ تُمِيتُ بِهَا وَتُحْيِي مَنْ تُرِيدُ
وَتَسْبِي الْعَالَمِينَ بِمُقْلَتَيْهَا كَأَنَّ الْعَالَمِينَ لَهَا عَبِيدُ

ثم إن السيدة زبيدة قالت لها: أهلًا وسهلًا ومرحبًا بك يا قوت القلوب، اجلسي حتى تفرجينا على أشغالك وحُسْن صناعتك. فقالت: سمعًا وطاعة. ثم جلست ومدَّتْ يدها وأخذت الدفَّ الذي قال فيه بعضُ واصفيه هذه الأبيات:

أَيَا ذَا الطَّارِ قَلْبِي طَارَ شَوْقًا وَيَصْرُخُ مِنْ جَوَاهُ وَأَنْتَ تَضْرِبْ
فَلَمْ تَأْخُذْ سِوَى قَلْبٍ جَرِيحٍ عَلَى تَوْقِيعِكَ الْإِنْسَانُ يَرْغَبْ
فَقُلْ قَوْلًا ثَقِيلًا أَوْ خَفِيفًا وَلَحِّنْ مَا تَشَاءُ فَأَنْتَ تُطْرِبْ
وَطِبْ وَاخْلَعْ عِذَارَكَ يَا مُحِبُّ وَقُمْ وَارْقُصْ وَمِلْ وَاعْجِبْ وَعَجِّبْ

ثم ضربَتْ ضربًا كثيرًا وغنَّتْ حتى أوقفت الطير وهاجَ بهم المكان، ثم حطَّتِ الدفَّ وأخذت الشبَّابة التي قيل فيها هذا البيتُ:

لَهَا أَعْيُنٌ إِنْسَانُهَا بِأَصَابِعٍ يُشِيرُ إِلَى لَحْنٍ صَحِيحٍ بِلَا شَكْلِ

وكما قال الشاعر أيضًا هذا البيت:

إِذَا أَنْهَتْ إِلَى الْقَصْدِ الْأَغَانِي يَطِيبُ الْوَقْتُ مِنْ طَرَبٍ بِوَصْلِ

ثم إنها حطَّتِ الشبَّابةَ بعد أن طرب بها كلُّ مَن حضَرَ، ثم أخذَتِ العودَ الذي قال فيه الشاعر:

وَغُصْنٍ رَطِيبٍ عَادَ عَوْدَةَ قَيْنَةٍ يَحِنُّ إِلَيْهِ الْأَكْرَمُونَ الْأَفَاضِلُ
تَجُسٌّ وَتَبْلُزُهُ لِفَرْطِ ذِكَائِهَا بِأَنْمُلِهَا مَا أَتْقَنَتْهُ السَّلَاسِلُ

فشدَّتْ أوتاره وعركت آذانه، وحطته في حجرها وانحنت عليه انحناءَ الوالدة على ولدها، فكأنَّ الشاعر قال فيها وفي عودها هذه الأبيات:

قَدْ أَفْصَحَتْ بِالْوَتَرِ الْأَعْجَمِي　　وَأَفْهَمَتْ مَنْ لَمْ يَكُنْ فَاهِمْ
وَخَبَّرَتْ أَنَّ الْهَوَى قَاتِلٌ　　يُودِي بِعَقْلِ الرَّجُلِ الْمُسْلِمْ
جَارِيَةٌ لِلَّهِ مِنْ كَفِّهَا　　مُصَوِّرٌ يَنْطِقُ عَنْ ذِي فَمْ
قَدْ حَبَسَتْ بِالْعُودِ مَجْرَى الْهَوَى　　حَبْسَ الطَّبِيبِ الْعَدْلِ مَجْرَى الدَّمْ

ثم ضربت أربع عشرة طريقة، وغنَّتْ نوبة كاملة حتى أذهلَتِ الناظرين وأطربَتِ السامعين، ثم أنشدت هذين البيتين:

قَدَمٌ عَلَيْكَ مُبَارَكٌ　　فِيهِ السُّرُورُ يُجَرَّدُ
إِقْبَالُهُ مُتَوَاتِرٌ　　وَنَعِيمُهُ لَا يَنْفَدُ

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية قوت القلوب لما غنَّتِ الأشعار وضربَتْ على الأوتار بين يدي السيدة زبيدة، كادت أن تعشقها وقالت في نفسها: ما يُلام ابن عمي الرشيد في عشقها. ثم إن الجارية قبَّلَتِ الأرضَ بين يدي زبيدة وقعدت، فقدَّموا لها الطعام، ثم قدَّموا الحلو وقدَّموا الصحن الذي فيه البنج فأكلَتْ منه، فما استقرت الحلوى في جوفها حتى انقلب رأسها وانطرحت على الأرض نائمة، فقالت السيدة زبيدة للجواري: ارفَعْنَها إلى بعض المقاصير حتى أطلبها. فقُلْنَ لها: سمعًا وطاعة. ثم قالت لبعض الخدام: اعمل لنا صندوقًا وَأْتِنِي به. ثم أمرت أن يعمل صورةَ قبرٍ ويشيعوا أن الجارية قد شرقَتْ وماتت، ونبَّهَتْ على خواصِّها أن كلَّ مَن قال إنها بالحياة تضرب رقبته. وإذا بالخليفة قد أتى في تلك الساعة من الصيد والقنص، وأول ما سأل سأل عن الجارية، فتقدَّمَ إليه بعض خدمه وقد كانت أوصته السيدة زبيدة أنه إذا سأله الخليفة عنها يقول له إنها ماتت، فقبَّلَ الأرضَ بين يدَيْه وقال له: يا سيدي تعيش رأسك، وتيقَّنْ أن قوت القلوب غصَّتْ بالطعام فماتَتْ. فقال الخليفة: لا بشَّرَكَ الله بالخير يا عبد السوء. ثم قام ودخل القصر، فسمع بموتها من كلِّ مَن في القصر، فقال: أين قبرها؟ فأتوا به إلى التربة وأروه القبر الذي عُمِل تزويرًا وقالوا له: هذا قبرها. فلما نظره صاح واعتنق القبر وبكى وأنشد هذين البيتين:

بِاللهِ يَا قَبْرُ هَلْ زَالَتْ مَحَاسِنُهَا   وَهَلْ تَغَيَّرَ ذَاكَ الْمَنْظَرُ النَّضِرُ
يَا قَبْرُ مَا أَنْتَ لَا رَوْضٌ وَلَا أُفُقٌ   فَكَيْفَ يُجْمَعُ فِيكَ الْغُصْنُ وَالْقَمَرُ

ثم إن الخليفة بكى عليها بكاءً شديدًا، ومكث هناك ساعة زمانية ثم قام من عند القبر وهو في غاية الحزن، فعلمت السيدة زبيدة أن حيلتها قد تمَّتْ، فقالت للخادم: هاتِ الصندوقَ. فأحضَرَه بين يدَيْها، فأحضرت الجارية ووضعَتْها فيه وقالت للخادم: اجتهِدْ في بيع الصندوق واشترِطْ على مَن يشتريه أن يشتريه وهو مقفول، ثم تصدَّقْ بثمنه. فأخذه الخادم وخرج من عندها وامتثل أمرها.

هذا ما كان من أمر هؤلاء، وأما ما كان من أمر خليفة الصياد، فإنه لما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، قال: ليس لي شغل في هذا اليوم أحسن من رواحي إلى الطواشي الذي قد اشترى مني السمك، فإنه واعَدَني أن أروح إليه في دار الخلافة. ثم إن خليفة خرج من داره قاصدًا دار الخلافة، فلما وصل إليها وجد المماليك والعبيد والخدم قيامًا وقعودًا، فتأمَّلَهم وإذا بالخادم الذي أخذ منه السمك جالس والمماليك في خدمته، فصاح عليه غلامٌ من المماليك، فالتفَتَ إليه الخادم لينظر مَن هو وإذا هو بالصياد، فلما عرف الصياد أنه رآه وتحقَّقَ ذاته، قال له: ما قصرت يا شقير، هكذا تكون أصحاب الأمانات. فلما سمع الخادم كلامه، ضحك عليه وقال له: والله لقد صدقْتَ يا صياد. ثم إن الخادم صندل أرادَ أن يعطيه شيئًا، فمدَّ يده إلى جيبه وإذا بصياح عظيم، فرفع الخادم رأسه لينظر ما الخبر، وإذا بالوزير جعفر البرمكي خارج من عند الخليفة، فلما رآه الخادم نهض إليه قائمًا ومشى بين يدَيْه وصارَا يتحدثان وهما ماشيان حتى طال الوقت، فوقف خليفة الصياد مدة والخادم لم يلتفت إليه، فلما طال وقوفه تعرَّضَ إليه الصياد وهو بعيد عنه وأشار إليه بيده وقال: يا سيدي شقير، خليني أروح. فسمعه الخادم واستحى أن يردَّ عليه بسبب حضور الوزير جعفر، وصار الخادم يتحدَّث مع الوزير ويتشاغل عن الصياد، فقال خليفة: يا مماطِلُ، قبَّحَ الله كلَّ ثقيل وكلَّ مَن يأخذ متاع الناس ويتثاقل عليهم، أنا دخيلك يا سيدي كرش النخال أن تعطيني الذي لي لأجل أن أروح. فسمعه الخادم فاستحى من جعفر، ورآه أيضًا جعفر وهو يشير بيدَيْه ويتحدَّث مع الخادم، ولكنه لم يعرف ما يقوله له، فقال للخادم وقد أنكرَ عليه: يا طواشي، أي شيء يطلب منك هذا السائل المسكين؟ فقال له صندل الخادم: أَمَا تعرف هذا يا مولانا الوزير؟ فقال الوزير جعفر: والله ما أعرفه، ومن أين أعرف هذا وأنا ما رأيتُه إلا في هذه الساعة؟ فقال له الخادم: يا مولانا هذا الصياد الذي نهبنا سمكه من شاطئ الدجلة، وكنتُ أنا ما لحقت شيئًا واستحييت أن أرجع إلى أمير المؤمنين بلا شيء وكل المماليك قد أخذوا، فلما وصلتُ إليه وجدتُه واقفًا في وسط البحر يدعو الله ومعه أربع سمكات، فقلتُ له: هاتِ ما معك وخذ حقه. فلما أعطاني السمك أدخلتُ يدي في جيبي وأردتُ أن أعطيه شيئًا، فما رأيت

فيه شيئًا. فقلت له: تعالَ إليَّ في القصر وأنا أعطيك شيئًا تستعين به على فقرك. فجاءني في هذا اليوم، فمددتُ يدي وأردتُ أن أعطيه شيئًا فجئتَ أنت، فقمتُ في خدمتك واشتغلتُ بك عنه، فطال عليه الأمر؛ فهذه قصته وهذا سبب وقوفه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن صندلًا الطواشي لما حكى لجعفر البرمكي حكايةَ خليفة الصياد، قال له بعد ذلك: فهذه قصته وهذا سبب وقوفه. فلما سمع الوزير كلام الطواشي تبسَّمَ منه وقال: يا طواشي، كيف جاء هذا الصياد في وقت حاجته ولم تَقْضِها له؟ أَمَا تعرفه يا رئيس الطواشية؟ قال: لا. قال: هذا معلم أمير المؤمنين وشريكه، وقد أصبَحَ اليومَ مولانا الخليفة ضيِّقَ الصدر حزينَ القلب مشتغل البال، وما له شيء يشرح صدره إلا هذا الصياد، فلا تخله يروح حتى أشاورَ عليه الخليفة وأُحضِرَه بين يدَيْه، فلعل الله يفرج ما به ويسلِّيه على فَقْدِ قوت القلوب بسبب حضوره، فيعطيه شيئًا يستعين به، فتكون أنت السبب في ذلك. فقال له الخادم: يا مولاي، افعل ما تريد، فالله تعالى يُبقِيك ركنًا لدولة أمير المؤمنين، أدام اللهُ ظلَّها وحفظ فرعها وأصلها. ثم إن الوزير جعفر نهض متوجِّهًا إلى الخليفة، والخادم أمر المماليك أنهم لا يفارقون الصياد. فقال خليفة الصياد عند ذلك: ما أجملَ إحسانَكَ يا شقير! قد صار الطالب مطلوبًا؛ لأني جئتُ لأطلب مالي فحبسوني على البواقي. فلما دخل جعفر على الخليفة وجده قاعدًا وهو مُطرِق برأسه إلى الأرض، ضيِّق الصدر كثير الفكر، يترنم بقول الشاعر:

تُكَلِّفُنِي السُّلْوَانَ عَنْهَا عَوَاذِلِي ... وَمَا لِي عَلَى قَلْبِي إِذَا لَمْ يُطِعْ أَمْرِي
وَكَيْفَ يَكُونُ الصَّبْرُ عَنْ حُبِّ طِفْلَةٍ ... عَلَى حُبِّهَا فِي الْهَجْرِ لَا يُجْدِنِي صَبْرِي
وَلَمْ أَنْسَهَا وَالْكَأْسُ قَدْ دَارَ بَيْنَنَا ... وَقَدْ مَالَ بِي مِنْ خَمْرِ أَلْحَاظِهَا سُكْرِي

فلما صار جعفر بين يدَيِ الخليفة قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وحامي حرمة الدين، وابن عم سيد المرسلين ﷺ وعلى آله أجمعين. فرفع الخليفة رأسه وقال: وعليك

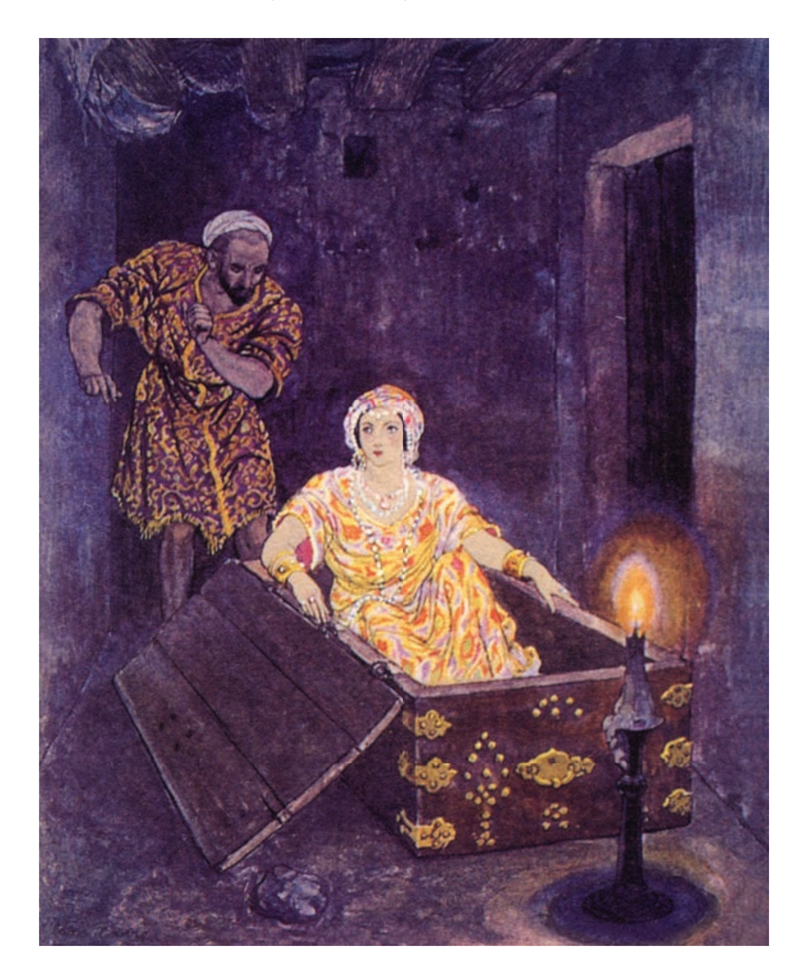
السلام ورحمة الله وبركاته. فقال جعفر: عن إذن أمير المؤمنين يتكلم خادمه ولا حرج عليه. فقال الخليفة: ومتى كان عليك حرج في الكلام وأنت سيد الوزراء؟ تكلَّمْ بما تريد. فقال له الوزير جعفر: إني خرجتُ يا مولانا من بين يدَيْكَ أريد داري، فرأيت أستاذك ومعلِّمك وشريكك خليفة الصياد واقفًا بالباب، وهو متغيِّر عليك ويشتكي منك ويقول: سبحان الله، قد علَّمته الصيد وذهب ليأتيني بفردين فلم يَعُدْ إليَّ، وما هذا شأن الشركة ولا شأن المعلِّمين. فإن كان لك غرض في الشركة فلا بأس، وإلا فعرِّفْه ليشارِكَ غيركَ. فلما سمع الخليفة كلامه تبسَّمَ وزال ما كان عنده من ضيق الصدر، ثم قال لجعفر: بحياتي عليك، أحقٌّ ما تقوله من أن الصياد واقف بالباب؟ قال جعفر: وحياتك يا أمير المؤمنين إنه واقف بالباب. فعند ذلك قال الخليفة: يا جعفر، والله لَأسعين في قضاء حقه، فإنْ يُرِدِ اللهُ له على يديَّ شقاوةً نالَهَا، وإنْ يُرِدْ له على يديَّ سعادةً نالَهَا.

ثم إن الخليفة أخذ ورقة وقطعها قِطَعًا وقال: يا جعفر، اكتب بيدكَ عشرين قدرًا من دينار إلى ألف دينار، ومراتب الولاية والإمارات من أقل العمل إلى الخلافة، وعشرين صنفًا من أنواع النكال من أقل التعزير إلى القتل. فقال جعفر: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين. ثم كتب الأوراق بيده كما أمره الخليفة، ثم بعد ذلك قال الخليفة: يا جعفر، أقسِمُ بحقِّ آبائي الطاهرين واتصالي بحمزة وعقيل، إني أريد أن أُحضِر خليفة الصياد وآمره أن يأخذ ورقة من هذه الأوراق لا يعرف ما فيها إلا أنا وأنت، فأي شيء كان فيها ملَّكْتُه له، ولو كان فيها الخلافة نزعتُ نفسي منها وملَّكْتُه إياها، ولا أبخل بها عليه، وإنْ كان فيها شنْقٌ أو قطْعٌ أو هلاكٌ فعلْتُه به، فاذهب وَأْتِنِي به. فلما سمع جعفر هذا الكلام قال في نفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ربما يطلع لهذا المسكين شيء بإتلافه فأكون أنا السبب، ولكن الخليفة قد حلف وما بقي إلا أنه يدخل، ولا يكون إلا ما يريده الله. ثم توجَّهَ إلى خليفة الصياد وقبض على يده وأراد الدخول به، فطار عقل خليفة من رأسه وقال في نفسه: أي شيء عبثيٍّ حتى جئتُ إلى هذا العبد النحس شقير، فجمع بيني وبين كرش النخال؟ ثم إن جعفر لم يزل سائرًا به والمماليك خلفه وقدامه وهو يقول: ما كفى الحبس حتى يكون هؤلاء خلفي وقدامي فيحرموني أن أهرب؟ ولم يزل جعفر سائرًا به حتى قطع سبعة دهاليز، ثم قال الخليفة: ويلك يا صياد، إنك تقف بين يدي أمير المؤمنين وحامي الدين. ثم رفع الستر الأكبر، فوقعَتْ عين خليفة الصياد على الخليفة وهو جالس على سريره، وأرباب الدولة قيام في خدمته، فلما عرفه تقدَّمَ إليه وقال: أهلًا وسهلًا يا زمَّار، ما يصحُّ منك أن تعمل صيَّادًا ثم تتركني قاعدًا أحرس السمك وتروح ولا

تجيء، فما شعرتُ إلا والمماليك قد أقبلوا على دوابَّ مختلفة الألوان، فخطفوا السمك مني وأنا واقف وحدي، وهذا كله من تحت رأسك، فلو كنتَ جئتَ بالأفراد سريعًا كنَّا بعنَا منه بمائة دينار، ولكن أنا جئتُ في طلب حقي فحبسوني، وأنت مَن حبَسَك في هذا الموضع؟ فتبسَّمَ الخليفة ثم رفع طرف الستارة وأخرج رأسه من تحتها وقال له: تقدَّمْ وخُذْ لك ورقةً من هذه الأوراق. فقال خليفة الصياد لأمير المؤمنين: أنت كنتَ صيَّادًا وأراكَ اليوم منجِّمًا، ولكن مَن كَثُرَتْ صنائعه كَثُرَ فقره. فقال جعفر: خُذِ الورقة بسرعة من غير كلام وامتثل ما أمرَكَ به أمير المؤمنين. فتقدَّمَ خليفة الصياد ومدَّ يدَه وقال: هيهات إن كان هذا الزمَّار يرجع غلامي ويصطاد معي. ثم أخذ الورقة وناوَلَها للخليفة وقال: يا زمَّار، أي شيء طلع لي فيها لا تُخْفِ منه شيئًا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٢

قلت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خليفة الصياد لما أخذ ورقة من الأوراق وناوَلَها للخليفة قال له: يا زمَّار، أي شيء طلع لي فيها لا تُخْفِ منه شيئًا. فأخذها الخليفة بيده وناوَلَها للوزير جعفر وقال له: اقرأ ما فيها. فنظر إليها جعفر وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فقال الخليفة: خير خير يا جعفر، ما رأيتَ فيها؟ فقال: يا أمير المؤمنين، طلع في الورقة: يُضرَب الصياد مائة عصًا. فأمر الخليفة بضربه مائة عصًا، فامتثلوا أمره وضربوا خليفة مائة عصًا، ثم قام وهو يقول: لعن الله هذا اللعب يا كرش النخال، هل الحبس والضرب من جملة اللعب؟ فقال جعفر: يا أمير المؤمنين، إن هذا المسكين جاء إلى البحر وكيف يرجع عطشانًا؟ نرجو من صدقات أمير المؤمنين أن يأخذ له ورقة أخرى، فلعله يطلع له فيها شيء فيرجع به ليستعين به على فقره. فقال الخليفة: والله يا جعفر إنْ أَخَذَ ورقةً وطلع له فيها قتل لَأقتلنه، فتكون أنت السبب. فقال جعفر: إنْ كان يموت فإنه يستريح. فقال له خليفة الصياد: لا بشَّرَكَ الله بالخير، هل أنا ضيَّقْتُ عليكم بغداد حتى تطلبوا قتلي؟ فقال جعفر: خُذْ لك ورقة، واستخِرِ الله تعالى. فمَدَّ يده وأخذ ورقةً وأعطاها لجعفر، فأخذها منه وقرأها وسكَتْ. فقال له الخليفة: ما لك سكَتَّ يا ابن يحيى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه طلع في الورقة لا يُعطَى الصياد شيئًا. فقال الخليفة: ما له رزق عندنا، قُلْ له يروح من وجهي. فقال جعفر: بحقِّ آبائك الطاهرين أن تخليه يأخذ الثالثة لعله يطلع له فيها رزق. فقال الخليفة: دَعْه يأخذ له ورقة لا شيء غيرها. فمَدَّ يده وأخذ الورقة الثالثة، وإذا فيها يُعطَى الصياد دينارًا، فقال جعفر لخليفة: طلبتُ لك السعادةَ فما أرادَ اللهُ لكَ إلا هذا الدينار. فقال خليفة: كل مائة عصًا بدينار خير كثير، لا أصحَّ الله لكَ بدنًا. فضحك الخليفة وأخذ جعفر بيدِ خليفة وخرج به.



وفتح الصندوق وإذا هو بجاريةٍ كأنها حوريةٌ استفاقَت وفتحَت عينَيْها.

فلما وصل إلى الباب رآه صندل الخادم فقال له: تعالَ يا صياد أَنْعِمْ علينا مما أعطاك أمير المؤمنين وهو يمزح معك. فقال له خليفة: والله صدقْتَ يا شقير، وهل تريد أن تقاسِمني يا أسود الجلد، وقد أكلتُ مائةَ عصًا وأخذتُ دينارًا واحدًا؟ أنت في حلٍّ منه. ثم رمى الدينارَ للخادم وخرج ودموعه تجري على صحن خده، فلما نظره الخادم وهو على تلك الحالة عرف أنه صادق، فرجع إليه وصاح على الغلمان أن ردُّوه، فَرَدُّوه، فمَدَّ

يده إلى جيبه فأخرج منه كيسًا أحمر، ففتحه ونفضه، وإذا فيه مائة دينار من الذهب وقال: يا صياد، خُذْ هذا الذهب حق سمكك وامضِ إلى حال سبيلك. فعند ذلك فرح خليفة الصياد وأخذ المائة دينار ودينار الخليفة وخرج وقد نسي الضرب، ولما أراد الله تعالى إنفاذ ما قضاه، عبَرَ خليفة الصياد في سوق الجواري، فرأى حلقة كبيرة وفيها خلق كثير، فقال خليفة في نفسه: أي شيء هؤلاء الناس؟ ثم تقدَّمَ وشَقَّ بين الناس من تجار وغيرهم. فقال التجار: وسِّعوا للناخوذة زليط. فوسَّعوا له فنظَرَ خليفة وإذا بشيخ قائم على رجلَيْه وبين يدَيْه صندوق وعليه خادم جالس، والشيخ ينادي ويقول: يا تجار، يا أرباب الأموال، مَن يخاطر ويبادر بالعطاء لهذا الصندوق المجهول من دار السيدة زبيدة بنت القاسم زوجة أمير المؤمنين الرشيد بكم عليكم بارَكَ الله فيكم. فقال واحد من التجار: والله إن هذه مخاطرة، فأنا أقول كلامًا وما عليَّ فيه ملام، هو عليَّ بعشرين دينارًا. فقال آخَر: بخمسين دينارًا. ثم تزايَدَ التجار فيه إلى أن وصَلَ مائة دينار، فقال المنادي: هل عندكم زيادة يا تجار؟ فقال خليفة الصياد: عليَّ بمائة دينارٍ ودينار. فلما سمع التجار كلام خليفة حسبوه يلعب، فضحكوا عليه وقالوا: يا طواشي، بِعْ إلى خليفة بالمائة دينار ودينار. فقال الطواشي: والله ما أبيعه إلا له، خُذْ يا صياد بارَكَ الله لك فيه وهاتِ الذهب. فأخرَجَ خليفة الذهبَ وسلَّمَه إلى الخادم ووقعت المعاقَدة. ثم إن الخادم تصدَّقَ بالذهب وهو في موضعه، ورجع إلى القصر وأعلَمَ السيدةَ زبيدة بما فعل، ففرحت بذلك.

ثم إن خليفة الصياد حمل الصندوق على كتفه، فلم يقدر على حمله لعِظَم ثِقَله، فحمله على رأسه وأتى به إلى الحارة ووضعه عن رأسه وكان قد تعب، فقعد يتفكَّر فيما جرى له وصار يقول في نفسه: يا ليتَ شعري ما في هذا الصندوق. ثم فتح باب داره وعالَجَ في الصندوق حتى أدخَلَه داره، وبعد ذلك عالَجَ أن يفتحه فلم يقدر، فقال في نفسه: أي شيء حصل في عقلي حتى اشتريتُ هذا الصندوق؟ فلا بد من كسره وأنظر ما فيه. ثم عالَجَ القفل فلم يقدر، فقال في نفسه: أنا أخليه إلى غدٍ. ثم طلب أن ينام، فلم يجد موضعًا ينام فيه؛ لأن الصندوق جاء على قياس البيت، فطلع ونام فوقه، واستمر ساعة وإذا بشيء يتحرَّك، ففزع خليفة وفرَّ عنه النوم وقد طار عقله. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خليفة الصياد لما نام على الصندوق استمرَّ ساعة، وإذا بشيء يتحرَّك، ففزع وطار عقله وقام من النوم وقال: كأنَّ فيه جن، الحمد لله الذي ما جعلني فتحتُه؛ لأني لو كنتُ فتحته لَقاموا عليَّ في الظلام وأهلكوني ولم يحصل لي منهم خير. ثم إنه رجع ونام وإذا بالصندوق يتحرَّك ثاني مرة أكثر من الأول، فنهض خليفة قائمًا وقال: هذه نوبة أخرى لكنها مزعجة. ثم بادَرَ إلى سراج فلم يجده، ولم يكن معه ما يشتري به سراجًا، فخرج من البيت وصاح: يا أهل الحارة. وكان أكثر أهل الحارة نائمين، فانتبهوا على صياحه وقالوا: ما لك يا خليفة؟ فقال: الحقوني بسراج، فإن الجن خرجوا عليَّ. فضحكوا عليه وأعطوه سراجًا، فأخذه ودخل به بيته وضرب قفل الصندوق بحجر فكسره وفتح الصندوق، وإذا هو بجارية كأنه حورية، وهي نائمة في الصندوق وكانت مبنَّجَة، وقد تقيَّأَتِ البنجَ في تلك الساعة فاستفاقت وفتحت عينَيْها وحسَّتْ بالضيق فتحرَّكَتْ، فلما رآها خليفة نهض إليها وقال: بالله يا سيدتي، من أين أنت؟ ففتحت عينها وقالت: هاتِ لي ياسمينًا ونرجسًا. فقال خليفة: ما هنا إلا تمر حناء. فاستفاقت في نفسها ونظرت خليفة فقالت له: أي شيء أنت؟ ثم إنها قالت: وأين أنا؟ قال لها: أنت في بيتي. قالت: أَمَا أنا في قصر الخليفة هارون الرشيد؟ فقال لها: أي شيءٍ الرشيد يا مجنونة؟ ما أنتِ إلا جاريتي، وفي هذا اليوم اشتريتُكِ بمائة دينار ودينار، وجئتُ بكِ إلى بيتي، وكنتِ في هذا الصندوق نائمةً.

فلما سمعت الجارية كلامه قالت له: ما اسمك؟ قال: اسمي خليفة، ما بال نجمي قد سعد وأنا أعرف نجمي غير ذلك! فضحكت وقالت: دعني من هذا الكلام، هل عندك شيء يُؤكَل؟ فقال: والله ولا شيء يُشرَب، وأنا والله لي يومان ما أكلتُ شيئًا، وأنا الآن محتاج

إلى لقمة. فقالت له: أَمَا معك دراهم؟ فقال: الله يحفظ هذا الصندوق الذي أفقَرَني؛ لأني أوردتُ ما كان معي فيه وبقيتُ مُفلِسًا. فضحكت عليه الجارية وقالت: قُمِ اطلب من جيرانك شيئًا آكله فإني جائعة. فقام خليفة وخرج من البيت وصاح: يا أهل الحارة. وقد كانوا راقدين فانتبهوا وقالوا: ما لك يا خليفة؟ فقال: يا جيراني أنا جائع، وما عندي شيء آكله. فنزل له واحد برغيف، وآخَر بكسرة، وآخَر بقطعة جبن، وآخَر بخيارة، فامتلأ حجره ودخل البيت وحطَّ الجميع بين يدَيْها وقال لها: كلي. فضحكت عليه وقالت له: كيف آكل من هذا ولا عندي كوز ماء أشرب منه؟ فأخاف أن أشرق بلقمةٍ فأموت. فقال خليفة: أنا أملأ لك هذه الجرة. ثم أخذ الجرة وخرج في وسط الحارة وصاح: يا أهل الحارة. فقالوا له: ما مصيبتك في هذه الليلة يا خليفة؟ فقال لهم: أنتم أعطيتموني فأكلتُ، ولكن عطشتُ فاسقوني. فنزل له هذا بكوز، وهذا بإبريق، وهذا بقلة، فملأ الجرة ودخل بها البيت وقال لها: يا سيدتي، ما بقي لك حاجة. فقالت: صحيح، ما بقي لي حاجة في هذه الساعة. فقال لها: كلِّميني وحدِّثيني بحديثك. فقالت: ويلك، إن كنتَ لم تعرفني فأنا أعرِّفُكَ بنفسي؛ أنا قوت القلوب جارية الخليفة هارون الرشيد، وقد غارَتْ مني السيدة زبيدة وبنَّجَتْني ووضعتني في هذا الصندوق. ثم قالت: الحمد لله الذي كان هذا الأمر السهل ولم يكن غيره، ولكن ما جرى لي هذا إلا من أجل سعادتك، فلا بد أن تأخذ من الخليفة الرشيد مالًا كثيرًا يكون سببًا في غنائك. فقال لها خليفة: أَمَا هو الرشيد الذي كنتُ في قصره محبوسًا؟ قالت: نعم. قال: والله ما رأيتُ أبخل منه ذلك الزمَّار القليل الخير والعقل، فإنه ضربني أمسِ مائةَ عصًا، وأعطاني دينارًا واحدًا، مع أني علَّمْتُه الصيدَ وشاركْتُه فغدَرَ بي. فقالت له: دَعْ عنك هذا الكلام القبيح، وافتح عينك، وعليك بالأدب إذا رأيْتَه بعد هذا المرة، فإنك تبلغ مرادك. فلما سمع كلامها كان كأنه نائم واستيقظ، وكشف الله عن بصيرته لأجل سعادته. فقال لها: على الرأس والعين. ثم قال لها: باسم الله نامي. فقامت ونامت ونام هو بعيدًا عنها إلى الصباح.

فلما أصبحَتْ طلبَتْ منه دواةً وورقة، فأحضرهما لها، فكتبَتْ إلى التاجر الذي هو صاحب الخليفة تُخبِره بحالها وما جرى لها من أنها عند خليفة الصياد، وقد اشتراها، ثم دفعَتْ له الورقة وقالت له: خُذْ هذه الورقة وامضِ بها إلى سوق الجواهر، واسأل عن دكان ابن القرناص الجوهري وأَعْطِهِ هذه الورقةَ ولا تتكلَّم. فقال لها خليفة: سمعًا وطاعة. ثم إنه أخذ الورقة من يدها ومضى بها إلى سوق الجواهر، وسأل عن دكان ابن القرناص فأرشدوه إليه، فأتاه وسلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلام واحتقره في عينه وقال له: أي حاجة

لك؟ فناوَلَه الورقة، فأخذها ولم يقرأها لظنِّه أنه صعلوك يطلب منه صدقةً. فقال لبعض غلمانه: أعطه نصف درهم. فقال له خليفة: لا حاجةَ لي بالصدقة، ولكن اقرأ الورقة. فأخذ الورقة وقرأها، ففهم ما فيها، فلما عرف ما فيها قبَّلَها ووضعها على رأسه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن ابن القرناص لما قرأ الورقة وفهم ما فيها قبَّلَها ووضعها على رأسه ونهض قائمًا وقال له: يا أخي، أين بيتك؟ فقال له خليفة: وما تريد ببيتي؟ فهل مرادك أن تروح إليه وتسرق جاريتي؟ فقال له: لا، بل أشتري لك شيئًا تأكله أنت وإياها. فقال له: بيتي في الحارة الفلانية. فقال له: أحسنت، لا أعطاك الله عافيةً يا مندبور. ثم صاح على عبدَيْن من عبيده وقال لهما: امضيا مع هذا الرجل إلى دكان محسن الصيرفي وقولَا له: يا محسن، أعطِ هذا ألف دينار من الذهب وارجعَا به إليَّ بسرعة. فمضى العبدان مع خليفة إلى دكان الصيرفي وقالَا له: يا محسن، أعطِ هذا الرجل ألفَ دينار من الذهب. فأعطاه إياها، فأخذها خليفة ورجع مع العبدين إلى دكان سيدهما، فوجدوه راكبًا زرزورية تساوي ألف دينار والمماليك والغلمان حوله، وفي جنب بغلته بغلة مثلها مسرَّجة ملجمة، فقال لخليفة: باسم الله اركبْ هذه البغلة. فقال خليفة: أنا لا أركب، والله إني أخاف أن ترميني. فقال له التاجر ابن القرناص: والله لا بد من ركوبك. فتقدَّمَ خليفة ليركبها، فركبها مقلوبًا ومسك ذنبها وصرخ، فرمته على الأرض فضحكوا عليه، ثم قام وقال: أَمَا قلتُ لك ما أركب هذا الحمار الكبير؟ ثم إن ابن القرناص ترك خليفة في السوق وراح إلى أمير المؤمنين وأعلمه بالجارية، ثم رجع ونقلها إلى بيته، ثم إن خليفة ذهب إلى البيت لينظر الجارية، فرأى أهل الحارة مجتمعين وهم يقولون: إن خليفة اليومَ مرهوبٌ بالكلية، يا تُرَى هذه الجارية من أين له؟ فقال واحد منهم: هذا قوَّاد مجنون، لعله وجدها في الطريق سكرانة فحملها وأتى بها إلى بيته، وما غاب إلا لأنه عرف ذنبه.

فبينما هم في الكلام، وإذا بخليفة أقبَلَ عليهم فقالوا له: أي شيء حالك يا مسكين؟ أَمَا تعرف أي شيء جرى لك؟ فقال: لا والله. فقالوا: في هذه الساعة جاء مماليك وأخذوا جاريتك وطلبوك فما وجدوك. فقال خليفة: كيف أخذوا جاريتي؟ فقال واحد: لو كان

وقع كانوا قتلوه. فلم يتلفت خليفة إليهم، بل رجع يجري إلى دكان ابن القرناص، فرآه راكبًا فقال له: والله ما يصحُّ منكَ، فإنك شاغَلْتَني وأرسلتَ مماليكك فأخذوا جاريتي. فقال: يا مجنون، تعالَ وأنت ساكت. ثم أخذه وأتى به إلى دار مليحة البناء، فدخل به هناك، فنظر الجارية قاعدة فيها على سريرٍ من ذهب، وحولها عشر جوارٍ كأنهن الأقمار، فلما رآها ابن القرناص قبَّلَ الأرض بين يدَيْها، فقالت له: ما فعلتَ بسيدي الجديد الذي اشتراني بجميع ما يملك؟ فقال لها: يا سيدتي، أعطيتُه ألف دينار من الذهب. وحكى لها خبر خليفة من أوله إلى آخره، فضحكت وقالت: لا تؤاخذه فإنه رجلٌ عاميٌّ. ثم قالت: وهذه ألف دينار أخرى هبة مني إليه، وإن شاء الله تعالى يأخذ من الخليفة ما يُغنِيه.

فبينما هم في الحديث، وإذا بخادمٍ من عند الخليفة قد أقبَلَ يطلب قوتَ القلوب؛ لأنه علم أنها في بيت أبي القرناص، وحين علم ذلك لم يصبر عنها فأمر بإحضارها، فلما توجَّهَتْ إليه أخذَتْ خليفة معها وذهبت حتى أقبلت على الخليفة، فلما وصلَتْ إليه قبَّلَتِ الأرضَ بين يدَيْه، فقام إليها وسلَّمَ عليها ورحَّبَ بها وسألها كيف كان حالها مع مَن اشتراها. فقالت له: إنه رجل يُسمَّى خليفة الصياد وها هو واقف بالباب، وقد ذكر لي أن له مع مولانا أمير المؤمنين مُحاسَبة من أجل الشركة التي كانت بينه وبينه في الصيد. فقال: هل هو واقف؟ قالت: نعم. فأمر بإحضاره، فحضر وقبَّلَ الأرض بين يدَيِ الخليفة ودعَا له بدوام العز والنِّعَم، فتعجَّبَ الخليفة منه وضحك عليه وقال له: يا صياد، هل كنت أمسِ شريكي حقيقةً؟ ففهم خليفة كلامَ أمير المؤمنين فقوَّى قلبه وثبَّتَ جنانه وقال له: وحقِّ مَن أنعَمَ عليك بخلافة ابن عمك، ما أعلمها على أي حالة، وما كان مني غير النظر والحديث. ثم أعاد عليه جميع ما جرى له من الأول إلى الآخِر، وصار الخليفة يضحك عليه. ثم إنه حدَّثَه بحديث الخادم وما جرى له معه، وكيف أعطاه المائة دينار على الدينار الذي أخذه من الخليفة، وحدَّثَه أيضًا بدخوله السوق واشترائه الصندوق بالمائة دينار وهو لا يعلم ما فيه، وحكى له جميع الحكاية من المبتدأ إلى المنتهى؛ فضحك عليه الخليفة وانشرح صدره وقال له: نحن على ما تريد يا موصل الحق إلى أهله. ثم سكَتَ، وبعد ذلك أمَرَ له الخليفة بخمسين ألف دينار ذهبًا، وخلعة سنية من ملابس الخلفاء الكبار وبغلة، وأهدى إليه عبيدًا من السودان يخدمونه، وصار كأنه بعض الملوك الموجودة في ذلك الزمان، وقد فرح الخليفة بقدوم جاريته، وعلم أن هذا كله من فعال السيدة زبيدة بنت عمه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الخليفة فرح برجوع قوت القلوب، وعرف أن هذا كله من فعال السيدة زبيدة بنت عمه، فزاد غضبه عليها وهجَرَها مدةً من الزمان، وصار لا يدخل عليها ولا يميل إليها؛ فلما تحقَّقَتْ ذلك، حصل لها من غيظه همٌّ عظيم، واصفرَّ لونُها بعد الاحمرار، فلما أعياها الصبر أرسلَتْ إلى ابن عمها أمير المؤمنين تعتذِرُ إليه وتقرُّ بذنبها، وقد أنشدت هذه الأبيات:

أَمِيلُ إِلَى مَا كَانَ مِنْكُمْ مِنَ الرِّضَا   لِأُطْفِئَ مِنِّي حَسْرَةً وَتَأَسُّفَا
أَيَا سَادَتِي رِقُّوا لِفَرْطِ صَبَابَتِي   فَهَذَا الَّذِي لَاقَيْتُهُ مِنْكُمُ كَفَا
لَقَدْ عِيلَ صَبْرِي بَعْدَكُمْ يَا أَحِبَّتِي   وَكَدَّرْتُمُ الْعَيْشَ الَّذِي كَانَ قَدْ صَفَا
حَيَاتِي إِذَا أَوْفَيْتُمُ بِعُهُودِكُمْ   وَمَوْتِي إِذَا لَمْ تَسْمَحُوا لِي بِالْوَفَا
هَبُوا أَنَّنِي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَسَامِحُوا   فَوَاللهِ مَا أَحْلَى الْحَبِيبَ إِذَا عَفَا

فلما وصلَتْ مراسلة السيدة زبيدة إلى أمير المؤمنين وقرأها، عرف أنها اعترفَتْ بذنبها وأرسلَتْ تعتذر إليه مما فعلت، فقال في نفسه: إن الله يغفر الذنوب جميعًا، إنه هو الغفور الرحيم. وأرسل إليها ردَّ الجواب عن مراسلتها مشتمِلًا على الرضا والسماح والعفو عمَّا مضى، فحصل لها الفرح العظيم. ثم إن الخليفة رتَّبَ لخليفةَ في كل شهرٍ خمسين دينارًا جائزة له، وصار له عند الخليفة منزلةٌ عظيمة ومقامٌ عالٍ وحرمةٌ واحتشام. ثم إن خليفة قبَّلَ الأرضَ بين يدَيْ أمير المؤمنين عند خروجه وخرج يمشي ويتبختر، فلما وصل إلى الباب نظر إليه الخادم الذي أعطاه المائة دينار، فعرفه وقال له: يا صياد، من أين لك هذا كله؟ فحدَّثَه بما جرى له من أوله إلى آخره؛ ففرح الخادم بذلك حيث كان هو السبب

في غنائه، وقال له: أَمَا تعطيني إنعامًا من هذا المال الذي صار لك؟ فمَدَّ خليفة يده إلى جيبه، فطلع منه كيسًا فيه ألف دينار من الذهب وناوَلَه للخادم، فقال له الخادم: خُذْ مالَكَ بارَكَ الله لك فيه. وتعجَّبَ من مروءته وسماحة نفسه على فقره. ثم إن خليفة خرج من عند الخادم وهو راكب على البغلة، والخدَّام ماسكة كفلها وهو سائر إلى أن أتى إلى الخان والناس يتفرجون عليه ويتعجبون لما حصل له من العز، فتقدَّمَ إليه الناس بعدما نزل من فوق البغلة وسألوه عن سبب تلك السعادة، فأخبرهم بما جرى له من الأول إلى الآخر. ثم إنه اشترى دارًا مليحةَ الأركان، وأنفقَ عليها جملة من المال حتى صارت كاملةَ المعاني، وسكن في تلك الدار وصار ينشد هذين البيتين:

انْظُرْ لِدَارٍ شِبْهِ دَارِ النَّعِيمِ ... الْهَمُّ تَنْفِيهِ وَتَشْفِي السَّقِيمْ
قَدْ جَعَلَتْ بُنْيَانَهَا لِلْعُلَا ... وَالْخَيْرُ فِيهَا كُلَّ وَقْتٍ مُقِيمْ

ثم إنه لما استقرَّ في داره خطب له بنتًا من بنات أعيان أهل المدينة، من البنات الحِسَان، ودخل بها وحصل له غاية الأنس والحظ الزائد والانبساط، وصار في نعمة زائدة وسعادة كاملة، فلما رأى نفسه في ذلك النعيم، شكر الله سبحانه وتعالى على ما أعطاه من النعمة الوافرة والمكارم المتواترة، وصار لربه حامدًا حمدَ الشاكرين مترنِّمًا بقول الشاعر:

لَكَ الْحَمْدُ يَا مَنْ فَضْلُهُ مُتَوَاتِرُ ... وَيَا مَنْ لَهُ جُودٌ عَمِيمٌ وَغَامِرُ
لَكَ الْحَمْدُ مِنِّي فَاقْبَلِ الْحَمْدَ إِنَّنِي ... لِجُودِكَ وَالْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ ذَاكِرُ
لَقَدْ جُدْتَ إِنْعَامًا عَلَيَّ وَمِنَّةً ... وَفَضْلًا وَإِحْسَانًا فَهَا أَنَا شَاكِرُ
وَكُلُّ الْوَرَى مِنْ بَحْرِ جُودِكَ نَاهِلٌ ... وَأَنْتَ لَهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ نَاصِرُ
وَخَوَّلْتَنَا يَا رَبُّ آثَارَ نِعْمَةٍ ... وَأَسْبَغْتَهَا يَا مَنْ لِذَنْبِيَ غَافِرُ
بِجَاهِ الَّذِي قَدْ جَاءَ لِلنَّاسِ رَحْمَةً ... نَبِيٌّ كَرِيمٌ صَادِقُ الْقَوْلِ طَاهِرُ
عَلَيْهِ صَلَاةُ اللهِ ثُمَّ سَلَامُهُ ... وَأَنْصَارُهُ وَالْآلُ مَا زَارَ زَائِرُ
وَأَصْحَابُهُ الْغُرُّ الْكِرَامُ أُولِي النُّهَى ... مَدَى الدَّهْرِ مَا غَنَّى عَلَى الْأَيْكِ طَائِرُ

ثم إن خليفة صار يتردَّد على الخليفة هارون الرشيد مع القبول عنده، وصار الرشيد يشمله بإحسانه وجوده، ولم يَزَلْ خليفة في أتمِّ نعمةٍ وسرورٍ وعزٍّ وحبور، وفي نعمة زائدة ورفعة متصاعدة، وعيشة طيبة هنية ولذة صافية مرضيةٍ، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات، فسبحان مَن له العزُّ والبقاء، وهو حي دائم لا يموت أبدًا.

مسرور وزين المواصف

ومما يُحكَى أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجل تاجر اسمه مسرور، وكان ذلك الرجل من أحسن أهل زمانه، كثير المال مرفَّه الحال، ولكنه كان يحِبُّ النزهةَ في الرياض والبساتين، ويلتهي بهوى النساء المِلَاح، فاتفق أنه كان نائمًا في ليلة من الليالي فرأى في نومه أنه في روضةٍ من أحسن الرياض، وفيها أربعة طيور ومن جملتهما حمامة بيضاء مثل الفضة المجلية، فعجبَتْه تلك الحمامة وصار في قلبه منها وَجْدٌ عظيم، وبعد ذلك رأى أنه نزل عليه طائر عظيم خطف تلك الحمامة من يده؛ فعَظُمَ ذلك عليه، ثم بعد ذلك انتبه من نومه فلم يجد الحمامةَ، فصار يعالج أشواقَه إلى الصباح، فقال في نفسه: لا بد أن أروح اليومَ إلى مَن يفسِّر لي هذا المنام. وأدرك شهرزاد الصباح فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مسرور التاجر لما انتبَهَ من نومه، صار يعالج أشواقه إلى الصباح، فلما أصبح الصباح قال: لا بد أن أروح اليومَ إلى مَن يفسِّر لي هذا المنام. فقام وصار يمشي يمينًا وشمالًا إلى أنْ بَعُدَ عن منزله، فلم يجد مَن يفسِّر له هذا المنام، ثم بعد ذلك طلب الرجوع إلى منزله، فبينما هو في الطريق إذ خطَرَ بباله أنه يميل إلى دارٍ من دُورِ التجار، وكانت تلك الدار لبعض الأغنياء، فلما وصل إليها وإذا به يسمع بها صوتَ أنينٍ من كَبِدٍ حزين، وهو ينشد هذه الأبيات:

نَسِيمُ الصَّبَا هَبَّتْ لَنَا مِنْ رُسُومِهَا　　مُعَطَّرَةً يَشْفِي الْعَلِيلَ شَمِيمُهَا
وَقَفْتُ بِأَطْلَالٍ دَوَارِسَ سَائِلًا　　وَلَيْسَ يُجِيبُ الدَّمْعَ إِلَّا رَمِيمُهَا
فَقُلْتُ نَسِيمَ الرِّيحِ بِاللهِ خَبِّرِي　　هَلِ الدَّارُ هَذِي قَدْ يَعُودُ نَعِيمُهَا
وَأَحْظَى بِظَبْيٍ مَالَ بِي لِينُ قَدِّهِ　　وَأَجْفَانُهُ الْوَسْنَى ضَنَانِي سَقِيمُهَا

فلما سمع مسرور ذلك الصوت نظَرَ في داخل البيت، فرأى روضةً من أحسن الرياض، في باطنها سِتْرٌ من ديباج أحمر مكلَّل بالدر والجوهر، وعليه من وراء السِّتْر أربعُ جوارٍ بينهن صبية دون الخماسية وفوق الرباعية، كأنها البدر المنير والقمر المستدير، بعينين كحيلتين، وحاجبين مقرونين، وفَمٍ كأنه خاتم سليمان، وشفتين وأسنانٍ كالدر والمرجان، وهي تسلب العقولَ بحُسْنها وجمالها وقَدِّها واعتدالها، فلما رآها مسرور دخل الدار وبالَغَ في الدخول حتى وصل إلى الستر، فرفعَتْ رأسها إليه ونظرته، فعند ذلك سلَّمَ عليها فردَّتْ عليه السلام بعذوبة الكلام، فلما نظرها وتأمَّلَها طاشَ عقله وذهب قلبه، ونظر إلى

الروضة وكانت من الياسمين والمنثور والبنفسج والورد والنارنج، وجميع ما يكون فيها من المشموم، وقد توشَّحَتْ جميعُ الأشجار بالأثمار، والماءُ منحدرٌ من أربعة لواوين يقابل بعضها بعضًا، فتأمَّلَ في الليوان الأول فرأى مكتوبًا على دائره بالزنجفر الأحمر هذان البيتان:

أَلَا يَا دَارُ لَمْ يَدْخُلْكِ حُزْنٌ   وَلَمْ يَغْدُرْ بِصَاحِبِكِ الزَّمَانُ
فَنِعْمَ الدَّارُ تَأْوِي كُلَّ ضَيْفٍ   إِذَا مَا الضَّيْفُ ضَاقَ بِهِ الْمَكَانُ

ثم تأمَّلَ في الليوان الثاني، فرأى مكتوبًا في دائره بالذهب الأحمر هذه الأبيات:

لَاحَتْ عَلَيْكِ ثِيَابُ السَّعْدِ يَا دَارُ   مَا غَرَّدَتْ فِي غُصُونِ الرَّوْضِ أَطْيَارُ
وَدَامَ فِيكِ عُبَيْرَاتٌ مُعَطَّرَةٌ   وَتَنْقَضِي بِكِ لِلْأَحْبَابِ أَوْطَارُ
وَعَاشَ أَهْلُكِ فِي عِزٍّ وَفِي نِعَمٍ   مَا لَاحَ نَجْمٌ عَلَى الْعَلْيَاءِ سَيَّارُ

ثم تأمَّلَ في الليوان الثالث، فرأى مكتوبًا في دائره باللازورد الأزرق هذان البيتان:

بَقِيتِ فِي الْعِزِّ وَالْإِقْبَالِ يَا دَارُ   مَا جَنَّ لَيْلٌ وَمَا قَدْ لَاحَ أَنْوَارُ
فِي بَابِكِ السَّعْدُ يَأْوِي كُلَّ مَنْ دَخَلُوا   وَالْخَيْرُ مِنْكِ لِمَنْ وَافَاكِ مِدْرَارُ

ثم تأمَّلَ الليوان الرابع، فرأى مكتوبًا في دائره بالمدار الأصفر هذا البيت:

هَذِهِ رَوْضَةٌ وَهَذَا غَدِيرُ   مَجْلِسٌ طَيِّبٌ وَرَبٌّ غَفُورُ

وفي تلك الروضة طيورٌ من قرى وحمام وبلبل ويمام، وكل طير يغرِّد بصوته، والصبِيَّة تتمايل في حُسْنها وجمالها وقَدِّها واعتدالها يفتتن بها كلُّ مَن رآها، ثم قالت: أيها الرجل، ما الذي أَقْدَمَكَ على دارٍ غير داركَ، وعلى جَوَارٍ غير جواريكَ من غير إجازة أصحابها؟ فقال لها: يا سيدتي، رأيتُ هذه الروضةَ فأعجبني حُسْن اخضرارِها وفيح أزهارها وترنُّم أطيارها، فدخلتها لأتفرج فيها ساعة من الزمان وأروح إلى حال سبيلي. فقالت له: حبًّا وكرامة. فلما سمع مسرور التاجر كلامَها، ونظر إلى طَرْفها ورشاقة قَدِّها،

تحيَّرَ من حُسْنها وجمالها، ومن لطافة الروضة والطير؛ فطار عقله من ذلك وصار متحيِّرًا في أمره، وأنشد هذه الأبيات:

قَمَرٌ تَبَدَّى فِي بَدِيعِ مَحَاسِنٍ	بَيْنَ الرُّبَا وَالرُّوحِ وَالرَّيْحَانِ
وَالْآسِ وَالنِّسْرِينِ ثُمَّ بَنَفْسَجٍ	فَاحَتْ رَوَائِحُهُ مِنَ الْأَغْصَانِ
يَا رَوْضَةً كَمُلَتْ بِحُسْنِ صِفَاتِهَا	وَحَوَتْ جَمِيعَ الزَّهْرِ وَالْأَفْنَانِ
فَالْبَدْرُ يَجْلُو تَحْتَ ظِلِّ غُصُونِهَا	وَالطَّيْرُ تَنْشُدُ أَطْيَبَ الْأَلْحَانِ
قُمْرِيُّهَا وَهَزَارُهَا وَيَمَامُهَا	وَكَذَا الْبَلَابِلُ هَيَّجَتْ أَشْجَانِي
وَقَفَ الْغَرَامُ بِمُهْجَتِي مُتَحَيِّرًا	فِي حُسْنِهَا كَتَحَيُّرِ السَّكْرَانِ

فلما سمعت زين المواصف شعر مسرور، نظرَتْ له نظرةً أعقبَتْه ألفَ حسرة، وسلبَتْ بها عقلَه ولبَّه، وأجابته على شعره بهذه الأبيات:

لَا تَرْتَجِي وَصْلَ الَّتِي عُلِّقْتَهَا	وَاقْطَعْ مَطَامِعَكَ الَّتِي أَمَّلْتَهَا
وَذَرِ الَّذِي تَرْجُوهُ إِنَّكَ لَمْ تُطِقْ	صَدَّ الَّتِي فِي الْغَانِيَاتِ عَشِقْتَهَا
تَجْنِي عَلَى الْعُشَّاقِ أَلْحَاظِي وَلَمْ	يَعْظُمْ عَلَيَّ مَقَالَةٌ قَدْ قُلْتُهَا

فلما سمع مسرور كلامها تجلَّدَ وصبر، وكتم أمرها في سره وتنكَّر، وقال في نفسه: ما للبَلِيَّة إلا الصبر. ثم داموا على ذلك إلى أن هجم الليل، فأمرَتْ بحضور المائدة فحضرت بين أيديهما وفيها من سائر الألوان، من السمان وأفراخ الحمام ولحوم الضأن، فأكَلَا حتى اكتفَيَا، ثم أمرت برفع الموائد فرُفِعت، وحضرت آلات الغسل فغسَلَا أيديهما، ثم أمرَتْ بوضع الشمعدانات فوُضِعت وجُعِل فيها شمعُ الكافور، ثم بعد ذلك قالت زين المواصف: والله إن صدري ضيِّق في هذه الليلة لأني محمومة. فقال لها مسرور: شرح الله صدرك، وكشف غمَّك. فقالت: يا مسرور، أنا معوَّدة بلعب الشطرنج، فهل تعرف فيه شيئًا؟ قال: نعم، أنا عارف به. فقدَّمَتْه بين أيديهما، وإذا هو من الأبنوس مقطَّع بالعاج، له رقعة مرموقة بالذهب الوهَّاج، وحجارته من درٍّ وياقوت. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أنها لَمَّا أمرَتْ بإحضار الشطرنج أحضروه بين أيديهما، فلما رآه مسرور حارَ فكْرُه، فالتفتَتْ إليه زين المواصف وقالت له: هل أنت تريد الحُمْر أم البيض؟ فقال: يا سيدة الملاح وزين الصباح، خذِي أنتِ الحُمْر لأنها ملاح ولمثلك أملح، ودَعِي لي الحجارة البيض. فقالت: رضيتُ بذلك. فأخذت الحمر وصَفَّتْها مقابلة البيض، ومدَّتْ يديها إلى القطع تنقل في أول الميدان، فنظر إلى أناملها فرآها كأنها من عجين، فاندهش مسرور من حسن أناملها ولطف شمائلها، فالتفتَتْ إليه وقالت له: يا مسرور، لا تندهش واصبر واثبت. فقال لها: يا ذات الحُسْن الذي فضح الأقمار، إذا نظرَكِ المحِبُّ كيف يكون له اصطبار؟ فبينما هو كذلك وإذا هي تقول له: الشاه مات. فغلبَتْه عند ذلك وعلمت زين المواصف أنه بحبِّها مجنون، فقالت له: يا مسرور، لا ألعب معك إلا برَهْنٍ معلومٍ وقدر مفهوم. فقال لها: سمعًا وطاعة. فقالت له: احلفْ لي وأحلفُ لك أن كلًّا منَّا لا يغدر صاحبه. فتحالَفَا معًا على ذلك، فقالت له: يا مسرور، إنْ غلبتُكَ أخذتُ منك عشرة دنانير، وإنْ غلبتَني لم أُعطِكَ شيئًا. فظَنَّ أنه يغلبها فقال لها: يا سيدتي، لا تحنثي في يمينك، فإني أراكِ أقوى مني في اللعب. فقالت له: رضيتُ بذلك. وصارَا يلعبان ويتسابقان بالبيادق وألحقتهم بالأفراس وصفَّتْهم وقرنتهم بالرِّخَاخ، وسمحت النفس بتقديم الأفراس، وكان على رأس زين المواصف وِشاح من الديباج الأزرق، فوضعَتْه عن رأسها وشمَّرَتْ عن مِعْصَم كأنه عامود من نورٍ، ومرَّتْ بكفها على القِطَع الحُمْر، وقالت له: خُذْ حذرَكَ. فاندهش مسرور وطار عقله وذهب لبُّه، ونظر إلى رشاقتها ورِقَّة معانيها، فاحتار وأخذه الانبهار، فمدَّ يده إلى البيض فراحت إلى الحُمْر، فقالت: يا مسرور، أين عقلك؟ الحُمْر لي والبيض لك. فقال لها: إنَّ مَن ينظر إليكِ ليس يملك عقله. فلما نظرَتْ زين المواصف إلى حاله أخذَتْ منه البيض وأعطَتْه الحُمْر، فلعب بها فغلبته.

ولم يزل يلعب معها وهي تغلبه ويدفع لها في كل مرة عشرةَ دنانير، فلما عرفَتْ زين المواصف أنه مشغول بهواها، قالت: يا مسرور، ما بقيت تنال مرادك إلا إذا كنتَ تغلبني كما هو شرطك، ولا بقيت ألعب معك في كل مرة إلا بمائة دينار. فقال لها: حبًّا وكرامة. فصارت تلاعبه وتغلبه وتكرِّر ذلك، وهو في كل مرة يدفع لها المائة دينار، ودامَا على ذلك إلى الصباح، وهو لم يغلبها قطُّ، فنهض قائمًا على أقدامه، فقالت له: ما الذي تريد يا مسرور؟ قال: أمضي إلى منزلي وآتي بمالٍ لَعَلِّي أبلغ آمالي. فقالت له: افعلْ ما تريد ممَّا بَدَا لك. فمضى إلى منزله وأتاها بالمال جميعه، فلما وصَلَ إليها أنشد هذين البيتين:

رَأَيْتُ طَيْرًا قَدْ تَرَبَّى فِي الْمَنَامْ فِي رَوْضِ أُنْسٍ زَهْرُهُ ذُو ابْتِسَامْ
لَـكِـنَّـهُ لَـمَّـا بَـدَا لِـي صِـدْتُـهُ مِنْكَ الْوَفَا تَأْوِيلُ هَذَا الْمَنَامْ

فلما حضر عندها مسرور بجميع ماله، صار يلعب معها وهي تغلبه، ولم يقدر أن يغلبها بِدَورٍ واحدٍ، ولم يزالَا كذلك ثلاثة أيام حتى أخذت منه جميع ماله؛ فلما نفد ماله قالت له: يا مسرور، ما الذي تريد؟ قال: ألاعبكِ على دكان العطارة. قالت له: كم تساوي تلك الدكان؟ قال: خمسمائة دينار. فلعب بها خمسة أشواط فغلبَتْه، ثم لعب معها على الجواري والعقارات والبساتين والعمارات، فأخذت منه ذلك كله وجميع ما يملكه، وبعد ذلك التفتَتْ إليه وقالت له: هل بقي معك شيء من المال تلعب به؟ فقال لها: وحقِّ مَن أوقَعَني معك في شَرَك المحبة، ما بقيَتْ يدي تملك شيئًا من المال وغيره، لا قليلًا ولا كثيرًا. فقالت له: يا مسرور، كل شيء يكون أوله رضًا لا يكون آخِره ندامة، فإنْ كنتَ ندمتَ فخُذْ مالَكَ واذهبْ عنَّا إلى حال سبيلك، وأنا أجعلك في حِلٍّ من قِبَلي. فقال مسرور: وحقِّ مَن قضى علينا بهذه الأمور، لو أردتِ أخذَ روحي لَكانت قليلةً في رضاكِ، فما أعشق أحدًا سواكِ. فقالت له: يا مسرور، حينئذٍ اذهبْ وأحضِرِ القاضي والشهود، واكتبْ لي جميعَ الأملاك والعقارات. فقال: حبًّا وكرامة. ثم نهض قائمًا في الوقت والساعة، وأتى بالقاضي والشهود وأحضَرَهم عندها، فلما رآها القاضي طار عقله وذهَبَ لبُّه وتبلبل خاطره من حُسْن أناملها، وقال لها: يا سيدتي، لا أكتب الحجةَ إلا بشرط أن تشتري العقارات والجواري والأملاك وتصير كلها تحت تصرُّفكِ وفي حيازتك. فقالت: قد اتفقنا على ذلك، فاكتبْ لي حجةً بأن ملك مسرور وجواريه وما تملكه يده يُنقَل إلى ملك زين المواصف بثمنٍ جملته كذا وكذا. فكتب القاضي ووضع الشهود خطوطَهم على ذلك، وأخذت الحجةَ زينُ المواصف. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زين المواصف لما أخذَتِ الحجةَ من القاضي مشتملةً على أن جميع ما كان مِلْكًا لمسرور صار مِلْكًا لها، قالت له: يا مسرور، اذهبْ إلى حال سبيلك. فالتفتَتْ إليه جاريتُها هبوب وقالت له: أنشِدْنا شيئًا من الأشعار. فأنشَدَ في شأن لعب الشطرنج هذه الأبيات:

أَشْكُو الزَّمَانَ وَمَا قَدْ حَلَّ بِي وَجَرَى ... وَأَشْتَكِي الْخَسْرَ وَالشَّطَرَنْجَ وَالنَّظَرَا

فِـي حُـبِّ جَـارِيَـةٍ غَـيْدَاءَ نَـاعِـمَـةٍ ... مَا مِثْلُهَا فِي الْوَرَى أُنْثَى وَلَا ذَكَرَا

فَفَوَقَّتْ لِي سِهَامًا مِنْ لَوَاحِظِهَا ... وَقَدَّمَتْ لِي جُيُوشًا تَغْلِبُ الْبَشَرَا

حُمْرًا وَبِيضًا وَفُرْسَانًا مُصَادِمَةً ... فَبَارَزَتْنِي وَقَالَتْ لِي خُذِ الْحَذَرَا

وَأَهْمَلَتْنِي إِذَا مَرَّتْ أَنَامِلُهَا ... فِي جُنْحِ لَيْلٍ بَهِيمٍ يُشْبِهُ الشَّعَرَا

لَمْ أَسْتَطِعْ لِخَلَاصِ الْبِيضِ أَنْقُلُهَا ... وَالْوَجْدُ صَيَّرَ مِنِّي الدَّمْعَ مُنْهَمِرَا

بَـيَـاذِقٌ وَرُخُـوخٌ مَـعْ فَـرَازِنَـةٍ ... كَرَّتْ فَأَدْبَرَ جَيْشُ الْبِيضِ مُنْكَسِرَا

لَقَدْ رَمَتْنِي بِسَهْمٍ مِنْ لَوَاحِظِهَا ... فَصَارَ قَلْبِي بِذَاكَ السَّهْمِ مُنْفَطِرَا

وَخَيَّرَتْنِيَ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ مَعًا ... فَاخْتَرْتُ تِلْكَ الْجُيُوشَ الْبِيضَ مُقْتَمِرَا

وَقُلْتُ هَذِي جُيُوشُ الْبِيضُ تَصْلُحُ لِي ... قَالَتْ تَصَبَّرْ بِفِكْرِي أَنْقُلُ الْحَجَرَا

وَلَاعَبَتْنِي عَلَى رَهْنٍ رَضِيتُ بِهِ ... وَلَمْ أَكُنْ عَنْ رِضَاهَا أَبْلُغُ الْوَطَرَا

يَا لَهْفَ قَلْبِي وَيَا شَوْقِي وَيَا حَزَنِي ... عَلَى وِصَالِ فَتَاةٍ تُشْبِهُ الْقَمَرَا

مَا الْقَلْبُ فِي حُرَقٍ كَلَّا وَلَا أَسَفٍ ... عَلَى عُقَارِي وَلَكِنْ يَأْلَفُ النَّظَرَا

وَصِرْتُ حَيْرَانَ مَبْهُوتًا عَلَى وَجَلٍ ... أُعَاتِبُ الدَّهْرَ فِيمَا تَمَّ لِي وَجَرَى

قَالَتْ فَمَا لَكَ مَبْهُوتًا فَقُلْتُ لَهَا　　هَلْ شَارِبُ الْخَمْرِ قَدْ يَصْحُو إِذَا سَكِرَا
إِنْسِيَّةٌ سَلَبَتْ عَقْلِي بِقَامَتِهَا　　إِنْ لَانَ مِنْهَا فُؤَادٌ يُشْبِهُ الْحَجَرَا
أَطْمَعْتُ نَفْسِي وَقُلْتُ الْيَوْمَ أَمْلُكُهَا　　عَلَى الرِّهَانِ وَلَا خَوْفًا وَلَا حَذَرَا
لَا زَالَ يَطْمَعُ قَلْبِي فِي تَوَاصُلِهَا　　حَتَّى بَقِيتُ عَلَى الْحَالَيْنِ مُفْتَقِرَا
هَلْ يَرْجِعُ الصَّبُّ عَنْ عِشْقٍ أَضَرَّ بِهِ　　وَلَوْ غَدَا فِي بِحَارِ الْوَجْدِ مُنْحَدِرَا
فَأَصْبَحَ الْعَبْدُ لَا مَالٌ يُقَلِّبُهُ　　أَسِيرَ شَوْقٍ وَوَجْدٍ مَا قَضَى وَطَرَا

فلما سمعَتْ زين المواصف هذه الأبيات تعجَّبَتْ من فصاحة لسانه، وقالت له: يا مسرور، دَعْ عنك هذا الجنون، وارجعْ إلى عقلك وامضِ إلى حال سبيلك، فقد أفنيتَ مالَكَ وعقارَك في لعب الشطرنج ولم تحصل غرضك، وليس لك جهة من الجهات توصِّلك إليه. فالتفَتَ مسرور إلى زين المواصف وقال لها: يا سيدتي، اطلبي أيَّ شيءٍ ولكِ كلُّ ما تطلبينه، فإني أجيء به إليك وأحضره بين يدَيْكِ. فقالت: يا مسرور، ما بقي معك شيء من المال! فقال لها: يا منتهى الآمال، إذا لم يكن عندي شيء من المال تساعدني الرجال. فقالت له: هل الذي يعطي يصير مستعطيًا؟ فقال لها: إنَّ لي قرائب وأصحابًا، ومهما طلبته يعطوني إياه. فقالَتْ له: أريد منك أربعَ نوافح من المسك الأدفر، وأربعةَ أوانٍ من الغالية، وأربعة أرطال من العنبر، وأربعة آلاف دينار، وأربعمائة حلة من الديباج الملوكي المزركش، فإنْ كنتَ يا مسرور تأتي بذلك الأمر، أبحث لك الوصال. فقال لها: هذا عليَّ هيِّن يا مخجلة الأقمار. ثم إن مسرورًا خرج من عندها ليأتيها بذلك الذي طلبَتْه منه، فأرسلت خلفه هبوبَ الجارية حتى تنظر قدره عند الناس الذين ذكرهم لها، فبينما هو يمشي في شوارع المدينة إذ لاحت منه التفاتة، فرأى هبوبَ على بُعْدٍ، فوقف إلى أنْ لحقَتْه، فقال لها: يا هبوب، إلى أين ذاهبة؟ فقالت له: إن سيدتي أرسلَتْني خلفك من أجل كذا وكذا. وأخبرته بما قالته لها زين المواصف من أوله إلى آخِره. فقال: والله يا هبوب إن يدي لا تملك شيئًا من المال. قالت له: فلأي شيء وعدْتَها؟ فقال: كَمْ من وعدٍ لا يَفِي به صاحبُه، والمَطْل في الحب لا بدَّ منه. فلما سمعت هبوب ذلك منه قالت له: يا مسرور، طِبْ نفسًا وقرَّ عينًا، والله لأكونن سببًا في اتصالك بها.

ثم إنها تركته ومشت، وما زالت ماشيةً إلى أن وصلَتْ إلى سيدتها، فبكَتْ بكاءً شديدًا وقالت لها: يا سيدتي، والله إنه رجل كبير المقدار محترم عند الناس. فقالت لها سيدتها: لا حيلةَ في قضاء الله تعالى، إن هذا الرجل ما وجد عندنا قلبًا رحيمًا لأننا أخذنا ماله، ولم يجد عندنا مودة ولا شفقة في الوصال، وإنْ ملتُ إلى مراده أخاف أن يشيع الأمر. فقالت لها

هبوب: يا سيدتي، ما سهل علينا حاله وأخذ ماله، ولكن ما عندك إلا أنا وجاريتك سكوب، فمَن يقدر أن يتكلَّم منَّا فيكِ ونحن جواريك؟ فعند ذلك أطرقَتْ برأسها إلى الأرض، فقال لها الجواري: يا سيدتي، الرأي عندنا أن ترسلي خلفه وتُنعِمي عليه، ولا تدعيه يسأل أحدًا من اللئام، فما أمَرَّ السؤال! فقبلت كلامَ الجواري، ودعَتْ بدواةٍ وقرطاسٍ، وكتبَتْ إليه هذه الأبيات:

دَنَا الْوَصْلُ يَا مَسْرُورُ فَابْشِرْ بِلَا مَطْلِ ... إِذَا اسْوَدَّ جُنْحُ اللَّيْلِ فَلْتَأْتِ بِالْفِعْلِ
وَلَا تَسْأَلِ الْأَنْذَالَ فِي الْمَالِ يَا فَتًى ... فَقَدْ كُنْتُ فِي سُكْرِي وَقَدْ رُدَّ لِي عَقْلِي
فَمَالُكَ مَرْدُودٌ عَلَيْكَ جَمِيعُهُ ... وَزِدْتُكَ يَا مَسْرُورُ مِنْ فَوْقِهِ وَصْلِي
لِأَنَّكَ ذُو صَبْرٍ وَفِيكَ حَلَاوَةٌ ... عَلَى جَوْرِ مَحْبُوبٍ جَفَاكَ بِلَا عَدْلِ
فَبَادِرْ لِتَغْنَمْ وَصْلَنَا وَلَكَ الْهَنَا ... وَلَا تُعْطِ إِهْمَالًا فَيَدْرِي بِنَا أَهْلِي
هَلُمَّ إِلَيْنَا مُسْرِعًا غَيْرَ مُبْطِئٍ ... وَكُلْ مِنْ ثِمَارِ الْوَصْلِ فِي غَيْبَةِ الْبَعْلِ

ثم إنها طوَتِ الكتابَ وأعطَتْه لجاريتها هبوب، فأخذته ومضَتْ به إلى مسرور، فوجدَتْه يبكي وينشد قول الشاعر:

وَهَبَّ عَلَى قَلْبِي نَسِيمٌ مِنَ الْجَوَى ... فَفَتَّتَ الْأَكْبَادَ مِنْ فَرْطِ لَوْعَتِي
لَقَدْ زَادَ وَجْدِي بَعْدَ بُعْدِ أَحِبَّتِي ... وَفَاضَتْ جُفُونِي فِي تَزَايُدِ عَبْرَتِي
وَعِنْدِي مِنَ الْأَوْهَامِ مَا إِنْ أَبُحْ بِهِ ... لِصُمِّ الْحَصَى وَالصَّخْرِ لَانَتْ بِسُرْعَةِ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى مَا يَسُرُّنِي ... وَأَحْظَى بِمَا أَرْجُوهُ مِنْ نَيْلِ بُغْيَتِي
وَتُطْوَى لَيَالِي الصَّدِّ مِنْ بَعْدِ هَجْرِهَا ... وَأَبْرَأُ مِمَّا دَاخَلَ الْقَلْبَ خَلَّتِي

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٤٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مسرورًا لما زاد به الهيام، صار ينشد الأشعار وهو في غاية الشوق، فبينما هو يترنَّم بتلك الأبيات ويردِّدها؛ إذ سمعته هبوب فطرقَتْ عليه الباب، فقام وفتح لها فدخلَتْ وناولَتْه الكتاب، فأخذه وقرأه وقال لها: يا هبوب، ما وراءك من أخبار سيدتك؟ فقالت: يا سيدي، إن في هذا الكتاب ما يُغنِي عن ردِّ الجواب، وأنت من ذوي الألباب. ففرح مسرور فرحًا شديدًا وأنشد هذين البيتين:

وَرَدَ الْكِتَابُ فَسَرَّنَا مَضْمُونُهُ ... وَسُرِرْتُ أَنِّي فِي الْفُؤَادِ أَصُونُهُ
وَازْدَدْتُ شَوْقًا عِنْدَمَا قَبَّلْتُهُ ... فَكَأَنَّمَا دُرُّ الْهَوَى مَكْنُونُهُ

ثم إنه كتب كتابًا جوابًا لها وأعطاه لهبوب، فأخذته وأتَتْ به إلى زين المواصف، فلما وصلَتْ إليها به صارت تشرح لها محاسنه، وتذكر أوصافه وكرمه، وصارت مساعِدةً له على جَمْع شمْلِه بها، فقالت لها زين المواصف: يا هبوب، إنه أبطأ عن الوصول إلينا. فقالت لها هبوب: إنه سيأتي سريعًا. فلم تستتم كلامها وإذا به قد أقبَلَ وطرق الباب، ففتحَتْ له وأخذَتْه وأجلسَتْه عند سيدتها زين المواصف، فسلَّمَتْ عليه ورحَّبَتْ به وأجلسته إلى جانبها، ثم قالت لجاريتها هبوب: هاتِ له بدلةً من أحسن ما يكون. فقامت هبوب وأتَتْ ببدلة مذهبة، فأخذتها وأفرغتها عليه، وأفرغت على نفسها بدلة أيضًا من أفخر الملابس، ووضعت على رأسها سبيكةً من اللؤلؤ الرطب، وربطت على السبيكة عصابةً من الديباج مكلَّلة بالدر والجوهر واليواقيت، وأرخَتْ من تحت العصابة سالفتين، ووضعت في كل سالفة ياقوتة حمراء مرقومة بالذهب الوهَّاج، وأرخَتْ شَعْرها كأنه الليل الداجي، وتبخَّرَتْ بالعود وتعطَّرَتْ بالمسك والعنبر، فقالت لها جاريتها هبوب: الله يحفظك من

العين. فصارَتْ تمشي وتتبختر في خطواتها وتتعطَّف، فأنشدت الجارية من بديع شعرها هذه الأبيات:

خَجِلَتْ غُصُونُ الْبَانِ مِنْ خَطَوَاتِهَا وَسَطَتْ عَلَى الْعُشَّاقِ مِنْ لَحَظَاتِهَا
قَمَرٌ تَبَدَّى فِي غَيَاهِبِ شَعْرِهَا كَالشَّمْسِ تُشْرِقُ فِي دُجَى وَفرَاتِهَا
طُوبَى لِمَنْ بَاتَتْ تَلِيهِ بِحُسْنِهَا وَيَمُوتُ فِيهَا حَالِفًا بِحَيَاتِهَا

فشكَرَتْها زين المواصف، ثم إنها أقبلَتْ على مسرور وهي كالبدر المشهور، فلما رآها مسرور نهض قائمًا على قدمَيْه، وقال: إنْ صدقني ظني، فما هي إنسية وإنما هي من عرائس الجنة. ثم إنها دعَتْ بالمائدة فحضرت، وإذا مكتوب على أطراف المائدة هذه الأبيات:

عُجْ بِالْمَلَاعِقِ فِي رَبْعِ السَّكَارِيجِ وَلُذْ بِنَوْعِ الْقَلَايَا وَالطَّيَاهِيجِ
عَلَيْهِ ... مَا زِلْتُ أَعْشَقُهَا مَعَ الْفِرَاخِ ... وَالْفَرَارِيجِ
لِلهِ دَرُّ الْكَبَابِ الَّذِي يَزْهُو بِحُمْرَتِهِ وَالْبَقْلُ يُغْمَسُ فِي خَلِّ السَّكَارِيجِ
نِعْمَ الْأَرُزُّ بِأَلْبَانِ الْحَلِيبِ غَدَتْ فِيهِ الْكُفُوفُ إِلَى حَدِّ الدَّمَالِيجِ
يَا لَهْفَ قَلْبِي عَلَى لَوْنَيْنِ مِنْ سَمَكٍ لَدَى رَغِيفَيْنِ مِنْ خُبْزِ التَّوَارِيجِ

ثم إنهم أكلوا وشربوا وتلذَّذوا وطربوا، ورُفِعت سُفْرة الطعام وقدَّموا سُفْرة المُدَام، ودار بينهم الكأس والطاس، وطابت لهم الأنفاس، وملأ الكأسَ مسرور وقال: يا مَن أنا عبدها وهي سيدتي. ثم صار يترنَّم بإنشاد هذه الأبيات:

عَجِبْتُ لِعَيْنِي إِنْ تَمِلْ لِمُلَالِهَا بِحُسْنِ فَتَاةٍ أَشْرَقَتْ بِجَمَالِهَا
وَلَيْسَ لَهَا فِي عَصْرِهَا مِنْ مُشَابِهٍ لِلُطْفِ مَعَانِيهَا وَحُسْنِ خِصَالِهَا
وَيَحْسُدُ غُصْنُ الْبَانِ لِينَ قَوَامِهَا إِذَا خَطَرَتْ فِي حُلَّةٍ بِاعْتِدَالِهَا
بِوَجْهٍ مُنِيرٍ يُخْجِلُ الْبَدْرَ فِي الدُّجَى وَفَرْقٍ حَكَى فِي النُّورِ ضَوْءَ هِلَالِهَا
إِذَا خَطَرَتْ فِي الْأَرْضِ يَعْبَقُ نَشْرُهَا نَسِيمًا يُرَى فِي سَهْلِهَا وَجِبَالِهَا

فلما فرغ مسرور من شعره قالت: يا مسرور، كلُّ مَن تمسَّكَ بدينه وقد أكل خبزنا وملحنا، وجَبَ حقُّه علينا، فخلِّ عنك هذه الأمور، وأنا أرد عليك أملاكك وجميع ما أخذناه

منك. فقال: يا سيدتي، أنتِ في حِلٍّ مما تذكرينه، وإنْ كنت غدرت في اليمين التي بيني وبينك فأنا أروح وأصير مسلمًا. فقالت لها جاريتها هبوب: يا سيدتي، أنتِ صغيرة السن وتعرفين كثيرًا، وأنا أستشفع عندك بالله العظيم، فإنْ لم تطيعيني في أمري وتَجْبري خاطري، لا أنام الليلةَ عندك في الدار. فقالت لها: يا هبوب، لا يكون إلا ما تريدينه، قومي جدِّدِي لنا مجلسًا آخَر. فنهضَتِ الجاريةُ هبوب وجدَّدَتْ مجلسًا وزيَّنَتْه وعطَّرَتْه بأحسن العطر كما تحب وتختار، وجهَّزَتِ الطعامَ وأحضرَتِ المُدَام، ودار بينهم الكأس والطاس، وطابت منهم الأنفاس. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زين المواصف لما أمرَتْ جاريتها هبوب بتجديد مجلس الأنس، قامت وجدَّدَتِ الطعام والمُدام، ودار بينهم الكأس والطاس، وطابت منهم الأنفاس، فقالت زين المواصف: يا مسرور، قد آنَ أوانُ اللقاء والتداني، فإن كنتَ لحبِّنا تعاني، فأنشِدْ لنا شعرًا بديعَ المعاني. فأنشَدَ مسرور هذه القصيدة:

أُسِرْتُ وَفِي قَلْبِي لَهِيبٌ تَضَرَّمَا ... بِحَبْلِ وِصَالٍ فِي الْفِرَاقِ تَصَرَّمَا
أُحِبُّ فَتَاةً قَدَّ قَلْبِي قَوَامُهَا ... وَقَدْ سَلَبَتْ عَقْلِي بِخَدٍّ تَنَعَّمَا
لَهَا الْحَاجِبُ الْمَقْرُونُ وَالطَّرْفُ أَحْوَرُ ... وَثَغْرٌ يُحَاكِي الْبَرْقَ حِينَ تَبَسَّمَا
لَهَا مِنْ سِنِينَ الْعُمْرِ عَشْرٌ وَأَرْبَعٌ ... وَدَمْعِي حَكَى فِي حُبِّ هَاتِيكَ عِنْدَمَا
فَعَايَنْتُهَا مَا بَيْنَ نَهْرٍ وَرَوْضَةٍ ... بِوَجْهٍ يَفُوقُ الْبَدْرَ فِي أُفُقِ السَّمَا
وَقَفْتُ لَهَا شِبْهَ الْأَسِيرِ مَهَابَةً ... وَقُلْتُ سَلَامُ اللهِ يَا سَاكِنَ الْحِمَى
فَرَدَّتْ سَلَامِي عِنْدَ ذَلِكَ رَغْبَةً ... بِلُطْفِ حَدِيثٍ مِثْلِ دُرٍّ تَنَظَّمَا
وَحِينَ رَأَتْ قَوْلِي لَدَيْهَا تَحَقَّقَتْ ... مَرَامِي وَصَارَ الْقَلْبُ مِنْهَا مُصَمَّمَا
وَقَالَتْ أَمَا هَذَا الْكَلَامُ جَهَالَةٌ ... فَقُلْتُ لَهَا كُفِّي عَنِ الصَّبِّ التَّلَوُّمَا
فَإِنْ تَقْبَلِينِي الْيَوْمَ فَالْخَطْبُ هَيِّنٌ ... فَمِثْلُكِ مَعْشُوقٌ وَمِثْلِي مُتَيَّمَا
فَلَمَّا تَيَقَّنَتِ الْمَرَامَ تَبَسَّمَتْ ... وَقَالَتْ وَرَبِّ خَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَا
يَهُودِيَّةٌ أَقْسَى التَّهَوُّدِ دِينُهَا ... وَمَا أَنْتَ إِلَّا لِلنَّصَارَى مُلَازِمَا
فَكَيْفَ تَرَى وَصْلِي وَلَسْتَ بِمِلَّتِي ... فَمَنْ رَامَ هَذَا الْفِعْلَ أَصْبَحَ نَادِمَا
أَتَلْعَبُ بِالدِّينَيْنِ هَلْ حُلَّ فِي الْهَوَى ... لِتُصْبِحَ مِثْلِي بِالْمَلَامِ مُكَلَّمَا

وَتَمْضِي بِهَذَا الْأَمْرِ فِي كُلِّ وُجْهَةٍ   وَتَبْقَى عَلَى دِينِي وَدِينِكَ مُجْرِمَا
فَإِنْ كُنْتَ تَهْوَانِي تَهَوَّدْ مَحَبَّةً   وَصَيِّرْ سِوَى وَصْلِي عَلَيْكَ مُحَرَّمَا
وَتَحْلِفُ بِالْإِنْجِيلِ قَوْلًا مُحَقَّقًا   لِتَحْفَظَ سِرِّي فِي هَوَاكَ وَتَكْتُمَا
وَأَحْلِفُ بِالتَّوْرَاةِ أَيْمَانَ صَادِقٍ   بِأَنِّي عَلَى الْعَهْدِ الَّذِي قَدْ تَقَدَّمَا
حَلَفْتُ عَلَى دِينِي وَشَرْعِي وَمَذْهَبِي   وَحَلَّفْتُهَا مِثْلِي يَمِينًا مُعَظَّمَا
وَقُلْتُ لَهَا مَا الْإِسْمُ يَا غَايَةَ الْمُنَى   فَقَالَتْ أَنَا زَيْنُ الْمَوَاصِفِ فِي الْحِمَى
فَنَادَيْتُ يَا زَيْنَ الْمَوَاصِفِ إِنَّنِي   بِحُبِّكِ مَشْغُوفٌ فَعِينِي الْمُتَيَّمَا
وَعَايَنْتُ مِنْ تَحْتِ اللِّثَامِ جَمَالَهَا   فَصِرْتُ كَئِيبًا سَيِّئَ الْحَالِ مُغْرَمَا
فَمَا زِلْتُ تَحْتَ السِّتْرِ أَخْضَعُ شَاكِيًا   كَثِيرَ غَرَامٍ فِي الْفُؤَادِ تَحَكَّمَا
فَلَمَّا رَأَتْ حَالِي وَفَرْطَ تَوَلُّهِي   جَلَتْ لِيَ وَجْهًا ضَاحِكًا مُتَبَسِّمَا
وَهَبَّ لَنَا رِيحُ الْوِصَالِ وَعَطَّرَتْ   نَوَافِحُ عِطْرِ الْمِسْكِ جِيدًا وَمِعْصَمَا
وَقَدْ عَبِقَتْ مِنْهَا الْأَمَاكِنُ كُلُّهَا   وَقَبَّلْتُ مِنْ فِيهَا رَحِيقًا وَمَبْسِمَا
وَمَالَتْ كَغُصْنِ الْبَانِ تَحْتَ غَلَائِلَ   وَحَلَّلْتُ وَصْلًا كَانَ قَبْلُ مُحَرَّمَا
نَعِمْنَا جَمِيعًا وَالْقُمَيْرُ سَمِيرُنَا   بِضَمٍّ وَلَثْمٍ وَارْتِشَافٍ مِنَ اللَّمَى
وَمَا زِينَةُ الدُّنْيَا سِوَى مَنْ تُحِبُّهُ   يَكُونُ قَرِيبًا مِنْكَ كَيْ تَتَنَعَّمَا
فَلَمَّا تَجَلَّى الصُّبْحُ قَامَتْ وَوَدَّعَتْ   بِوَجْهٍ جَمِيلٍ فَائِقٍ قَمَرَ السَّمَا
وَقَدْ أَنْشَدَتْ عِنْدَ الْوَدَاعِ وَدَمْعُهَا   وَدَمْعِي عَلَى الْخَدَّيْنِ دُرًّا مُنَظَّمَا
فَإِنْ أَنْسَ مَا أَنْسَى عُهُودًا قَطَعْتُهَا   وَحُسْنَ اللَّيَالِي وَالْيَمِينَ الْمُعَظَّمَا

فعند ذلك طربت زين المواصف وقالت: يا مسرور، ما أحسن معانيك! ولا عاش مَن يُعادِيك. ثم دخلت المقصورة ودعَتْ بمسرور، فدخل عندها واحتضَنَها وعانَقَها وقبَّلها، وبلغ منها ما ظنَّ أنه محالٌ، وفرح بما نال من طِيبِ الوصال، فعند ذلك قالت له زين المواصف: يا مسرور، إن مالك حرام علينا حلال لك؛ لأننا قد صرنا أحبابًا. ثم إنها ردَّتْ عليه جميعَ ما أخذته من الأموال، وقالت له: يا مسرور، هل لك من روضة تأتي إليها ونتفرج عليها؟ قال: نعم يا سيدتي، لي روضة ليس لها نظير. ثم مضى إلى منزله وأمر جواريه أن يصنعْنَ طعامًا فاخرًا، وأن يهيِّئْن مجلسًا حسنًا وصحبة عظيمة، ثم إنه دعاها إلى منزله، فحضرت هي وجواريها فأكلوا وشربوا وتلذَّذوا وطربوا، ودار بينهم الكأس والطاس، وطابت منهم الأنفاس، وخلا كل حبيب بحبيبه، فقالت له: يا مسرور، إنه خطر

ببالي شعر رقيق أريد أن أقوله على العود. فقال لها: قوليه. فأخذت العود بيدها وأصلحَتْ شأنه وحرَّكَتْ أوتاره وحسَّنت النغمات، وأنشدت تقول هذه الأبيات:

قَدْ مَالَ بِي طَرَبٌ مِنَ الْأَوْتَارِ وَصَفَا الصَّبُوحُ لَنَا لَدَى الْأَسْحَارِ
وَالْحُبُّ يَكْشِفُ عَنْ فُؤَادٍ مُتَيَّمٍ فَبَدَا الْهَوَى بَتَهَتُّكِ الْأَسْتَارِ
مَعْ خَمْرَةٍ رَقَّتْ بِحُسْنِ صِفَاتِهَا كَالشَّمْسِ تُجْلَى فِي يَدِ الْأَقْمَارِ
فِي لَيْلَةٍ جَاءَتْ لَنَا بِسُرُورِهَا تَمْحُو بِصَفْوٍ شَائِبَ الْأَكْدَارِ

فلما فرغت من شعرها قالت له: يا مسرور، أنشِدْنا شيئًا من أشعارك، ومتِّعْنا بفواكه أثمارك. فأنشَدَ هذين البيتين:

طَرِبْنَا عَلَى بَدْرٍ يُدِيرُ مُدَامَةً وَنَغْمَةَ عُودٍ فِي رِيَاضٍ مَقَامِنَا
وَغَنَّتْ قَمَارِيهَا وَمَالَتْ غُصُونُهَا سُحَيْرًا وَفِي أَنْحَائِهَا غَايَةُ الْمُنَى

فلما فرغ من شعره، قالت له زين المواصف: أنشِدْ لنا شعرًا فيما وقَعَ لنا، إنْ كنتَ مشغولًا بحبنا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن زين المواصف قالت لمسرور: إن كنتَ مشغولًا بحبنا فأنشِدْ لنا شعرًا فيما وقَعَ لنا. فقال: حبًّا وكرامة. وأنشَدَ هذه القصيدة:

قِفْ وَاسْتَمِعْ مَا جَرَى لِي	فِي حُبِّ هَذَا الْغَزَالِ
رِيمٌ رَمَانِي بِنَبْلٍ	وَلَحْظِهِ قَدْ غَزَا لِي
فُتِنْتُ عِشْقًا وَإِنِّي	فِي الْحُبِّ ضَاقَ احْتِيَالِي
هَوِيتُ ذَاتَ دَلَالٍ	مَحْجُوبَةٌ بِالنِّصَالِ
أَبْصَرْتُهَا وَسْطَ رَوْضٍ	وَقَدُّهَا ذُو اعْتِدَالِ
سَلَّمْتُ قَالَتْ سَلَامًا	لَمَّا صَغَتْ لِمَقَالِي
سَأَلْتُ مَا الْإِسْمُ قَالَتْ	اسْمِي وِفَاقَ جَمَالِي
سُمِّيتُ زَيْنَ الْمَوَاصِفْ	فَقُلْتُ رِقِّي لِحَالِي
فَإِنَّ عِنْدِي غَرَامًا	هَيْهَاتَ صَبٌّ مِثَالِي
قَالَتْ فَإِنْ كُنْتَ تَهْوَى	وَطَامِعًا فِي وِصَالِي
أُرِيدُ مَالًا جَزِيلًا	يَفُوقُ كُلَّ نَوَالِ
أُرِيدُ مِنْكَ ثِيَابًا	مِنَ الْحَرِيرِ غَوَالِ
وَرُبْعَ قِنْطَارِ مِسْكٍ	بِرَسْمِ لَيْلِ وِصَالِي
وَلُؤْلُؤًا وَعَقِيقًا	مِنَ النَّفِيسِ الْغَالِي
وَفِضَّةً وَنُضَارًا	مِنَ الْحُلِيِّ الْحَالِي
أَظْهَرْتُ صَبْرًا جَمِيلًا	عَلَى عَظِيمِ اشْتِغَالِي

فَأَنْعَمَتْ لِي بِوَصْلٍ فِـي لَـيْلَـةٍ ذِي هِـلَالِ
إِنْ لَامَنِي الْغَيْرُ فِيهَا أَقُـولُ يَـا لِـلـرِّجَـالِ
لَـهَـا شُـعُـورٌ طِـوَالٌ وَالـلَّـوْنُ لَـوْنُ اللَّـيَالِـي
وَخَـدُّهـا فِـيـهِ وَرْدٌ مِثْلُ اللَّظَى فِي اشْتِعَالِ
وَجَفْنُهَا فِيهِ سَيْفٌ وَلَـحْـظُـهَـا كَـالـنِّـبَـالِ
وَثَغْرُهَا فِيهِ خَمْرٌ وَرِيـقُـهَـا كَـالـزُّلَالِ
كَـأَنَّـهُ عِـقْـدُ دُرٍّ حَـوَى نِـظَـامَ الـلَّآلِـي
وَجِيدُهَا جِيدُ ظَبْيٍ مَلِـيـحَـةٌ فِـي كَـمَـالِ
وَصَـدْرُهَـا كَـرُخَـامٍ وَنَـهْـدُهَـا كَـالْـقِـلَالِـي
وَبَطْنُهَا فِيهِ طَيٌّ مُـعَـطَّـرٌ بِـالْـغَـوَالِـي
وَتَـحْـتَ ذَلِـكَ شَـيْءٌ لَـهُ انْـتَـهَـتْ آمَـالِـي
مُـرَبَّـبٌ وَسَـمِـيـنٌ مُـكَـلْـثَـمٌ يَـا مَـوَالِـي
كَـأَنَّـهُ تَـخْـتُ مِـلْـكٍ عَـلَـيْـهِ أَعْـرِضُ حَـالِـي
بَيْنَ الْعَمُودَيْنِ تَلْقَى مـصَـاطِـبًـا بِـتَـعَـالِ
لَـكِـنَّـهُ فِـيـهِ وَصْـفٌ يُـدْهِـي عُـقُـولَ الـرِّجَالِ
لَـهُ شِـفَـاهٌ كِـبَـارٌ وَنُـقْـرَةٌ كَـالْـبِـغَـالِ
يَـبْـدُو بِـحُـمْـرَةِ عَـيْـنٍ وَمِـشْـفَـرٍ كَـالْـجِـمَـالِ
إِذَا أَتَـيْـتَ إِلَـيْـهِ بِـهِـمَّـةٍ فِـي الْـفِـعَـالِ
تَلْقَاهُ حَرَّ الْمَلَاقِي بِـقُـوَّةٍ وَحِـقَـالِـي
يَـرُدُّ كُـلَّ شُـجَـاعٍ مَـحْـلُـولِ عَـزْمِ الْـقِـتَـالِ
وَتَـارَةً تَـلْـتَـقِـيـهِ بِـلِـحْـيَـةٍ فِـي مِـطَـالِ
يُـنْـبِـيكَ عَـنْـهُ مَـلِـيـحٌ ذُو بَـهْـجَـةٍ وَجَـمَـالِ
كَمِثْلِ زَيْنِ الْمَوَاصِفْ مَلِـيـحَـةٍ فِـي الْـكَـمَـالِ
أَتَـيْـتُ لَـيْـلًا إِلَـيْـهَـا وَنِـلْـتُ شَـيْـئًـا حَـلَالِـي
وَلَـيْـلَـةٍ بِـتُّ مَـعَـهَـا فَـاقَـتْ جَـمِـيعَ اللَّـيَالِـي
لَمَّا أَتَى الصُّبْحُ قَامَتْ وَوَجْـهُـهَـا كَـالْـهِـلَالِ
تَـهُـزُّ مِـنْـهَـا قَـوَامًـا هَـزَّ الـرِّمَـاحِ الْـعَـوَالِـي

وَوَدَّعَتْنِي وَقَالَتْ مَتَى تَعُودُ اللَّيَالِي
فَقُلْتُ يَا نُورَ عَيْنِي إِذَا أَرَدْتِ تَعَالِي

فطربَتْ زين المواصف من هذه القصيدة طربًا عظيمًا، وحصل لها غاية الانشراح وقالت: يا مسرور، قد دَنَا الصباح، ولم يَبْقَ إلا الرواح خوفًا من الافتضاح. فقال: حبًّا وكرامة. ثم نهض قائمًا على قدمَيْه وأتى بها إلى أن أوصَلَها إلى منزلها، ومضى إلى محله وباتَ وهو متفكِّر في محاسنها، فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح، هيَّأَ لها هدية فاخرة، وأتى بها إليها وجلس عندها، وأقامَا على ذلك مدة أيام وهما في أرغد عيش وأهنئه، ثم إنه ورد عليها في بعض الأيام كتابٌ من عند زوجها، مضمونه أنه يصل إليها عن قريب، فقالت في نفسها: لا سلَّمَه الله ولا أحياه؛ لأنه إنْ وصَلَ إلينا تكدَّرَ علينا عيشنا، يا ليتني كنتُ يئست منه. فلما أتى إليها مسرور جلس يتحدث معها على العادة، فقالت له: يا مسرور، قد ورَدَ علينا كتابٌ من عند زوجي، مضمونه أنه يصل إلينا من سفره عن قريبٍ، فكيف يكون العمل وما لأحد منَّا عن صاحبه صبر؟ فقال لها: لستُ أدري ما يكون، بل أنتِ أخبر وأدرى بأخلاق زوجك، ولا سيما أنتِ من أعقل النساء، صاحبة الحِيَل التي تحتال بشيء تعجز عن مثله الرجال. فقالت: إنه رجل صعب، وله غيرة على أهل بيته، ولكن إذا قَدِم من سفره وسمعت بقدومه فأقدِمْ عليه وسلِّم عليه واجلس إلى جانبه وقُلْ له: يا أخي، أنا رجل عطَّار. واشترِ منه شيئًا من أنواع عطارة، وتردَّدْ عليه مرارًا، وأطِلْ معه الكلامَ، ومهما أمرك به فلا تخالفه فيه، فلعل ما أحتال به يكون مصادفًا. فقال لها: سمعًا وطاعة. وخرج مسرور من عندها وقد اشتعلت في قلبه نار المحبة، فلما وصل زوجها إلى الدار فرحت بوصوله ورحَّبَتْ به وسلَّمَتْ عليه، فنظر في وجهها فرأى فيه لون الاصفرار، وكانت غسلت وجهها بالزعفران، وعملت فيه بعض حِيَل النساء، فسألها عن حالها، فذكرت له أنها مريضة من وقت ما سافَرَ، هي والجواري، وقالت له: إن قلوبنا مشغولة عليك لطول غيابك. وصارت تشكو إليه مشقة الفراق وتبكي بدمع مهراق، وتقول: لو كان معك رفيقٌ، ما حمل قلبي هذا الهمَّ كله، فبالله عليك يا سيدي ما بقيتَ تسافر إلا برفيق، ولا تقطع عني أخبارك لأجل أن أكون مطمئنةَ القلب والخاطر عليك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن زين المواصف لما قالت لزوجها: لا تسافِرْ إلا برفيق، ولا تقطعْ عني أخبارك لأجل أن أكون مطمئنةَ القلب والخاطر عليك. قال لها: حبًّا وكرامة، والله إن أمركِ رشيد، ورأيكِ سديد، وحياتكِ على قلبي ما يكون إلا ما تريدينه. ثم إنه خرج بشيء من بضاعته إلى دكانه وفتحها وجلس يبيع في السوق، فبينما هو في دكانه وإذا بمسرور قد أقبَلَ وسلَّمَ عليه وجلس إلى جانبه وصار يحيِّيه، ومكث يتحدَّث معه ساعة، ثم أخرَجَ كيسًا وحلَّه وأخرَجَ منه ذهبًا ودفعه إلى زوج زين المواصف، وقال له: أَعطِني بهذه الدنانير شيئًا من أنواع العطارة لأبيعه في دكاني. فقال له: سمعًا وطاعة. ثم أعطاه الذي طلبه وصار مسرور يتردَّد عليه أيامًا، فالتفَتَ إليه زوج زين المواصف وقال له: أنا مرادي رجل أشاركه في المتجر. فقال له مسرور: أنا الآخَر مرادي رجل أشاركه في المتجر؛ لأن أبي كان تاجرًا في بلاد اليمن، وخلف لي مالًا عظيمًا وأنا خائف على ذهابه. فالتفَتَ إليه زوج زين المواصف وقال له: هل لك أن تكون رفيقًا لي وأكون لك رفيقًا وصاحبًا وصديقًا في السفر والحضر، وأعلِّمك البيع والشراء والأخذ والعطاء؟ فقال له مسرور: حبًّا وكرامة.

ثم إنه أخذه وأتى به إلى منزله وأجلسه في الدهليز، ودخل إلى زوجته زين المواصف وقال لها: إني رافقتُ رفيقًا ودعوتُه إلى الضيافة، فجهِّزي لنا ضيافةً حسنةً. ففرحَتْ زين المواصف وعرفَتْ أنه مسرور، فجهَّزَتْ وليمة فاخرة وصنعت طعامًا حسنًا من فرحتها بمسرور، حيث تمَّ تدبير حيلتها. فلما حضر مسرور في دار زوج زين المواصف قال: اخرجي معي إليه ورحِّبي به وقولي له آنستنا. فغضبَتْ زين المواصف وقالت له: أتحضرني قدام رجل غريب أجنبي؟ أعوذ بالله، ولو قطَّعتَني قطعًا ما أحضر قدامه. فقال لها زوجها: لأي شيء تستحيين منه وهو نصراني ونحن يهود ونصير أصحابًا؟ فقالت: أنا ما أشتهي أن أحضر قدام الرجل الأجنبي الذي ما نظرَتْه عيني قطُّ ولا أعرفه. فظَنَّ زوجها



فطلب منه زوجُ «زين المواصف» أن يكون له رفيقًا في السَّفَر والحَضَر.

أنها صادقة في قولها، ولم يزل يعالجها حتى قامت وتلفلفت وأخذت الطعام وخرجت إلى مسرور ورحَّبَتْ به؛ فأطرَقَ رأسه إلى الأرض كأنه مستحٍ، فنظر الرجل إلى إطراقه وقال: لا شك أن هذا زاهد. فأكلوا كفايتهم، ثم رفعوا الطعام وقدَّموا المُدام، فجلست زين المواصف قبال مسرور، وصارت تنظره وينظرها إلى أن مضى النهار، فانصرف مسرور إلى منزله والتهبَتْ في قلبه النار، وأما زوج زين المواصف فإنه صار متفكِّرًا في لطف صاحبه

وفي حُسْنه. فلما أقبَلَ الليلُ قدَّمَتْ إليه زوجته طعامًا ليتعشَّى كعادته، وكان عنده في الدار طير هزار، إذا جلس يأكل يأتي إليه ذلك الطير ويأكل معه ويرفرف على رأسه، وكان ذلك الطير قد ألف مسرورًا فصار يرفرف عليه كلما جلس على الطعام، فحين غاب مسرور وحضر صاحبه لم يعرفه ولم يقرب منه، فصار متفكِّرًا في أمر ذلك الطير وفي بُعْدِه عنه. وأما زين المواصف فإنها لم تَنَمْ، بل صار قلبها مشغولًا بمسرور، واستمرَّ ذلك الأمر إلى ثاني ليلة وثالث ليلة، ففهم اليهودي أمرها ونقد عليها وهي مشغولة البال، فأنكَرَ عليها. وفي رابع ليلة انتبه من منامه نصف الليل، فسمع زوجته تلهج في منامها بذِكْرِ مسرور وهي نائمة في حضنه، فأنكر ذلك عليها وكتم أمره.

فلما أصبح الصباح ذهب إلى دكانه وجلس فيها، فبينما هو جالس وإذا بمسرور قد أقبَلَ وسلَّمَ عليه، فردَّ عليه السلام وقال: مرحبًا يا أخي. ثم قال له: إني مشتاق إليك. وجلس يتحدَّث معه ساعة زمانية، ثم قال له: قُمْ يا أخي معي إلى منزلي حتى نعقد المؤاخاة. فقال مسرور: حبًّا وكرامة. فلما وصَلَا إلى المنزل تقدَّمَ اليهودي وأخبر زوجته بقدوم مسرور، وأنه يريد أن يتَّجِر هو وإياه ويؤاخيه، وقال لها: هيِّئِي لنا مجلسًا حسنًا، ولا بد أنك تحضرين معنا وتنظرين المؤاخاة. فقالت له: بالله عليك لا تحضرني قدام هذا الرجل الغريب، فما لي غرض أن أحضر قدامه. فسكَتَ عنها وأمر الجواري أن تقدِّم الطعام والشراب، ثم إنه استدعى الطير الهزار، فنزل في حجر مسرور ولم يعرف صاحبه؛ فعند ذلك قال له: يا سيدي، ما اسمك؟ قال: اسمي مسرور. والحال أن زوجته طول الليل تلهج في منامها بهذا الاسم. ثم رفع رأسه فنظرها وهي تشير إليه وتغمزه بحاجبها، فعرف أن الحيلة قد تمَّتْ عليه، فقال: يا سيدي، أمهِلْني حتى أجيء بأولاد عمي يحضرون المؤاخاة. فقال له مسرور: افعل ما بَدَا لك. فقام زوج زين المواصف وخرج من الدار وجاء من وراء المجلس. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زوج زين المواصف قال لمسرور: أمهِلْني حتى أجيء بأولاد عمي ليحضروا عقد المؤاخاة بيني وبينك. ثم إنه مشى وجاء من وراء المجلس ووقف، وكان هناك طاقة تشرف عليهما، فجاء إليها وصار ينظرهما منها وهما لا ينظرانه، وإذا بزين المواصف قالت لجاريتها سكوب: أين راح سيدك؟ قالت: إلى خارج الدار. فقالت لها: أغلقي البابَ ومكِّنيه بالحديد، ولا تفتحي له حتى يدق الباب بعد أن تخبريني. قالت لها الجارية: وهو كذلك. كل ذلك وزوجها يعاينُ حالهم، ثم إن زين المواصف أخذَتِ الكأس وطيَّبَتْه بماء الورد وسحيق المسك وجاءت إلى مسرور، فقام لها وتلقَّاها وقال لها: والله إن ريقك أحلى من هذا الشراب. وصارت تسقيه ويسقيها، وبعد ذلك رشَّتْه بماء الورد من فوقه إلى قدمه حتى فاحت روائحه في المجلس، كل ذلك وزوجها ينظر إليهما ويتعجَّب من شدة الحب الذي بينهما، وقد امتلأ قلبه غيظًا مما قد رآه، ولحقه الغضب وغار غيرةً عظيمةً؛ فأتى إلى الباب فوجَدَه مغلقًا، فطرقه طرقًا قويًّا من شدة غيظه، فقالت الجارية: يا سيدتي، قد جاء سيدي. فقالت: افتحي له الباب، فلا ردَّه الله بسلامة. فمضَتْ سكوب إلى الباب وفتحته، فقال لها: ما لكِ تغلقين الباب؟ فقالت: هكذا في غيابك، لم يزل مغلقًا ولا يُفتَح ليلًا ولا نهارًا. فقال: أحسنتِ، فإنه يعجبني ذلك. ثم دخل على مسرور وهو يضحك، ولكنه كتم أمره وقال: يا مسرور، دَعْنا من المؤاخاة في هذا اليوم ونتآخى في يوم آخَر غير هذا اليوم. فقال: سمعًا وطاعة، افعل ما تريد. فعند ذلك مضى مسرور إلى منزله، وصار زوج زين المواصف متفكِّرًا في أمره ولا يدري ما يصنع، وصار خاطره في غاية التكدير، وقال في نفسه: حتى الهزار أنكَرَني، والجواري

أغلقَتِ الأبوابَ في وجهي ومِلْنَ إلى غيري. ثم إنه صار من شدة قهره يردِّد إنشاده هذه الأبيات:

لَقَدْ عَاشَ مَسْرورٌ زَمَانًا مُنَعَّمَا	بِلَذَّةِ أَيَّامٍ وَعَيْشٍ تَصَرَّمَا
تُعَانِدُنِي الْأَيَّامُ فِيمَنْ أُحِبُّهُ	وَقَلْبِي بِنِيرَانٍ يَزِيدُ تَضَرُّمَا
صَفَا لَكَ دَهْرٌ بِالْمَلِيحَةِ قَدْ مَضَى	وَلَا زِلْتَ فِي ذَاكَ الْجَمَالِ مُهَيَّمَا
لَقَدْ عَايَنَتْ عَيْنَايَ حُسْنَ جَمَالِهَا	فَأَصْبَحَ قَلْبِي فِي هَوَاهَا مُتَيَّمَا
لَقَدْ طَالَمَا قَدْ أَرْشَفَتْنِي مَعَ الرِّضَا	بِعَذْبِ ثَنَايَاهَا رَحِيقًا عَلَى ظَمَا
فَمَا لَكَ يَا طَيْرَ الْهَزَارِ تَرَكْتَنِي	وَصِرْتَ عَلَى الْعُذَّالِ صُبْحًا مُسَلِّمَا
وَقَدْ أَبْصَرَتْ عَيْنِي أُمُورًا عَجِيبَةً	تُنَبِّهُ أَجْفَانِي إِذَا كُنَّ نُوَّمَا
رَأَيْتُ حَبِيبِي قَدْ أَضَاعَ مَوَدَّتِي	وَطَيْرُ هَزَارِي لَمْ يَكُنْ لِي مُحَوِّمَا
وَحَقِّ إِلَهِ الْعَالَمِينَ الَّذِي إِذَا	أَرَادَ قَضَاءً فِي الْخَلِيقَةِ أَبْرَمَا
لَأَفْعَلُ مَا يَسْتَوْجِبُ الظَّالِمَ الَّذِي	بِجَهْلٍ دَنَا مِنْ وَصْلِهَا وَتَقَدَّمَا

فلما سمعت زين المواصف شِعْره ارتعدت فرائصها، واصفرَّ لونها، وقالت لجاريتها: هل سمعتِ هذا الشعر؟ فقالت الجارية: ما سمعته في عمري قال مثل هذا الشعر، ولكنْ دَعِيه يقول ما يقول. فلما تحقَّقَ زوجها أن هذا الأمر صحيح، صار يبيع في كل ما تملكه يده، وقال في نفسه: إنْ لم أغربهما عن أوطانهما فلن يرجعَا عمَّا هما فيه أبدًا. فلما باع جميع أملاكه كتب كتابًا مزوَّرًا، ثم قرأه عليها وادَّعَى أن هذا الكتاب جاءه من عند أولاد عمه، يتضمَّن طلب زيارته لهم هو وزوجته، فقالت: وكَمْ نقيم عندهم؟ قال: اثني عشر يومًا. فأجابته إلى ذلك وقالت له: هل آخذ معي بعض جواريَّ؟ قال: خذي منهن هبوب وسكوب، ودعي هنا خطوب. ثم هيَّأ لهن هودجًا مليحًا، وعزم على الرحيل بهن، فأرسلَتْ زين المواصف إلى مسرور: إنْ فاتَ الميعاد الذي بيننا ولم نأتِ، فاعلم أنه قد عمل علينا حيلةً ودبَّرَ لنا مكيدةً، وأبعَدَنا عن بعضنا، فلا تَنْسَ العهود والمواثيق التي بيننا، فإني أخاف من حيله ومَكْره. ثم إن زوجها جهَّزَ حاله للسفر، وأما زين المواصف فإنها صارت تبكي وتنتحب ولا يقرُّ لها قرارٌ في ليل ولا نهار، فلما رأى زوجها ذلك لم ينكر عليها، فلما رأت زين المواصف أن زوجها لا بد له من السفر، لَمَّتْ قماشها ومَتاعها وأودعَتْ جميعَ ذلك عند أختها، وأخبرتها بما جرى لها وودَّعَتْها وخرجت من عندها وهي تبكي، ثم رجعت إلى بيتها فرأَتْ زوجها قد أحضَرَ الجِمال،

وصار يضع عليها الأحمال، وهيَّأ لزين المواصف أحسن الجِمال. فلما رأت زين المواصف أنه لا بد من فراقها لمسرور تحيَّرَتْ، فاتفق أن زوجها قد خرج لبعض أشغاله، فخرجت إلى الباب الأول وكتبَتْ عليه هذه الأبيات. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زين المواصف لما رأت زوجها أحضَرَ الجِمال، وعلمت بالسفر تحيَّرَتْ، فاتفق أن زوجها خرج لبعض أشغاله، فخرجت إلى الباب الأول وكتبت عليه هذه الأبيات:

أَلَا يَا حَمَامَ الدَّارِ بَلِّغْ سَلَامَنَا ... مِنَ الصَّبِّ لِلْمَحْبُوبِ عِنْدَ فِرَاقِنَا
وَبَلِّغْهُ أَنِّي لَا أَزَالُ حَزِينَةً ... نَدِمْتُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ طِيبِ وَقْتِنَا
كَمَا أَنَّ حُبِّي لَا يَزَالُ مُتَيَّمًا ... حَزِينًا عَلَى مَا قَدْ مَضَى مِنْ سُرُورِنَا
قَضَيْنَا زَمَانًا بِالْمَسَرَّةِ وَالْهَنَا ... وَفُزْنَا بِوَصْلٍ لَيْلَنَا وَنَهَارَنَا
فَلَمْ نَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَصْبَحَ صَائِحًا ... عَلَيْنَا غُرَابُ الْبَيْنِ يَنْعَى فِرَاقَنَا
رَحَلْنَا وَخَلَّيْنَا الدِّيَارَ بَلَاقِعَ ... فَيَا لَيْتَنَا لَمْ نُخْلِ تِلْكَ الْمَسَاكِنَا

ثم أتَتْ إلى الباب الثاني وكتبَتْ عليه هذه الأبيات:

أَيَا وَاصِلًا لِلْبَابِ بِاللهِ فَانْظُرَا ... جَمَالَ حَبِيبِي فِي الدَّيَاجِي وَأَخْبِرَا
بِأَنِّيَ بَاكٍ إِنْ تَذَكَّرْتُ وَصْلَهُ ... وَلَا يَنْفُدُ الدَّمْعُ الَّذِي بِالْبُكَا جَرَى
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ صَبْرًا عَلَى مَا أَصَابَنِي ... فَضَعْ قُرْبَ أَجْمَالِي التُّرَابَ وَغَبِّرَا
وَسَافِرْ إِلَى شَرْقِ الْبِلَادِ وَغَرْبِهَا ... وَعِشْ صَابِرًا فَاللهُ لِلْأَمْرِ قَدَّرَا

ثم أتَتْ إلى الباب الثالث وبكَتْ بكاءً شديدًا، وكتبَتْ عليه هذه الأبيات:

رُوَيْدَكَ يَا مَسْرُورُ إِنْ زُرْتَ دَارَهَا ... فَأَعْبِرْ إِلَى الْأَبْوَابِ وَاقْرَأْ سُطُورَهَا
وَلَا تَنْسَ عَهْدَ الْوُدِّ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ... فَكَمْ طَعِمَتْ حُلْوَ اللَّيَالِي وَمُرَّهَا

فَبِاللهِ يَا مَسْرُورُ لَا تَنْسَ قُرْبَهَا فَقَدْ تَرَكَتْ فِيكَ الْهَنَا وَسُرُورَهَا
أَلَا وَابْكِ أَيَّامَ الْوِصَالِ وَطِيبَهَا وَأَنْتَ مَتَّى مَا جِئْتَ أَرْخَتْ سُتُورَهَا
فَسَافِرْ قُصِيَّاتِ الْبِلَادِ لِأَجْلِنَا وَخُضْ بَحْرَهَا وَاسْتَقْصِ عَنَّا بُرُورَهَا
لَقَدْ ذَهَبَتْ عَنَّا لَيَالِي وِصَالِنَا وَفَرْطُ ظَلَامِ الْهَجْرِ أَطْفَأَ نُورَهَا
رَعَى اللهُ أَيَّامًا مَضَتْ مَا أَسَرَّهَا بِرَوْضِ الْأَمَانِي إِذْ قَطَفْنَا زُهُورَهَا
فَهَلَّا اسْتَمَرَّتْ مِثْلَ مَا كُنْتُ أَرْتَجِي أَبَى اللهُ إِلَّا وِرْدَهَا وَصُدُورَهَا
فَهَلْ تَرْجِعُ الْأَيَّامُ تَجْمَعُ شَمْلَنَا وَأُوفِي إِذَا وَافَتْ لِرَبِّي نُذُورَهَا
وَكُنْ عَالِمًا أَنَّ الْأُمُورَ بِكَفِّ مَنْ يَخُطُّ عَلَى لَوْحِ الْجَبِينِ سُطُورَهَا

ثم بكَتْ بكاءً شديدًا ورجعت إلى الدار تبكي وتنتحب، وصارت تتذكر ما مضى وقالت: سبحان الله الذي حكَمَ علينا بهذا. ثم زاد تأسُّفُها على مفارقة الأحباب وعلى فراق الديار، وأنشدت هذه الأبيات:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا مَنْزِلًا خَلَا لَقَدْ قَضَتِ الْأَيَّامُ فِيكَ سُرُورَهَا
أَلَا يَا حَمَامَ الدَّارِ لَا زِلْتَ نَائِحًا لِمَنْ فَارَقَتْ أَقْمَارَهَا وَبُدُورَهَا
رُوَيْدَكَ يَا مَسْرُورُ فَابْكِ لِفَقْدِنَا لَقَدْ فَقَدَتْ عَيْنِي لِفَقْدِكَ نُورَهَا
وَلَوْ نَظَرَتْ عَيْنَاكَ يَوْمَ رَحِيلِنَا وَنِيرَانُ قَلْبِي زَادَ دَمْعِي سَعِيرَهَا
وَلَا تَنْسَ ذَاكَ الْعَهْدَ فِي ظِلِّ رَوْضَةٍ حَوَتْ شَمْلَنَا فِيهَا وَأَرْخَتْ سُتُورَهَا

ثم حضرَتْ بين يدَيْ زوجها، فحملها على الهودج الذي صنعه لها، فلما أن صارت على ظهر البعير أنشدَتْ هذه الأبيات:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ يَا مَنْزِلًا خَلَا وَقَدْ طَالَ مَا زِدْنَا هُنَاكَ تَجَمُّلَا
فَلَيْتَ زَمَانِي فِي ذُرَاكَ تَصَرَّمَتْ لَيَالِيهِ حَتَّى فِي الصَّبَابَةِ أُقْتَلَا
جَزِعْتُ عَلَى بُعْدِي وَشَوْقِي لِمَوْطِنٍ شُغِفْتُ بِهِ لَمْ أَدْرِ مَا قَدْ تَحَصَّلَا
فَيَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى فِيهِ عَوْدَةً تَرُوقُ كَمَا رَاقَتْ لَنَا فِيهِ أَوَّلَا

فقال لها زوجها: يا زين المواصف، لا تحزني على فراق منزلك، فإنك تعودين إليه عن قريب. وصار يطيِّب خاطرها ويلاطفها، ثم ساروا حتى خرجوا إلى ظاهر البلد واستقبلوا الطريق، وعلمت أن الفراق قد تحقَّقَ فعَظُم ذلك عليها. كل هذا ومسرور قاعد في منزله متفكِّرٌ في أمره وأمر محبوبته، فأَحَسَّ قلبه بالفراق، فنهض قائمًا على قدمَيْه من وقته

وساعته، وسار حتى جاء إلى منزلها، فرأى الباب مقفولًا، ورأى الأبيات التي كتبَتْها زين المواصف، فقرأ ما على الباب الأول، فلما قرأه وقع على الأرض مغشيًّا عليه. ثم أفاق من غشيته، وفتح الباب الأول ودخل إلى الباب الثاني فرأى ما كتبته، وكذلك الثالث، فلما قرأ جميع هذه الكتابة زاد به الغرام والشوق والهيام، فخرج في إثرها يُسرِع في خطاه حتى لحق بالرَّكْب، فرآها في آخِره وزوجها في أوله لأجل حوائجه، فلما رآها تعلَّقَ بالهودج باكيًا حزينًا من ألم الفراق، وأنشد هذه الأبيات:

لَيْتَ شِعْرِي بِأَيِّ ذَنْبٍ رُمِينَا بِسِهَامِ الصُّدُودِ طُولَ السِّنِينَا
يَا مُنَى الْقَلْبِ جِئْتُ لِلدَّارِ يَوْمًا عِنْدَمَا ازْدَدْتُ فِي هَوَاكِ شُجُونَا
فَرَأَيْتُ الدِّيَارَ قَفْرًا يَبَابًا فَشَكَوْتُ النَّوَى وَزِدْتُ أَنِينَا
وَسَأَلْتُ الْجِدَارَ عَنْ كُلِّ قَصْدِي أَيْنَ رَاحُوا وَصَارَ قَلْبِي رَهِينَا
قَالَ سَارُوا عَنِ الْمَنَازِلِ حَتَّى صَيَّرُوا الْوَجْدَ فِي الْفُؤَادِ كَمِينَا
قَدْ كَتَبْتُ عَلَى الْجِدَارِ سُطُورًا فِعْلُ أَهْلِ الْوَفَا مِنَ الْعَالَمِينَا

فلما سمعت زين المواصف هذا الشعر علمت أنه مسرور. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زين المواصف لما سمعَتْ منه هذا الشعر علمت أنه مسرور، فبكَتْ هي وجواريها، ثم قالت له: يا مسرور، سألتك بالله أن ترجع عنَّا لئلا يراكَ ويراني زوجي. فلما سمع مسرور ذلك غُشِي عليه، فلما أفاق ودَّعَا بعضهما وأنشد هذه الأبيات:

نَادَى الرَّحِيلُ سُحَيْرًا فِي الدُّجَى الْهَادِي قَبْلَ الصَّبَاحِ وَهَبَّتْ نَسْمَةُ النَّادِي
شَدُّوا الْمَطَايَا وَجَدُّوا فِي تَرَحُّلِهِمْ وَأَسْرَعَ الرَّكْبُ لَمَّا زَمْزَمَ الْحَادِي
وَعَطَّرُوا أَرْضَهُمْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَعَجَّلُوا سَيْرَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَادِي
تَمَلَّكُوا مُهْجَتِي عِشْقًا وَقَدْ رَحَلُوا وَغَادَرُونِي عَلَى آثَارِهِمْ غَادِي
يَا جِيرَةً مَقْصَدِي أَنْ لَا أُفَارِقَهُمْ حَتَّى بَلَلْتُ الثَّرَى مِنْ دَمْعِيَ الْغَادِي
يَا وَيْحَ قَلْبِي وَوَيْحِي بَعْدَمَا صَنَعَتْ يَدُ الْفِرَاقِ عَلَى رُغْمِي بِأَكْبَادِي

وما زال مسرور ملازمًا للركب وهو يبكي وينتحب، وهي تستعطفه في أن يرجع قبل الصباح خشيةَ الافتضاح، فتقدَّمَ إلى الهودج وودَّعَها ثاني مرة وغُشِي عليه ساعةً زمانيةً، فلما أفاق وجدهم سائرين، فالتفت نحو سيرهم وشَمَّ ريحَ القبول، وصار يترنَّم بإنشاد هذه الأبيات:

مَا هَبَّ رِيحُ الْقُرْبِ لِلْمُشْتَاقِ إِلَّا شَكَا مِنْ لَوْعَةِ الْأَشْوَاقِ
هَبَّتْ عَلَيْهِ نَسْمَةٌ سِحْرِيَّةٌ مَا فَاقَ إِلَّا وَهْوَ فِي الْآفَاقِ

مُلْقًى عَلَى فُرُشِ السَّقَامِ مِنَ الضَّنَى ... يَبْكِي الدِّمَاءَ بِدَمْعِهِ الْمُهْرَاقِ
مِنْ جِيرَةٍ رَحَلُوا وَقَلْبِي مَعْهُمُ ... بَيْنَ الرِّكَابِ يُسَاقُ بِالسُّوَّاقِ
وَاللهِ مَا فِي الْقُرْبِ هَبَّتْ نَسْمَةٌ ... إِلَّا وَقَفْتُ لَهَا عَلَى الْأَحْدَاقِ

ثم رجع مسرور إلى الدار وهو في غاية الاشتياق، فرآها خاليةً من الأطناب، موحشةً من الأحباب، فبكى حتى بلَّ الثيابَ وغُشِي عليه، وكادت أن تخرج روحه من جسده، فلما أفاق أنشد هذين البيتين:

يَا رَبْعُ رِقَّ لِذِلَّتِي وَخُضُوعِي ... وَنُحُولِ جِسْمِي وَانْهِمَالِ دُمُوعِي
وَانْشُرْ إِلَيْنَا مِنْ عَبِيرِ نَسِيمِهِمْ ... أَرَجًا لِتَشْفِيَ خَاطِرِي الْمَوْجُوعِ

فلما رجع مسرور إلى منزله صار متحيِّرًا من أجل ذلك، باكيَ العين، ولم يزل على هذا الحال مدة عشرة أيامٍ.

هذا ما كان من أمر مسرور، وأما ما كان من أمر زين المواصف فإنها عرفَتْ أن الحيلة قد تمَّتْ عليها، فإن زوجها ما زال سائرًا بها مدة عشرة أيامٍ، ثم أنزلَها في بعض المدن، فكتبَتْ زين المواصف كتابًا لمسرور وناولَتْه لجاريتها هبوب، وقالت: أرسِلِي هذا الكتاب إلى مسرور ليعرف كيف تمَّت الحيلةُ علينا، وكيف غدر بنا اليهودي. فأخذت الجارية منها الكتابَ وأرسلته إلى مسرور، فلما وصل إليه عَظُم عليه هذا الخطاب، فبكى حتى بلَّ التراب، وكتب كتابًا وأرسله إلى زين المواصف وختمه بهذين البيتين:

كَيْفَ الطَّرِيقُ إِلَى أَبْوَابِ سُلْوَانِ ... وَكَيْفَ يَسْلُو الَّذِي فِي حَرِّ نِيرَانِ
مَا كَانَ أَطْيَبَ أَوْقَاتٍ لَهُمْ سَلَفَتْ ... فَلَيْتَ مِنْهَا لَدَيْنَا بَعْضُ أَحْيَانِ

فلما وصَلَ الكتاب إلى زين المواصف أخذته وقرأته وأعطَتْه لجاريتها هبوب وقالت لها: اكتمي خبره. فعلم زوجها أنهما يتراسلان، فأخذ زين المواصف وجواريها وسافَرَ بهن مسافةَ عشرين يومًا، ثم نزل بهن في بعض المدن. هذا ما كان من أمر زين المواصف، وأما ما كان من أمر مسرور فإنه صار لا يهنأ له نوم ولا يَقرُّ له قرار، ولم يكن له اصطبار، ولم يزل كذلك إذ هجعَتْ عيناه في بعض الليالي فرأى في منامه أن زين المواصف قد جاءت

إليه في الروضة وصارت تعانقه، فانتبه من نومه فلم يَرَها، فطار عقله وذهل لبُّه وهملت عيناه بالدموع، وقد أصبح قلبه في غاية الولوع، فأنشد هذه الأبيات:

سَلَامٌ عَلَى مَنْ زَارَ فِي النَّوْمِ طَيْفُهَا فَهَيَّجَ أَشْوَاقِي وَزَادَ غَرَامِي
وَقَدْ قُمْتُ مِنْ ذَاكَ الْمَنَامِ مُوَلَّعًا بِرُؤْيَةِ طَيْفٍ زَارَنِي بِمَنَامِي
فَهَلْ تَصْدُقُ الْأَحْلَامُ فِيمَنْ أُحِبُّهُ وَتَشْفِي غَلِيلِي فِي الْهَوَى وَسَقَامِي
فَطَوْرًا تُعَاطِينِي وَطَوْرًا تَضُمُّنِي وَطَوْرًا تُوَاسِينِي بِطِيبِ كَلَامِ
وَلَمَّا تَقَضَّى فِي الْمَنَامِ عِتَابُنَا وَصَارَتْ عُيُونِي بِالدُّمُوعِ دَوَامِي
رَشَفْتُ رِضَابًا مِنْ لَمَاهَا كَأَنَّهُ رَحِيقٌ أَرَى رَيَّاهُ مِسْكَ خِتَامِ
عَجِبْتُ لِمَا قَدْ كَانَ فِي النَّوْمِ بَيْنَنَا وَقَدْ نِلْتُ مِنْهَا مُنْيَتِي وَمَرَامِي
وَقَدْ قُمْتُ مِنْ ذَاكَ الْمَنَامِ وَلَمْ أَجِدْ مِنَ الطَّيْفِ إِلَّا لَوْعَتِي وَغَرَامِي
فَأَصْبَحْتُ كَالْمَجْنُونِ حِينَ رَأَيْتُهَا وَأَمْسَيْتُ سَكْرَانًا بِغَيْرِ مُدَامِ
أَلَا يَا نَسِيمَ الرِّيحِ بِاللهِ بلِّغِي تَحِيَّةَ أَشْوَاقِي لَهُمْ وَسَلَامِي
وَقُولِي لَهُمْ ذَاكَ الَّذِي تَعْهَدُونَهُ سَقَتْهُ صُرُوفُ الدَّهْرِ كَأْسَ حِمَامِ

ثم إنه توجَّهَ إلى منزلها، وما زال يبكي حتى وصل إليه، فنظر إلى المكان فوجده خاليًا، ورأى خيالها يلوح قدامه وكأن شخصها أمامه، فاشتعلت نيرانه وزادت أحزانه ووقع مغشيًّا عليه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن مسرورًا لما رأى في المنام زين المواصف وهي تعانقه فرح غايةَ الفرح، ثم انتبه من النوم وراح إلى دارها، فرأى الدارَ خالية، فزادت أحزانه ووقع مغشيًّا عليه، فلما أفاق جعل ينشد هذه الأبيات:

تَنَشَّقْتُ مِنْهُمْ فَائِحَ الْعِطْرِ وَالْبَانِ ... فَرُحْتُ بِقَلْبٍ زَائِدِ الْوَجْدِ وَلْهَانِ
أُعَالِجُ أَشْوَاقِي كَئِيبًا مُتَيَّمًا ... بِرَبْعٍ خَلَا عَنْ حُسْنِ أُنْسِي وَخِلَّانِي
فَأَمْرَضَنِي بِالْبَيْنِ وَالْوَجْدِ وَالْأَسَى ... وَذَكَّرَنِي الْعَهْدُ الْقَدِيمُ بِخِلَّانِي

فلما فرغ من شعره سمع غرابًا ينعق على جانب الدار، فبكى وقال: سبحان الله، لا ينعق الغراب إلا على الدار الخراب. ثم تجسَّرَ وتنهَّدَ وأنشد هذه الأبيات:

مَا لِلْغُرَابِ بِدَارِ الْحُبِّ يَبْكِيهَا ... وَالنَّارُ تَحْرِقُ أَحْشَائِي وَتَكْوِيهَا
عَلَى زَمَانٍ تَقَضَّى فِي مَحَبَّتِهِمْ ... قَدْ رَاحَ قَلْبِي ضِيَاعًا فِي مَهَاوِيهَا
أَمُوتُ وَجْدًا وَنَارُ الشَّوْقِ فِي كَبِدِي ... وَأَكْتُبُ الْكُتْبَ مَا لِي مَنْ يُؤَدِّيهَا
وَا حَسْرَتِي لِضَنَى جِسْمِي وَقَدْ رَحَلَتْ ... حَبِيبَتِي يَا تُرَى تَأْتِي لَيَالِيهَا
فَيَا نَسِيمَ الصَّبَا إِنْ زُرْتَهَا سَحَرًا ... سَلِّمْ عَلَيْهَا وَقِفْ بِالدَّارِ حَيِّيهَا

وقد كان لزين المواصف أختٌ تُسمَّى نسيمًا، وكانت تنظر إليه من مكانٍ عالٍ، فلما رأته على تلك الحالة بكَتْ وتحسَّرَتْ وأنشدَتْ هذه الأبيات:

كَمْ ذَا التَّرَدُّدِ فِي الْأَوْطَانِ تَبْكِيهَا ... وَالدَّارُ تَنْدُبُ بِالْأَحْزَانِ بَانِيهَا
كَانَ السُّرُورُ بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ رَحَلَتْ ... سُكَّانُهَا وَشُمُوسٌ أَشْرَقَتْ فِيهَا
أَيْنَ الْبُدُورُ الَّتِي كَانَتْ طَوَالِعَةً ... مَحَتْ صُرُوفُ الرَّدَى أَبْهَى مَعَانِيهَا

دَعْ مَا مَضَى مِنْ مِلَاحٍ كُنْتَ تَأْلَفُهَا وَانْظُرْ عَسَى تَرْجَعُ الْأَيَّامُ تُبْدِيهَا
لَوْلَاكَ مَا رَحَلَتْ سُكَّانُهَا أَبَدًا وَلَا رَأَيْتَ غُرَابًا فِي أَعَالِيهَا

فبكى مسرور بكاءً شديدًا لمَّا سمع هذا الكلام، وفهم الشعر والنظام، وكانت أختها تعرف ما هما عليه من العِشق والغرام، والوَجْد والهيام، فقالت له: بالله عليك يا مسرور، كُفَّ عن هذا المنزل لِئلَّا يشعر بك أحدٌ فيظنُّ أنك تأتي من أجلي؛ لأنك رحَّلْتَ أختي وتريد أن ترحِّلَني أنا الأخرى، وأنت تعرف أنه لولا أنت ما خلَتِ الديار من سكَّانها، فتسلَّ عنها واتركها، فقد مضى ما مضى. فلما سمع مسرور ذلك من أختها بكى بكاءً شديدًا، وقال لها: يا نسيم، لو قدرت أن أطيرَ لَطِرتُ شوقًا إليها، فكيف أتسلَّى عنها؟ فقالت: ما لك حيلة إلا الصبر. فقال لها: سألتك بالله أن تكتبي لها كتابًا من عندك وتردِّي لنا جوابًا ليطيب خاطري، وتنطفئ النار التي في ضمائري. فقالت: حبًّا وكرامة. ثم أخذت دواة وقرطاسًا، وصار مسرور يصف لها شدة شوقه وما يكابده من ألم الفراق، ويقول: إن هذا الكتاب عن لسان الهائم الحزين، المفارق المسكين، الذي لا يقرُّ له قرارٌ في ليلٍ ولا في نهار، بل يبكي بدموع غزار، قد قرَّحَتِ الدموعُ أجفانَه، وأضرمَتْ في كَبِده أحزانَه، وطال تأسُّفه وكثر تلهُّفه، مثل طَيْر فقَدَ إلْفَه وعجَّلَ تلَفَه، فيا أسفي من مفارقتك، ويا لهفي على معاشرتك! لقد ضرَّ جسمي النحول، ودمعي صار في همول، وضاقت عليَّ الجبال والسهول، فأمسيت من فَرط وَجْدي أقول:

وَجْدِي عَلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ بَاقِ زَادَتْ إِلَى سُكَّانِهَا أَشْوَاقِي
وَبَعَثْتُ نَحْوَكُمُ حَدِيثَ صَبَابَتِي وَبِكَأْسِ حُبِّكُمُ سَقَانِي السَّاقِي
وَعَلَى رَحِيلِكُمُ وَبُعْدِ دِيَارِكُمْ جَرَتِ الْجُفُونُ بِدَمْعِهَا الْمُهْرَاقِ
يَا حَادِيَ الْأَظْعَانِ عَرِّجْ بِالْحِمَى فَالْقَلْبُ مِنِّي زَائِدُ الْإِحْرَاقِ
وَاقْرَأْ سَلَامِي لِلْحَبِيبِ وَقُلْ لَهُ مَا إِنْ لَهُ غَيْرُ اللَّمَى مِنْ رَاقِ
أَوْدَى الزَّمَانُ بِهِ فَشَتَّتَ شَمْلَهُ وَرَمَى حُشَاشَتَهُ بِسَهْمِ فِرَاقِ
بَلِّغْ لَهُمْ وَجْدِي وَشِدَّةَ لَوْعَتِي مِنْ بَعْدِ فُرْقَتِهِمْ وَمَا أَنَا لَاقِ
قَسَمًا بِحُبِّكُمُ يَمِينًا إِنَّنِي أُوفِي لَكُمْ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ
مَا مِلْتُ قَطُّ وَلَا سَلَوْتُ هَوَاكُمُ كَيْفَ السُّلُوُّ لِعَاشِقٍ مُشْتَاقِ
فَعَلَيْكُمُ مِنِّي السَّلَامُ تَحِيَّةً مَمْزُوجَةً بِالْمِسْكِ فِي الْأَوْرَاقِ

فتعجَّبَتْ أختها نسيم من فصاحة لسانه وحسن معانيه ورقة أشعاره، فرقَّتْ له وختمت الكتاب بالمسك الأدفر، وبخَّرَتْه بالندى والعنبر، وأوصلته إلى بعض التجار وقالت له: لا تسلِّم هذا إلا لأختي أو جاريتها هبوب. فقال: حبًّا وكرامة. فلما وصل الكتاب إلى زين المواصف عرفَتْ أنه من إملاء مسرور، وعرفتْ نفْسَه فيه بلطفِ مَعانيه، فقبَّلَتْه ووضعَتْه على عينيها، وأجرَتِ الدموعَ من جَفنَيْها، ولم تزل تبكي حتى غُشِي عليها. فلما أفاقَتْ دعَتْ بدواةٍ وقرطاس، وكتبَتْ له جوابَ الكِتاب، ووصفتْ شوْقَها وغَرامها ووَجْدها، وما هي فيه من الحنين إلى الأحباب، وشكت حالَها إليه وما نالها من الوَجْد عليه. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

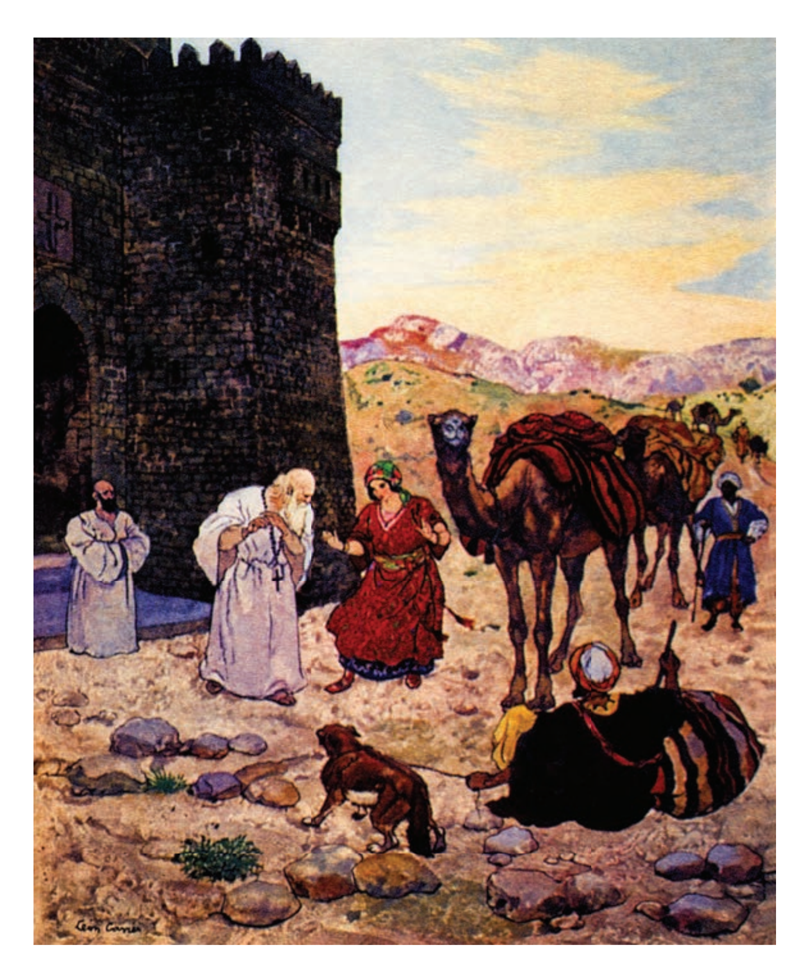
فلما كانت الليلة ٨٥٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زين المواصف لما كتبَتْ جوابَ الكِتاب لمسرور، قالت له فيه: إنَّ هذا كِتابٌ إلى سيدي ومالِك رِقِّي ومولاي، وصاحب سِرِّي ونَجْواي. أما بعدُ، فقد أقلقني السهَرُ وزاد بي الفِكر، وما لي على بُعْدِك مصطبر، يا مَن حُسْنه يفوق الشمس والقمر، فالشوق أقلقني والوَجْد أهلكني، وكيف لا أكون كذلك وأنا مع الهالكين، فيا بهجة الدنيا وزينة الحياة، هل لِمَن انقطعَتْ أنفاسُه أن يطيب كأسه؟ لأنه لا هو مع الأحياء ولا مع الأموات. ثم أنشدت هذه الأبيات:

كِتَابُكَ يَا مَسْرُورُ قَدْ هَيَّجَ الْبَلْوَى ... فَوَاللهِ مَا لِي عَنْكَ صَبْرٌ وَلَا سَلْوَى
وَلَمَّا قَرَأْتُ الْخَطَّ حَنَّتْ جَوَارِحِي ... وَمِنْ مَاءِ دَمْعِي وَالْجَوَى لَمْ أَزَلْ أُرْوَى
وَلَوْ كُنْتُ طَيْرًا طِرْتُ فِي جُنْحِ لَيْلَةٍ ... فَلَمْ أَدْرِ طَعْمَ الْمَنِّ بَعْدَكَ وَالسَّلْوَى
حَرَامٌ عَلَيَّ الْعَيْشُ مِنْ بَعْدِ بُعْدِكُمْ ... فَإِنِّي عَلَى حَرِّ التَّفَرُّقِ لَا أَقْوَى

ثم ترَّبَتِ الكتابَ بسحيق المسك والعنبر، وختمَتْه وأرسلته مع بعض التجار وقالت له: لا تسلِّمه إلا لأختي نسيم. فلما وصل إلى أختها نسيم أوصلته إلى مسرور، فقبَّلَه ووضعه على عينَيْه وبكى حتى غُشِي عليه.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر زوج زين المواصف، فإنه لَمَّا علم بالمراسلات بينهما، صار يرحل بها وبجاريتيها من محل إلى محل، فقالت له زين المواصف: سبحان الله، إلى أين تسير بنا وتبعدنا عن الأوطان؟ قال: إلى أن أقطع بكم سَنَةً حتى لا يصل إليكن مُراسَلاتٌ من مسرور، وأنظر كيف أخذتنَّ جميعَ مالي وأعطيتنه لمسرور؟ فكل شيء ضاعَ لي آخُذه منكن، وأنظر هل ينفعكنَّ مسرورٌ ويَقدرُ على خلاصكنَّ



فمرَّت «زين المواصف» على دَيْرٍ في الطريق، وفيه راهبٌ كبير، فنزلَت عنده.

من يدي؟ ثم إنه مضى إلى الحدَّاد وصنع لهن ثلاثةَ قيود من الحديد، وأتى بها إليهن ونزع ما كان عليهنَّ من الثياب الحرير، وألبسهنَّ ثيابًا من الشَّعْر، وصار يبخِّرهن بالكبريت، ثم جاء إليهن بالحداد وقال له: ضَعْ هذه القيود في أرجل هؤلاء الجواري. فأولُ ما قدَّمَ زينُ المواصف، فلما رآها الحداد غاب صوابه وعضَّ على أنامله وطار عقله من رأسه وزاد غرامه، وقال لليهودي: ما ذنب هؤلاء الجواري؟ فقال: إنهن جواريَّ وسرقْنَ مالي وهربْنَ

مني. فقال له الحداد: خيَّبَ الله ظنك، والله لو كانت هذه الجارية عند قاضي القضاة وأذنبَتْ كلَّ يوم ألفَ ذنبٍ لا يؤاخذها، وأيضًا لا يظهر عليها علامة السرقة، ولا يَقدرُ على وضع الحديد في رجلَيْها. ثم سأله ألَّا يقيِّدها، وصار يستشفع عنده في عدم تقييدها. فلما نظرَتِ الحدادَ وهو يستشفع لها عنده قالت لليهودي: سألتك بالله لا تُخرِجني قدام هذا الرجل الغريب. فقال لها: وكيف خرجتِ قدام مسرور؟ فلم تردَّ له جوابًا، ثم قَبِلَ شفاعة الحداد ووضع في رجلَيْها قيدًا صغيرًا، وقيَّدَ الجواري بالقيود الثقيلة. وكان لزين المواصف جسمٌ ناعم لا يتحمَّل الخشونة، فلم تزل لابسة ثياب الشَّعْر هي وجواريها ليلًا ونهارًا إلى أن انتحلت جسومهن وتغيَّرَتْ ألوانهن. وأما الحداد فإنه وقع في قلبه لزين المواصف عشق عظيم، فسار إلى منزله وهو بأشد الحسرات، وجعل ينشد هذه الأبيات:

شُلَّتْ يَمِينُكَ يَا قَيْنُ بِمَا وَثَقَتْ ... تِلْكَ الْقُيُودُ عَلَى الْأَقْدَامِ وَالْعَصَبِ
قَـيَّـدْتَ أَقْـدَامَ مَـوْلَاةٍ مُـنَـعَّـمَـةٍ ... أَنِيسَةٍ خُلِقَتْ مِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ
لَوْ كُنْتَ تُنْصِفُ مَا كَانَتْ خَلَاخِلُهَا ... مِنَ الْحَدِيدِ وَقَدْ كَانَتْ مِنَ الذَّهَبِ
وَلَوْ رَأَى حُسْنَهَا قَاضِي الْقُضَاةِ رَثَى ... لَـهَا وَأَجْلَـسَـهَا تِيـهًا عَلَـى الرُّكَبِ

وكان قاضي القضاة مارًّا على دار الحداد وهو يترنَّمُ بإنشاد هذه الأبيات، فأرسَلَ إليه، فلما حضر قال: يا حدَّاد، مَن هذه التي تَلهجُ بذِكْرها وقلبُك مشغولٌ بحبها؟ فنهض الحداد قائمًا على قدمَيْه بين يدَي القاضي وقبَّلَ يده، وقال: أدامَ اللهُ أيامَ مولانا القاضي وفسح في عُمره، أنها جارية صفتها كذا وكذا. وصار يصف له الجارية وما هي فيه من الحُسْن والجَمال، والقَدِّ والاعتدال، والظُّرف والكمال، وأنها بوجه جميل، وخَصْر نحيل، ورِدْف ثقيل. ثم أخبره بما هي فيه من الذُّل والحبس والقيود وقِلَّة الزاد، فقال القاضي: يا حدَّاد، دِلَّها علينا وأوصِلْها إلينا حتى نأخذ لها حقَّها؛ لأن هذه الجارية صارت متعلِّقةً برقبتك، وإنْ كنتَ لا تدلها علينا فإن الله يجازيك يومَ القيامة. فقال الحدَّاد: سمعًا وطاعة. ثم إنه توجَّهَ من وقته وساعته إلى دار زين المواصف، فوجد الباب مُغلَقًا، وسمع كلامًا رخيمًا من كَبِد حزين؛ لأن زين المواصف كانت في ذلك الوقت تنشد هذه الأبيات:

قَدْ كُنْتُ فِي وَطَنِي وَالشَّمْلُ مَجْتَمِعٌ ... وَالْحُبُّ يَمْلَأُ لِي بِالصَّفْوِ أَقْدَاحَا
دَارَتْ عَلَيْنَا بِمَا نَهْوَاهُ مِنْ طَرَبٍ ... فَلَـيْسَ تُنْـكِرُ إِمْسَـاءً وَإِصْبَـاحَا

لَقَدْ قَضَيْنَا زَمَانًا كَانَ يُنْعِشُنَا كَأْسًا وَعُودًا وَقَانُونًا وَأَفْرَاحَا
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ وَالتَّصْرِيفُ إِلْفَتَنَا وَالْحُبُّ وَلَّى وَوَقْتُ الصَّفْوِ قَدْ رَاحَ
فَلَيْتَ عَنَّا غُرَابَ الْبَيْنِ مُنْزَجِرٌ وَلَيْتَ فَجْرَ وِصَالِي فِي الْهَوَى لَاحَ

فلما سمع الحدَّاد هذا الشِّعر والنظام، بكى بدمع كدمع الغمام، ثم طرق الباب عليهن، فقلْنَ: مَن بالباب؟ فقال لهن: أنا الحدَّاد. ثم أخبرهن بما قاله القاضي، وأنه يريد حضورَهن لديه وإقامة الدعوى بين يدَيْه، حتى يخلص لهن حقهن. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الحدَّاد لَمَّا أخبر زين المواصف بكلام القاضي، وأنه يريد حضورَهن لديه وإقامة الدعوة بين يدَيْه، ويقتصُّ لهن من غريمهن حتى يخلِّص لهن حقهن، قالت للحدَّاد: كيف نروح إليه والباب مغلوق علينا، والقيود في أرجلنا، والمفاتيح مع اليهودي؟ قال لهن الحدَّاد: أنا أعمل للأقفال مفاتيح وأفتح بها الباب والقيود. قالت: فمَن يعرِّفنا بيت القاضي؟ فقال الحداد: أنا أَصِفُه لَكُنَّ. فقالت زين المواصف: وكيف نمضي عند القاضي ونحن لابسات ثياب الشَّعْر المبخَّرة بالكبريت؟ فقال لهن الحداد: إن القاضي لا يَعِيبكنَّ وأنتنَّ في هذه الحالة. ثم نهض الحدَّاد من وقته وساعته وصنع مفاتيح للأقفال، ثم فتح الباب وفتح القيود وحلَّها من أرجلهن وأخرجهن ودلَّهن على بيت القاضي.

ثم إن جاريتها هبوب نزعت ما كان على سيدتها من الثياب الشَّعْر، وذهبت بها إلى الحمَّام وغسلتها وألبستها ثيابَ الحرير، فرجع لونها إليها، ومن تمام السعادة أن زوجها كان في وليمةٍ عند بعض التجار، فتزيَّنَتْ زين المواصف بأحسن الزينة ومضَتْ إلى بيت القاضي، فلما نظرها القاضي وقف قائمًا على قدمَيْه، فسلَّمَتْ عليه بعذوبةِ كلامٍ وحلاوةِ ألفاظ، ورشَقَتْه في ضمن ذلك بسِهام الألحاظ، وقالت له: أدامَ الله مولانا القاضي، وأيَّدَ به المتقاضي. ثم أخبرته بأمر الحدَّاد وما فعل معها من فعل الأجواد، وبما صنع بها اليهودي من العذاب الذي يُدهِش الألباب، وأخبرته أنه قد زاد بهن الهلاك، ولم يَجِدْنَ لهنَّ مِن فَكَاك. فقال القاضي: يا جارية، ما اسمك؟ قالت: اسمي زين المواصف، وجاريتي هذه اسمها هبوب. فقال لها القاضي: إن اسمك وافَقَ مُسمَّاه، وطابَقَ لفظُه معناه. فتبسَّمَتْ ولفَّتْ وجهها، فقال لها القاضي: يا زين المواصف، أَلَكِ بعْلٌ أم لا؟ قالت: ما لي بعل.

قال: وما دِينُكِ؟ قالت: دِيني الإسلام ومِلَّة خير الأنام. فقال لها: أقسمي بالشريعة ذات الآيات والعِبَر، أنك على مِلَّة خير البشر. فأقسمت له وتشهَّدَتْ، فقال لها القاضي: كيف انقضى شَبابك مع هذا اليهودي؟ فقالت له: اعلم أيها القاضي أدامَ الله أيامك بالتراضي، وبلغك آمالك وختم بالصالحات أعمالك، أنَّ أبي خلف لي بعدَ وفاته خمسةَ عشرَ ألف دينار، وجعلها في يد هذا اليهودي ليتَّجِر فيها، والكسب بينَنا وبينه، ورأسُ المال ثابتٌ بالبيِّنة الشرعية، فعندما مات أبي طمع اليهودي فيَّ وطلبني من أمي ليتزوَّجَ بي، فقالت له أمي: كيف أُخرِجها من دِينها وأجعلها يهودية؟ فوالله لَأعرِّفن الدولةَ بك. فخاف ذلك اليهودي من كلامها وأخذ المال وهرب إلى مدينة عدن، وعندما سمعنا به أنه في مدينة عدن جئنا في طلبه، فلما اجتمعنا عليه في تلك المدينة، ذكر لنا أنه يتاجر في البضائع ويشتري بضاعةً بعدَ بضاعةٍ فصدَّقناه، ولم يزل يخادعنا حتى حبَسَنا وقيَّدَنا وعذَّبَنا أشدَّ العذاب، ونحن غرباء وما لنا معين إلا الله تعالى ومولانا القاضي.

فلما سمع القاضي هذه الحكاية قال لجاريتها هبوب: هل هذه سيدتك وأنتنَّ غرباء وليس لها بَعْل؟ قالت: نعم. قال: زوِّجيني بها وأنا يلزمني العِتق والصيام والحج والصدقة إنْ لم أخلِّص لكُنَّ حقَّكنَّ من هذا الكلب، بعد أن أجازيه بما فعل. فقالت هبوب: لك السمع والطاعة. فقال القاضي: روحي طيِّبي قلبك وقلب سيدتك، وفي غدٍ إن شاء الله تعالى أُرسِل إلى هذا الكافر وأخلِّص لكُنَّ حقَّكنَّ منه، وتنظرين العجب في عذابه. فدعَتْ له الجارية وانصرفت من عنده وخلَّته في كرب وهيام، وشوق وغرام. وبعد أن انصرفت من عنده هي وسيدتها، سألَتَا عن دار القاضي الثاني فدلُّوهما عليه، فلما حضرَتَا لديه أعلمتاه بذلك، وكذلك الثالث والرابع، حتى رفعت أمرها إلى القضاة الأربعة، وكل واحد يسألها أن تتزوَّج به، فتقول له: نعم. ولم يعرف بعضهم خبرَ بعضٍ، فصار كل واحد يطمع فيها، ولم يعلم اليهودي بشيء من ذلك؛ لأنه في دار الوليمة.

فلما أصبح الصباح نهضَتْ جاريتها وأفرغَتْ عليها حُلَّة من أفخر الملابس، ودخلت بها على القضاة الأربعة في مجلس الحكم، فلما رأت القضاةَ حاضرين أسفَرَتْ عن وجهها، ورفعت قِناعَها، وسلَّمَتْ عليهم، فردوا عليها السلام وعرَفَها كلُّ واحدٍ منهم، وكان أحدهم يكتب فوقع القلم من يده، وأحدهم كان يتحدَّث فتلجلج لسانه، وأحدهم كان يحسب فغلط في حسابه، فعند ذلك قالوا لها: يا ظريفة الخصال، لا يكن قلبك إلا طيبًا، فلا بد من أن نخلِّص لك حقك ونبلِّغك مرادك. فدعَتْ لهم، ثم ودَّعَتْهم وانصرفت. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٥٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القضاة قالوا لزين المواصف: يا ظريفة الخصال وبديعة الجمال، لا يكن قلبك إلا طيبًا بقضاء غرضك وبلوغ مرادك. فدعَتْ لهم، ثم ودَّعَتْهم وانصرفت. هذا كله واليهودي مقيم عند أصحابه في الوليمة، وليس له علم بذلك، وصارت زين المواصف تدعو وُلاةَ الأحكام وأرباب الأقلام لينصروها على هذا الكافر المرتاب، ويخلِّصوها من أليم العذاب. ثم بكت وأنشدت هذه الأبيات:

يَا عَيْنُ سِحِّي الدَّمْعَ كَالطُّوفَانِ فَعَسَى بِدَمْعِي تَنْطَفِي أَحْزَانِي
مِنْ بَعْدِ لُبْسِي لِلْحَرِيرِ مُطَرَّزًا أَضْحَى لِبَاسِي مَلْبَسُ الرُّهْبَانِ
قَدْ صَارَ كِبْرِيتًا بُخُورُ مَلَابِسِي شَتَّانَ بَيْنَ النَّدِّ وَالرَّيْحَانِ
لَوْ كُنْتَ يَا مَسْرُورُ تَعْلَمُ حَالَنَا مَا كُنْتَ تَرْضَى ذِلَّتِي وَهَوَانِي
وَهُبُوبِي فِي قَيْدِ الْحَدِيدِ أَسِيرَةً مَعْ كَافِرٍ بِالْوَاحِدِ الدَّيَّانِ
وَزَهِدْتُ أَحْوَالَ الْيَهُودِ وَدِينَهُمْ وَالْيَوْمَ دِينِي أَشْرَفُ الْأَدْيَانِ
وَسَجَدْتُ لِلرَّحْمَنِ سَجْدَةَ مُسْلِمٍ وَتَبِعْتُ شَرْعَ مُحَمَّدٍ بِبَيَانِ
مَسْرُورُ لَا تَنْسَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَنَا وَاحْفَظْ وَثِيقَ الْعَهْدِ وَالْإِيمَانِ
أَبْدَلْتُ دِينِي فِي هَوَاكَ وَإِنَّنِي مِنْ فَرْطِ حُبِّي لَمْ يَزَلْ كِتْمَانِي
بَادِرْ إِلَيْنَا إِنْ حَفِظْتَ وِدَادَنَا حِفْظَ الْكِرَامِ وَلَا تَكُنْ مُتَوَانِي

ثم إنها كتبَتْ كتابًا يتضمَّن جميعَ ما عمله معها اليهودي من الأول إلى الآخر، وسطَّرَتْ فيه الأشعار، ثم طوَتِ الكتابَ وناولَتْه لجاريتها هبوب وقالت لها: احفظي هذا الكتاب في جيبك حتى نرسله إلى مسرور. فبينما هما كذلك وإذا باليهودي قد دخل عليهما،

فرآهما فرحانتين فقال: ما لي أراكما فرحانتين؟ هل جاءكما كتاب من عند صديقكما مسرور؟ فقالت له زين المواصف: نحن ما لنا معين عليك إلا الله سبحانه وتعالى، فإنه هو الذي يخلِّصنا من جَوْرِك، وإن لم ترُدَّنا إلى بلادنا وأوطاننا، فنحن في غدٍ نترافع وإياكَ إلى حاكم هذه المدينة وقاضيها. فقال اليهودي: ومَن خلَّص القيود من أرجلكما؟ ولكن لا بد أن أصنع لكلٍّ واحدة منكن قيدًا قدْرُه عشرة أرطال، وأطوف بكُنَّ حول المدينة. فقالت له هبوب: جميع ما نويتَه لنا ستقع فيه إن شاء الله كما أبعدتنا عن أوطاننا، وفي غدٍ نقف وإياكَ قدام حاكم المدينة. واستمروا على ذلك إلى الصباح، ثم نهض اليهودي وجاء إلى الحدَّاد ليصنع قيودًا لهن، فعند ذلك قامت زين المواصف هي وجواريها وأتَتْ إلى دار الحكم ودخلَتْها، فرأَتِ القضاةَ فسلَّمَتْ عليهم، فردَّ عليها جميعُ القضاة السلامَ، ثم قال قاضي القضاة لَمن حوله: إن هذه الجارية زهراوية، وكل مَن رآها حَبَّها وخضع لحُسْنها وجمالها. ثم إن القاضي أرسل معها من الرُّسُل أربعة وكانوا أشرافًا، وقال لهم: أحضروا غريمها في أسوأ حال.

هذا ما كان من أمرها، وأما ما كان من أمر اليهودي، فإنه لما صنع لهن القيودَ توجَّهَ إلى المنزل فلم يجدهن فيه، فاحتار في أمره، فبينما هو كذلك وإذا بالرُّسُل قد تعلَّقوا به وضربوه ضربًا شديدًا وجرُّوه سحبًا على وجهه حتى أتوا به إلى القاضي، فلما رآه القاضي صرخ في وجهه وقال: ويلك يا عدوَّ الله، هل وصل من أمرك أنك فعلتَ ما فعلتَ، وأبعدْتَ هؤلاء عن أوطانهن، وسرقتَ مالَهن وتريد أن تجعلهن يهودًا؟ فكيف تريد تكفير المسلمين؟ فقال اليهودي: يا مولاي، إن هذه زوجتي. فلما سمع القضاة منه هذا الكلام صاحوا كلهم، وقالوا: ارموا هذا الكلب على الأرض، وانزلوا على وجهه بنعالكم واضربوه ضربًا وجيعًا، فإن ذنبه لا يُغفَر. فنزعوا عنه ثيابه الحرير، وألبسوه ثيابًا من الشَّعْر، وألقَوْه على الأرض، ونتفوا لحيته، وضربوه ضربًا وجيعًا على وجهه بالنعال، ثم أركبوه على حمار وجعلوا وجهه إلى كَفَله، وأمْسَكُوه ذيلَ الحمار في يده، وطافوا به حول المدينة حتى جرَّسوه في سائر البلد، ثم عادوا به إلى القاضي وهو في ذلٍّ عظيم، فحكم عليه القضاة الأربعة بأن تُقطَعَ يداه ورجلاه، وبعد ذلك يُصلَب؛ فاندهش الملعون من ذلك القول وغاب عقله وقال: يا ساداتي القضاة، ما تريدون مني؟ فقالوا له: قُلْ إنَّ هذه الجارية ما هي زوجتي، وإن المال مالها، وأنا تعدَّيْتُ عليها وشتَّتُّها عن أوطانها. فأَقَرَّ بذلك وكتبوا بإقراره حجةً، وأخذوا منه المال ودفعوه إلى زين المواصف وأعطوها الحجَّةَ وخرجت، فصار كلُّ مَن رأى حُسْنَها وجمالها متحيِّرًا في عقله، وظنَّ كلُّ واحد من القضاة أنها يئول أمرُها

إليه، فلما وصلت إلى منزلها جهَّزَتْ أمرها من جميع ما تحتاج إليه، وصَبَرت إلى أن دخل الليل، فأخذت ما خفَّ حمله وغلا ثمنه، وسارت هي وجواريها في ظلام الليل، ولم تزل سائرةً مسافة ثلاثة أيام ولياليها. هذا ما كان من أمر زين المواصف، وأما ما كان من أمر القضاة، فإنهم بعد ذهابها أمروا بحبس اليهودي زوجها. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن القضاة أمروا بحبس اليهودي زوج زين المواصف، فلما أصبح الصباح صار القضاة والشهود ينتظرون أن تحضر عندهم زين المواصف، فلم تحضر عند أحدٍ منهم، ثم إن القاضي الذي ذهبَتْ إليه أولًا قال: أنا أريد اليوم أن أتفرج على خارج المدينة لأنَّ لي حاجةً هناك. ثم ركب بغلته وأخذ غلامه وصار يطوف في أزِقَّة المدينة طولًا وعرضًا، ويفتِّش على زين المواصف فلم يقع لها على خبر، فبينما هو كذلك إذ وجد باقي القضاة دائرين، وكل واحد منهم يظن أنه ليس بينها وبين غيره ميعاد، فسألهم ما سبب ركوبهم ودورانهم في أزقَّة المدينة، فأخبروه بشأنهم، فرأى حالهم كحاله وسؤالهم كسؤاله، ثم صار الجميع يفتِّشون عليها، فلم يقعوا لها على خبر، فانصرف كل واحد منهم إلى منزله مريضًا، ورقدوا على فرش الضنى. ثم إن قاضي القضاة تذكَّرَ الحدَّادَ فأرسَلَ إليه، فلما حضر بين يدَيْه قال: يا حداد، هل تعرف شيئًا من خبر الجارية التي دللتها علينا؟ فوالله إن لم تُطلِعني عليها ضربتك بالسياط. فلما سمع الحدَّادُ كلامَ القاضي أنشد هذين البيتين:

إِنَّ الَّتِي مَلَكَتْنِي فِي الْهَوَى مَلَكَتْ ... مَجَامِعَ الْحُسْنِ حَتَّى لَمْ تَدَعْ حَسَنَا

رَنَتْ غَزَالًا وَفَاحَتْ عَنْبَرًا وَبَدَتْ ... شَمْسًا وَمَاجَتْ غَدِيرًا وَانْثَنَتْ غُصُنَا

ثم إن الحداد قال: والله يا مولاي من حين انصرفت من الحضرة الشريفة ما نظرَتْها عيني قطُّ، وقد ملكت لبِّي وعقلي، وصار فيها حديثي وشغلي، وقد مضيت إلى منزلها فلم أجدها، ولم أَرَ أحدًا يخبرني عن شأنها، فكأنها غطست في قرار الماء أو عُرج بها إلى السماء. فلما سمع القاضي كلامَه شهق شهقةً كادَتْ روحُه أن تخرج منها، ثم قال: والله

ما كان لنا حاجةٌ برؤيتها. فانصرف الحدَّاد ووقع القاضي على فرشه، وصار من أجلها في ضنًى، وكذا الشهود وباقي القضاة الأربعة، وصارت الحكماء تتردَّد عليهم، وما بهم من مرض يحتاج إلى الطبيب. ثم إن وجهاء الناس دخلوا على القاضي الأول فسلَّموا عليه واستخبروه عن حاله، فتنهَّدَ وباح بما في ضميره، وأنشد هذه الأبيات:

كُفُّوا الْمَلَامَ كَفَانِي مُؤْلِمُ السَّقَمِ   وَاسْتَعْذِرُوا قَاضِيًا يَقْضِي عَلَى الْأُمَمِ
مَنْ كَانَ يَعْذُلُنِي فِي الْحُبِّ يَعْذِرُنِي   وَلَا يَلُمْ فَقَتِيلُ الْحُبِّ لَمْ يُلَمِ
فَقَاضِيًا كُنْتُ وَالْأَقْدَارُ تُسْعِدُنِي   عَلَى الْمَرَاتِبِ فِي حَظِّي وَفِي قَلَمِي
حَتَّى رُمِيتُ بِسَهْمٍ لَا طَبِيبَ لَهُ   مِنْ طَرْفِ جَارِيَةٍ جَاءَتْ لِسَفْكِ دَمِي
مَا مِثْلُ مُسْلِمَةٍ تَشْكُو ظُلَامَتَهَا   وَثَغْرُهَا كَيَتِيمِ الدُّرِّ مُنْتَظِمِ
نَظَرْتُ تَحْتَ مُحَيَّاهَا وَقَدْ سَفَرَتْ   بَدْرًا بَدَا تَحْتَ جُنْحِ اللَّيْلِ فِي الظُّلَمِ
وَجْهًا مُنِيرًا وَثَغْرًا بَاسِمًا عَجَبًا   قَدْ عَمَّهَا الْحُسْنُ مِنْ فَرْقٍ إِلَى قَدَمِ
وَاللهِ مَا نَظَرَتْ عَيْنِي كَطَلْعَتِهَا   مِنَ الْبَرِيَّةِ فِي عُرْبٍ وَلَا عَجَمِ
يَا حُسْنَ مَا وَعَدَتْنِي وَهْيَ قَائِلَةٌ:   إِذَا وَعَدْتُ أَفِي يَا قَاضِيَ الْأُمَمِ
هَذَا مَقَامِي وَهَذَا مَا بُلِيتُ بِهِ   لَا تَسْأَلُوا عَنْ شُجُونِي يَا أُولِي الْهِمَمِ

فلما فرغ القاضي من هذه الأبيات بكى بكاءً شديدًا، ثم إنه شهق شهقة ففارقت روحه جسده، فلما رأوا ذلك غسَّلوه وكفَّنوه وصلَّوْا عليه ودفنوه، وكتبوا على قبره هذه الأبيات:

كَمُلَتْ صِفَاتُ الْعَاشِقِينَ لِمَنْ غَدَا   فِي الْقَبْرِ مَقْتُولَ الْحَبِيبِ وَصَدِّهِ
قَدْ كَانَ هَذَا لِلْبَرِيَّةِ قَاضِيًا   وَيَرَاعُهُ سَجَنَ الْحُسَامَ بِغِمْدِهِ
فَقَضَى عَلَيْهِ الْحُبُّ لَمْ نَرَ قَبْلَهُ   مَوْلًى تَذَلَّلَ فِي الْأَنَامِ لِعَبْدِهِ

ثم إنهم ترحَّموا عليه وانصرفوا إلى القاضي الثاني ومعهم الطبيب، فلم يجدوا به ضررًا ولا ألَمًا يحتاج إلى طبيب، فسألوه عن حاله وشغل باله، فعرَّفهم بقضيته، فلاموه وعنَّفوه على تلك الحالة، فأجابهم مترنِّمًا بهذه الأبيات:

بُلِيتُ بِهَا وَمِثْلِي لَا يُلَامُ   رُمِيتُ بِنَبْلَةٍ مِنْ كَفِّ رَامِ
أَتَتْنِي امْرَأَةٌ تُدْعَى هُبُوبًا   تَعُدُّ الدَّهْرَ عَامًا بَعْدَ عَامِ

وَمَعْهَا طِفْلَةٌ أَبْدَتْ مُحَيَّا يَفُوقُ الْبَدْرَ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ
فَبَيَّنَتِ الْمَحَاسِنَ وَهْيَ تَشْكُو وَأَدْمُعُ جَفْنِهَا ذَاتُ انْسِجَامِ
سَمِعْتُ كَلَامَهَا وَنَظَرْتُ فِيهَا فَأَضْنَتْنِي بِثَغْرٍ ذِي ابْتِسَامِ
وَقَدْ رَحَلَتْ بِقَلْبِي حِينَ رَاحَتْ وَخَلَّتْنِي رَهِينًا فِي غَرَامِي
فَهَذِي قِصَّتِي فَارْثُوا لِحَالِي وَحُطُّوا قَاضِيًا غَيْرِي غُلَامِي

ثم إنه شهق شهقة، ففارقت روحه جسده، فجهَّزوه ودفنوه وترحَّموا عليه. ثم توجَّهوا إلى القاضي الثالث، فوجدوه مريضًا وحصل له ما حصل للثاني، وكذلك الرابع، فوجدوا الجميعَ مرضى بحبِّها، ووجدوا الشهود أيضًا مرضى بحبها، فإن كلَّ مَن رآها مات بحبها، وإنْ لم يَمُتْ عاش يكابد لوعة الغرام. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد أن أهل المدينة وجدوا جميعَ القضاة والشهود مرضى بحبها، فإن كلَّ مَن رآها مات بعشقها، وإن لم يَمُتْ عاشَ يكابد لوعة الغرام من شدة حبها، رحمهم الله أجمعين. هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر زين المواصف، فإنها جدَّتْ في السير مدة أيام حتى قطعت مسافةً بعيدةً، فاتفق أنها خرجت هي وجواريها فمرَّتْ على دير في الطريق وفيه راهب كبير اسمه دانس، وكان عنده أربعون بطريقًا، فلما رأى جمالَ زينِ المواصف نزل إليها وعزم عليها، وقال لها: استريحوا عندنا عشرة أيام ثم سافروا. فنزلت عنده هي وجواريها في ذلك الدير، فلما نزلت ورأى حُسْنَها وجمالها أفسدَتْ عقيدته وافتتن بها، وصار يرسل إليها البطارقةَ واحدًا بعد واحد لأجل أن يؤلفها، فصار كلُّ مَن أرسله إليها يقع في حبها ويراودها عن نفسها له، وهي تتعذَّر وتتمنَّع. ولم يَزَلْ دانس يرسل إليها واحدًا بعد واحدٍ، حتى أرسل إليها الأربعين بطريقًا، وكل واحد حين يراها يتعلَّق بعشقها ويُكثِر من مُلاطَفتها ويُراوِدها عن نفسها، ولا يذكر لها اسم دانس، فتمتنع من ذلك وتجاوبهم بأغلظ جواب. فلما فرغ صبر دانس واشتدَّ غرامه، قال في نفسه: إن صاحب المثل يقول: ما حكَّ جسمي غير ظفري، ولا سعى في مرامي مثل أقدامي. ثم نهض قائمًا على قدمَيْه وصنع طعامًا مفتخرًا وحمله ووضعه بين يديها، وكان ذلك في اليوم التاسع من العشرة أيام التي اتفق معها على إقامتها عنده لأجل الاستراحة، فلما وضعه بين يدَيْها قال: تفضَّلي باسم الله، خير الزاد ما حصل. فمدَّتْ يدها وقالت: بسم الله الرحمن الرحيم. وأكلت هي وجواريها، فلما فرغت من الأكل قال لها: يا سيدتي، أريد أن أنشدك أبياتًا من الشعر. قالت له: قُلْ. فأنشد هذه الأبيات:

مَلَكْتِ قَلْبِي بِأَلْحَاظٍ وَوَجْنَاتِ ... وَفِي هَوَاكِ غَدَا نَثْرِي وَأَبْيَاتِي

أَتَتْرُكِينَ مُحِبًّا مُغْرَمًا دَنِفًا ... يُعَالِجُ الْعِشْقَ حَتَّى فِي الْمَنَامَاتِ

لَا تَتْرُكِينِي صَرِيعًا وَالِهًا فَلَقَدْ   تَرَكْتُ أَشْغَالَ دَيْرِي بَعْدَ لَذَّاتِي
يَا غَادَةً جَوَّزَتْ فِي الْحُبِّ سَفْكَ دَمِي   رِفْقًا بِحَالِي وَعَطْفًا فِي شُكَيَّاتِي

فلما سمعت زين المواصف شِعْرَه، أجابته عن شعره بهذين البيتين:

يَا طَالِبَ الْوَصْلِ لَا يَغْرُرْكَ بِي أَمَلٌ   اكْفُفْ سُؤَالَكَ عَنِّي أَيُّهَا الرَّجُلُ
لَا تُطْمِعِ النَّفْسَ فِيمَا لَسْتَ تَمْلِكُهُ   إِنَّ الْمَطَامِعَ مَقْرُونٌ بِهَا الْوَجَلُ

فلما سمع شعرها رجع إلى صومعته وهو متفكِّر في نفسه، ولم يَدْرِ كيف يصنع في أمرها، ثم بات تلك الليلة في أسوأ حالٍ، فلما جنَّ الليل قامت زين المواصف وقالت لجواريها: قوموا بنا فإننا لا نقدر على أربعين رجلًا رهبانًا، وكل واحد يراودني عن نفسي. فقالت لها الجواري: حبًّا وكرامة. ثم إنهن ركبن دوابهن وخرجن من باب الدير ليلًا. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زين المواصف لما خرجَتْ هي وجواريها من الدير ليلًا، لم يَزَلْنَ سائرات، وإذا هن بقافلة سائرة فاختلطن بها، وإذا بالقافلة من مدينة عدن التي كانت فيها زين المواصف، فسمعت أهل القافلة يتحدَّثون بخبر زين المواصف ويذكرون أن القضاة والشهود ماتوا في حبها، وولَّى أهلُ المدينة قضاةً وشهودًا غيرهم، وأطلقوا زوجَ زين المواصف من الحبس، فلما سمعت زين المواصف هذا الكلام التفتَتْ إلى جواريها وقالت لجاريتها هبوب: أَلَا تسمعين هذا الكلام؟ فقالت لها جاريتها: إذا كان الرهبان الذين عقيدتهم أن الترهُّبَ عن النساء عبادة، قد افتتنوا في هواك، فكيف حال القضاة الذين عقيدتهم أنه لا رهبانية في الإسلام؟ ولكن امضِ بنا إلى أوطاننا ما دام أمرنا مكتومًا. ثم إنهن سِرْنَ وبالَغْنَ في السير.

هذا ما كان من أمر زين المواصف وجواريها، وأما ما كان من أمر الرهبان، فإنهم لما أصبح الصباح أتوا إلى زين المواصف لأجل السلام، فرأوا المكان خاليًا فأخذهم المرض في أجوافهم، ثم إن الراهب الأول مزَّقَ ثيابه وصار ينشد هذه الأبيات:

أَلَا يَا أُصَيْحَابِي تَعَالَوْا فَإِنَّنِي ... مُفَارِقُكُمْ عَمَّا قَلِيلٍ وَرَاحِلُ
فَإِنَّ فُؤَادِي فِيهِ آلَامُ لَوْعَةٍ ... وَقَلْبِي بِهِ مِنْ زَفْرَةِ الْحُبِّ قَاتِلُ
لِأَجْلِ فَتَاةٍ قَدْ أَتَتْ نَحْوَ أَرْضِنَا ... لَهَا الْبَدْرُ فِي أُفْقِ السَّمَاءِ يُعَادِلُ
فَرَاحَتْ وَخَلَّتْنِي قَتِيلَ جَمَالِهَا ... طَرِيحَ سِهَامٍ صَادَفَتْهَا مَقَاتِلُ

ثم إن الراهب الثاني أنشد هذه الأبيات:

يَا رَاحِلِينَ بِمُهْجَتِي رِفْقًا عَلَى ... مِسْكِينِكُمْ وَتَعَطَّفُوا بِالْمَرْجِعِ
رَاحُوا فَرَاحَتْ رَاحَتِي مِنْ بَعْدِهِمْ ... وَنَأَوْا وَطِيبُ حَدِيثِهِمْ فِي مَسْمَعِي

شَطُّوا فَشَطَّ مَزَارُهُمْ يَا لَيْتَهُمْ ... مَنُّوا عَلَيْنَا فِي الْمَنَامِ بِمَرْجَعِ
أَخَذُوا فُؤَادِي عِنْدَمَا رَحَلُوا وَقَدْ ... تَرَكُوا جَمِيعِي فِي سَوَافِحِ أَدْمُعِي

ثم إن الراهب الثالث أنشد هذه الأبيات:

يُصَوِّرُكُمْ قَلْبِي وَعَيْنِي وَمَسْمَعِي ... فَقَلْبِي لَكُمْ مَأْوَى وَكُلِّي بِأَجْمَعِي
وَذِكْرُكُمُ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ فِي فَمِي ... وَيجْرِي كَمَجْرَى الرُّوحِ فِي كُلِّ أَضْلُعِي
وَصَيَّرْتُمُونِي كَالْخِلَالِ مِنَ الضَّنَى ... وَأَغْرَقْتُمُونِي فِي الْغَرَامِ بِمَدْمَعِي
دَعُونِي أَرَاكُمْ فِي الْمَنَامِ لَعَلَّكُمْ ... تُرِيحُوا خُدُودِي مِنْ تَبَارِيحِ أَدْمُعِي

ثم إن الراهب الرابع أنشد هذين البيتين:

خَرِسَ اللِّسَانُ وَقَلَّ فِيكَ كَلَامِي ... وَالْحُبُّ مِنْهُ تَوَجُّعِي وَسَقَامِي
يَا بَدْرُ تَمَّ فِي السَّمَاءِ مَحَلُّهُ ... قَدْ زَادَ فِيكَ تَوَلُّهِي وَهُيَامِي

ثم إن الراهب الخامس أنشد هذه الأبيات:

أَهْوَى قَمَرًا عَادِلَ الْقَدِّ رَشِيقْ ... وَالْخَصْرُ نَحِيلُ شَاكِي الضَّرَرْ
وَرِيقُهُ شِبْهُ سُلَافٍ وَرَحِيقْ ... وَالرِّدْفُ ثَقِيلُ لَاهِي الْبَشَرْ
وَالْقَلْبُ غَدَا بِالْغَرَامِ حَرِيقْ ... وَالصَّبُّ قَتِيلُ بَيْنَ السُّمُرْ
وَالدَّمْعُ عَلَى الْخَدِّ قَانٍ كَعَقِيقْ ... فِي الْخَدِّ يَسِيلُ مِثْلَ الْمَطَرْ

ثم إن الراهب السادس أنشد هذه الأبيات:

يَا مُتْلِفِي فِي الْحُبِّ فَرْطُ صُدُودِهِ ... يَا غُصْنَ بَانٍ لَاحَ نَجْمُ سُعُودِهِ
أَشْكُو إِلَيْكَ كَآبَتِي وَصَبَابَتِي ... يَا مُحْرِقِي فِي نَارِ وَرْدِ خُدُودِهِ
هَلْ مِثْلُ صَبٍّ فِيكَ غَادَرَ نُسْكَهُ ... وَغَدَا عَدِيمَ رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ

ثم إن الراهب السابع أنشد هذه الأبيات:

سَجَنَ الْفُؤَادَ وَدَمْعَ عَيْنِي أَطْلَقَا ... وَالْوَجْدُ جَدَّدَهُ وَصَبْرِي مَزَّقَا
حُلْوُ الشَّمَائِلِ مَا أَمَرَّ صُدُودَهُ ... يَرْمِي الْفُؤَادَ بِسَهْمِهِ عِنْدَ اللِّقَا
يَا عَاذِلِي أَقْصِرْ وَتُبْ عَمَّا مَضَى ... مَا أَنْتَ فِي خَبَرِ الْغَرَامِ مُصَدَّقَا

وهكذا باقي البطارقة والرهبان كلهم يبكون وينشدون الأشعار، وأما كبيرهم دانس فإنه زاد به البكاء والعويل، ولم يجد لوصالها من سبيل، ثم إنه صار يترنَّم بإنشاد هذه الأبيات:

عَدِمْتُ اصْطِبَارِي يَوْمَ سَارَ أَحِبَّتِي وَفَارَقَنِي مَنْ كَانَ سُؤْلِي وَمُنْيَتِي
فَيَا حَادِيَ الْأَظْعَانِ رِفْقًا بِعِيسِهِمْ عَسَى أَنْ يَمُنُّوا بِالرُّجُوعِ لِدَارَتِي
جَفَا جَفْنَ عَيْنِي النَّوْمُ بَعْدَ فِرَاقِهِمْ وَجَدَّدْتُ أَحْزَانِي وَفَارَقْتُ لَذَّتِي
إِلَى اللهِ أَشْكُو مَا أُلَاقِي بِحُبِّهَا لَقَدْ أَنْحَلَتْ جِسْمِي وَأَوْدَتْ بِقُوَّتِي

ثم إنهم لما يئسوا منها أجمع رأيهم على أنهم يصوِّرون صورتَها عندهم، واتفقوا على ذلك إلى أن أتاهم هادِمُ اللذات. هذا ما كان من أمر هؤلاء الرهبان أصحاب الدير، وأما ما كان من أمر زين المواصف، فإنها سارت تقصد محبوبها مسرورًا، ولم تزل سائرةً إلى أن وصلت إلى منزلها، وفتحت الأبواب ودخلت الدار، ثم أرسلت إلى أختها نسيم، فلما سمعت أختها بذلك فرحت فرحًا شديدًا وأحضرت لها الفراش ونفيس القماش، ثم إنها فرشت لها وألبستها وأرخَتِ الستورَ على الأبواب، وأطلقت العود والند والعنبر والمسك والأذفر حتى عبق المكان من تلك الرائحة، وصار أعظم ما يكون. ثم إن زين المواصف لبسَتْ أفخرَ قماشها وتزيَّنَتْ أحسن الزينة، كل ذلك جرى ومسرور لم يعلم بقدومها، بل كان في همٍّ شديد، وحزنٍ ما عليه من مزيد. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن زين المواصف لما دخلت دارها أتَتْ لها أختها بالفراش والقماش، وفرشت لها وألبستها أفخر الثياب، كل ذلك جرى ومسرور لم يعلم بقدومها، بل كان في همٍّ شديد، وحزن ما عليه من مزيد. ثم جلست زين المواصف تتحدَّث مع جواريها اللاتي تخلَّفن عن السفر معها، وذكرت لهن جميعَ ما وقع لها من الأول إلى الآخر، ثم إنها التفتَتْ إلى هبوب وأعطتها دراهم، وأمرتها أن تذهب وتأتي لها بشيء تأكله هي وجواريها، فذهبت وأتَتْ بالذي طلبته من الأكل والشرب، فلما انتهى أكلهن وشربهن أمرَتْ هبوبَ أن تمضي إلى مسرور وتنظر أين هو وتشاهد ما هو فيه من الأحوال، وكان مسرور لا يقرُّ له قرار، ولا يمكنه اصطبار، فلما زاد عليه الوَجْد والغرام، والعشق والهيام، صار يتسلَّى بإنشاد الأشعار، ويذهب إلى الدار ويقبِّل الجدار، فاتفق أنه مضى إلى محل التوديع، وصار ينشد هذا الشعر البديع:

أَخْفَيْتُ مَا أَلْقَاهُ مِنْهُ وَقَدْ ظَهَرْ وَالنَّوْمُ مِنْ عَيْنِي تَبَدَّلَ بِالسَّهَرْ
نَادَيْتُ لَمَّا قَدْ سَبَتْ قَلْبِي الْفِكَرْ يَا دَهْرُ لَا تُبْقِ عَلَـيَّ وَلَا تَذَرْ
هَا مُهْجَتِي بَيْنَ الْمَشَقَّةِ وَالْخَطَرْ
لَوْ كَانَ سُلْطَانُ الْمَحَبَّةِ مُنْصِفِي مَا كَانَ نَوْمِي مِنْ عُيُونِي قَدْ نُفِي
يَا سَادَتِي رِقُّوا لِصَّبٍّ مُدْنَفِ وَارْثُوا لِحَالِ كَبِيرِ قَوْمٍ زَلَّ فِي
شَرْعِ الْهَوَى وَغَنِيِّ قَوْمٍ افْتَقَرْ
لَجَّ الْعَوَاذِلُ فِيكَ مَا طَاوَعْتُهُمْ وَسَدَدْتُ كُلَّ مَسَامِعِي وَكَتَمْتُهُمْ
وَحَفِظْتُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُحِبُّهُمْ قَالُوا عَشِقْتَ مُفَارِقًا فَأَجَبْتُهُمْ
كُفُّوا، إِذَا نَزَلَ الْقَضَا عُمِيَ الْبَصَرْ

ثم إنه رجع إلى منزله وقعد يبكي، فغلب عليه النوم، فرأى في منامه كأنَّ زين المواصف أتَتْ إلى الدار، فانتبه من نومه وهو يبكي، ثم سار متوجِّهًا إلى منزل زين المواصف وهو ينشد هذه الأبيات:

أَأَسْلُوا الَّتِي فِي الْحُبِّ قَدْ مَلَكَتْ أَسْرِي وَقَلْبِي عَلَى نَارٍ أَحَرَّ مِنَ الْجَمْرِ
عَشِقْتُ الَّتِي أَشْكُو إِلَى اللهِ بُعْدَهَا وَصَرْفَ اللَّيَالِي وَالْحَوَادِثَ مِنَ دَهْرِي
مَتَّى الْمُلْتَقَى يَا غَايَةَ الْقَلْبِ وَالْمُنَى وَأَحْظَى بِجَمْعِ الشَّمْلِ يَا طَلْعَةَ الْبَدْرِ

وكان آخِر ما أنشد من الشعر وهو ماشٍ في زقاق زين المواصف، فشمَّ منه الروائح الزكية، فهاجَ لبُّه وفارَقَ صدرَه قلبُه، وتضرم غرامه وزاد هيامه، وإذا بهبوب متوجِّهة إلى قضاء حاجةٍ، فرآها وهي مُقبِلة من صدر الزقاق، فلما رآها فرح فرحًا شديدًا، فلما رأته هبوب أتَتْ إليه وسلَّمَتْ عليه وبشَّرَتْه بقدوم سيدتها زين المواصف، وقالت له: إنها أرسلتني في طلبك إليها. ففرح بذلك فرحًا شديدًا ما عليه من مزيد، ثم أخذته ورجعت به إليها، فلما رأته زين المواصف نزلت له من فوق سريرها وقبَّلَتْه وقبَّلَها، وعانقَتْه وعانَقَها، ولم يزالَا يقبِّلان بعضهما ويتعانقان حتى غُشِي عليهما زمنًا طويلًا من شدة المحبة والفراق، فلما أفاقَا من غشيتهما أمرَتْ جاريتها هبوب بإحضار قلةٍ مملوءةٍ من شراب السكر، وقلةٍ مملوءةٍ من شراب الليمون، فأحضرَتْ لها الجاريةُ جميعَ ما طلبته، ثم أكلوا وشربوا، وما زالوا كذلك إلى أن أقبَلَ الليلُ، فصاروا يذكرون الذي جرى لهم من أوله إلى آخره. ثم إنها أخبرته بإسلامها، ففرح وأسلَمَ هو أيضًا، وكذلك جواريها وتابوا إلى الله تعالى، فلما أصبح الصباح أمرَتْ بإحضار القاضي والشهود وأخبرتهم أنها عازبة، وقد وفت العدة ومُرادُها الزواج بمسرور، فكتبوا كتابَها وصاروا في ألذ عيش.

هذا ما كان من أمر زين المواصف، وأما ما كان من أمر زوجها اليهودي، فإنه حين أطلَقَه أهل المدينة من السجن، سافَرَ منها متوجِّهًا إلى بلاده، ولم يَزَلْ مسافرًا حتى صار بينه وبين المدينة التي فيها زين المواصف ثلاثة أيام، فأُخبِرت بذلك زين المواصف، فدعَتْ بجاريتها هبوب وقالت لها: امضِ إلى مقبرة اليهود واحفري قبرًا وضعي عليه الرياحين ورشِّي حوله الماء، وإن جاء اليهودي وسألكِ عني فقولي له: إن سيدتي ماتَتْ من قهرها عليك، ومضى لموتها مدة عشرين يومًا. فإن قال: أريني قبرها. فخذيه إلى القبر وتحيَّلِي على دفنه فيه بالحياة. فقالت: سمعًا وطاعةً. ثم إنهم رفعوا الفراشَ وأدخلوه في مخدع، ومضَتْ إلى بيت مسرور، فقعد هو وإياها في أكل وشرب، ولم يزالوا كذلك حتى مضت الثلاثة أيام.

هذا ما كان من أمرهم، وأما ما كان من أمر زوجها، فإنه لما أقبَلَ من السفر، دقَّ الباب، فقالت هبوب: مَن بالباب؟ فقال: سيدكِ. ففتحت له الباب، فرأى دموعها تجري على خدها، فقال لها: ما يُبكِيك؟ وأين سيدتكِ؟ فقالت له: إن سيدتي ماتَتْ بسبب قهرها عليك. فلما سمع منها ذلك الكلام تحيَّرَ في أمره وبكى بكاءً شديدًا، ثم قال لها: يا هبوب، أين قبرها؟ فأخذته ومضَتْ به إلى المقبرة وأرَتْه القبرَ الذي حفرته، فعند ذلك بكى بكاءً شديدًا ثم أنشد هذين البيتين:

شَيْئَانِ لَوْ بَكَتِ الدِّمَاءَ عَلَيْهِمَا ... عَيْنَايَ حَتَّى يُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ يَقْضِيَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقَّيْهِمَا ... شَرْخُ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ

ثم بكى بكاءً شديدًا وأنشد هذه الأبيات:

أَوَّاهُ وَا أَسَفِي قَدْ خَانَنِي جَلَدِي ... وَمِنْ فِرَاقِ حَبِيبِي مُتُّ بِالْكَمَدِ
يَا مَا دَهَانِيَ مِنْ بَعْدِ الْحَبِيبِ وَيَا ... تَقْطِيعَ قَلْبِي عَلَى مَا قَدَّمَتْهُ يَدِي
يَا لَيْتَنِي قَدْ كَتَمْتُ السِّرَّ فِي زَمَنِي ... وَلَمْ أَبُحْ بِغَرَامٍ هَاجَ فِي كَبِدِي
قَدْ كُنْتُ فِي عِيشَةٍ مَرْضِيَّةٍ رَغَدٍ ... وَصِرْتُ مِنْ بَعْدِهَا فِي الذُّلِّ وَالنَّكَدِ
فَيَا هَبُوبُ لَقَدْ هَيَّجْتِ لِي شَجَنًا ... بِمَوْتِ مَنْ كَانَ مِنْ دُونِ الْوَرَى سَنَدِي
زَيْنَ الْمَوَاصِفِ لَا كَانَ الْفِرَاقُ وَلَا ... كَانَ الَّذِي فَارَقَتْ رُوحِي بِهِ جَسَدِي
لَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى نَقْضِ الْعُهُودِ وَقَدْ ... عَاتَبْتُ نَفْسِي عَلَى التَّفْرِيطِ فِي عَمَدِي

فلما فرغ من شعره بكى وأنَّ واشتكى، فخرَّ مغشيًّا عليه، فلما غُشِي عليه أسرعَتْ هبوب بجرِّه ووضْعِه في القبر وهو بالحياة ولكنه مدهوش، ثم سدَّتْ عليه ورجعت إلى سيدتها وأعلمَتْها بهذا الخبر، ففرحَتْ بذلك فرحًا شديدًا وأنشدت هذين البيتين:

الدَّهْرُ أَقْسَمَ لَا يَزَالُ مُكَدِّرِي ... حَنَثَتْ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكَفِّرِ
مَاتَ الْعَذُولُ وَمَنْ هَوِيتُ مُوَاصِلِي ... فَانْهَضْ إِلَى دَاعِي السُّرُورِ وَشَمِّرِ

ثم إنهم أقاموا مع بعضهم على الأكل والشرب، واللهو واللعب والطرب، إلى أن أتاهم هادم اللذات ومفرِّق الجماعات ومميت البنين والبنات.

حكاية علي نور الدين ومريم

ومما يُحكَى أنه كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان، رجل تاجر بالديار المصرية يُسمَّى تاج الدين، وكان من أكابر التجار ومن الأمناء الأحراء، إلا أنه كان مولعًا بالسفر إلى جميع الأقطار، ويحب السير في البراري والقِفار، والسهول والأوعار وجزائر البحار، في طلب الدرهم والدينار، وكان له عبيد ومماليك وخدم وجوارٍ، وطالما ركب الأخطار، وقاسَى في السفر ما يشيب الأطفال الصغار، وكان أكثر التجار في ذلك الزمان مالًا، وأحسنهم مقالًا، صاحب خيول وبغال، وبخاتي وجِمال، وغرائر وأعدال، وبضائع وأموال، وأقمشة عديمة المثال، من شدود حمصية، وثياب بعلبكية، ومقاطع سندسية، وثياب مرزوية، وتفاصيل هندية، وأزرار بغدادية، وبرانس مغربية، ومماليك تركية، وخدم حبشية، وجوارٍ رومية، وغلمان مصرية، وكانت غرائر أحماله من الحرير؛ لأنه كان كثير الأموال بديع الجمال، مائس الأعطاف شهي الانعطاف، كما قال فيه بعض واصفيه:

وَتَـاجِـرٌ عَـايَـنْـتُ عُـشَّـاقَـهْ وَالْحَرْبُ فِيمَا بَيْنَهُمْ ثَائِرْ
فَقَالَ: مَا لِلنَّاسِ فِي ضَجَّةْ؟ قُلْتُ: عَلَى عَيْنِكَ يَا تَاجِرْ

وقال آخَر في وصفه وأجاد، وأتى فيه بالمراد:

وَتَـاجِـرٌ فِـي وَصْـلِـهِ زَارَنَـا وَالْقَلْبُ مِنْ أَلْحَاظِهِ حَائِرُ
فَقَالَ لِي: مَا لَكَ فِي حِيرَةٍ؟ قُلْتُ: عَلَى عَيْنِكَ يَا تَاجِرُ

وكان لذلك التاجر ولد ذكر يُسمَّى علي نور الدين، كأنه البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر، بديع الحسن والجمال، ظريف القدِّ والاعتدال، فجلس ذلك الصبي يومًا من الأيام في دكان والده على جري عادته، للبيع والشراء والأخذ والعطاء، وقد دارت حوله أولادُ التجَّار، فصار هو بينهم كأنه القمر بين النجوم، بجبين أزهر وخدٍّ أحمر، وعِذار أخضر وجسم كالمرمر، كما قال فيه الشاعر:

وَمَلِيحٌ قَالَ: صِفْنِي أَنْتَ فِي الْحُسْنِ رَجِيحْ
قُلْتُ قَوْلًا بِاخْتِصَارٍ: كُلُّ مَا فِيكَ مَلِيحْ

وكما قال فيه بعض واصفيه:

لَهُ خَالٌ عَلَى صَفَحَاتِ خَدٍّ كَنُقْطَةِ عَنْبَرٍ فِي صَحْنِ مَرْمَرْ
وَأَلْحَاظٌ بِأَسْيَافٍ تُنَادِي عَلَى عَاصِي الْهَوَى اللهُ أَكْبَرْ

فعزمه أولاد التجار وقالوا له: يا سيدي نور الدين، نشتهي في هذا اليوم أننا نتفرَّج وإياك في البستان الفلاني. فقال لهم: حتى أشاور والدي، فإني لا أقدر أن أروح إلا بإجازته. فبينما هم في الكلام وإذا بوالده تاج الدين قد أتى، فنظر إليه وقال: يا أبي، إن أولاد التجار قد عزموني لأجل أن أتفرَّجَ أنا وإياهم في البستان الفلاني، فهل تأذن لي في ذلك؟ فقال: نعم يا ولدي. ثم إنه أعطاه شيئًا من المال وقال: توجَّهَ معهم. فركب أولاد التجار حميرًا وبغالًا، وركب نور الدين بغلة وسار معهم إلى بستانٍ فيه ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين، وهو مشيد الأركان رفيع البنيان، له باب مُقنطَر كأنه إيوان، وباب سماوي يشبه أبواب الجِنان، وبوَّابه اسمُه رضوان، وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الألوان، الأحمر كأنه مرجان، والأسود كأنه أنوف السودان، والأبيض كأنه بيض الحمام، وفيه الخوخ والرمَّان، والكمثرى والبرقوق والتفاح، كل هذه الأنواع مختلفة الألوان، صنوان وغير صنوان. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٤

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أولاد التجار لما دخلوا البستان رأوا فيه كامل ما تشتهي الشفة واللسان، ووجدوا العنب مختلفَ الألوان، صنوانًا وغيرَ صنوان، كما قال فيه الشاعر:

عِنَبٌ طَعْمُهُ كَطَعْمِ الشَّرَابِ حَالِكٌ لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْغُرَابِ
بَيْنَ أَوْرَاقِهِ زُهًا فَتَرَاهُ كَبَنَانِ النِّسَاءِ بَيْنَ الْخِضَابِ

وكما قال فيه الشاعر أيضًا:

عَنَاقِيدُ حَكَتْ، لَمَّا تَدَلَّتْ عَلَى قُضْبَانِهَا، جِسْمِي نُحُولَا
حَكَتْ عَسَلًا وَمَاءً فِي إِنَاءٍ وَعَادَتْ بَعْدَ حِصْرِمِهَا شَمُولَا

ثم انتهوا إلى عريشة البستان، فرأوا رضوانَ بوَّابَ البستان جالسًا في تلك العريشة كأنه رضوان خازِنُ الجنان، ورأوا مكتوبًا على باب العريشة هذان البيتان:

سَقَى اللهُ بُسْتَانًا تَدَلَّتْ قُطُوفُهُ فَمَالَتْ بِهَا الْأَغْصَانُ مِنْ شِدَّةِ الشُّرْبِ
إِذَا رَقَّصَتْ أَغْصَانُهُ بِيدِ الصَّبَا تُنَقِّطُهَا الْأَنْوَاءُ بِاللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ

ورأوا مكتوبًا في داخل العريشة هذان البيتان:

ادْخُلْ بِنَا يَا صَاحِ فِي رَوْضَةٍ تَجْلُو عَنِ الْقَلْبِ صَدَى هَمِّهِ
نَسِيمُهَا يَعْثُرُ فِي ذَيْلِهِ وَزَهْرُهَا يَضْحَكُ فِي كِمِّهِ

وفي ذلك البستان فواكه ذات أفنان، وأطيار من جميع الأصناف والألوان، مثل فاخت وبلبل وكروان، وقمري وحمام، يغرِّد على الأغصان، وأنهارها بها الماء الجاري، وقد راقَتْ تلك المجاري، بأزهارها وأثمار ذات لذات، كما قال فيه الشاعر هذين البيتين:

سَرَتِ النَّسِيمُ عَلَى الْغُصُونِ فَشَابَهَتْ ... خَوْدًا تَعَثَّرُ فِي جَمِيلِ ثِيَابِهَا
وَحَكَتْ جَدَاوِلُهَا السُّيُوفَ إِذَا انْتَضَتْ ... أَيْدِي الْفَوَارِسِ مِنْ غِلَافِ قِرَابِهَا

وكما قال فيه الشاعر أيضًا:

وَالنَّهْرُ مَدَّ عَلَى الْغُصُونِ وَلَمْ يَزَلْ ... أَبَدًا يُمَثِّلُ شَخْصَهَا فِي قَلْبِهِ
حَتَّى إِذَا فَطَنَ النَّسِيمُ سَرَى لَهَا ... مِنْ غَيْرَةٍ فَأَمَالَهَا مِنْ قُرْبِهِ

وأشجار ذلك البستان عليها من كل فاكهة زوجان، وفيه من الرمان ما يُشبِه أكر القيروان، كما قال فيه الشاعر وأجاد:

وَرُمَّانٌ رَقِيقُ الْقِشْرِ يَحْكِي ... نُهُودَ الْبِكْرِ إِذْ بَرَزَتْ فُحُولَا
إِذَا قَشَّرْتَهُ يَبْدُو لَدَيْنَا ... مِنَ الْيَاقُوتِ مَا بَهَرَ الْعُقُولَا

وكما قال فيه الشاعر:

مُلَمْلَمَةٌ تُبْدِي لِقَاصِدِ جَوْفِهَا ... يَوَاقِيتَ حَمْرَا فِي مَعَاطِفِ عَبْقَرِي
وَرُمَّانَةٌ شَبَّهْتُهَا إِذْ رَأَيْتُهَا ... بِنَهْدِ الْعَذَارَى أَوْ بِقُبَّةِ مَرْمَرِ
وَفِيهَا شِفَاءٌ لِلْمَرِيضِ وَصِحَّةٌ ... وَفِيهَا حَدِيثٌ لِلنَّبِيِّ الْمُطَهَّرِ
وَفِيهَا يَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ ... مَقَالًا بَلِيغًا فِي الْكِتَابِ الْمُسَطَّرِ

وفي ذلك البستان تفاح سكري ومسكي يدهش الناظر، كما قال فيه الشاعر:

تُفَّاحَةٌ جَمَعَتْ لَوْنَيْنِ قَدْ حَكَيَا ... خَدَّيْ حَبِيبٍ وَمَحْبُوبٍ قَدِ اجْتَمَعَا
لَاحَا عَلَى الْغُصْنِ كَالضِّدَّيْنِ مِنْ عَجَبٍ ... فَذَاكَ أَسْوَدُ وَالثَّانِي بِهِ لَمَعَا
تَعَانَقَا فَبَدَا وَاشٍ فَرَاعَهُمَا ... فَاحْمَرَّ ذَا خَجَلًا وَاصْفَرَّ ذَا وَلَعَا

وفي ذلك البستان مشمش لوزي وكافوري، وجيلاني وعنتابي، كما قال فيه الشاعر:

وَالْمِشْمِشُ اللَّوْزِيُّ يَحْكِي عَاشِقًا جَاءَ الْحَبِيبُ لَهُ فَحَيَّرَ لُبَّهُ
وَكَفَاهُ مِنْ صِفَةِ الْمُتَيَّمِ مَا بِهِ يَصْفَرُّ ظَاهِرُهُ وَيَكْسِرُ قَلْبَهُ

وقال فيه آخَر وأجاد:

انْظُرْ إِلَى الْمِشْمِشِ فِي زَهْرِهِ حَدَائِقُ يَجْلُو سَنَاهَا الْحَدَقْ
كَالْأَنْجُمِ الزُّهْرِ إِذَا مَا زَهَتْ الْغُصْنُ يَزْهُو بِهَا فِي الْوَرَقْ

وفي ذلك البستان برقوق وقراصيا وعنَّاب، تشفي السقيم من الأوصاب، والتين فوق أغصانه ما بين أحمر وأخضر يحيِّر العقول النواظر، كما قال فيه الشاعر:

كَأَنَّمَا التِّينُ يَبْدُو مِنْهُ أَبْيَضُهُ مَعْ أَخْضَرَ بَيْنَ أَوْرَاقٍ مِنَ الشَّجَرِ
أَبْنَاءُ رُومٍ عَلَى أَعْلَى الْقُصُورِ وَقَدْ جَنَّ الظَّلَامُ بِهِمْ بَاتُوا عَلَى حَذَرِ

وقال آخَر وأجاد:

أَهْلًا بِتِينٍ جَاءَنَا مُنَضَّدًا عَلَى طَبَقْ
كَسُفْرَةٍ مَضْمُومَةٍ قَدْ جُمِعَتْ بِلَا حَلَقْ

وقال آخَر وأجاد:

أَنْعِمْ بِتِينٍ طَابَ طَعْمًا وَاكْتَسَى حُسْنًا وَقَارَبَ مَنْظَرًا مِنْ مَخْبَرِ
يُبْدِي تَعَاطِيهِ إِذَا مَا ذُقْتَهُ رِيحَ الْأَقَاحِ وَطِيبَ طَعْمِ السُّكَّرِ
وَحَكَى إِذَا مَا صُبَّ فِي أَطْبَاقِهِ أُكَرًا صُنِعْنَ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَخْضَرِ

وما أحسن قول بعضهم:

قَالُوا وَقَدْ أَلِفَتْ نَفْسِي تَفَكُّهَهَا بِغَيْرِ فَاكِهَةٍ فِي حُبِّهَا هَامُوا
لِأَيِّ شَيْءٍ تُحِبُّ التِّينَ قُلْتُ لَهُمْ لِلتِّينِ قَوْمٌ وَلِلْجُمَّيْزِ أَقْوَامُ

وأحسن منه قول الآخَر:

التِّينُ يُعْجِبُنِي عَنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ   لَمَّا اسْتَوَى وَالْتَوَى فِي غُصْنِهِ الزَّاهِي
كَأَنَّهُ عَابِدٌ وَالسُّحْبُ مَاطِرَةٌ   فَاضَتْ مَدَامِعُهُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ

وفي ذلك البستان من الكمثرى الطوري والحلبي والرومي، ما هو مختلف الألوان، صنوان وغير صنوان. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكَتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٥

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أولاد التجار لما نزلوا البستان رأوا فيه من الفواكه ما ذكرناه، ووجدوا فيه من الكمثرى الطوري والحلبي والرومي، ما هو مختلف الألوان، صنوان وغير صنوان، ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر، كما قال فيه الشاعر:

يَهْنِيكَ كُمَّثْرَى غَدَا لَوْنُهَا لَوْنَ مُحِبٍّ زَائِدِ الصُّفْرَةْ
شَبِيهَةٌ بِالْبِكْرِ فِي خِدْرِهَا وَالْوَجْهُ مِنْهَا مُسْبِلُ السُّتْرَةْ

وفي ذلك البستان من الخوخ السلطاني ما هو مختلف الألوان من أصفر وأحمر، كما قال فيه الشاعر:

كَأَنَّمَا الْخُوخُ فِي رَوْضِهِ وَقَدْ بَدَا حُمْرَةَ الْعَنْدَمِ
بَنَادِقُ مِنْ ذَهَبٍ أَصْفَرَ قَدْ خَضَّبَتْ وَجْهَهَا بِالدَّمِ

وفي ذلك البستان من اللوز الأخضر ما هو شديد الحلاوة يشبه الجمار، ولبُّه من داخل ثلاثة أثواب، صنعة الملك الوهَّاب، كما قيل فيه:

ثَلَاثَةُ أَثْوَابٍ عَلَى جَسَدٍ رَطْبِ مُخَالِفَةِ الْأَشْكَالِ مِنْ صَنْعَةِ الرَّبِّ
تُرِيهِ الرَّدَى فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ وَإِنْ يَكُنِ الْمَسْجُونُ فِيهَا بِلَا ذَنْبِ

وقال آخَر وأجاد:

أَمَا تَرَى اللَّوْزَ حِينَ تُظْهِرُهُ مِنَ الْأَفَانِينِ كَفٌّ مُعْتَطِفِ
وَقِشْرُهُ قَدْ جَلَا الْقُلُوبَ لَنَا كَأَنَّهُ الدُّرُّ مِنْ دَاخِلِ الصَّدَفِ

وأحسن منه قول الآخَر:

يَا حُسْنَ لَوْزٍ أَخْضَرَ أَصْفَرَ مِلْءُ الْيَدِ
كَأَنَّمَا زُبَيْرُهُ نَبْتُ عِذَارِ الْأَمْرَدِ
وَقَدْ غَدَتْ قُلُوبُهُ مِنْ مُزْدَوِجٍ وَمُفْرَدِ
كَأَنَّهَا لُؤْلُؤَةٌ تُصَانُ فِي زَبَرْجَدِ

وقال آخَر وأجاد:

مَا أَبْصَرَتْ عَيْنَايَ مِثْلَ اللَّوْزِ فِي حَسَنَاتِهِ لَمَّا بَدَتْ أَنْوَارُهْ
الرَّأْسُ مِنْهُ بِاشْتِعَالٍ شَائِبٌ حِينَ انْتَشَى وَاخْضَرَّ مِنْهُ عِذَارُهْ

وفي ذلك البستان النبق مختلف الألوان، صنوان وغير صنوان، كما قال فيه بعض واصفيه هذا الشعر:

انْظُرْ إِلَى النَّبْقِ فِي الْأَغْصَانِ مُنْتَظِمًا كَمِشْمِشٍ مُعْجَبٍ يَزْهُو عَلَى الْقُضُبِ
كَأَنَّ صُفْرَتَهُ لِلنَّاظِرِينَ غَدَتْ تَحْكِي جَلَاجِلَ قَدْ صِيغَتْ مِنَ الذَّهَبِ

وقال آخَر وأجاد:

وَسِدْرَةٍ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ حُسْنِهَا فِي فُنُونِ
كَأَنَّمَا النَّبْقُ فِيهَا وَقَدْ بَدَا لِلْعُيُونِ
جَلَاجِلُ مِنْ نُضَارٍ قَدْ عُلِّقَتْ فِي غُصُونِ

وفي ذلك البستان النارنج كأنه خولجان، كما قال فيها الشاعر الولهان:

وَحَمْرَاءُ مِلْءُ الْكَفِّ تَزْهُو بِحُسْنِهَا فَظَاهِرُهَا نَارٌ وَبَاطِنُهَا ثَلْجُ
وَمِنْ عَجَبٍ ثَلْجٌ مِعَ النَّارِ لَمْ يَذُبْ وَمِنْ عَجَبٍ نَارٌ وَلَيْسَ لَهَا وَهْجُ

وقال بعضهم وأجاد:

وَأَشْجَارُ نَارَنْجَ كَأَنَّ ثِمَارَهَا إِذَا مَا بَدَتْ لِلنَّاظِرِ الْمُتَفَرِّسِ
خُدُودُ نِسَاءٍ قَدْ تَبَرَّجْنَ زِينَةً بِأَيَّامِ عِيدٍ فِي غَلَائِلِ سُنْدُسِ

وقال الآخَر وأجاد:

كَأَنَّ رُبَى النَّارَنْجِ أَذْهَبَتِ الصَّبَا وَأَضْحَتْ بِهِ الْأَغْصَانُ وَهْيَ تَمِيدُ
خُدُودٌ عَلَيْهَا بَهْجَةُ الْحُسْنِ أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا بِأَوْقَاتِ السَّلَامِ خُدُودُ

وقال آخَر وأجاد:

وَشَادِنٌ قُلْنَا لَهُ صِفْ لَنَا بُسْتَانَنَا هَذَا وَنَارَنْجَنَا
فَقَالَ لِي: بُسْتَانُكُمْ طَلْعَتِي وَمَنْ جَنَى النَّارَنْجَ نَارًا جَنَى

وفي ذلك البستان الأترج لونه كلون التِّبْر، وقد حطَّ من أعلى مكانٍ، وتدلى في الأغصان كمال فيه كأنه سبائك العقبين، وقد قال فيه الشاعر الولهان:

أَمَا تَرَى أَيْكَةَ الْأُتْرُجِّ مُثْمِرَةً يُخْشَى عَلَيْهَا إِذَا مَالَتْ مِنَ الْعَطَبِ
كَأَنَّهَا عِنْدَمَا مَرَّ النَّسِيمُ بِهَا غُصْنٌ تَحَمَّلَ قُضْبَانًا مِنَ الذَّهَبِ

وفي ذلك البستان الكباد منسدل في أغصانه كنهود أبكار تشبه الغزلان، وهو على غاية المراد، كما قال فيه الشاعر وأجاد:

وَكَبَّادَةٌ بَيْنَ الرِّيَاضِ نَظَرْتُهَا عَلَى غُصُنٍ رَطْبٍ كَقَامَةِ أَغْيَدِ
إِذَا سَبَلَتْهَا الرِّيحُ مَالَتْ كَأَكْرَةٍ بَدَتْ ذَهَبًا فِي صَوْلَجَانِ زَبَرْجَدِ

وفي ذلك البستان الليمون ذاكي الرائحة يشبه بيض الدجاج، ولكن صفرته زينة مجانية، وريحه يزهو لجانيه، كما قال فيه بعض واصفيه:

أَمَا تَرَى اللَّيْمُونَ لَمَّا بَدَا   يَأْخُذُ إِشْرَاقَهُ بِالْعِيَانِ
كَأَنَّهُ بَيْضُ دَجَاجٍ وَقَدْ   لَطَّخَهُ الْمُخَمَّسُ بِالزَّعْفَرَانِ

وفي ذلك البستان من سائر الفواكه والرياحين، والخضراوات والمشمومات من الياسمين والفاغية والفلفل والسنبل العنبري والورد بسائر أنواعه، ولسان الحمل والآس وكامل الرياحين من جميع الأجناس، وذلك البستان من غير تشبيه كأنه قطعة من الجنان لرائيه، إذا دخله العليل خرج منه كالأسد الغضبان، ولا يَقدرُ على وصْفه اللسان، لِمَا فيه من العجائب والغرائب التي لا توجد إلا في الجنان، كيف لا واسمُ بوَّابِه رضوان، لكن بين المقامَيْنِ شتَّان. فلما تفرَّج أولاد التجار في ذلك البستان، جلسوا بعد التفرُّج والتنزُّه على ليوان من لواوينه، وأجْلَسُوا نورَ الدين في وسط الإيوان. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٦

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن أولاد التجار لما جلسوا في الليوان، أجلسوا نور الدين في وسط الإيوان، على نطع من الأديم المزركش، متَّكِئًا على مخدة مَحْشوَّة بريش النعام، وظهارتها مدوَّرة سنجابية، ثم ناوَلُوه مروحةً من ريش النعام، مكتوبًا عليها هذان البيتان:

وَمِرْوَحَةٌ مُعَطَّرَةُ النَّسِيمِ تُذَكِّرُ طِيبَ أَوْقَاتِ النَّعِيمِ
وَتَهْدِي طِيبَهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ إِلَى وَجْهِ الْفَتَى الْحُرِّ الْكَرِيمِ

ثم إن هؤلاء الشبان خلعوا ما كان عليهم من العمائم والثياب، وجلسوا يتحدَّثون ويتنادمون ويتجاذبون أطرافَ الكلام بينهم، وكل منهم يتأمَّلُ في نور الدين وينظر إلى حُسْن صورتِه، وبعد أن اطمأَنَّ بهم الجلوس ساعةً من الزمان، أقبَلَ عليهم عبدٌ وعلى رأسه سُفْرة طعام، فيها أوانٍ من الصيني والبلور؛ لأن بعض أولاد التجار كان وصَّى أهلَ بيته بها قبل خروجه إلى البستان. وكانت تلك السُّفْرة مما درج وطار، وسبح في البحار، كالقطا والسمان وأفراخ الحمام، وشِياه الضأن وألطف السمك، فلما وُضِعت تلك السُّفْرة بينهم تقدَّموا وأكلوا بحسب الكفاية، ولما فرغوا من الأكل قاموا عن الطعام وغسلوا أيديهم بالماء الصافي والصابون الممسك، وبعد ذلك نشفوا أيديهم بالمناديل المنسوجة بالحرير والقصب، وقدَّموا لنور الدين منديلًا مطرَّزًا بالذهب الأحمر، فمسح به يدَيْه، وجاءت القهوة فشرب كلٌّ منهم مطلوبَه، ثم جلسوا للحديث، وإذا بخولي البستان ذهب وجاء بسَلٍّ مملوءة بالورد، وقال: ما تقولون يا سادتنا في المشموم؟ فقال بعض أولاد التجار: لا بأس به، خصوصًا الورد فإنه لا يُرَد. فقال البستاني: نعم، لكن عادتنا إننا لا نعطي الوردَ إلا بالمنادَمة، فمَن أراد أَخْذَه فليأتِ بشيء من الشعر يناسب المقام. وكان

أولاد التجار عشرة أشخاص، فقال واحد منهم: نعم، أعطني وأنا أنشدك شيئًا من الشعر يناسب المقام. فناوَلَه حزمةً من الورد، فأخذها وأنشد هذه الأبيات:

لِلْوَرْدِ عِنْدِي مَحَلٌّ لِأَنَّـــهُ لَا يُـــمَـــلُّ
كُلُّ الرَّيَاحِينِ جُنْدٌ وَهْـوَ الْأَمِـيرُ الْأَجَـلُّ
إِنْ غَابَ عَزُّوا وَتَاهُوا حَتَّـى إِذَا جَاءَ ذَلُّوا

ثم ناوَلَ الثاني حزمةَ ورد، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

دُونَكَ يَا سَيِّدِي وَرْدَةً يُذَكِّرُكَ الْمِسْكُ أَنْفَاسَهَا
كَغَادَةٍ أَبْصَرَهَا عَاشِقٌ غَطَّتْ بِأَكْمَامِهَا رَأْسَهَا

ثم ناوَلَ الثالثَ حزمةَ وردٍ، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

وَرْدٌ نَفِيسٌ تَسُرُّ الْقَلْبَ رُؤْيَتُهُ تَحْكِي رَوَائِحُهُ مَا طَابَ مِنْ نَدِّ
قَدْ ضَمَّهُ الْغُصْنُ فِي أَوْرَاقِهِ طَرَبًا كَقُبْلَةٍ بِفَمٍ مِنْ غَيْرِ مَا صَدِّ

ثم ناوَلَ الرابعَ حزمةَ وردٍ، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

أَمَا تَرَى دَوْحَةَ الْوَرْدِ الَّتِي ظَهَرَتْ لَهَا بَدَائِعُ قَدْ رُكِّبْنَ فِي قُضُبِ
كَأَنَّـهُـنَّ يَـوَاقِـيتُ يَـطُـوفُ بِـهَـا زَبَرْجَدٌ قَدْ حَوَى شَيْئًا مِنَ الذَّهَبِ

ثم ناوَلَ الخامسَ حزمةَ وردٍ، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

قُضُبُ الزَّبَرْجَدِ قَدْ حَمَلْنَ وَإِنَّمَا أَثْمَارُهُنَّ سَبَائِكُ الْعُقْيَانِ
وَكَأَنَّ وَقْعَ الْقَطْرِ مِنْ أَوْرَاقِهِ دَمْعٌ بَكَتْهُ فَوَاتِرُ الْأَجْفَانِ

ثم ناوَلَ السادسَ حزمةَ وردٍ، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

يَا وَرْدَةً لِبَدِيعِ الْحُسْنِ قَدْ جَمَعَتْ وَأَوْدَعَ اللهُ فِيهَا لُطْفَ أَسْرَارِ
كَأَنَّـهَـا خَـدُّ مَـحْـبُـوبٍ وَنَـقَّـطَـهُ لَدَى التَّوَاصُلِ مُشْتَاقٌ بِدِينَارِ

ثم ناوَلَ السابعَ حزمةَ وردٍ، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

قُلْتُ لِلْوَرْدِ مَا لِشَوْكِكَ يُؤْذِي كُلَّ مَنْ مَسَّهُ سَرِيعُ الْجِرَاحِ
قَالَ لِي: مَعْشَرُ الرَّيَاحِينِ جُنْدِي أَنَا سُلْطَانُهَا وَشَوْكِي سِلَاحِي

ثم ناوَلَ الثامنَ حزمةَ وردٍ، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

رَعَى اللهُ وَرْدًا غَدَا أَصْفَرَا بَهِيًّا نَضِيرًا يُحَاكِي النُّضَارَا
وَحُسْنَ غُصُونٍ بِهِ أَثْمَرَتْ حَمَلْنَ مِنْهُ شُمُوسًا صِغَارَا

ثم ناوَلَ التاسعَ حزمةَ وردٍ، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

شَجَرَاتُ وَرْدٍ أَصْفَرَ جَذَبَتْ فِي قَلْبِ كُلِّ مُتَيَّمٍ طَرَبَا
عَجَبًا لَهَا مِنْ دَوْحَةٍ سُقِيَتْ مَاءَ اللُّجَيْنِ فَأَثْمَرَتْ ذَهَبَا

ثم ناوَلَ العاشرَ حزمةَ وردٍ، فأخذها وأنشد هذين البيتين:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ جُنْدَ الْوَرْدِ يَزْهُو بِصُفْرٍ مِنْ مَطَالِعِهِ وَحُمْرِ
وَقَدْ شَبَّهْتُهُ وَالشَّوْكُ فِيهِ نِصَالَ زُمُرُّدٍ فِي تُرْسِ تِبْرِ

فلما استقرَّ الوردَ في أيديهم أحضرَ البستاني سفرة المُدَام، فوضع بينهم صينية مزركشة بالذهب الأحمر، وأنشد يقول هذين البيتين:

هَتَفَ الْفَجْرُ بِالسَّنَا فَاسْقِ خَمْرًا عَانِسًا تَجْعَلُ الْحَلِيمَ سَفِيهَا
لَسْتُ أَدْرِي مِنْ لُطْفِهَا وَصَفَاهَا أَبِكَأْسٍ تُرَى أَمِ الْكَأْسُ فِيهَا

ثم إن خولي البستان ملأ وشرب، ودار الدور إلى أن وصل إلى نور الدين ابن التاجر تاج الدين، فملأ خولي البستان كأسًا وناوَلَه إياه، فقال نور الدين: أنت تعرف أن هذا شيء لا أعرفه ولا شربته قطُّ؛ لأن فيه إثمًا كبيرًا، وقد حرَّمَه في كتابه الربُّ القدير. فقال

خولي البستان: يا سيدي نور الدين، إنْ كنتَ ما تركْتَ شُرْبَه إلا من أجل الإثم، فإن الله سبحانه وتعالى كريم حليم غفور رحيم، يغفر الذنب العظيم، ورحمته وسعت كل شيء، ورحمة الله على بعض الشعراء حيث قال:

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّ اللهَ ذُو كَرَمٍ وَمَا عَلَيْكَ إِذَا أَذْنَبْتَ مِنْ بَاسِ
إِلَّا اثْنَتَيْنِ فَلَا تَقْرَبْهُمَا أَبَدًا الشِّرْكَ بِاللهِ وَالْإِضْرَارَ بِالنَّاسِ

ثم قال واحد من أولاد التجار: بحياتي عليك يا سيدي نور الدين أن تشرب هذا القدح. وتقدَّمَ شاب آخَر وحلف عليه بالطلاق، وآخَر وقف بين يدَيْه على أقدامه، فاستحى نور الدين وأخذ القدح من خولي البستان وشرب منه جرعة، ثم بصَقَها، وقال: هذا مرٌّ. فقال له الشاب خولي البستان: يا سيدي نور الدين، لولا أنه مُرٌّ ما كانت فيه هذه المنافع، أَلَمْ تعلم أن كلَّ حلو إذا أُكِل على سبيل التداوي يجده الآكِل مرًّا؟ وأن هذه الخمرة منافعها كثيرة؟ فمن جملة منافعها أنها تهضم الطعام، وتصرف الهم والغم، وتزيل الأرياح وتروق الدم، وتصفي اللون وتنعش البدن، وتشجع الجبان وتقوي همة الرجل على الجماع، ولو كنا ذكرنا منافعها كلها لَطال علينا شرح ذلك، وقد قال بعض الشعراء:

شَرِبْنَا وَعَفْوُ اللهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَدَاوَيْتُ أَسْقَامِي بِرَشْفِي لِلْكَاسِ
وَمَا غَرَّنِي فِيهَا وَأَعْرِفُ إِثْمَهَا سِوَى قَوْلِهِ: فِيهَا مَنَافِعُ لِلنَّاسِ

ثم إن خولي البستان نهض قائمًا على أقدامه من وقته وساعته، وفتح مخدعًا من مخادع ذلك الإيوان، وأخرج منه قمع سكرٍ مكرَّرٍ وكسر منه قطعة كبيرة ووضعها لنور الدين في القدح، وقال له: يا سيدي، إنْ كنتَ هِبتَ شرْبَ الخمر من مرارته، فاشرب الآن فقد حلا. فعند ذلك أخذ نور الدين القدح وشربه، ثم ملأ الكأسَ واحدٌ من أولاد التجار وقال: يا سيدي نور الدين، أنا عبدك. وكذا الآخر قال: أنا خدَّامك. وقام الآخَر وقال: من أجل خاطري. وقام الآخَر وقال: بالله عليك يا سيدي نور الدين اجبرْ بخاطري. ولم يزل العشرة أولاد التجار بنور الدين إلى أن أسقَوْه العشرة أقداح، كل واحد قدحًا. وكان نور الدين باطنه بكر، عمره ما شرب خمرًا قطُّ إلا في تلك الساعة، فدار الخمر في دماغه، وقوي عليه السكر فوقف على حيله، وقد ثقل لسانه واستعجم كلامه، وقال: يا جماعة، والله

أنتم ملاح، وكلامكم مليح، ومكانكم مليح، إلا أنه يحتاج إلى سماع طيب، فإن الشراب بلا سماع عدمه أولى من وجوده، كما قال فيه الشاعر هذين البيتين:

أَدِرْهَا بِالْكَبِيرِ وَبِالصَّغِيرِ وَخُذْهَا مِنْ يَدِ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ
وَلَا تَشْرَبْ بِلَا طَرَبٍ فَإِنِّي رَأَيْتُ الْخَيْلَ تَشْرَبُ بِالصَّفِيرِ

فعند ذلك نهض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال أولاد التجار وغاب، ثم عاد ومعه صبِيَّة مصرية كأنها لية طرية، أو فضة نقية، أو دينار في صينية، أو غزال في برية، بوجهٍ يُخجِل الشمس المضيئة، وعيونٍ بلبلية وحواجبَ كأنها قسي محنية، وخدودٍ وردية وأسنانٍ لؤلُئِيَّة، ومراشفَ سكَّريةٍ وعيونٍ مَرْخية، ونُهودٍ عاجيَّة وبطنٍ خماصية، وأعكانٍ مطوية وأردافٍ كأنهن مخدات محشيَّة، وفخذين كالجداول الشامية، وبينهما شيء كأنه صرَّة في بقجة مطوية، كما قيل فيها هذه الأبيات:

وَلَوْ أَنَّهَا لِلْمُشْرِكِينَ تَعَرَّضَتْ رَأَوْا وَجْهَهَا مِنْ دُونِ أَصْنَامِهِمْ رَبَّا
وَلَوْ أَنَّهَا فِي الشَّرْقِ لَاحَتْ لِرَاهِبٍ لَخَلَّى سَبِيلَ الشَّرْقِ وَاتَّبَعَ الْغَرْبَا
وَلَوْ تَفَلَتْ فِي الْبَحْرِ وَالْبَحْرُ مَالِحٌ لَأَصْبَحَ مَاءُ الْبَحْرِ مِنْ رِيقِهَا عَذْبَا

وقال آخَر هذه الأبيات:

أَبْهَى مِنَ الْبَدْرِ كَحْلَاءُ الْعُيُونِ بَدَتْ كَظَبْيَةٍ قَنَصَتْ أَشْبَالَ آسَادِ
أَرْخَتْ عَلَيْهَا اللَّيَالِي مِنْ ذَوَائِبِهَا بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ لَمْ يُشْدَدْ بَأَوْتَادِ
مِنْ وَرْدِ وَجْنَتِهَا النِّيرَانُ مَا اتَّقَدَتْ إِلَّا بِأَفْئِدَةٍ ذَابَتْ وَأَكْبَادِ
فَلَوْ رَآهَا حِسَانُ الْعَصْرِ قُمْنَ لَهَا عَلَى الرُّءُوسِ وَقُلْنَ: الْفَضْلُ لِلْبَادِي

وما أحسن قول بعض الشعراء:

ثَلَاثَةٌ مَنَعَتْهَا عَنْ زِيَارَتِنَا خَوْفَ الرَّقِيبِ وَخَوْفَ الْحَاسِدِ الْحَنِقِ
ضَوْءُ الْجَبِينِ وَوَسْوَاسُ الْحُلِيِّ وَمَا حَوَتْ مَعَاطِفُهَا مِنْ عَنْبَرٍ عَبِقِ
هَبِ الْجَبِينَ بِفَضْلِ الْكِمِّ تَسْتُرُهُ وَالْحَلْيَ تَنْزَعُهُ مَا حِيلَةُ الْعَرَقِ

وتلك الصَّبِيَّة كأنها البدر إذا بدر في ليلةِ أربعةَ عشرَ، وعليها بدلة زرقاء بقناع أخضر فوق جبين أزهر، تدهش العقول وتحيِّر أربابَ المعقول. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٧

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن خولي البستان لما جاءَ لهم بالصَّبِيَّة التي ذكرنا أنها في غايةٍ من الحُسْن والجمال، ورشاقة القَدِّ والاعتدال، كأنها المُرَادة بقول الشاعر:

أَقْبَلَتْ فِي غِلَالَةٍ زَرْقَاءَ لَازَوَرْدِيَّةٍ كَلَوْنِ السَّمَاءِ
فَتَحَقَّقْتُ فِي الْغِلَالَةِ مِنْهَا قَمَرَ الصَّيْفِ فِي لَيَالِي الشِّتَاءِ

وما أحسن قول الآخَر وأجوده:

جَاءَتْ مُبَرْقِعَةً فَقُلْتُ لَهَا اسْفِرِي عَنْ وَجْهِكِ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ الْأَزْهَرِي
قَالَتْ أَخَافُ الْعَارَ قُلْتُ لَهَا اقْصِرِي بِحَوَادِثِ الْأَيَّامِ لَا تَتَحَيَّرِي
رَفَعَتْ نِقَابَ الْحُسْنِ عَنْ وَجَنَاتِهَا فَتَسَاقَطَ الْبَلُّورُ فَوْقَ الْجَوْهَرِ
وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِقَتْلِهَا مِنْ حُبِّهَا كَيْمَا تَكُونَ خَصِيمَتِي فِي الْمَحْشَرِ
وَنَكُونَ أَوَّلَ عَاشِقَيْنِ تَخَاصَمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبٍّ أَكْبَرِ
وَأَقُولُ طَوِّلْ فِي الْحِسَابِ وُقُوفَنَا حَتَّى يَطُولَ إِلَى الْحَبِيبَةِ مَنْظَرِي

ثم إن الشاب خولي البستان قال لتلك الصَّبِيَّة: اعلمي يا سيدة الملاح وكل كوكبٍ لاحَ، أننا ما قصدنا بحضورك في هذا المكان إلا أن تُنادِمي هذا الشابَّ المليح الشمائل، سيدي نور الدين، فإنه لم يأتِ محلَّنا إلا في هذا اليوم. فقالت له الصَّبِيَّة: ليتكَ كنتَ أخبرتني لأجل أن أجيء بالذي كان معي. فقال لها: يا سيدتي، أنا أروح وأجيء به إليك. فقالت الصبية: افعل ما بَدَا لكَ. فقال لها: أعطيني أمارة. فأعطَتْه منديلًا، فعند ذلك خرج سريعًا وغاب ساعة زمانية، ثم عاد ومعه كيس أخضر من حرير أطلس بشكلين من الذهب، فأخذته

الصَّبِيَّة منه وحلَّته ونفضته، فنزل من اثنتان وثلاثون قطعة خشب، ثم ركَّبتِ الخشبَ في بعضه على صورة ذكر في أنثى، وأنثى في ذكر، وكشفت عن معاصمها وأقامته، فصار عودًا محكوكًا مجرودًا صنعة الهنود، ثم انحنَتْ عليه تلك الصبِيَّة انحناءَ الوالدة على ولدها وزغزغته بأنامل يدها، فعند ذلك أنَّ العودُ ورَنَّ، ولأماكنه القديمة قد حَنَّ، وقد تذكَّرَ المياهَ التي قد سقته، والأرض التي نبَتَ منها وتربَّى فيها، وتذكَّرَ النجَّارين الذين قطعوه، والدهَّانين الذين دهنوه، والتجار الذين جلبوه، والمراكب التي حملته، فصرخ وصاح وعدَّدَ وناح، وكأنها سألته عن ذلك كله فأجابها بلسان الحال منشدًا هذه الأبيات:

لَقَدْ كُنْتُ عُودًا لِلْبَلَابِلِ مَنْزِلًا أَمِيلُ بِهَا وَجْدًا وَفَرْعِي أَخْضَرُ
يَنُوحُونَ مِنْ فَوْقِي تَعَلَّمْتُ نَوْحَهُمْ وَمِنْ أَجْلِ ذَاكَ النَّوْحِ سِرِّيَ مُجْهَرُ
رَمَانِي بِلَا ذَنْبٍ عَلَى الْأَرْضِ قَاطِعِي وَصَيَّرَنِي عُودًا نَحِيلًا كَمَا تَرَوا
وَقَدْ ضَرَّ بِيَّ بِالْأَنَامِلِ مُخْبِرٌ بِأَنِّي قَتِيلٌ فِي الْأَنَامِ مُصَبَّرُ
فَمِنْ أَجْلِ هَذَا صَارَ كُلُّ مُنَادِمٍ إِذَا مَا رَأَى نَوْحِي يَهِيمُ وَيَسْكَرُ
وَقَدْ حَنَّنَ الْمَوْلَى عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ وَقَدْ صِرْتُ فِي أَعْلَى الصُّدُورِ أُصَدَّرُ
تُعَانِقُ قَدِّي كُلُّ مَنْ فَاقَ حُسْنُهَا وَكُلُّ غَزَالٍ نَاعِسِ الطَّرْفِ أَحْوَرُ
فَلَا فَرَّقَ اللهُ الْمُهَيْمِنُ بَيْنَنَا وَلَا عَاشَ مَحْبُوبٌ يُصَدُّ وَيُهْجَرُ

ثم سكتَتِ الصبِيَّةُ ساعةً، وبعد ذلك أخذَتْ ذلك العود في حجرها وانحنَتْ عليه انحناءَ الوالدة على ولدها، وضربَتْ عليه طُرقًا عديدة، ثم عادت إلى طريقتها الأولى، وأنشدَتْ هذه الأبيات:

لَوْ أَنَّهُمْ جَنَحُوا لِلصَّبِّ أَوْ زَارُوا لَحُطَّ عَنْهُ مِنَ الْأَشْوَاقِ أَوْزَارُ
وَعَنْدَلِيبٌ عَلَى غُصْنٍ يُشَاجِرُهُ كَأَنَّهُ عَاشِقٌ شَطَّتْ بِهِ الدَّارُ
قُمْ وَانْتَبِهْ فَلَيَالِي الْوَصْلِ مُقْمِرَةٌ كَأَنَّهَا بِاجْتِمَاعِ الشَّمْلِ أَسْحَارُ
وَالْيَوْمَ فِي غَفْلَةٍ عَنَّا حَوَاسِدُنَا وَقَدْ دَعَتْنَا إِلَى اللَّذَاتِ أَوْتَارُ
أَمَا تَرَى أَرْبَعًا فِي اللَّحْظِ قَدْ جُمِعَتْ آسٌ وَوَرْدٌ وَمَنْثُورٌ وَأَنْوَارُ
وَالْيَوْمَ قَدْ جُمِعَتْ لِلَّحْظِ أَرْبَعَةٌ صَبٌّ وَخِلٌّ وَمَشْرُوبٌ وَدِينَارُ
فَاظْفَرْ بِحَظِّكَ فِي الدُّنْيَا فَلَذَّتُهَا تَفْنَى وَتَبْقَى رِوَايَاتٌ وَأَخْبَارُ

فلما سمع نور الدين من الصبِيَّة هذه الأبيات، نظر إليها بعين المحبَّة حتى كاد لا يملك نفسه من شدة الميل إليها، وهي الأخرى كذلك؛ لأنها نظرت إلى الجماعة الحاضرين من أولاد التجار كلهم وإلى نور الدين، فرأته بينَهم كالقمر بين النجوم؛ لأنه كان رخيمَ اللفظ والدلال، كامِلَ القَدِّ والاعتدال، والبهاء والجمال، ألطف من النسيم وأرق من التسنيم، كما قيل فيه هذه الأبيات:

قَسَمًا بِوَجْنَتِهِ وَبَاسِمِ ثَغْرِهِ	وَبِأَسْهُمٍ قَدْ رَانَهَا مِنْ سِحْرِهِ
وَبِلِينِ مِعْطَفِهِ وَنَبْلِ لِحَاظِهِ	وَبَيَاضِ غُرَّتِهِ وَأَسْوَدِ شَعْرِهِ
وَبِحَاجِبٍ حَجَبَ الْكَرَى عَنْ نَاظِرِي	وَسَطَا عَلَيَّ بِنَهْيِهِ وَبِأَمْرِهِ
وَعَقَارِبَ قَدْ أُرْسِلَتْ مِنْ صُدْغِهِ	وَسَعَتْ لِقَتْلِ الْعَاشِقِينَ بِهَجْرِهِ
وَبِوَرْدِ خَدَّيْهِ وَآسِ عِذَارِهِ	وَعَقِيقِ مَبْسِمِهِ وَلُؤْلُؤِ ثَغْرِهِ
وَبِغُصْنِ قَامَتِهِ الَّذِي هُوَ مُثْمِرٌ	رُمَّانُهُ يَزْهُو جَنَاهُ بِصَدْرِهِ
وَبِرِدْفِهِ الْمَرِّيخُ فِي حَرَكَاتِهِ	وَسُكُونِهِ وَبِدِقَّةٍ فِي خَصْرِهِ
وَحَرِيرِ مَلْبَسِهِ وَخِفَّةِ ذَاتِهِ	وَبِمَا حَوَاهُ مِنَ الْجَمَالِ بِأَسْرِهِ
إِنَّ الشَّذَا قَدْ فَاحَ مِنْ أَنْفَاسِهِ	وَالرِّيحُ يَرْوِي طِيبُهَا عَنْ نَشْرِهِ
وَكَذَلِكَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ دُونَهُ	وَكَذَا الْهِلَالُ قُلَامَةٌ مِنْ ظُفْرِهِ

وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٨

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نور الدين لما سمع كلام تلك الصبِيَّة وشِعْرها، أعجبه نظامها، وكان قد مالَ من السُّكْر، فجعل يمدحها ويقول:

عَوَّادَةٌ مَالَتْ بِنَا ... فِي نَشْوَةِ الْمُتَنَبِّذِ
قَالَتْ لَنَا أَوْتَارُهَا ... أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي

فلما تكلَّمَ نور الدين بهذا الكلام، وأنشد هذا الشعر والنظام، نظرت له تلك الصبِيَّة بعين المَحبَّة، وزادت فيه عِشْقًا وغرامًا، وقد صاحت متعجِّبةً من حُسْنه وجماله، ورَشاقة قَدِّه واعتداله، فلم تملك نفسَها بل احتضنَتِ العودَ ثانيًا، وأنشدت هذه الأبيات:

يُعَاتِبُنِي عَلَى نَظَرِي إِلَيْهِ ... وَيَهْجُرُنِي وَرُوحِي فِي يَدَيْهِ
وَيُبْعِدُنِي وَيَعْلَمُ مَا بِقَلْبِي ... كَأَنَّ اللهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ
كَتَبْتُ مِثَالَهُ فِي وَسْطِ كَفِّي ... وَقُلْتُ لِنَاظِرِي عَوِّلْ عَلَيْهِ
فَلَا عَيْنِي تَرَى مِنْهُ بَدِيلًا ... وَلَا قَلْبِي يُصَبِّرُنِي لَدَيْهِ
فَيَا قَلْبِي نَزَعْتُكَ مِنْ فُؤَادِي ... لِأَنَّكَ فِي الْعَدَاوَةِ مِنْ بَنِيهِ
إِذَا مَا قُلْتُ يَا قَلْبِي تَسَلَّى ... يُجَاوِبُنِي فَيَا لَكَ مِنْ كَرِيهِ

فلما أنشدت الصبِيَّة تلك الأبيات، تعجَّبَ نور الدين من حُسْن شِعْرها وبلاغة كلامها، وعذوبة لفظها وفصاحة لسانها، فطار عقله من شدة الغرام، والوَجْد والهيام، ولم يَقْدر أن يصبر عنها ساعةً من الزمان، بل مالَ إليها وضمَّها إلى صدره، فانطبقت الأخرى عليه

وصارت بكلِّيَّتِها لديه، وقبَّلَتْه بين عينَيْه، وقبَّلَ هو فاهَها بعد ضمِّ القوام، ولعب معها في التقبيل زقَّ الحمام، فالتفتت له وفعلَتْ معه مثل ما فعل معها، فهام الحاضرون وقاموا على أقدامهم، فاستحى نور الدين ورفع يده عنها. ثم إنها أخذَتْ عودها وضربَتْ عليه طرائقَ عديدةً، ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأنشدت هذه الأبيات:

قَمَرٌ يَسُلُّ مِنَ الْجُفُونِ إِذَا انْثَنَى ... غَضَبًا وَيَهْزَأُ بِالْغَزَالِ إِذَا رَنَا
مَلِكٌ مَحَاسِنُهُ الْبَدِيعَةُ جُنْدُهُ ... وَلَدَى الطِّعَانِ قَوَامُهُ يَحْكِي الْقَنَا
لَوْ أَنَّ رِقَّةَ خَصْرِهِ فِي قَلْبِهِ ... مَا جَارَ قَطُّ عَلَى الْمُحِبِّ وَلَا جَنَى
يَا قَلْبَهُ الْقَاسِي وَرِقَّةَ خَصْرِهِ ... هَلَّا انْتَقَلْتَ إِلَى هنَا مِنْ هَا هُنَا
يَا عَاذِلِي فِي حُبِّهِ كُنْ عَاذِرِي ... فَلَكَ الْبَقَاءُ بِحُسْنِهِ وَلِيَ الْفَنَا

فلما سمع نور الدين حُسْنَ كلامها وبديع نظامها، مالَ إليها من الطرب، ولم يملك عقلَه من شدة العجب، ثم إنه أنشد هذه الأبيات:

لَقَدْ خِلْتُهَا شَمْسَ الضُّحَى فَتُخُيِّلَتْ ... وَلَكِنْ لَهِيبُ الْحَرِّ مِنْهَا بِمُهْجَتِي
وَمَاذَا عَلَيْهَا لَوْ أَشَارَتْ فَسَلَّمَتْ ... عَلَيْنَا بِأَطْرَافِ الْبَنَانِ وَأَوْمَتِ
رَأَى وَجْهَهَا اللَّاحِي فَقَالَ وَتَاهَ فِي ... مَحَاسِنِهَا اللَّاتِي عَنِ الْحُسْنِ أَجْلَتِ
أَهَذِي الَّتِي قَدْ هِمْتَ شَوْقًا بِحُبِّهَا ... فَإِنَّكَ مَعْذُورٌ فَقُلْتُ هِيَ الَّتِي
رَمَتْنِي بِسَهْمِ اللَّحْظِ عَمْدًا وَمَا رَثَتْ ... لِحَالِي وَذُلِّي وَانْكِسَارِي وَغُرْبَتِي
فَأَصْبَحْتُ مَسْلُوبَ الْفُؤَادِ مُتَيَّمًا ... أَنُوحُ وَأَبْكِي طُولَ يَوْمِي وَلَيْلَتِي

فلما فرغ نور الدين من شعره، تعجبَّتِ الصبِيَّة من فصاحته ولطافته، وأخذت عودَها وضربَتْ عليه بأحسن حركاتها، وأعادت جميعَ النغمات، ثم أنشدت هذه الأبيات:

وَحَيَاةِ وَجْهِكَ يَا حَيَاةَ الْأَنْفُسِ ... لَا حِلْتُ عَنْكَ يَئِسْتُ أَمْ لَمْ أَيْأَسِ
فَلَئِنْ جَفَوْتَ فَإِنَّ طَيْفَكَ وَاصِلٌ ... أَوْ غِبْتَ عَنْ عَيْنِي فَذِكْرُكَ مُؤْنِسِي
يَا مُوحِشًا طَرْفِي وَتَعْلَمُ أَنَّنِي ... أَبَدًا بِغَيْرِ هَوَاكَ لَمْ أَسْتَأْنِسِ
خَدَّاكَ مِنْ وَرْدٍ وَرِيقُكَ قَهْوَةٌ ... هَلَّا سَمَحْتَ بِهَا بِهَذَا الْمَجْلِسِ

فعند ذلك طرب نور الدين من إنشاد تلك الصبِيَّة غاية الطرب، وتعجَّبَ منها غاية العجب، ثم أجابَها عن شعرها بهذه الأبيات:

مَا أَسْفَرَتْ عَنْ مُحَيَّا الشَّمْسِ فِي الْغَسَقِ إِلَّا لِتَحْجُبَ بَدْرَ التِّمِّ فِي الْأُفُقِ
وَلَا بَدَتْ لِعُيُونِ الصُّبْحِ طُرَّتُهَا إِلَّا وَعَوَّذْتُ ذَاكَ الْفَرْقَ بِالْفَلَقِ
خُذْ عَنْ مَجَارِي دُمُوعِي فِي تَسَلْسُلِهَا وَارْوِ حَدِيثَ الْهَوَى مِنْ أَقْرَبِ الطُّرُقِ
وَرُبَّ رَامِيَةٍ بِالنَّبْلِ قُلْتُ لَهَا مَهْلًا بِنَبْلِكِ إِنَّ الْقَلْبَ فِي فَرَقِ
إِنْ كَانَ دَمْعِي لِبَحْرِ النِّيلِ نِسْبَتُهُ فَإِنْ وُدَّكِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْمَلَقِ
قَالَتْ: فَهَاتِ جَمِيعَ الْمَالِ قُلْتُ: خُذِي قَالَتْ: وَنَوْمَكَ أَيْضًا قُلْتُ: مِنْ حَدَقِي

فلما سمعَتِ الصبِيَّةُ كلامَ نور الدين وحُسْنَ فصاحته، طار قلبُها واندهش لبُّها، وقد احتوى على مجامع قلبها، فضمَّتْه إلى صدرها وصارت تقبِّله تقبيلًا كزق الحمام، وكذلك الآخَر قابَلَها بتقبيلٍ متلاحِق، ولكنَّ الفضل للسابق. وبعد أن فرغَتْ من التقبيل، أخذت العود وأنشدت هذه الأبيات:

وَيْلَاهُ وَيْلِي مِنْ مَلَامَةِ عَاذِلِي أَشْكُوهُ أَمْ أَشْكُو إِلَيْهِ تَمَلْمُلِي
يَا هَاجِرِي مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّنِي أَلْقَى الْإِهَانَةَ فِي هَوَاكَ وَأَنْتَ لِي
عَنَّفْتُ أَرْبَابَ الصَّبَابَةِ بِالْجَوَى وَأَبَحْتُ فِيكَ لِعَاذِلِيكَ تَذَلُّلِي
بِالْأَمْسِ كُنْتُ أَلُومُ أَرْبَابَ الْهَوَى وَالْيَوْمَ أَعْذُرُ كُلَّ صَبٍّ مُبْتَلِ
وَإِنِ اعْتَرَتْنِي مِنْ فِرَاقِكَ شِدَّةٌ أَصْبَحْتُ أَدْعُو اللهَ بِاسْمِكَ يَا عَلِي

فلما فرغت تلك الصَّبِيَّة من شِعْرها، أنشدت أيضًا هذين البيتين:

قَدْ قَالَتِ الْعُشَّاقُ إِنْ لَمْ يَسْقِنَا مِنْ رِيقِهِ وَرَحِيقِ فِيهِ السَّلْسَلِ
نَدْعُ إِلَهَ الْعَالَمِينَ يُجِيبُنَا وَيَقُولُ فِيهِ الْكُلُّ مِنَّا يَا عَلِي

فلما سمع نور الدين من تلك الصبِيَّةِ هذا الكلام، والشعر والنظام، تعجَّبَ من فصاحة لسانها، وشكرها على ظرافة افتنانها. فلما سمعت الصبيةُ ثناءَ نور الدين عليها قامَتْ من وقتها وساعتها على قدمَيْها، وخلعَتْ جميعَ ما كان عليها من ثياب ومَصاغ، وتجرَّدَتْ من ذلك كله، ثم جلست على ركبتَيْها وقبَّلَتْه بين عينَيْه، وعلى شامتَيْ خدَّيْه، ووهبت له جميع ذلك. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٦٩

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الصبِيَّةَ وهبَتْ كلَّ ما كان عليها لنور الدين، وقالت له: اعلم يا حبيبَ قلبي أن الهدية على مقدار هاديها. فقبِلَ ذلك منها نور الدين، ثم ردَّه عليها وقبَّلَها في فمها وخدَّيْها وعينَيْها، فلما انقضى ذلك ولم يَدُمْ إلا الحي القيوم، رازق الطاووس والبوم، قام نور الدين من ذلك المجلس ووقف على قدمَيْه، فقالت له الصبِيَّةُ: إلى أين يا سيدي؟ فقال لها: إلى بيت والدي. فحلف عليه أولاد التجار أنه ينام عندهم، فأبَى وركب بغلته، ولم يزل سائرًا حتى وصل إلى بيت والده، فقامت له أمه وقالت له: يا ولدي، ما سبب غيابك إلى هذا الوقت؟ والله إنكَ قد شوَّشْتَ عليَّ وعلى والدك بغيابك عنَّا، وقد اشتغل خاطرنا عليك. ثم إن أمه تقدَّمَتْ إليه لتقبِّله في فمه، فشمَّتْ منه رائحةَ الخمر. فقالت: يا ولدي، كيف بعد الصلاة والعبادة صرْتَ تشرب الخمر، وتعصي مَن له الخلق والأمر؟ فبينما هما في الكلام وإذا بوالده قد أقبَلَ، ثم إن نور الدين ارتَمَى في الفراش ونام، فقال أبوه: ما لنور الدين هكذا؟ قالت له أمه: كأن رأسه أوجَعَه من هواء البستان. فعند ذلك تقدَّمَ له والده ليسأله عن وجعه ويسلِّم عليه، فشمَّ منه رائحةَ الخمر، وكان ذلك التاجر المسمَّى تاج الدين لا يحبُّ مَن يشرب الخمر، فقال له: ويلك يا ولدي، هل بلغ بك السَّفَهُ إلى هذا الحدِّ حتى تشرب الخمر؟ فلما سمع نور الدين كلامَ والده رفع يدَه في سُكْره ولطَمَه بها، فجاءَتِ اللطمةُ بالأمر المقدَّر على عين والده اليمنى، فسالت على خدِّه فوقع على الأرض مغشيًّا عليه، واستمرَّ في غشيته ساعةً فرَشُّوا عليه ماءَ الورد، فلما أفاقَ من غشيته أراد أن يضربه فمنعته أمه، فحلف بالطلاق من أمه أنه إذا أصبَحَ الصباح لا بد من قطع يده اليمنى. فلما سمعَتْ أمه كلامَ والده ضاقَ صدرها وخافت على ولدها، ولم تزل تداري والده وتأخذ بخاطره إلى أن غلب عليه النوم، فصبرت إلى أن طلع القمر وأتَتْ إلى ولدها وقد زال عنه السُّكْر، فقالت له: يا نور الدين، ما هذا الفعل القبيح

الذي فعلْتَه مع والدك؟ فقال لها: وما الذي فعلتُه مع والدي؟ فقالت: إنك لطمْتَه بيدكَ على عينه اليمنى، فسالت على خدِّه، وقد حلف بالطلاق إنه إذا أصبح الصباح، فلا بد أن يقطع يدك اليمنى. فندم نور الدين على ما وقع منه حيث لا ينفعه الندم، فقالت له أمه: يا ولدي، إن هذا الندم لا ينفعك، وإنما ينبغي لك أن تقوم في هذا الوقت وتهرب وتطلب النجاة لنفسك، وتختفي عند خروجك حتى تصل إلى أحدٍ من أصحابك، وانتظِرْ ما يفعل الله، فإنه يغيِّر حالًا بعد حال.

ثم إن أمه فتحَتْ صندوقَ المال وأخرجَتْ منه كيسًا فيه مائة دينار، وقالت له: يا ولدي، خُذْ هذه الدنانير واستعِنْ بها على مصالح حالك، فإذا فرغَتْ منك يا ولدي فأرسِلْ أعلمني حتى أُرسِلَ إليك غيرها، وإذا راسَلْتَني فأرسِلْ إليَّ أخبارك سرًّا، ولعل الله أن يقدِّر لك فرَجًا وتعود إلى منزلك. ثم إنها ودَّعته وبكَتْ بكاءً شديدًا ما عليه من مزيد، فعند ذلك أخذ نور الدين كيسَ الدنانير من أمه، وأراد أن يخرج، فرأى كيسًا كبيرًا قد نسيته أمه بجنب الصندوق فيه ألف دينار، فأخذه نور الدين، ثم ربط الاثنين على وسطه وخرج من الزقاق، وتوجَّهَ إلى جهة بولاق قبل الفجر.

فلما أصبح الصباح، وقامت الخلائق توحِّد الملك الفتَّاح، وخرج كل واحد منهم إلى مقصده ليحصل ما قسم الله له، كان نور الدين وصل إلى بولاق، فصار يمشي على ساحل البحر، فرأى مركبًا سقالتها ممدودة، والناس تطلع فيها وتنزل منها، ومراسيها ربع مدقوقة في البر، ورأى البحرية واقفين، فقال لهم نور الدين: إلى أين أنتم مسافرون؟ فقالوا له: إلى مدينة إسكندرية. فقال لهم نور الدين: خذوني معكم. فقالوا له: أهلًا وسهلًا ومرحبًا بك يا شاب يا مليح. فعند ذلك نهض نور الدين من وقته وساعته، ومضى إلى السوق واشترى ما يحتاج إليه من زوَّادة وفرش وغطاء، ثم رجع إلى المركب، وكانت تلك المركب تجهَّزَتْ للسفر، فلما نزل نور الدين في المركب لم تمكث إلا قليلًا وسارت من وقتها وساعتها، ولم تَزَلْ تلك المركب سائرةً حتى وصلَتْ إلى مدينة رشيد، فلما وصلوا إلى هناك رأى نور الدين زورقًا صغيرًا سائرًا إلى إسكندرية، فنزل فيه وعدَّى الخليج، ولم يَزَلْ سائرًا إلى أن وصل إلى قنطرةٍ تُسمَّى قنطرة الجامي، فطلع نور الدين من ذلك الزورق ودخل من بابٍ يقال له باب السدرة، وقد ستر الله عليه فلم ينظره أحدٌ من الواقفين في الباب، فمشى نور الدين حتى دخل مدينة إسكندرية. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧٠

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن نور الدين لما دخل مدينة إسكندرية، رآها مدينة حصينة الأسوار حسنة المنتزهات، تلذ لسكانها وترغب في إيطانها، قد ولَّى عنها فصلُ الشتاء ببرده، وأقبل عليه فصل الربيع بورده، وازدهت أزهارها وأَوْرَقَتْ أشجارها، وأينعَتْ أثمارها وتدفَّقَتْ أنهارها، وهي مدينة مليحة الهندسة والقياس، وأهلها أجناد من خيار الناس، إذا غلقت أبوابها أمنت أصحابها، وهي كما قيل فيها هذه الأبيات:

قَدْ قُلْتُ يَوْمًا لِخِلٍّ　　لَـهُ مَـقَـالٌ فَـصِـيـحُ
إِسْكَنْدَرِيَّةَ صِفْهَا　　فَقَـالَ: ثَغْرٌ مَلِيحُ
قُلْتُ: وَفِيهَا مَعَاشٌ؟　　فَقَالَ: إِنْ هَبَّ رِيحُ

وقال بعض الشعراء:

إِسْـكَـنْـدَرِيَّـةُ ثَـغْـرٌ　　رُضَـابُـهُ يُـسْـتَـطَـابُ
مَا أَحْسَنَ الْوَصْلَ فِيهَا　　إِنْ لَمْ يُصِبْهَا غُرَابُ

فمشى نور الدين في تلك المدينة، ولم يَزَلْ ماشيًا فيها إلى أن وصل إلى سوق النجارين، ثم إلى سوق الصرَّافين، ثم إلى سوق النقلية، ثم إلى سوق الفكهانية، ثم إلى سوق العطَّارين، وهو يتعجَّب من تلك المدينة؛ لأن وصفها قد شاكَلَ اسمها، فبينما هو يمشي في سوق العطَّارين، وإذا برجل كبير السن نزل من دكانه وسلَّمَ عليه، ثم أخذه من يده ومضى به إلى منزله، فرأى نور الدين زقاقًا مليحًا مكنوسًا مرشوشًا، قد هبَّ عليه النسيم وراقَ، وظلَّلَتْه من الأشجار أوراق، وفي ذلك الزقاق ثلاث دور، وفي صدر ذلك الزقاق دار أساسها

راسخ في الماء، وجدرانها شاهقة إلى عنان السماء، قد كنسوا الساحة التي قدَّامها ورشوها، ويشمُّ روائحَ الأزهار قاصِدوها، يقابلها النسيم كأنه من جنات النعيم، فأول ذلك الزقاق مكنوس مرشوش، وآخره بالرخام مفروش، فدخل الشيخ بنور الدين إلى تلك الدار، وقدَّمَ له شيئًا من المأكول وأكل هو وإياه، فلما فرغَا من الأكل قال له الشيخ: متى كان القدوم من مدينة مصر إلى هذه المدينة؟ فقال له: يا والدي، في هذه الليلة. قال له: ما اسمك؟ قال: علي نور الدين. فقال له الشيخ: يا ولدي يا نور الدين، يلزمني الطلاق ثلاثًا إنك ما دمتَ في هذه المدينة لا تفارقني، وأنا أخلي لك موضعًا تسكن فيه. فقال له نور الدين: يا سيدي الشيخ، زدني بك معرفة. فقال له: يا ولدي، اعلم أني دخلتُ مصر في بعض السنين بتجارةٍ، فبعتُها فيها واشتريتُ متجرًا آخَر، فاحتجْتُ إلى ألف دينار، فوزنها عني والدك تاج الدين من غير معرفةٍ له بي، ولم يكتب عليَّ بها منشورًا، وصبر عليَّ بها إلى أن رجعتُ إلى هذه المدينة وأرسلْتُها إليه مع بعض غلماني ومعها هدية، وقد رأيتُكَ وأنت صغير، وإن شاء الله تعالى أجازيك ببعض ما فعل والدك معي.

فلما سمع نور الدين هذا الكلامَ أظهر الفرح والابتسام، وأخرج الكيس الذي فيه الألف دينار، وأعطاه لذلك الشيخ وقال له: خُذْ هذا وديعةً عندك حتى أشتري به شيئًا من البضائع لأتَّجِر فيه. ثم إن نور الدين أقام في مدينة إسكندرية مدة أيام، وهو يتفرج كلَّ يوم في شارع من شوارعها، ويأكل ويشرب ويلتذُّ ويطرب، إلى أن فرغت منه المائة دينار التي كانت معه برسم النفقة، فأتى إلى الشيخ العطار ليأخذ منه شيئًا من الألف دينار وينفقه، فلم يجده في الدكان، فجلس في دكانه ينتظره إلى أن يعود، وصار يتفرج على التجار ويتأمَّل ذات اليمين وذات الشمال، فبينما هو كذلك وإذا بأعجمي قد أقبَلَ على السوق وهو راكب على بغلة، وخلفه جارية كأنها فضة نقية، أو بلطية في فسقية، أو غزالة في برية، بوجْهٍ يُخجِل الشمسَ المضيئة، وعيون بابلية، ونهود عاجية، وأسنان لؤلُئِية، وبطن خماصية، وأعطاف مطوية، وسيقان كأطراف لية، كاملة الحُسْن والجمال، ورشيقة القَدِّ والاعتدال، كما قال فيها بعض واصفيها:

كَأَنَّهَا مِثْلَ مَا تَهْوَاهُ قَدْ خُلِقَتْ ... فِي رَوْنَقِ الْحُسْنِ لَا طُولٌ وَلَا قِصَرُ
الْوَرْدُ مِنْ خَدِّهَا يَحْمَرُّ مِنْ خَجَلٍ ... وَالْغُصْنُ مِنْ قَدِّهَا يَزْهُو بِهِ الثَّمَرُ
الْبَدْرُ طَلْعَتُهَا وَالْمِسْكُ نَكْهَتُهَا ... وَالْغُصْنُ قَامَتُهَا مَا مِثْلُهَا بَشَرُ
كَأَنَّهَا أُفْرِغَتْ مِنْ مَاءِ لُؤْلُؤَةٍ ... فِي كُلِّ جَارِحَةٍ مِنْ حُسْنِهَا قَمَرُ

ثم إن الأعجمي نزل عن بغلته وأنزَلَ الصبِيَّة، وصاح على الدلَّال، فحضر بين يدَيْه فقال له: خُذْ هذه الجارية، ونادِ عليها في السوق. فأخذها الدلَّال ونزل بها إلى وسط السوق وغاب ساعةً، ثم عاد ومعه كرسي من الأبنوس مزركش بالعاج الأبيض، فوضعه الدلَّال على الأرض وأجلس عليه تلك الصبِيَّة، ثم كشف القناع عن وجهها، فبانَ من تحته وجهٌ كأنه ترس ديلمي أو كوكب دري، وهي كأنها البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر، بغاية الجمال الباهر كما قال الشاعر:

قَدْ عَارَضَ الْبَدْرُ جَهْلًا حُسْنَ صُورَتِهَا فَرَاحَ مُنْكَسِفًا وَانْشَقَّ بِالْغَضَبِ
وَسَرْحَةُ الْبَانِ إِنْ قِيسَتْ بِقَامَتِهَا تَبَّتْ يَدًا مَنْ غَدَتْ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ

وما أحسن قول الشاعر:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْمُذْهَبِ مَاذَا فَعَلْتِ بِعَابِدٍ مُتَرَهِّبِ
نُورُ الْخِمَارِ وَنُورُ وَجْهِكَ تَحْتَهُ هَزَمَا بِضَوْئِهِمَا جُيُوشَ الْغَيْهَبِ
وَإِذَا أَتَى طَرْفِي لِيَسْرِقَ نَظْرَةً فِي الْخَدِّ حُرَّاسٌ رَمتْهُ بِكَوْكَبِ

فعند ذلك قال الدلَّال للتجار: كم دفعْتُم في دُرَّة الغوَّاص وفَلِيتة القنَّاص؟ فقال له تاجرٌ من التجار: عليَّ بمائة دينار. وقال آخَر: بمائتين. وقال آخَر: بثلاثمائة. ولم يَزَلِ التجارُ يتزايدون في تلك الجارية إلى أن أوصلوا ثمنها إلى تسعمائة وخمسين دينارًا، وتوقَّفَ البيع على الإيجاب والقبول. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧١

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن التجار صاروا يتزايدون في الجارية إلى أن بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارًا، فعند ذلك أقبَلَ الدلَّال على الأعجمي سيدِها، وقال له: إن جاريتك بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارًا، فهل نبيع ونقبض لك الثمن؟ فقال الأعجمي: هل هي راضية بذلك؟ فإني أحِبُّ مراعاة خاطرها؛ لأني ضعفت في هذه السفرة، وخدَمَتْني هذه الجارية غايةَ الخدمة، فحلفتُ أني لا أبيعها إلا لَمن تشتهي وتريد، وجعلت بيعها بيدها فشاوِرْها، فإن قالت رضيتُ، فبِعْها لَمن أرادته، وإن قالت لا، فلا تبِعْها. فعند ذلك تقدَّمَ الدلَّالُ إليها وقال لها: يا سيدة الملاح، اعلمي أن سيِّدك قد جعل بيعك بيدك، وقد بلغ ثمنك تسعمائة وخمسين دينارًا، أفتأذنين أن أبيعك؟ فقالت الجارية للدلَّال: أَرِني الذي يريد أن يشتريني قبل انعقاد البيع. فعند ذلك جاء الدلَّال بها إلى رجلٍ من التجار، وهو شيخ كبير هَرِم، فنظرت إليه الجارية ساعةً زمانيةً، وبعد ذلك التفتَتْ إلى الدلال وقالت له: يا دلَّال، هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك؟ فقال لها الدلال: لأي شيء يا سيدة الملاح تقولين لي هذا الكلام؟ فقالت له الجارية: أيَحِلُّ لكَ من الله أن تبيع مثلي لهذا الشيخ الهَرِم الذي قال في شأن زوجته هذه الأبيات:

تَقُولُ لِي وَهْيَ غَضْبَى مِنْ تَدَلُّلِهَا ... وَقَدْ دَعَتْنِي إِلَى شَيْءٍ فَمَا كَانَا
إِنْ لَمْ تَنِكْنِي نَيْكَ الْمَرْءِ زَوْجَتَهُ ... فَلَا تَلُمْنِي إِذَا أَصْبَحْتَ قَرْنَانَا
كَأَنَّ أَيْرَكَ شَمْعٌ مِنْ رَخَاوَتِهِ ... فَكُلَّمَا عَرَكْتُهُ رَاحَتِي لَانَا

وقال في أيره أيضًا:

لِيَ أَيْرٌ يَنَامُ لُؤْمًا وَشُؤْمًا ... كُلَّمَا نِلْتُ مِنْ حَبِيبٍ وِصَالَا
وَإِذَا مَا غَدَوْتُ فِي الْبَيْتِ فَرْدًا ... طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالَا

وقال في أيره أيضًا:

وَلِي أَيْرُ سُوءٍ كَثِيرُ الْجَفَا ... يُعَامِلُ بِاللُّؤْمِ مَنْ يُكْرِمُهْ
إِذَا نِمْتُ قَامَ وَإِنْ قُمْتُ نَامَ ... فَلَا رَحِمَ اللهُ مَنْ يَرْحَمُهْ

فلما سمع شيخ التجار من تلك الصبية هذا الهجْوَ القبيح، اغتاظَ غيظًا شديدًا ما عليه من مزيد، وقال للدلال: يا أنحس الدلَّالين، ما جئتَ لنا في السوق إلا بجاريةٍ مشئومةٍ تتجارى عليَّ وتهجوني بين التجار. فعند ذلك أخذها الدلَّال وانصرف عنه وقال لها: يا سيدتي، لا تكوني قليلةَ الأدب، إن هذا الشيخ الذي هجوتِه هو شيخ السوق ومحتسبه، وصاحب مشورة التجار. فضحكَتْ وأنشدَتْ هذين البيتين:

يُصْلِحُ لِلْحُكَّامِ فِي عَصْرِنَا ... وَذَاكَ لِلْحُكَّامِ مِمَّا يَجِبْ
الشَّنْقُ لِلْوَالِي عَلَى بَابِهِ ... وَالضَّرْبُ بِالدِّرَّةِ لِلْمُحْتَسِبْ

ثم إن تلك الجارية قالت للدلال: والله يا سيدي، أنا لا أُباع لهذا الشيخ، فبعني إلى غيره؛ لأنه ربما خجل مني فيبيعني إلى آخَر، فأصير ممتهنةً، ولا ينبغي لي أن أدنس نفسي بالامتهان، وقد علمت أن أمرَ بيعي مفوَّض إليَّ. فقال لها الدلال: سمعًا وطاعة. ثم توجَّهَ بها إلى رجلٍ من التجار الكبار، فلما وصل بها إلى ذلك الرجل قال لها: يا سيدتي، هل أبيعك إلى سيدي شريف الدين هذا بتسعمائة وخمسين دينارًا؟ فنظرَتْ إليه الجاريةُ فرأَتْه شيخًا، ولكن لحيته مصبوغة، فقالت للدلال: هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك حتى تبيعني إلى هذا الشيخ الفاني؟ فهل أنا من كتكت المشاق أو من مهلهل الأخلاق حتى تطوف بي على شيخ بعد شيخ؟ وكلاهما كجدارٍ آيلٍ إلى السقوط، أو عفريت محَقَه النجم بالهبوط؛ أما الأول فإنه ناطقٌ فيه لسانُ الحال بقولِ مَن قال:

طَلَبْتُ قُبْلَتَهَا فِي الثَّغْرِ قَائِلَةً ... لَا وَالَّذِي أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ مِنْ عَدَمِ
مَا كَانَ لِي فِي بَيَاضِ الشَّيْبِ مِنْ أَرَبٍ ... أَفِي الْحَيَاةِ يَكُونُ الْقُطْنُ حَشْوَ فَمِي

وما أحسن قول الشاعر:

قَالُوا بَيَاضَ الشَّعْرِ نُورٌ سَاطِعٌ يَكْسُو الْوُجُوهَ مَهَابَةً وَضِيَاءَ
حَتَّى بَدَا وَخْطُ الْمَشِيبِ بِمَفْرَقِي فَوَدَدْتُ أَنْ لَا أُعْدَمَ الظَّلْمَاءَ
لَوْ أَنَّ لِحْيَةَ مَنْ يَشِيبُ صَحِيفَةٌ بِمَعَادِهِ مَا اخْتَارَهَا بَيْضَاءَ

وأحسن منه قول الآخر:

ضَيْفٌ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرُ مُحْتَشِمِ السَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلًا مِنْهُ بِاللِّمَمِ
أَبْعِدْ بَعُدْتَ بَيَاضًا لَا بَيَاضَ لَهُ لَأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ

وأما الآخَر فإنه ذو عيب وريب، ومسود وجه الشيب، قد أتى في خضاب شيبه بأقبح مين، وأنشد لسان حاله هذين البيتين:

قَالَتْ أَرَاكَ خَضَبْتَ الشَّيْبَ قُلْتُ لَهَا كَتَمْتُهُ عَنْكِ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي
فَقَهْقَهَتْ ثُمَّ قَالَتْ إِنَّ ذَا عَجَبٌ تَكَاثَرَ الْغِشُّ حَتَّى صَارَ فِي الشَّعَرِ

وما أحسن قول الشاعر:

يَا مَنْ يُخَضِّبُ بِالسَّوَادِ مَشِيبَهُ كَيْ يَسْتَقِرَّ لَهُ الشَّبَابُ وَيَحْصُلُ
هَا فَاخْتَضِبْ بِسَوَادِ حَظِّي مَرَّةً وَلَكَ الضَّمَانُ بِأَنَّهُ لَا يَنْصُلُ

فلما سمع الشيخ الذي صبغ لحيته من تلك الجارية هذا الكلام، اغتاظ غيظًا شديدًا ما عليه من مزيد، وقال للدلال: يا أنحس الدلالين، ما جئتَ في هذا اليوم سوقنا إلا بجارية سفيهة تسفه على كلِّ مَن في السوق واحدًا بعد واحد، وتهجوهم بالأشعار والكلام الفشار. ثم إن ذلك التاجر نزل من دكانه وضرب الدلَّال على وجهه، فأخذها الدلال ورجع بها وهو غضبان وقال: والله إني ما رأيتُ عمري جاريةً أقل حياءً منك، وقد قطعتِ رزقي ورزقك في هذا النهار، وقد بغضني من أجلك جميعُ التجار. فرآهما في الطريق رجل من التجار، فزاد في ثمنها عشرة دنانير، وكان اسم ذلك التاجر شهاب الدين، فاستأذن الدلَّالُ الجاريةَ في البيع، فقالت: أَرِني إياه حتى أنظر إليه، وأسأله عن حاجة، فإن كانت تلك الحاجة في

بيته فأنا أُباع له، وإلا فَلَا. فخلاها الدلال واقفة، ثم تقدَّمَ إليه وقال له: يا سيدي شهاب الدين، اعلم أن هذه الجارية قالت لي إنها تسألك عن حاجةٍ، فإن كانت عندك فإنها تُباع لك، وها أنت قد سمعتَ ما قالته لأصحابك من التجار. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧٢

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الدلَّال قال للتاجر: إنك سمعتَ ما قالته هذه الجارية لأصحابك التجار، وأنا والله خائف أن أجيء بها إليك، فتعمل معك مثل ما عملَتْ مع جيرانك، وأبقى أنا معك مفضوحًا، فإن أذنْتَ لي في المجيء بها أجيء بها إليك. فقال: ائتني بها. فقال الدلال: سمعًا وطاعة. ثم ذهب الدلال وأتى بالجارية إليه، فنظرته الجارية وقالت له: يا سيدي شهاب الدين، هل في بيتك مدورات مَحْشوَّة بقطاعة فَرْو السنجاب؟ فقال لها: نعم يا سيدة الملاح، عندي في البيت عشرة مدورات مَحْشوَّة بقطاعة فرو السنجاب، فبالله عليك، ما تصنعين بهذه المدورات؟ فقالت: أصبر عليك حتى ترقد، وأجعلها على فمك وأنفك حتى تموت. ثم إنها التفتَتْ إلى الدلال وقالت له: يا أخس الدلالين، كأنك مجنون حتى تعرضني من منذ ساعة على اثنين من الشيوخ، في كل واحد منهما عيبان، وبعد ذلك تعرضني على سيدي شهاب الدين، وفيه ثلاثة عيوب؛ الأول أنه قصير، والثاني أن أنفه كبير، والثالث أن لحيته طويلة، وقد قال فيه بعض الشعراء:

مَا رَأَيْنَا وَلَا سَمِعْنَا بِشَخْصٍ مِثْلَ هَذَا بَيْنَ الْخَلَائِقِ أَجْمَعْ
فَـلَـهُ لِـحْـيَـةٌ ذِرَاعٌ وَأَنْـفٌ طُولُ شِبْرٍ وَقَامَةٌ طُولُ أُصْبُعْ

وقال بعضهم أيضًا:

مَنَارَةُ الْجَامِعِ فِي وَجْهِهِ كَرِقَّةِ الْخِنْصَرِ فِي الْخَاتَمِ
لَوْ دَخَلَ الْعَالَمُ فِي أَنْفِهِ أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا بِلَا عَالَمِ

فلما سمع التاجر شهاب الدين من الجارية ذلك الكلام، نزل من الدكَّان وأخذ بطوق الدلال وقال له: يا أنحس الدلالين، كيف تأتي إلينا بجارية توبِّخنا وتهجونا واحدًا بعد واحد بالأشعار والكلام الفشار؟ فعند ذلك أخذها الدلال وذهب من بين يديه وقال لها: والله طول عمري وأنا في هذه الصناعة، ما رأيت جاريةً أقلَّ أدبًا منك، ولا أنحس عليَّ من نجمك؛ لأنك قطعتِ رزقي في هذا اليوم، ولا ربحتُ منك إلا الصَّفْع على القفا والأخذ بالطوق. ثم إن الدلال وقف بتلك الجارية أيضًا على تاجرٍ صاحبِ عبيدٍ وغلمان، وقال لها: أَتُباعِين لهذا التاجر سيدي علاء الدين؟ فنظرته فوجدته أحدب، فقالت: إن هذا أحدب، وقد قال فيه الشاعر:

قَصُرَتْ مَنَاكِبُهُ وَطَالَ فِقَارُهُ فَحَكَاهُ شَيْطَانٌ يُصَادِفُ كَوْكَبَا
وَكَــأَنَّــهُ قَــدْ ذَاقَ أَوَّلَ دِرَّةٍ وَأَحَسَّ ثَانِيَةً فَصَارَ مُعَجَّبَا

وقال فيه بعض الشعراء أيضًا:

لَمَّا ارْتَقَى أَحَدُكُمْ بَغْلَةً صَارَ بِهَا بَيْنَ الْوَرَى مُثْلَةْ
أَمَالَهُ الضِّحْكُ فَلَا تَعْجَبُوا إِنْ جَفَلَتْ مِنْ تَحْتِهِ الْبَغْلَةْ

وكما قال فيه بعض الشعراء:

وَلَرُبَّ أَحْدَبَ زَادَ فِي حَدَبَاتِهِ قُبْحًا فَقَاطِبَةُ الْعُيُونِ تَمُجُّهُ
فَكَأَنَّهُ غُصْنٌ تَقَلَّصَ يَابِسٌ وَلَوَاهُ مِنْ طُولِ الْمَدَى أَتْرُجُّهُ

فعند ذلك أسرع الدلال إليها وأخذها وأتى بها إلى تاجر آخَر وقال لها: أَتُباعِين لهذا؟ فنظرت إليه فوجدته أعمش، فقالت: إن هذا أعمش، كيف تبيعني له، وقد قال فيه بعض الشعراء:

رَمَــدٌ بِــهِ أَمْـرَاضُــهُ هَدَّتْ قُوَى لِـحْـيَـتِهْ
يَا قَوْمُ قُومُوا فَانْظُرُوا هَذَا الْقَذَى فِي عَيْنِهْ

فعند ذلك أخذها الدلال وأتى بها إلى تاجر آخَر وقال لها: أَتُبَاعِين لهذا؟ فنظرت إليه فرأت لحيته كبيرة. فقالت للدلال: ويلك، إن هذا الرجل كبش، ولكن طلع ذيله في حلقه،

كيف تبيعني له يا أنحس الدلالين؟ أَمَا سمعت أن كلَّ طويل الذقن قليل العقل، وعلى قدر طول اللحية يكون نقصان العقل، وهذا الأمر مشهور بين العقلاء، كما قال بعض الشعراء:

مَا رَجُلٌ طَالَتْ لَهُ لِحْيَةٌ فَزَادَتِ اللِّحْيَةُ فِي هَيْبَتِهْ
إِلَّا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ عَقْلِهِ يَكُونُ طُولًا زَادَ فِي لِحْيَتِهْ

وكما قال فيه بعض الشعراء أيضًا:

لَنَا صَدِيقٌ لَهُ لِحْيَةٌ طُوَّلَهَا اللهُ بِلَا فَائِدَةْ
كَأَنَّهَا بَعْضُ لَيَالِي الشِّتَاءِ طَوِيلَةٌ مُظْلِمَةٌ بَارِدَةْ

فعند ذلك أخذها الدلال ورجع، فقالت له: أين تتوجَّه بي؟ فقال لها: إلى سيدك الأعجمي، وكفانا ما جرى لنا بسببك في هذا النهار، وقد تسبَّبتِ في منع رزقي ورزقه بقلة أدبك. ثم إن الجارية نظرت في السوق والتفتَتْ يمينًا وشمالًا، وخلفًا وأمامًا، فوقع نظرها بالأمر المقدَّر على نور الدين علي المصري، فرأته شابًّا مليحًا نقيَّ الخد، رشيقَّ القَد، وهو ابن أربع عشرة سنة، بديع الحُسْن والجمال، والظرف والدلال، كأنه البدر إذا بدا في ليلة أربعة عشر، بجبين أزهر، وخدٍّ أحمر، وعنق كالمرمر، وأسنان كالجوهر، وريق أحلى من السكر، كما قال فيه بعض واصفيه:

بَدَتْ لِتُحَاكِيَ حُسْنَهُ وَجَمَالَهُ بُدُورٌ وَغِزْلَانٌ فَقُلْتُ لَهَا قِفِي
رُوَيْدَكِ يَا غِزْلَانُ لَا تَتَشَبَّهِي بِهَذَا وَيَا أَقْمَارُ لَا تَتَكَلَّفِي

وما أحسن قول بعض الشعراء:

وَمُهَفْهَفٍ مِنْ شَعْرِهِ وَجَبِينِهِ تَغْدُو الْوَرَى فِي ظُلْمَةٍ وَضِيَاءِ
لَا تُنْكِرُوا الْخَالَ الَّذِي فِي خَدِّهِ كُلُّ الشَّقِيقِ بِنُقْطَةٍ سَوْدَاءِ

فلما نظرت تلك الجارية إلى نور الدين حال بينها وبين عقلها، ووقع في خاطرها موقعًا عظيمًا، وتعلَّقَ قلبها بمحبته. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.

فلما كانت الليلة ٨٧٣

قالت: بلغني أيها الملك السعيد، أن الجارية لما رأَتْ عليًّا نور الدين تعلَّقَ قلبُها بمحبته، فالتفتَتْ إلى الدلَّال وقالت له: هل هذا الشاب التاجر الذي هو جالس بين التجار وعليه الفرجية الجوخ العودي، ما زاد في ثمني شيئًا؟ فقال لها الدلَّال: يا سيدة الملاح، إن هذا شاب غريب مصري، ووالده من أكابر التجار بمصر، وله الفضل على جميع تجارها وأكابرها، وله مدة يسيرة في هذه المدينة، وهو مقيم عند رجل من أصحاب أبيه، ولم يتكلَّم فيك بزيادة ولا نقصان. فلما سمعَت الجارية كلامَ الدلَّال، نزعت من إصبعها خاتمَ ياقوت مثمنًا، وقالت للدلَّال: وصلني عند هذا الشاب المليح، فإن اشتراني كان هذا الخاتم لك في نظير تعبك في هذا اليوم معنا. ففرح الدلال وتوجَّهَ بها إلى نور الدين، فلما صارت عنده تأمَّلَتْه فرأته كأنه بدر التمام؛ لأنه ظريف الجمال، رشيق القَدِّ والاعتدال، كما قال فيه بعض واصفيه:

صَفَا فِي وَجْهِهِ مَاءُ الْجَمَالِ وَمِنْ أَلْحَاظِهِ رَمْيُ النِّبَالِ
وَيُشْرِقُ كُلُّ صَبٍّ إِنْ سَقَاهُ بِمُرِّ صُدُودِهِ مِنْ وَصْلِ حَالِ
فَغُرَّتُهُ وَقَامَتُهُ وَعِشْقِي كَمَالٌ فِي كَمَالٍ فِي كَمَالِ
وَإِنَّ غَلَائِلَ الْأَثْوَابِ مِنْهُ مُزَرَّرَةٌ عَلَى طَوْقِ الْهِلَالِ
وَمُقْلَتُهُ وَخَالَاهُ وَدَمْعِي لَيَالٍ فِي لَيَالٍ فِي لَيَالِ
وَحَاجِبُهُ وَطَلْعَتُهُ وَجِسْمِي هِلَالٌ فِي هِلَالٍ فِي هِلَالِ
وَطَافَتْ مُقْلَتَاهُ بِكَأْسِ خَمْرٍ عَلَى الْعُشَّاقِ إِنْ مَرَّ حِيَالِي
وَأَرْشَفَنِي عَلَى ظَمَأٍ زُلَالًا بِبَاسِمِ ثَغْرِهِ يَوْمَ الْوِصَالِ
فَقَتْلِي عِنْدَهُ وَدَمِي لَدَيْهِ حَلَالٌ فِي حَلَالٍ فِي حَلَالِ

ثم إن الجارية نظرَتْ إلى نور الدين وقالت له: يا سيدي، بالله عليك أَمَا أنا مليحة؟ فقال لها: يا سيدة الملاح، وهل في الدنيا أحسنُ منك؟! فقالت له الجارية: ولأي شيءٍ رأيت التجارَ كلَّهم زادوا في ثمني، وأنت ساكت ما تكلَّمْتَ بشيءٍ، ولا زدتَ في ثمني دينارًا واحدًا، كأنني ما عجبتك يا سيدي؟ فقال لها: يا سيدتي، لو كنتُ في بلدي كنتُ أشتريك بجميع ما تملكه يدي من المال. فقالت له: يا سيدي، أنا ما قلتُ لك اشتَرِني على غير مرادك، ولكن لو زدتَ في ثمني شيئًا لَجبرتَ بخاطري، ولو كنتَ لا تشتريني لأجل أن تقول التجار لولا أن هذه الجارية مليحة ما زاد فيها هذا التاجر المصري؛ لأن أهل مصر لهم خبرة بالجواري. فعند ذلك استحى نور الدين من كلام الجارية الذي ذكرته، واحمرَّ وجهه وقال للدلَّال: كَمْ بلغ ثمن هذه الجارية؟ قال: بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارًا غير الدِّلَالة، وأما قانون السلطان فإنه على البائع. فقال نور الدين للدلَّال: خلِّها عليَّ بالألف دينار دِلَالَةً وثمنًا. فبادرَتِ الجارية وتركت الدلَّال وقالت: بِعْتُ نفسي لهذا الشاب المليح بألف دينار. فسكَتَ نور الدين، فقال واحد: بعناه. وقال آخَر: يستأهل. وقال آخَر: ملعون ابن ملعون مَن يزود ولا يشتري. وقال آخَر: والله إنهما يصلحان لبعضهما. فلم يشعر نور الدين إلا والدلَّال أحضر القضاة والشهود، وكتبوا عقدَ البيع والشراء في ورقةٍ وناوَلَها لنور الدين، وقال: تسلَّمْ جاريتك، الله يجعلها مبارَكةً عليك، فهي ما تصلح إلا لك، ولا تصلح أنت إلا لها. وأنشد الدلَّال هذين البيتين:

أَتَتْهُ السَّعَادَةُ مُنْقَادَةً إِلَيْهِ تُجَرْجِرُ أَذْيَالَهَا
فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا

فعند ذلك استحى نور الدين من التجار، وقام من وقته وساعته ووزن الألف دينار التي كان وضعها وديعةً عند العطار صاحب أبيه، وأخذ الجارية وأتى بها إلى البيت الذي أسكنه فيه العطار، فلما دخلت الجارية البيت رأَتْ فيه خلق بساط ونطعًا عتيقًا، فقالت له: يا سيدي، هل أنا ما لي منزلة عندك، ولا أستحق أن توصلني إلى بيتك الأصلي الذي فيه مصالحك؟ ولأي شيء ما دخلت بي عند أبيك؟ فقال لها نور الدين: والله يا سيدة الملاح، إن هذا بيتي الذي أنا فيه، ولكنه ملك لشيخ عطار من أهل هذه المدينة، وقد أخلاه لي وأسكنني فيه، وقد قلتُ لك إنني غريب، وإنني من أولاد مدينة مصر. فقالت له الجارية: يا سيدي، أقل البيوت يكفي إلى أن نرجع إلى بلدك، ولكن يا سيدي بالله عليك أن تقوم وتأتي لنا بشيء من اللحم المشوي والمُدَام والنُّقْل والفاكهة. فقال لها نور الدين: والله

فلما كانت الليلة ٨٧٣

يا سيدة الملاح، ما كان عندي من المال غير الألف دينار الذي وزنته في ثمنك، ولا أملك غير تلك الدنانير شيئًا من المال، وكان معي بعض دراهم صرفتها بالأمس. فقالت له: أَمَا لك في هذه المدينة صديقٌ تقترض منه خمسين درهمًا وتأتيني بها حتى أقول لك أي شيء تفعل بها؟ فقال لها: ما لي صديق سوى العطار. ثم ذهب من وقته وتوجَّهَ إلى العطار وقال له: السلام عليك يا عم. فردَّ عليه السلام وقال: يا ولدي، أي شيء اشتريت بالألف دينار في هذا اليوم؟ فقال له: اشتريتُ بها جارية. فقال له: يا ولدي، هل أنت مجنون حتى تشتري جارية واحدة بألف دينار؟ يا ليت شعري، ما جنسُ هذه الجارية؟ فقال نور الدين: يا عم، إنها جارية من أولاد الإفرنج. وأدرك شهرزاد الصباح، فسكتَتْ عن الكلام المباح.




هنداوي